المشرق

السنة الثالثة والاربعون

آب – كانون الاول ١٩٤٩

معجم المراكب والسفن

في الاسلام

بقلم حبيب زيّات

للملاحة في الاسلام تاريخٌ لم يُدوَّن بعد . وقد اقتُصِر من شرح صناعتها على رواية بعض اخبار دورها في مصر والشام ، وقلّما أُشيِر فيها إلى شيء من تفسير بناء السفن والمراكب. واوحد ما حُفظ منها في ما عدا ما جاء احياناً في كتب اللغة والرِحَل وبعض اقوال المؤرخين والكتاب وصف زورق مصوَّرٍ في « كتاب الحِيَل الجامع بين العلم والعمل » لابي العز بن اسمعيل بن الرزاز الجزري من نفائس مخطوطات الخزانة التيمورية وكان لهذه المراكب والسفن اسماء ونعوت لا نظن ان احداً

نشط لجمعها خدمة للغة والعلم وتنويهاً بفضائل الحضارة العربية ولاجل ذلك عنّ لنا انثناء تطوافنـا على دور الكتب في الشرق والغرب وتنقيبنا عن نوادر مخطوطاتها ومطبوعاتها ان نقيد كل ما مر بنا من اسماء منشآت الملاحة وانواعها ولا سيما التي اغفلتها المعاجم حرصاً على ما في هذه القيود الطريفة من الفائدة والشأن في تأريخ الملاحة والصناعة والتجارة وقد عُنينا بالتنبيه على مأخذ كل منها وموضعه ونقل العبارة التي وردت فيه لتكون مستنداً يُرجع اليه في ضبطها وتفسيرها ولا نشك انه كان لها ايضاً نظائر اغفلهـا المؤرخون او شذّت عنا وهيهات ان نكون أحطنا بجميعها وانما وُفّقنا الى استخراج ما اشتهر منها بعد طويل البحث والمطالعة في ما تناولته يدنا من المخطوطات والمطبوعات وهي على نقصها شاهدة على فضل الملاحة في الحضارة الشرقية وقد رتبنا ما حصّلناه على حروف المعجم تسهيلًا لمراجعتها والزيادة عليها ولا يخفى ما في هذا الجمع والترتيب من خدمة اللغة لا سيما وقد اغفلت كتب المولد والدخيل كثيراً من هذه الالفاظ المحدثة .

الاسطول

« اسطول السفن التي يسافر فيها للقتال وقع في اشعار العرب بعد العصر الاول »[1] قال المقريزي في كلامه على السفن : « هي بمصر على قسمين : نيليّة وحربية فالحربية هي التي تُنشأ لغزو العـدو وتشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة فتسر من ثغر الاسكندرية وثغر دمياط وتنيس والفرما الى جهاد اعداء الله من الروم والفرنج وكانت هـذه المراكب يقال لها الاسطول ولا احسب هذا اللفظ عربياً »[2] وهو تعريب [illegible] في الرومية واكثر ما يراد به مجموع السفن وقد ورد بمعنى السفينة الواحدة في تاريخ ابن خلدون وفي تذكرة النبيه لابن حبيب من مخطوطات خزانة بريتيش موزيوم .

---

١) شفاء الغليل للخفاجي ٣٨

٢) الخطط المقريزي ، طبعة بولاق ، ٢ : ١٨٩

بارجة بوارج

قال ابن سيده في المخصص : « البارجة سفينة من سفن البحر للقتال (١٠ : ٢٦) ومثل ذلك في كتب اللغة[١] وذكرها غير مرة البلاذري في هذا المعنى قال في كلامه على فتوح السند : « لما مات الفضل بن ماهان قام محمد بن الفضل بن ماهان مقامه فسار في سبعين بارجة »[٢] وقال الطبري في اخبار سنة ٢٥٠/٨٦٤ « ولخمس بقين من صفر دخل من البصرة عشر سفائن بحرية تسمى البوارج في كل سفينة اشتيام وثلثة نفاطون ونجار وخباز وتسعة وثلاثون رجلا من الجذافين والمقاتلة فذلك في كل سفينة خمسة واربعون رجلا »[٣] والاشتيام هو رأس الملاحين[٤] وفي لسان العرب « رئيس الركاب » (١٥ : ٢١١) وورد في شعر للبحتري

بالوع

جاء هذا الاسم في جملة الوان المراكب والسفن التي ذكر الازدي الحاجة الى معرفتها في بغداد[٥]

براكية

ضرب من السفن[٦] ونقله البشاري المقدسي بلفظ بركة[٧]

برشة

قال ابن اياس : « في يوم الثلثا ثامن عشر ذي القعدة (سنة ٩٢٦/١٥٢٠) توجهت العساكر الى بيروت واقتتلوا مع الفرنج ... وقيل اسروا جماعة من اولاد ملوك الفرنج وملكوا ثلاث برشات من كبار مراكبهم »[٨]

١) قوانين الدواوين طبعة القاهرة ، ١٩٤٣ ، ص ٣٤٠
٢) فتوح البلدان ، طبعة اوربة ، ٤٤٦
٣) تاريخ الرسل والملوك ، طبعة اوربة ، T. S. III ٧٥٨٣
٤) المعرب للجواليقي ، طبعة القاهرة ، ١٣٦١ ، ص ١٨٣
٥) حكاية ابي القاسم البغدادي ١٠٧
٦) لسان العرب ١٢ : ٢٧٨
٧) احسن التقاسيم ٣٢
٨) تاريخ مصر ٣ : ٢٢٣

برغاني

ذكره البشاري المقدسي في جملة اسماء المراكب التي عددها في كتابه احسن التقاسيم (ص ٣٢).

بركة

روى الاصطخري بتاريخ سنة ٣٢٤/٩٣٥ ان تاجرًا من عمان احترق له اربعمائة بركة قال والبركة زورق معروف عندهم يسع كل بركة خمسون وقرا[١] وهي في اللاتينية barca ومنها الفرنسية barque

بركوس

والجمع براكيس قال العماد الاصبهاني: «عاد المستأمنون من الفرنج ... وذكروا انهم وقعوا بجراقة كبيرة ومعها براكيس»[٢] وقال ابن شداد: «استأمن من الفرنج خلق عظيم اخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكيس وبطس الى العدو فاذن لهم في ذلك واعطاهم بركوساً وهو المركب الصغير»[٣] وربما قالوا بركوش بالشين «وهو مركب لطيف لنقل الماء لخفته يدخل على المواقع ويكون وسقه مائة اردب»[٤]

برمة

جاءت في احسن التقاسيم (٣٢) وفي حكاية ابي القاسم البغدادي قال: «تحتاج ان تعرف الوان المراكب من السفن والسميريات والمراكب العماليات... والبرمات»[٥] وعدها عبد الغني الطرابلسي بين المراكب العشرين التي سماها له الحاج نور الدين الطرابلسي على حافة الميناء في طرابلس سنة ١١١٢/١٧٠٠[٦]

١) مسالك الممالك للاصطخري حاشية d ١٣٩
٢) الفتح القسي ٣١٦–٣١٧
٣) النوادر السلطانية ١٦٠
٤) قوانين الدواوين، طبعة ١٩٤٣، ص ٢٤٠
٥) حكاية ابي القاسم للازدي ١٠٧
٦) خزانة بريتيش موزيوم Add. 22753 Fo 25-26

بريق

معرب بريك باللاتينية وهو مركب بساريتين مبني على هيئة مخصوصة[١] ويقال له في الانكليزية brig وفي الفرنسية brick .

بطسة

قال ابن شداد : « كان الافرنج في ستمائة قطعة ما بين شاني وطرادة وبطسة »[٢] وقال ايضاً : « ركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزي الافرنج » وكتب الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالاقوات والأدُم والمِيَر[٣] وهي بالفرنسية patasse .

مبطّنة

قالوا ضرب من القوارب[٤] .

بغلة .

من اسماء السفن في اليمن[٥]

بليك

من مراكب مصر في القرن الثاني عشر للهجرة ورد ذكره في عجائب الآثار للجبرتي (٢ : ١١٢) وفي النحلة النصرية في الرحلة المصرية لمصطفى البكري الصديقي (مجلة الرسالة ، ١٩٤٨ اكتوبر ، ص ١١٥١) .

بوصي

ضرب من سفن البحر معرب بوزي بالفارسية ولطرفة بن العبد من معلقته :

كسكان بوصيٍ بدجلة مصعِدِ[٦]

---

١) محيط المحيط ١ : ٨٥

٢و٣) النوادر السلطانية ٣٨ و١١٩ و١٢٣

٤) محيط المحيط ١ : ١٠٤

٥) مجلة المجمع العربي ١٦ : ٥٦٨

٦) المعرب للجواليقي ، طبعة القاهرة ١٣٦١ ، ص ٥٤

بوم

والجمع ابوام وهو السفينة الكبيرة وتعرف بهذا الاسم في خليج البصرة ولابي البحر جعفر بن محمد الخطي العبدي المتوفى سنة١٠٢٨/١٦١٩ من قصيدة.

وان سمت مقالي فامض متكلًا على الملك في الابوام بحارا[1]

بيرجة

بين اسماء المراكب في احسن التقاسيم (٣٢) من الهندية بيره ومنها في الفرنسية لفظة barge وهي البارجة.

تَلَوّى

كذا ضبطها ابن سيده في المخصص (١٠ : ٢٥) واقتصر على القول انها ضرب من السفن ووردت كذلك في احسن التقاسيم (٣١).

مثلثة

من اسماء السفن في احسن التقاسيم (٣١).

جاسوس

ورد في حكاية ابي القاسم البغدادي للازدي (ص١٠٧) وفي احسن التقاسيم للبشاري (٣١).

جاكر

قال ابن بطوطة : « ركبنا في (قندهار) في مركب لابرهيم الناخوذة يسمى جاكر بفتح الجيم والكاف المعقودة وكان ركوبي انا في الجاكر وكان فيه خمسون رامياً وخمسون من المقاتلة الحبشة»[2]

جبلية

عدها البشاري المقدسي في جملة اسماء المراكب في احسن التقاسيم (٣٣).

١) مجلة المجمع العربي ٣ : ١٦٦

٢) رحلته، طبعة النيل ٢ : ١٠٤

جدي

من انواع السفن والمراكب التي اوجب الازدي معرفتها في بغداد[١]

جرم وجروم

قال المقريزي في كلامه على ردم فم بحر دمياط سنة ٦٥٩/١٢٦١ «وهو الى اليوم على ذلك لا تقدر مراكب البحر الكبار ان تدخل منه وانما ينقل ما فيها من البضائع في مراكب نيلية تعرف عند اهل دمياط بالجروم واحدها جرم»[٢] وهو الزورق بلغة اهل اليمن وعليه اصطلاح الملاحين في الشام ومصر.

جريبيات

ذكرها الطبري سنة ٢٦٩/٨٨٢ في احصاء المراكب التي فيها الملاحون الراتبة[٣]

جعفرية

وردت مرة في كتاب البخلاء للجاحظ : « قال رمضان كنت مع شيخ اهوازي في جعفرية وكنت في الذنب وكان في الصدر وليس في السفينة غيري وغيره »[٤] وقال في كتاب الحيوان : « ربما رأينا الملاح النبطي في بعض الجعفريات على وجهه شَبَه القرد »[٥] وذكرها ايضاً الازدي في حكاية ابي القاسم (١٠٧)

جَلَبة وجلاب

وصفها ابن جبير احسن وصف في كلامه على بحر جدة فقال :

الجِلاب التي يعرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفّقة الانشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة انما هي مخيطة بامراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه الى ان يتخيط ويفتلون منه امراساً يخيطون بها المراكب ويُخلّلونها بدُسُر من

١) حكاية ابي القاسم ١٠٧
٢) الخطط ١ : ٢٢٤
٣) تاريخ الرسل والملوك ، طبعة اروبة ، ٢٠٧٦ IV
٤) كتاب البخلاء طبعة القاهرة ، سنة ١٩١٨ ، ص ١٢٤
٥) كتاب الحيوان ، طبعة القاهرة ١٣٢٣ ، ٤ : ٢٤

عيدان النخل فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن او بدهن الخروع او بدهن القرش وهو احسنها وهذا القرش حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى فيه ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هـذا البحر ولذلك لا يصرفون فيه المركب المماري وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن وكذلك القنبار المذكور ومن اعجب امر هذه الجلاب ان شُرُعها منسوجة من خوص شجر المقل فمجموعها متناسب في اختلال البنية ودهنها .

وذكر ايضاً ان اهل عيذاب لهم من المرافق من الحاج إكراء الجلاب منهم وهي المراكب فيجتمع لهم من ذلك مال كثير في حملهم الى جدة وردّهم وقت انفضاضهم من اداء الفريضة وما من اهلها من ذوي اليسار الا من له الجلبة والجلبتان فهي تعود عليهم برزق واسع[1]

ومنها أخذت اللفظة الفرنسية Chaloupe والطليانية Scialuppa

جلاسة

في كتاب السلوك للمقريزي بتاريخ سنة ٦١٦/١٢١٩ « حاربوا الفرنج في البر والبحر واخذوا منهم ست شواني وجلاسة وبطسة »[2] وهي مأخوذة من الفرنسية galéasse او الطليانية galeazza

جُنك وجنوك

قال ابن بطوطة : « مراكب الصين ثلاثة اصناف : الكبار منها تسمى الجنوك واحدها جُنك والمتوسطة تسمى الزوّ والصغار يسمى احدها الككم ويكون في المركب منها اثنا عشر قلعاً فما دونها الى ثلاثة وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحُصر لا تحط ابدًا ويديرونها بحسب دوران الريح واذا ارسوا تركوها واقفة في مهب الريح ويخدم في المركب منها الف رجل منهم البحرية ستمائة ومنهم اربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة والجرخية وهم

١) رحلته ٧٠-٧١ و٦٩ والخطط للمقريزي ١ : ٢٠٢

٢) السلوك في تاريخ الدول والملوك ، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٦ ، ١ : ٢٠٢ والخطط ١ : ٢١٨

الذين يرمون بالنفط ويتبع كل مركب منها ثلاثة النصفي والثلثي والربعي ولا تصنع هذه المراكب الا في الصين بمدينة الزيتون من الصين او بصين كلان وهي صين الصين وكيفية انشائها انهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدًا موصلة بالعرض والطول بمسامير ضخام طول المسمار منها ثلاث اذرع فاذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على اعلاها فرش المركب الاسفل ودفعوهما في البحر واتموا عمله وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية للماء يتزلون اليها فيغتسلون ويقضون حاجتهم وعلى جوانب تلك الخشب يكون مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع على احدها العشرة والخمسة عشر رجلًا ويجذفون وقوفاً على اقدامهم ويجعلون للمركب اربعة ظهور ويكون فيه البيوت والمصاري والغُرف للتجار والمصرية يكون فيها البيوت والسنداس وعليها المفتاح يسدها صاحبها ويحمل معه الجواري والنساء وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره من يكون بالمركب حتى يتلاقيا اذا وصلا الى بعض البلاد والبحرية يسكنون فيها اولادهم ويزدرعون الخضر والبقول والزنجبيل في احواض خشب ووكيل المركب كأنه امير كبير واذا نزل الى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب والسيوف والاطبال والابواق والانفار امامه واذا وصل الى المنزل الذي يقيم به ركزوا ارماحهم عن جانبي بابه ولا يزالون كذلك مدة اقامته»[1]

وهذا المركب معروف في الغرب وقد نقل الى الفرنسية بلفظه jonque

جوانحيات

قال ابو الفرج الاصبهاني : لما عقد المتوكل لولاة العهود من ولده ركب بسرَّ من رأى... ثم نزل في الماء فجلس فيه والجيش معه في الجوانحيات وسائر السفن»[2]

ويستدل من هذا الاسم انها كانت من السفن ذوات الجآجئ اي الصدور دعيت كذلك لانحنائها وميلها ولجوانح فيها كالاضلاع مما يلي الظهر

١) رحلته، مطبعة النيل ، ٢ : ١١٢-١١٣

٢) الاغاني ، طبعة بولاق ، ٩ : ٢٢

حديدي

نوع من السفن العراقية سمي كذلك لا شك لدخول الحديد في بنائه قال الطبري : « انقرضت الاتراك وتبعهم اهل بغداد . . . وضربوا زورقاً لهم كان يقال له الحديدي كان آفة على اهل بغداد بالنار »[١]

وفي تكملة الطبري لمحمد بن عبد الملك الهمذاني بتاريخ سنة ٣٢٩ / ٩٤١ « دخل البريدي بغداد وكان معه من الزبازب والطيارات والحديديات والشذاءات ما لا يحصى »[٢]

وفي تجارب الامم لابن مسكويه في حوادث سنة ٣١٩ / ٩٣١ « قعد الوزير وعلى بن عيسى في دار السلطان . . . وعادوا ذكروا انهم لم يصلوا الى مونس وانهم أجلسوا في الحديدي . . . فبينا هم كذلك اذ هجم الجيش على الحديدي فكادوا يغرقونه . . . وخرجوا من عند مونس فقبض عليهم عند مغيب الشمس وحبسهم في الحديدي »[٣] وفي نشوار المحاضرة للتنوخي « كان معه في حديدي لابن الحواري وقد حملهم الى بَلاشكر ليتفرجوا والحديدي يمده الملاحون بالقلوس . . . كانت الريح شمالًا على سطح الحديدي »[٤]

حرّاقة حراقات

ومن انواعها الليث والعقاب والجراد والدلفين والكوثر

وتجمع الحراقة ايضاً على حراريق وهي في الاصل كما يدل عليها لفظها سفن فيها مرامي نيران يُقذف بها العدو ثم أطلقت على سفن المعابر كالشبّارات وكان الكبراء والمترفون يتفننون في بنائهـا واتقانها ويبدعون ما شاؤوا في تزيينها فاخرجوها على صور شتى حاكوا بها خلقة الحيوان والطير وممن غالى بها جدًا محمد الامين « عمل خمس حراقات في دجلة على صورة الاسد والفيل والعقاب والفرس »[٥] وفي ديوان ابي نواس رواية حمزة الاصفهاني انه اتخذ الدلفين

١) تاريخ الرسل والملوك ، طبعة اروبة ، ١٦٢٦ — ١٦٢٧ T. S. III

٢) خزانة باريس ١٦٦٩ ، ص ٧٩

٣) تجارب الامم ٥ : ٢١٠ — ٢١١

٤) نشوار المحاضرة ١ : ٢٠٦

٥) الكامل لابن الاثير ٦ : ٩٦

والغرابية والجرادية والكوثرية[1] وقد ذكر بعضاً منها ابو نواس في شعره الذي مدح به الامين فقال :

ألا ترى ما أعطي الامين	أعطي ما لم تره العيون
ولم تكن تظنه الظنون	الليث والعقاب والدلفين

وقال ايضاً يمدحه :

قد ركب الدلفين بدر الدجى	مقتحماً في الماء قد لججا
لم ترَ عيني مثله مركبا	احسن ان سار وان عرّجا
اذا استحثته مجاذيفه	اعنق فوق الماء او هملجا

وقال ايضاً يصف حراقتي الليث والعقاب :

سخّر الله للامين مطايا	لم تسخّر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سار برّاً	سار في الماء راكباً ليث غاب
اسد باسطٌ ذراعيه يعدو	اهرت الشدق كالح الانياب
لا يعانيه باللجام ولا السو	ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس اذ رأوك على صو	رة ليث يمرّ مر السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه	كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناح	حين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء اذا ما	استعجلوها لجيئة وذهاب »[2]

ويظهر ان بناء مثل هذه الحراقات التي يقصد بها التزين والمباهاة كان يكلف اموالاً طائلة « حدّث علويه قال : قدم المأمون من خراسان وكان يخرج الى الشماسية دائماً يتنزه فركب في زلال وجئت اتبعه فرأيت حراقة علي ابن هشام فقلت للملاح : اطرح زلالي على الحراقة ففعل واستؤذن لي فدخلت وهو يشرب مع الجواري . . . فغنيته . . . فسرّ بذلك وطرب وقال لي : ما اجد لك مكافأة على هذه الهدية الا ان اتحول عن هذه الحراقة بما فيها واسلمها اليك اجمع فتحول الى اخرى وسُلّمت الحراقة بخزانتها وجميع آلاتها الي وكل شيء فيها فبعت ذلك بمائة وخمسين الف درهم »[3]

١) خزانة باريس ٤٨٢٩ ، ص ١٧٦ ١٧٧

٢) ديوانه المذكور ١٧٦-١٧٧

٣) الاغاني ١٠ : ١٣٨

حمّالة

عدّها ابن مماتي في جملة مراكب الاسطول في زمانه[١] وكانت مثل هذه المراكب في ايام المقريزي والقلقشندي تزيد على مائة ومنها عشر حمالات[٢] وهي برسم الازواد ويكون فيها غلمان الخيالة وصناع المراكب .

حمامة حمائم

ذكر المقريزي الحمائم في عداد المراكب الحربية التي اتخذها احمد بن طولون لما علم بقدوم موسى بن بغا لمحاربته[٣] قال البلوي: «اتخذ ابن طولون مائة مركب حربية كبارًا ومائة مركب حربية سوى ما انضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات»[٤]

خُضاري

ورد ذكره في جملة المراكب المعدودة في نهاية الارب[٥] وجاء في كتاب الخطط في جواب رسالة زكي الدين الحسين سنة ٧٦٢ = ١٣٦١ : «كم من سفين قوي امين وخضاري جليل وعشاري طويل»[٦] ولعله سمي كذلك تشبيهاً بالطائر المعروف .

خليج وخُلُج

سفينة صغيرة دون العَدَوْلي[٧] نسبة الى عدولى وهي قرية بالبحرين تعمل فيها السفن .

مخلوف

«كم في مصر من موكب لحسنه معجب . . . ومخلوف في الآفاق بالمعروف معروف»[٦]

١) قوانين الدواوين ٣٤٠
٢) الخطط ٢ : ٢٧٢ وصبح الاعشى ٣ : ٥٢٣
٣) الخطط ٢ : ١٨٠
٤) كتاب سيرة احمد بن طولون ٨٧
٥) نهاية الارب للنويري ٩ : ٣١ – ٣٢
٦) خطط المقريزي ، طبعة بولاق ، ١ : ٣٧٠
٧) اللسان ٢ : ٣٤ والتاج ٣ : ٨٥ و ١٣ : ٤٦٣ – ٤٦٢

خليّة خلايا

الخلية العظيمة من السفن قال الفارسي : هي التي لها زورق يتبعها شبهت بالخلية من الابل وانشد (الطرفة) :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

وقيل الخلية من السفن التي لا يسيّرهــا ملاحها ولكنها تسير من ذات نفسها من غير جذب[1] وورد مثل ذلك في التاج (١٠ : ١١٩) وزاد في اللسان قول الاعشى :

يكبّ الخلية ذات القلاع وقد كاد جوجؤها ينحطمْ (١٨ : ٢٢٥)

الخيطيّة

« المراكب الخيطية التي تعمل بالابلّة ويركب فيها الى الصين »[2] ذكرت في احسن التقاسيم (٣٢) وفي حكاية ابي القاسم البغدادي (١٠٧) وكتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي (طبعة القاهرة ١٩٠٤ ج ٢ :١١٢)

قال ابن الجوزي :« كان لدور الشط ابواب الى شوارعها وعلى كل باب مراكب مُسْرَجة مهيّأة لركوب الشط كما بين ايدي رواشنها خيطية او زبزب لركوب الشط»[3]

وفي كتاب الاذكياء له :« رأيت ملّاحاً مجتازاً في خيطية خفيفة فارغة فسألته ان يحملني»[4]

درمونة

ذكرها المقريزي[5] والنويري[6] وقال ابن اياس[7]:« ابطل السلطان قايتباي المراكب المسماة بالدرمونة وكانت تحمل مغلّ الحرمين الشريفين وكانت غريبة

١) المخصص ١٠ : ٢٦

٢) كتاب البلدان لليعقوبي ١٥٠

٣) مناقب بغداد ٢٧

٤) كتاب الاذكياء ١٣٧

٥) الخطط طبعة بولاق ١ : ٢٧٠

٦) نهاية الارب ٩ : ٣١ – ٣٢

٧) بدائع الزهور ٢ : ٢٠١

الهيئة في شكلها » وكانت تتخذ احياناً لاظهار الزينة والوقيد في بعض المواسم قال ابن تغري بردي بتاريخ سنة ٨٦٧ = ١٤٦٢ – ١٤٦٣ : « أوقفت درمونة الجرم بالبحر وهي اكبر مراكب البحر بساحل بولاق وأشحنت بالوقيد من من صاريها الى اسفلها[1] » .

ولا شك انها مأخوذة من الرومية δρομώδιον وكانت تحمل الاطعمة في ايام الروم كما ذكرها غليوم الصوري في تاريخه (٢ : ٩٦١)

دكاسة

قال ابن الطوير في كلامه على متولي دار الطراز بمصر : « وله عشاري دياس مجرد معه وثلاثة مراكب من الدكاسات ولها رؤساء ونواتية لا يبرحون ونفقاتهم جارية من مال الديوان[2]

دونيج

وردت في احسن التقاسيم (٣٢) وفي كتاب عجائب الهند قال : رموا بانفسهم الى الماء وتعلقوا بالقارب والدونيج (٢٩) وركبوا الدونيج (٣٣) .

ذهبية

قال ابن اياس في كلامه على السلطان الاشرف قايتباي « ابطل المراكب المسماة بالذهبية وكانت من شعار المملكة ولا سيا في وفاء النيل وكانت الملوك تتوجه منها الى المقياس وكان بها ستون مقذفاً »[3] وذهبيات النيل اليوم مشهورة بمصر .

رقية

قال الطبري : « أحصي ما في الشذا والسميريات والرقيات التي كانت تعبر فيها الخيل فكانوا زهاء عشرة الاف ملاح »[4] وذكرها ايضاً صاحب احسن التقاسيم (٣١) .

١) حوادث الدهور في مدى الايام والشهور الفصل الرابع ، ليدن ١٩٣٢ ، ص ٧٦٧
٢) الخطط ٢ : ٣٥٢ مطبعة النيل
٣) تاريخ مصر ٢ : ٢٠١
٤) تاريخ الرسل والملوك ٤ : ٣٧٤

مركب

يطلق على كل قارب او زورق او سفينة وهو كثيرا ما يؤنث غلطاً باقلام الكتبة المصريين مؤرخي المماليك

ركوة

زورق صغير[١] قال ابن العبري : « في سنة ٦٤٨ (١٢٥٠ م) . ملك بدر الدين لؤلؤ جزيرة ابن عمر واسر صاحبها الملك مسعود ... وسيّره في ركوة الى الموصل وتقدم الى من وُكّل به ليرميه ليلة في دجلة[٢]

زبزب

سفينة صغيرة قال الشاعر :

« زبازب تحكي اذا سُيّرت عقاربا تجري على زئبق »[٣]

ويؤخذ من قول المسعودي انها كانت من المراكب التي يقاتل فيها[٤] ثم عم استعمالها فيما بعد للهو والعبور قال الشابشتي في وصف عيد اشموني من اعياد النصارى : « لا يبقى احد من اهل التطرب واللعب الا خرج اليه فمنهم في الطيارات ومنهم في الزبازب والسميريات كل انسان بحسب قدرته[٥]

وروى ياقوت ان علي بن عيسى الربعي « كان يمشي على شاطئ دجلة والرضي والمرتضى العلويان في زبزب ومعهما ابو الفتح عثمان بن جنّي فقال لهما : من اعجب احوال الشريفين ان يكون عثمان جالساً معهما في الزبزب وعلي يمشي على الشط بعيداً منهما[٦]

وفي صبح الاعشى نقلاً عن ابن الاثير انه لما وصلت رسل ملوك الروم الى بغداد سنة ٣٠٥/٩١٧ كان في جملة ما رُتّب لاستقبالهم ان ألقيت المراكب

---

١) المخصص ١٠ : ٢٦

٢) مختصر الدول ٤٥٦

٣) شفاء الغليل للخفاجي ١١٧

٤) مروج الذهب بهامش الكامل ٨ : ٢٥٤

٥) كتاب الديارات ، مخطوط برلين ، الورقة ١٨ – ١٩

٦) ارشاد الاريب ٥ : ٢٨٤

« والدبادب » في دجلة باحسن زينة[١] والدبادب في اللغة هي الطبول فكيف تلقى في الماء وفي الطبع او النسخ تصحيف قبيح والاصل لا شك «والزبازب».

زَبْزَباذِيّة

كذا وردت هذه اللفظة بين اسماء المراكب المطبوعة في احسن التقاسيم(٣٢) ولم نعثر عليها في رواية اخرى فما ندري ما صحتها.

زُبَيدِيّة

قال يوسف بن ابرهيم المعروف بابن الداية : « كانت الزبيديات توافينا فتعبرنا . . . وجمعتنا الزبيدية عند انصرافنا»[٢] وفي كتاب الاغاني : «قال ابراهيم ابن المهدي : «دعوت بغلماني وقلت لهم : اني اريد ان امضي الى موضع ولا يشعر بي احد حتى اصير اليه وكانوا في زبيديات لي يبيتون فيها على باب داري فقمت فركبت في احداها»[٣] ويستفاد من هذين الشاهدين ان الزبيدية كانت من نوع المراكب التي ترتبط على الشط امام الدور ليعبر بها من جانب الى آخر

زَنْبَرِيّة

الزنبرية في صحاح الجوهري : « ضرب من السفن ضخم » (١ : ٣٢٤) ووصف بها ابن سيدة فقال : سفينة زنبرية ضخمة[٤] وفي تاريخ الطبري في الخبر عن مقتل المختار :

« عوّدنا المصعب جرّ القلس والزنبريات الطوال القُعْس »[٥]

وفي عيون الانباء « الزنبريتان وهما السفينتان اللتان في الجسر في الجانب الشرقي[٦] وفي كتاب الامتاع والمؤانسة : « كنت قائماً على زنبرية الجسر في

١) صبح الاعشى ٣ : ٢٧٢
٢) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ١ : ١٧٤
٣) الاغاني بولاق ٥ : ٢٩
٤) المخصص ١٠ : ٣٦
٥) تاريخ الامم والملوك بطبعة الاستقامة ٤ : ٥٦٢
٦) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ١ : ١٧٩

الجانب الشرقي والحاج يدخلون وجمالهم سدّت عرض الجسر ... وكنا نلتقي على زنبرية باب الجسر بالعشايا »[1]

زربونة

من اسماء المراكب والقوارب التي رواها عبد الغني النابلسي عن الحاج نور الدين الطرابلسي سنة ١١١٢ = ١٧٠٠ كما تقدم.

زعيمة

روى الاب انستاس الكرملي في تعليقه على كتاب بلوغ المرام في من تولى اليمن من ملك وامام ان الزعيمة عندهم من اسماء السفن[2]

زلّاج

وردت غلطاً بالدال بدلاً من الزاي في نهاية الارب للنويري وجاء الطابع في تفسيرها (٩ : ٣١ – ٣٢) وفي كتاب تاريخ مصر وولاتها ان السري بن الحكم خرج في زلاج وخرج الجروي (والي تنيس) في مثله ... وقد اعدّ الجروي في باطن زلّاجه الحبال وامر اصحابه بشدّها اذا لاصق بزلاج السري ان يجروا الحبال اليهم فلصق الجروي بزلاج السري فربطه الى زلاجه وجرّ الحبال الرجال فاسروا السري ومضى به الجروي الى تنيس فسجنه بها وذلك في جمادى الاولى سنة تسع وتسعين[3] (ومائة = ٨١٥ م).

وفي كتاب اخبار ابي نواس في الكلام على محمد الامين: «خرج ذات يوم وقد امر الجند والقواد فركبوا ولبس ثيابه وتقلد سيفه وأعدّت الحراقات والزلاجات »[4]

ويظهر ان هذا الزورق كان يتخذ للركوب والنقل وفي كتاب الطابع

---

١) الامتاع والمؤانسة لابي حيان التوحيدي ١ : ٦٢ و ٥١
٢) مجلة المجمع العربي دمشق ١٦ : ٥٦٨
٣) تاريخ مصر وولاتها للكندي ١٥٧
٤) اخبار نواس لابن منظور ١١٦

السعيد : « ملأ القاضي الرضي زلاجاً كبيراً يسع الفي اردب سكراً، وارسل غلمانه فيه ليبيعوه فغرق منهم»[1]

ولا ريب انه سمي كذلك لخفته وسرعة مروره على الماء من قولهم زلج اذا اسرع في مشيه كالزّلال في بغداد من زلّ ورُوي محرفاً في طبعة نهاية الأرب « دلاج » بالدال وعلق عليه الشارح : لم نجد من يعرفه من البحريين واصحاب السفن (٩ : ٣٢).

زلال

« كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين في الزلالات اذا ركبها »[2] قال محمد بن الخليل :« انصرفت يوماً فمررت بشرعة وانا في الزلال »[3] وقال عمر ابن فرج : « انصرفت مع عمرو بن مسعدة يوماً من الشماسية والمأمون بها في زلال »[4] ويظهر ان بناء الزلالات لم يكن مسموحاً لكل احد كما يؤخذ من قول الشابشتي :« اشتهى بعض ولد الرشيد التفرج والتنزه في الماء. فاراد ان يبني زلالاً يجلس فيه فمنعه اسحق (ابن اخي طاهر بن الحسين) وقال : هذا شيء لا نحب ان يعمل مثله الا بامر امير المؤمنين واذنه فكتب الى المعتصم يستأذنه في ذلك فخرج الامر الى اسحق باطلاقه له فكتب اسحق : « ورد علي كتاب من امير المؤمنين باطلاق بناء زلال لم يحد لي طوله ولا عرضه فوقفت امره الى ان استطلع الرأي في ذلك » فكتب اليه يحمده على احتياطه ويحد له ذرع الزلال »[5]

وفي تاريخ الوزراء للصابئ ذكر الزلالات في شرح ارزاق الملاحين(ص١٩)

زَوّ

عد من مراكب الصين المتوسطة كما سبق في الكلام على الجنك وكان

١) الطالع السعيد للادفوي ٢٦

٢) الاغاني بولاق ٣ : ١٧٧

٣) كتاب بغداد لابن طيفور ٢٦١.

٤) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ١٣٣

٥) الديارات للشابشتي ورقة ١٦–١٥

معروفاً ببغداد في اوائل العصر العباسي: « حدث ابراهيم بن سهل قال: كنا مع الواثق بالقاطول (نهر مقطوع من دجلة) وهو يتصيد فصاد صيداً حسناً وهو في الزوّ من الاوز والدرّاج وطير الماء »[١] وللبحتري في وصف الزوّ في القاطول وهو يُجذف تارةً ويوقف اخرى:

ولم أرَ كالقاطول يحمل ماؤه تدفّق بحرٍ بالسماحة طام
ولا جبلاً كالزوّ يوقف تارة وينقاد اماً قدته بزمام

وفي تاج العروس: « الزوّ سفينة عملها المتوكل العباسي نادم فيها البحتري »[٢] والصحيح ان الزو كان قبل المتوكل بدليل ما رواه الطبري في تاريخه قال: « حدث العباس بن الفضل بن الربيع قال: جلس الرشيد في الزوّ في الفرات... ثم قال للعباس: « اخرج ومُر برفع التخاتيج (الواح الخشب) المطروحة على الزوّ ففعل ذلك »[٣]

وفي التاج ايضاً ان الزوّ هو طير الماء.[٤] فلا شك ان المركب كان على شكله فسمي به وكثيراً ما كانت السفن تسمى باسماء الطيور والاسماك كالحضاري والحمامة والغراب والأورة والشبوط وما اشبه.

زورق

اشتهر بالبصرة زورق ابن الخواتيني قيل كان حمله ثلاثمائة الف رطل[٥] واكثر ما يجمع الزورق على زواريق وهو جمع الجمع ولا يكاد الكتّاب والمؤرخون يستعملون غيره كالطبري والصولي وابن حوقل[٦]

سبارة

في كتب اللغة انها ضرب من السفن كذا دون اقل وصف.

١) الاغاني طبعة الدار ٧ : ١٥٨
٢) التاج ١٠ : ١٦٦
٣) تاريخ الرسل والملوك طبعة اروبة (٦٨٢ ق ٣)
٤) التاج ١٠ : ١٦٧
٥) ارشاد الاريب ٣ : ٥٧
٦) الخزانة الشرقية ٢ : ١٦٠ – ١٦١

سنجية

من مرادفات السفن والمراكب التي ذكرها البشاري المقدسي في احسن التقاسيم (٣٢) دون اقل وصف وتفسير لها

ستّية

لشهاب الدين العمري من وصف له للسفن : « اصبحت ستياتها محيطة بالجهات الست وشوانيها تشين فعل الزمان المُشِت »[1] ويظهر انها دعيت كذلك باعتبار هيئتها وبنائها كما قيل مثلثة لبعض السفن

مسطّح

روى ابن رسته ان اول من اجرى السفن المقيّرة المسمرة غير المخروزة المدهونة والمسطحة غير ذوات الجآجئ الحجاج بن يوسف[2] وعدّ ابن مماتي « المسطح » في جملة مراكب الاسطول .

ونقل المقريزي عن ابن الطوير انه« كان من أهم امورهم احتفالهم بالاساطيل والاجناد ومواصلة انشاء المراكب بمصر والاسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات »[3]

قال ابن شداد :« وصل الخبر ان الاسطول الاسلامي استولى على مراكب الافرنج وفيها مركب يعرف بالمسطح قيل انه كان فيه خمسمائة نفر وزائد »[4]

وربما قيل مشطح بالشين ومنه في نفح الطيب المقري « بلغه ان مشطحاً من برشلونة ظهر على يابسة (Ibyza) وسار حتى اشرف على المشطح»[5]

ساعية

من انواع السفن في اليمن[6]

١) التعريف بالمصطلح الشريف ٢٣٦

٢) الاعلاق النفيسة ١٩٥ - ١٩٦

٣) الخطط ٢ : ٣٧٢

٤) النوادر السلطانية ١٨٩ – ١٩٠ وكتاب الروضتين لابي شامة ٢ : ١٩٤

٥) نفح الطيب ٢ : ٥٨٤

٦) مجلة المجمع العربي بدمشق ١٦ : ٥٦٨

سفينة

من احسن اوصافها قول ابي نواس من ابيات له غزلية :

بُنيت على قدر ولاءَم بينها ضِعفان من قار ومن الواح
فكأنها والماء ينطح صدرها والخيزرانة في يد الملّاح
جَونٌ من العقبان تبتدر الدجى تهوي بصوت واصطفاق جناح[1]

سلّورة

وربما قيل سلارية وتجمع على سلالير وهي من الرومية [illegible] ذكرها ابن حبيب في جملة السبعين قطعة التي وصل بها الفرنج الى ثغر الاسكندرية سنة ٧٦٧[2] (١٣٦٥ م) وجاءت بالشين اي شلورة في نهاية الارب للنويري (٩ : ٣١—٣٢) .

سلوقي

« سنة ٨٦٧ (١٤٦٣ م) اتفق الاسرى الذين بطرابلس من الفرنج وحفروا المطمور الذي يحبسون به ليلا . . وكانوا هيأوا قارباً لهربهم فبدر خمسة منهم بالركوب فيه وخرجوا هاربين . . . ثم اصبح القائد ابو النصر فبعث بسلوقي في اثر الهاربين فعادت ولم يظفر منهم على طائل »[3] وانما قال « عادت » لان بعض الكتاب والمؤرخين يؤنثون المركب غلطاً .

سماري

قال السخاوي في ترجمة علي بن محمد بن ابي بكر الادمي القاهري : « صار يعتني بالمراكب والحمل فيها بالبحر المالح . . . فغرق له سماري ثقيل بالقرب من بعض البنادر وعجز عن تخليص اخشابه »[4] ويؤخذ من خطط المقريزي (٢ : ٣٦٦) وكتاب نزهة المقلتين في اخبار الدولتين الفاطمية والايوبية ان

---

١) ديوانه خزانة باريس ٤٨٣٠ ص ٢٢٢ .
٢) تذكرة النبيه خزانة بريتيش موزيوم add. 7335 fo 218
٣) الروض الباسم لعبد الباسط بن خليل الحنفي خزانة الفاتيكان ٧٢٩ ص٥٧
٤) الضوء اللامع ٧ : ٢١٨

المشاريات اللطاف في كسر الخليج في ايام الفاطميين كان يقال لها «السماريات»[١]

سُمَيرِيَّة وسُمارِيَّة

قال عبد اللطيف البغدادي في ذيل الفصيح: «هي السميرية. ولا تقل سمارية (١٠٩) وفي ذيل تجارب الامم للروذراوي «نزلنا سمارية من سماريات النوبة (٦٠) وفي مسالك الابصار للعمري» قال المنبجي شدبت سماريتي الى جانب الدير» (٢٦٢).

وعد المسعودي قبلاً السميريات من انواع المراكب التي يقاتل فيها وفي تاريخ بغداد للخطيب عن هلال بن المحسن انه «أحصيت السميريات المعبرانيات بدجلة في ايام الناصر لدين الله وهو احمد الموفق فكانت ثلثين الفاً تقدر من كسب ملاحيها في كل يوم تسعين الف درهم»[٢]

سنبكلية

من المراكب العشرين التي كانت معروفة في طرابلس سنة ١١١٢=١٧٠٠[٤]

سَنبوق

ويقال سنبوك بالكاف وكتبه ابن بطوطة بالصاد والكاف قال: «وكتب من ساحل البصرة في صنبوق وهو القارب الصغير الى الايلة»[٥] وفي شفاء الغليل للخفاجي «سنبوك سفينة صغيرة تستعمله اهل الحجاز وعبّر به في الكشاف وقيل من سنبك الدابة على التشبيه ولم نره في كلامهم قديماً»[٦] (ص ١١٨)

---

١) الفيض المديد في اخبار النيل السعيد لاحمد بن عبد السلام المتوفي رقم ٢٥٩١ – د مكتبة الاسكندرية.

٢) مروج الذهب بهامش الكامل ٨ : ٢٥٤

٣) خزانة باريس ٢١٢٨ ص ٢٦

٤) الرحلة الطرابلسية للشيخ عبد الغني النابلسي خزانة بريتيش موزيوم لندرة fo 25-26 add. 22753

٥) رحلة ؛ مطبعة وادي النيل ١ : ١١٢

٦) تاج العروس ٧ : ١٤٦

وعدّ المقريزي السنابيك في جملة المراكب الحربية المئة التي امر احمد بن طولون باتخاذها بعد بناء الحصن على الجزيرة[١]

سناديل

في تكملة المعجمات العربية لدوزي «سندل نوع من القوارب والسفن وهو من الفارسية (١ : ٨٤٦) ولم نقف على شاهد له بلفظه المفرد ولكنه ورد مجموعاً مرتين في كتاب سيرة احمد بن طولون للبلوي قال: «اتخذ ابن طولون مائة مركب عربية كباراً ومائة مركب حربية سوى ما انضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسناديل وقوارب الخدمة وقال ايضاً: «اخرج مونس الخادم في البحر مراكب حربية ... والسناديل العيالة والقوارب وكل صنف من السفن مما لا يحصى كثرة»[٢]

سوقية

من مرادفات اسماء المراكب في احسن التقاسيم (٣٢).

شايقة

من انواع المراكب في الرحلة الطرابلسية لعبد الغني النابلسي

شبّارة

وردت غير مرة في تاريخ الطبري قال: «كل من افلت من الأتراك رمى بنفسه في دجلة ... فاخذه اصحاب الشبارات وكانت الشبارات قد شحنت بالمقاتلة» وفيه ايضاً «اخذوا عدة من الشبارات بما فيها من المقاتلة والملاحين»[٣] وفي وفيات الاعيان لابن خلكان «توفي اتابك الملقب الملك العادل نور الدين في شبارة بالشط بظاهر الموصل والشبارة عندهم هي الحراقة بمصر»[٤] وفي رحلة ابن بطوطة «رأيتها بحراقة في الدجلة وتسمى عندهم شبارة وهي شبه سلورة»[٥]

١) الخطط ١ : ٣٦٢
٢) سيرة احمد بن طولون للبلوي ٨٧ و ١٠٣
٣) تاريخ الرسل والملوك طبعة اروبة ١٥٦٣ و ١٦٨٩ T. S. III
٤) وفيات الاعيان ١ : ٧٧
٥) رحلته ، مطبعة النيل ١ : ١٣٧

شبوطية

ضرب من القوارب الطرابلسية (رحلة عبد الغني النابلسي ٢٥-٢٦).

شبّوق

وردت في احسن التقاسيم (٣٢) ولعلها هي الشبّاك التالي ذكره.

شبّاك

مركب حربي صغير الحجم يستعمل في البحر الابيض[1] اتخذه الغربيون ويقال له في الفرنسية chebec وفي الايطالية sciabecco وفي الاسبانية japeque وهو عندهم بثلاثة قلوع.

شختور وشختورة

في زبدة الحلب لابن العديم في غرق المركب الاسلامي بعكا سنة ٥٨٦= ١١٩٠ « لما وصل هذا الخبر انقطع قلوب من فيها وأُسقط في ايديهم وهرب جماعة من الامراء والقوا انفسهم في شخاتير صغار »[2] وفي سيرة الناصر محمد ابن قلاوون « في سنة ٧٠٦ (٧ - ١٣٠٦م) رسم الاميران بيبرس وسلار بمنع الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكمي والتفرج فيه »[3]

شذا

« الشذا ضرب من السفن الواحدة شذاة وفي المصباح الشذاوات سفن صغار كالزبازب الواحدة شذاوة »[4] قال المسعودي : « اشتد امر البريديين في البصرة ومنوا السفن ان تصعد وعظم جيشهم وكثرت رجالهم وصار لهم جيشان جيش في الماء في الشذوات والطيارات والسميريات والزبازب وهذه انواع من المراكب يقاتل فيها صغار وكبار وجيش في البر عظيم »[5] ووردت هذه المراكب كثيرًا في اخبار المناجم صاحب الزنج وكان ابو احمد الموفق يبنيها

١) Dozy, *Supplément des dictionnaires arabes*, I : 723

٢) خزانة باريس ١٦٦٦ ص ٢٢٠

٣) الخطط للمقريزي ٢ : ١٤٣

٤) تاج العروس ١٠ : ١٩٥

٥) مروج الذهب ٨ : ٢٤٥

في سيراف وجنّابة[١] وجمعها هلال الصابئ على شذاءات في كلامه « على ارزاق الملاحين قال « الطيارات والشذاءات والسميريات والحراقات والزبازب وزواريق المعابر »[٢] وجمعها كذلك الهمداني في تكملة تاريخ الطبري في كلامه على البريدي قال « دخل بغداد وكان معه من الزبازب والطيارات والحديديات والشذاءات ما لا يحصى »[٣]

شكنبابة

ذكرت في الرحلة الطرابلسية في جملة العشرين نوعاً من انواع القوارب (٢٥ — ٢٦) .

شلمى

لم نجدها الا في حكاية ابي القاسم البغدادي للازدي (١٠٧) .

شلندي

من الرومية Χελάνδιον ويقال له في الفرنسية chaland وفي الايطالية scialando وفي تجارب الامم لابن مسكويه في اخبار سنة ٣٥٤ = ٩٦٥ في الكلام على محاصرة ملك الروم طرسوس وافتتاحها : « وحمل بعضهم في البحر في شلنديات له الى حيث ارادوا (٦ : ٢١١) وربما وردت بالراء بدلاً من اللام كما في كتاب المسالك والممالك لابن حوقل « المراكب الشرنديات الحربيات » (١٣٢) .

وفي خطط المقريزي ان الشلنديات كانت تنشأ مع الشواني في الصناعة بالجزيرة (٢ : ٣٧٣) وفي قوانين الدواوين ان الشلندي مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره وجدافون يجدفون تحتهم[٤]

شموط

من اسماء المراكب في احسن التقاسيم (٣٢) .

١) نهج البلاغة ٢ : ٣٥١
٢) تاريخ الوزراء ١٩
٣) خزانة باريس ١٦٦٩ ص ٧٩
٤) طبعة القاهرة ١٩٤٣ ص ٣٤٠

شمليات

ذكرها عريب في صلة تاريخ الطبري قال : سنة ٣١٥ (٩٢٧ م) « وجه السلطان الى الفرات بطيارات وشمليات فيها جماعة من الناشئة (١٣٣) ولم نعثر لها على شاهد آخر .

شنبر

من اسماء القوارب وانواعها في الرحلة الطرابلسية للنابلسي (٢٥ — ٢٦) .

شنكولية

من انواع المراكب في القرن الرابع للهجرة (احسن التقاسيم (٣١) وهو من الفارسية شنكول .

شاني وشانية وشيني وشينية

قال القاضي ابن شداد : « كان الافرنج في ستمائة قطعة ما بين شاني وطرادة وبطسة » وله ايضاً : « وصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد » وله كذلك « بلغت نيفاً وخمسين مركباً منها خمسة عشر شانياً فيها شاني الملك ... وكان اول شاني القي من فيه بالبر شانيه وكان احمر ورقبته حمراء وبيرقه احمر فما كانت الا ساعة حتى نزل كل من في الشواني الى المينا. »[1]

ولعماد الدين الاصفهاني « اول ما ظفر الاسطول المنصور بشيني للفرنج عظيم الشان »[2]

وربما قيل ايضاً شرنية وشونة قال عبد الباسط بن خليل الحنفي : « كنت لما ركبت البحر استأجرت من احد قلافطة الشرنية التي ركبت بها مكاناً » وقال بتاريخ ٨٦٦ = ١٤٦٢ « ورد الى مينا الثغر الاسكندري المراكب التي يقال لها الطرايد وتعرف ايضاً بالقطايع للبنادقة وتعرف بالشواني ايضاً »[3] ولكن يؤخذ من كلام ابن مماتي على مراكب الاسطول ان الشينية غير الطريدة قال :

---

١) النوادر السلطانية ٣٨ و١٦٨ و٢٢٦

٢) الفتح القدسي ٣٢٥

٣) الروض الباسم ، خزانة الفاتيكان ٧٢٩ ص ٤٠ و ٣٨

« اما الشيني ويسمى الغراب ايضاً فانه يجذف بمائة واربعين مجدافاً وفيه المقاتلة والجدافون »[١] وكان يسع مائة وخمسين من المقاتلة كما يستدل من قول ابي شامة في كلامه على اسطول صقلية : « كان معهم مائتا شيني في كل شيني مائة وخمسون راجلاً »[٢]

شيطية

من انواع المراكب في مصر كالقياسة والمعدية وردت في « النحلة النصرية في الرحلة المصرية » سنة ١١٣٢/١٧١٩ لمصطفى البكري الصديقي (مجلة الرسالة ١١ اكتوبر سنة ١٩٤٨ ص ١١٥١).

صلغة

في معاجم اللغة ان الصلغة هي السفينة الكبيرة[٣] وفي تاريخ الطبري « عرضت لنا في النهر صلغة فيها عشرة صنوج »[٤] وفي موضع آخر : « ان الخبيث قد انقذ عدداً كبيراً من السميريات والزواريق والصلاغ مشحونة بالزنج »[٥]

مضفرة

في مناقب بغداد لابن الجوزي « كنت اسمع من المشايخ ان بدجلة خمسمائة مضفرة مزينة لا يركب فيها الا ظراف التجار والاجناد وارباب المقاطعات الرجول وغلمانه والملاحون بالثياب الجميلة » (٢٧).

وفي كتب اللغة الضفير شط البحر فلا شك انها اخذت منه.

طبطاب

لم نعثر على هذا الاسم الا في حكاية ابي القاسم البغدادي في جملة انواع المراكب والسفن المعروفة قديماً في بغداد (١٠٧)

١) قوانين الدواوين ٣٤٠
٢) كتاب الروضتين ١ : ٢٣٤
٣) اللسان ١٠ : ٢٢٤ والتاج ٦ : ٢٢
٤) تاريخ الرسل والملوك ٤ : ١٩٥٥
٥) « « « ٤ : ١٩٧٦

طرادة

الطراد في اللغة سفينة صغيرة سريعة ووردت بهذا المعنى في نشوار المحاضرة للتنوخي (١ : ٢٠٦) وفي سيرة صلاح الدين لابن شداد بتاريخ ٥٦٩=١١٧٣ قال : « كان الافرنج في ستمائة قطعة ما بين شاني وطرادة وبطسة » (٣٨) .

طريدة

ذكر ابن ابي شامة وصول اسطول صقلية الى الاسكندرية سنة ٥٦٩/١١٧٣ فقال : « استنزلوا خيولهم من الطرائد ورجالهم من المراكب فكانت الخيل الفاً وخمسمائة رأس وكانوا ثلاثين الف مقاتل ما بين فارس وراجل وكانت عدة الطرائد ستاً وثلاثين طريدة لحمل الخيل »[١] وفي سيرة الملك الظاهر لمحيي الدين ابن عبد الظاهر « المنفق في ايامه على الشواني والحراريق والطرائد والسلالير ونحوها مائة الف دينار »[٢]

وعدّ ابن مماتي الطرائد من مراكب الاسطول فقال : « ولكل من هذه المراكب ضريبة لما يحتاج اليه من عمارة وقوّاد ورُماة وجذافين وزاد »[٣] ونص ايضاً على ان الطريدة هي برسم حمل الخيل واكثر ما يحمل فيها اربعون فرساً[٤] .

ويؤخذ من كلام عبد الباسط بن خليل على الشواني الذي مرّ بنا ان الطرائد كانت في القرن التاسع للهجرة تعرف ايضاً بالشواني والقطائع[٥]

طيرة

من اسماء المراكب المذكورة في احسن التقاسيم (٣٢) .

طيار

يكثر ذكره في كتب الادب والاخبار وقد تقدم بعض شواهده وليعض شعراء يتيمة الدهر للثعالبي في الوزير المهلبي :

قل للوزير ادام الله دولته   اذكرتنا أدمنا والخبز خشكار
اذ ليس بالباب بواب لدولتكم   ولا حمار ولا بالشط طيار

١) كتاب الروضتين ١ : ٢٢٤

٢) خزانه بريتيش موزيوم add. 23331 f° 20b

٣) قوانين الدواوين خزانة بريتيش موزيوم Or. 3120 f° 14

٤) قوانين الدواوين ، طبعة القاهرة ص ٢٤٠

٥) الروض الباسم ٧٢٩ خزانة الفاتيكان ٣٨

وكان للخليفة المستكفي سنة ٣٣٣ - ٩٤٤ طيار يسمى الغزال[1]

وفي تكملة تاريخ الطبري للهمداني: «وراسل عضد الدولة الطائع لله بابي محمد ابن معروف حتى استعاده ودخل الى بغداد في حديدي جاس على سطحه وخرج عضد الدولة في طياره فتلقاه قريباً من قطيعة ام جعفر وصعد الحديدي وقبل البساط ويد الطائع لله»[2].

وقال ابن سعيد في حلى المغرب: «وكوتب محمد بن رائق من بغداد وجاءته رسل المتقي بالمسير فمنعه كاتبه محمد بن علي بن مقاتل وقال: لا تفعل فقال: ركوبي في الطيار في دجلة وصياح الملاحين احب الي من ملك الشام كله» (٢٩).

وقال الذهبي في تاريخ الاسلام بعد ان ذكر امر القاهر بالله بذبح مونس ويلبق وابنه وبعض امراء الاتراك سنة ٣٢١=٩٣٣م ثم احضر عيسى المتطبب من الموصل وامر ان لا يركب في طيار سوى الوزير والحاجب والقاضي وعيسى المتطبب»[3]

معاش

من اسماء القوارب في القرن الثامن عشر في الرحلة الطرابلسية للنابلسي (٢٥ - ٢٦).

المعبَّدة

السفينة المقيَّرة او المطلية بالشحم او الدهن او القار[4] قال بشر في سفينة ركبها « معبَّدة السقائف ذات بشر ».

معبر

المركب الذي يُعبر فيه[5] وهو في احسن التقاسيم (٣٢) وفي تاريخ الوزراء للهلال الصابئ زواريق المعابر وهي التي سماها الخطيب البغدادي» المعبرانيات ».

---

١) مروج الذهب، طبعة باريس ٨ : ٢٧٧

٢) خزانة باريس ١٤٦٩ ص ١٤٣

٣) حاشية على تجارب الامم، طبعة القاهرة ٥ : ٢٦٨

٤) تاج العروس ٢ : ٤١٣

٥) المخصص، لابن سيده ١٠ : ٣٦

عَدَوْلِيّ

نسبة الى عدولى قرية بالبحرين[١] (Adoulis) وكانت قديماً سوقاً للرقيق والعاج وهي في شعر طرفة :

كأنّ حدوج المالكية غدوة   خلايا سفين بالنواصف من دَدِ
عدولية او من سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طوراً ويهتدي[٢]

وللنابغة الذبياني :

له بحر يقمّص بالعدولي   وبالخُلُج المحملة الثقال[٣]

وللكثير :

كأن عدوليا زهاء حمولها   غدت ترتقي الدهنا بها والدهالك[٤]

معدّية

والجمع معادي قال الخفاجي هي السفن الصغار التي يجتاز بها النهر قال الوارق وقد سكن روضة مصر :

منزلي في ذلك البرّ   ومن ذا البر زادي
ولتفريطيّ ما ابقيتُ شيئاً للمعادي[٥]

عَرَبة

في كتب اللغة العربات سفن رواكد كانت في دجلة[٦] وفي شفاء الغليل : العربة بلغة اهل الجزيرة سفينة يعمل فيها رحى وسط الماء الجاري مثل دجلة يديرها شدة جريه[٧]

---

١) معجم البلدان ، طبعة اروبة ٣ : ٦٣٢ وتاج العروس ١٣ : ٤٦٣ — ٤٦٣
٢) شرح المعلقات للزوزني ، مطبعة الحجر ٥٠ وفي التاج ابن نبتل بدلاً من ابن يامن .
٣) شعراء النصرانية ٤ : ٦٦٦
٤) معجم البلدان ٣ : ٦٣٣
٥) شفاء الغليل ٢١٩ — ٢٢٠
٦) التاج ١ : ٣٧٦ واللسان ١ : ٨١
٧) شفاء الغليل ١٥٦

عرداس

من اسماء المراكب المعروفة في القرن الرابع للهجرة (احسن التقاسيم ٣١) .

عشاري

سماه عبد اللطيف البغدادي « المشيري » ووصفه وصفاً وافياً يحسن نقله هنا على طوله قال :

« واما سفن اهل مصر فكثيرة الاصناف والاشكال واغرب ما رأيت فيها مركب يسمونه المشيري شكله شكل شبارة داخلة الا انه اوسع منها بكثير واطول واحسن هنداماً وشكلاً وقد سُطح بالواح من خشب ثمينة محكمة وأُخرج منها افاريز كالرواشن نحو ذراعين وبني فوق هذا السطح بيت من خشب وعقد عليه قبة وفتح له طاقات وروازن بابواب الى البحر من سائر جهاته ثم تعمل في هـذا البيت خزانة مفردة ومرحاض ثم يُزوّق باصناف الاصباغ ويذهب ويدهن باحسن دهان وهذا يتخذ للملوك والرؤساء بحيث يكون الرئيس جالساً في وسادته وخواصه حوله والغلمان والمماليك قيام بالمناطق والسيوف على تلك الرواشن والطعمتهم وحوائجهم في قعر المركب والملاحون تحت السطح ايضاً وفي باقي المركب يقذفون به لا يعلمون شيئاً من احوال الركاب ولا الركاب تشتغل خواطرهم بهم بل كل فريق بمعزل عن الآخر ومشغول بما هو بصدده واذا اراد الرئيس الاختلاء بنفسه عن اصحابه دخل المخدع واذا اراد قضاء حاجته دخل المرحاض والملاحون يقذفون الى ورائهم فهم في قذفهم يشبهون الجالين في مشيهم القهقرى ويشبهون في تحريكهم السفن من يجذب ثقلاً بين يديه ويمشي به الى خلفه واما ملاحو العراق فهم بعترلة من يدفع الثقل نحو امامه ويدسر به فسفنهم تتوجه حيث الملاح يتجه واما سفن مصر فهي تتحرك الى ضد الجهة التي اليها الملاح متوجه »[1]

وكانت العشاريات من اجمل المراكب بمصر واتقنها بناء وافخرها كسوة وحليا وسماها ابن الطوير مرة العشاريات الدياميس مفردها دياس لا شك لانها كانت مغطاة وكانت في الخلافة الفاطمية على ضربين الاول المشاريات اللطاف وقد تقدم انها كانت تدعى ايضاً المسماريات منها برسم ولاة الاعمال المميزة تقيم مع احدهم مدة مقامه فاذا صُرف عاد في المشاري وخرج المتولي الجديد في المشاري المرسي بالصناعة ولا يخرج الا بتوقيع باطلاقه والانفاق فيه والمشارفين بالاعمال عشاريات دون هذه[2] . والضرب الثاني المشاريات الخواص الكبار وربما

---

١) الافادة والاعتبار ٤٠ – ٤١

٢) الخطط ٣ : ٢٧٣

قبل « المركبية » لا تخرج عن خاص الخليفة في ايام النيل وتحواله الى اللؤلؤة للفرجة[١] وهي سبعة : الذهبي والفضي والاحمر والاصفر والاخضر واللازوردي والصقلي وكان قد انشأه تجار من رؤساء الصناعة صقلي وزاد فيه زيادة حسنة على الانشاء المعتاد فنسب اليه[٢].

وكان الوزراء يتقربون من قلوب الخلفاء بالمبالغة في الانفاق على المشاريات الخواص وتزيينها بالستور الديبقي الملونة وتطويق اعناقها باهلّة الذهب والفضة والخرز الازرق[٣] وكان للمشاري الذهبي بيت يحفظ فيه الى يوم الركوب وهو « بيت مثمّن من عاج وآبنوس عرض كل جزء ثلاثة اذرع وطوله قامة رجل تام فيجمع بين الاجزاء الثمانية فيصير بيتاً دوره اربعة وعشرون ذراعاً وعليه قبة من خشب محكم الصناعة وهو بقبته ملبس بصفائح الفضة والذهب »[٤]

ومما نقله المقريزي عن كتاب الذخائر « ان مما أُخرج من القصر سنة ٤٦١ (١٠٦٨-٩ م) قبة المشاري وقاربه وكسوة رحله وهو مما استعمله الوزير احمد بن علي الجرجراني في سنة ٤٣٦ (١٠٤٤ م) وكان فيه مائة الف وسبعة وستون الفاً وسبعمائة درهم فضة نقرة وان المطلق لصناع الصاغة من اجرة ذلك وفي ثمن ذهب لطلائه خاصة الفان وسبعمائة دينار وعمل ابو سهل التتري لوالدة المستنصر عشارياً يعرف بالفضي وحلّى رواقه بفضة تقديرها مائة الف وثلاثون الف درهم ولزم ذلك اجرة الصناعة وطلاء بعضه الفان واربعمائة دينار واستعمل كسوة برسمه بمال جليل وأُنفق على العشاريات التي برسم النُزه البحرية التي عدتها ستة وثلاثون عشارياً بالتقدير بجميع آلاتها وكُساها وحُلاها من مناطق ورؤوس منجوقات واهلّة وصُفريات وغير ذلك اربعمائة الف دينار »[٥]

وقد تفردت مصر في الخلافة الفاطمية بمثل هذه النفقات الطائلة ولم ينقل عن مراكب الخلفاء العباسيين فيما نعلم ما يضاهيها او يقاربها .

١) الخطط ٣ : ٣٦٦
٢) الفيض المديد في اخبار النيل السعيد ، مكتبة الاسكندرية ٢٥٩١ – د
٣) صبح الاعشى ٣ : ٥٢٠ – ٥٢١
٤) الخطط ٢ : ٣٦٣
٥) الخطط ٣ : ٣٦١ – ٣٦٣

وكان المشاري في ايام القلقشندي يسمى حراقة[1] ويظهر ان لفظة Usciare الايطالية في ايام الصليبيين مأخوذة منه واهله سمي كذلك لانه كان اول بنائه كان طوله عشرة اذرع .

عقبة

قال الجبرتي بلفظه: « شرعوا في عمل المركب التي تسمى العقبة لخصوص ركوب الباشا فيها وهي عبارة عن مركب كبير فشاشي ياخذونها من اربابها قهرًا وينقشونها بانواع الاصباغ والالوان ويركبوا عليها مقعد مصنوع من الخشب المصنع وله شبابيك وطيقان من الخرط وعليه بيارق ملونة وشراريب مزينة وهو مصفح بالنحاس الاصفر مزين بانواع الزينة والستاير»[2]

وفي الرحل الاروبية الآتية وصف ثان للعقبة :

Thevenot I. 465. Monconys 282. Stochove 424.

العكيري

« شبه الغراب الا انه اوسع منه وفيه ستون مجذافًا ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السهم ولا الحجارة»[3]

العلابيات

في كتاب سيرة احمد بن طولون للبلوي « اتخذ ابن طولون مائة مركب عربية كبار او مائة مركب حربية سوى ما انضاف اليها من العلابيات والحمائم والمشاريات (٨٧) وفيه ايضاً « اخرج مؤنس الخادم في البحر مراكب حربية والعلابيات والمشاريات (١٠٢) وذكر مثل ذلك المقريزي فقال : « امر احمد ابن طولون ببناء الحصن على الجزيرة واتخذ مائة مركب حربية سوى ما يضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابيك وقوارب الخدمة »[4].

ولعلها دعيت كذلك لدخول العلابي في بنائها وهو الرصاص كما قيل الحديدي والمسماري.

١) صبح الاعشى ٣ : ٥١٧
٢) عجائب الآثار ٣ : ٢٢٦
٣) رحلة ابن بطوطة ٢ : ١٠٤
٤) الخطط ٢ : ١٨٠

اعوادي

اسم مركب من مراكب الاسطول ذكره ابن مماتي في قوانين الدواوين وفي المتن المطبوع اعزاري (ص ٣٤٠—٣٤١) والصحيح اعوادي كما في نسخة باريس .

غراب

نوع من السفن مشهور في اشعار المحدثين قال ابن الساعاتي :

وركبت بحر الروم وهو كحلبة والموج تحسبه جياداً تركض
كم من غراب للقطيعة اسود فيه يطير به جناح ابيض[1]

وقال ابن ابي حجلة :

غربانها سود وبيض قلوعها يصفر منهن العدو الازرق[2]

ولشهاب الدين العمري في وصف السفن « قد اتخذت سماء البحر ميداناً وحطت على موجة البحر غرباناً »[3] وكان يقال في وصية بطريرك النصارى الملكيين « ليجتنب البحر واياه من اقتحامه فانه يغرق او تلقي ما يلقيه اليه جناح غراب فانه بالبين ينعق »[4] وفي ذيل ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٧٦٧—١٣٦٦ « ارسل صاحب قبرس الى الملايا اثنين وعشرين غراباً وتجدهم ابن قرمان فكسروهم وكسروا بعض غربانهم وعلقوهم بالاسوار ورجع بقية الغربان الى قبرس في اسوإ حال »[5] .

١) ديوانه ١ : ١٠٥

٢) شفاء الغليل ١٦٣

٣) التعريف بالمصطلح الشريف ٢٣٦

٤) التعريف بالمصطلح الشريف ١٠٥ وقد جهل مؤلف كتاب سورية في عهد المماليك ان الغراب من اسماء السفن ولم يدرك حقيقة هذه التورية فترجمها على ظاهرها وعد الغراب من حمام الزاجل فقال بلفظه وغروره :

« Qu'ils n'accueillent point ce qui leur apporterait l'aide d'un corbeau car son croassement annoncera la séparation (allusion à la poste aux pigeons d'une part et au vieux cliché classique de la poésie antéislamique sur le corbeau de la séparation.)

(Gaudefroy-Demombynes : *La Syrie à l'époque des Mamelouks.* Paris, 1923, p. 169, note)

٥) خزانة باريس ١٥٩٨ ص ١٧٨

وفي سنة ١٠٥٣ = ١٦٤٤ م « وقعت كائنة شنيعة بثغر الاسكندرية وهي ان قبداناً عمّر غراباً واراد ان ينزله في البحر فجمع الواقف على عمارته اليُسرى (كذا) النصارى التي بالاغربة لاجل تنزيل الغراب وكانوا ستمائة نصراني وأُطلقوا من القطاين (السلاسل) فانفرد منهم مائة وخمسون وكسروا باب الترسخانة واخذوا السلاح الذي بها وانفرد بقية النصارى ودخلوا البلد والناس في صلاة الجمعة وكسروا الدكاكين التي للباعة واخذوا جميع ما فيها من البضائع ثم انهم نزلوا غراباً من الاغربة التي بالثغر وذهبوا به على حمية »[1].

وكان اسم الغراب لا يزال في القرن السابع عشر يطلق على نوع من المراكب المعروفة في طرابلس.

غلياطة

من اسماء المراكب في طرابلس كما في رحلة النابلسي (٢٥ — ٢٦) وهي تعريب galiote .

غليون

مركب شراعي (galion) ولصلاح الدين الكوراني الحلبي المتوفى سنة ١٠٤٩ = ١٦٣٩ في آلة التبغ ولا يخفى ما فيه من التورية :

لو لم تكن ايدي المكارم لجّة ما كان في اطرافها الغليون[2]

وفي بدائع الزهور لابن اياس « سنة ٩١٨ (١٥١٢ م) احضر السلطان المركب الكبير الغليون الذي عمّره وصرف عليه نحواً من عشرين الف دينار فارسوا به قبالة المقياس »[3]

فستراوي

كذا ورد هذا الاسم بالفاء في جواب زكي الدين الحسين بتاريخ ٧٦٢ =

---

١) الروضة الزهية في ولاة مصر والقاهرة المعزية ٢٣٦ خزانة الفاتيكان ص ٨٤

٢) خلاصة الاثر للمحبي ٣ : ٢٥٥ — ٢٥٦

٣) طبعة استانبول ٤ : ٢٧٦

١٣٦١ بين اسماء مراكب مصر[١] واصله نستراوي بالنون نسبة الى نَسْتَرْوَه بحيرة بالقرب من البرلس في مصر .

فلوة

قال المقريزي بتاريخ سنة ٧٠٧ = ١٣٠٧ «رسم لكل من الامراء المقدمين بعمارة مركب يقال له جلبة وعمارة قياسة لطيفة لها فلوة برسم حمل الازواد وغيرها وتسفير ذلك الى الطور على الظهر ليرمى في بحر القلزم وبلاد اليمن واشترك كل امير مقدم ومضافيه في عمل جلبة وفلوة ونُدب لعملها الامير عزالدين ايبك الشجاعي الاشقر شاد الدواوين»[٢]

فلوكة

لم نجدها في نص قديم ويشبه ان تكون من الرومية ἐφόλκιον ولا يبعد ان يكون الاصل فُلَيْكة بالتصغير والفلك للسفينة يؤنث ويصغر ومنها اخذت اللفظة الفرنسية felouque والاسبانية faluca ولا تزال هذه الكلمة معروفة شائعة اوردها النابلسي في رحلته الطرابلسية

قادس

هي السفينة العظيمة وقيل صنف من اصناف المراكب[٣] وهي من الرومية κάδος

قارب

قال الزمخشري : « ركبت في القارب الى الفلك وهي سفينة صغيرة تكون مع الملاحين تُستخف لحوائجهم وسمعت انهم يسمونه السنبوك »[٤] ويظهر انها مأخوذة من الرومية κάραβος

١) الخطط طبعة بولاق ١ : ٢٧٠

٢) السلوك ٧٤٩ خزانة باريس ٥

٣) تاج العروس ٤ : ٢١٢

٤) اساس البلاغة طبعة الدار ٢ : ٢٤٠

قايق

لفظة تركية تعرف الى اليوم وهي في جملة اسماء المراكب في الرحلة الطرابلسية ·

قرامرسل

كذا رُويت في الرحلة الطرابلسية بين انواع السفن وقرا بالتركية بمعنى الاسود

قُرقور

وردت في الشعر قديماً قال الراجز :

قرقور ساجٍ ساجهُ مطليّ · بالقير والضبّات زنبري

وقال عمرو بن الاهتم :

كأنها بعد ما مال الشريف بها · قرقور اعجم في ذي لجة جار[٢]

وقيل في قصر عيسى بن جعفر ببغداد :

ترى قراقيره والعيس واقفة · والضب والنون والملاح والحادي[٣]

وللاخطل :

ولكن لنا برّ العراق وبحره · وحيث ترى القرقور في الماء يسبح[٤]

وفي تاريخ الوزراء « ان الزمان كان يرد دجلة في قراقير ذُرعت عشرة قراقير منها فكانت سعتها ما بين عشرين ذراعاً والى ستة عشر ذراعاً[٥] »

وفي اخبار سنة ٧٦٧=١٣٦٥/٦ « وصل الفرنج الى ثغر الاسكندرية في سبعين قطعة ما بين قرقور وغراب وشيني وطريدة واسطول وبطسة وسلورة وغير ذلك »[٦]

١) المعرب للجواليقي ١٢٢
٢) معجم البلدان ٢ : ٢٨٥
٣) معجم البلدان ٤ : ١١٨
٤) الاغاني طبعة الدار ٨ : ٣١٦
٥) تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، للصابئ ٢٥٧
٦) تذكرة النبيه لابن حبيب ، خزانة بريتيش موزيوم Add. 7335 f° 218

وذكر المقريزي في جملة ما كان يعمل يوم فتح الخليج انه « يكون في البحر في ذلك اليوم الف قرقورة مشحونة بالعالم »[1]

واللفظة من الرومية κέρκουρος ومنها الفرنسية caraque

القطيرة

من اسماء المراكب في سواحل بحر اليمن[2]

قليون

وردت غير مرة في تاريخ الجبرتي قال : « سنة ١٢٠٢ حضر قليونان روميان الى بحر النيل ببولاق يشتمل احدهما على احد وعشرين مدفعاً والثاني اقل منه »[3] والظاهر ان القليون عنده هو الغليون .

قوف

عند الملاحين مركب صغير وصاحبه قواف[4].

الكار

في المخصص لابن سيده : « الكار سفن منحدرة فيها طعام في موضع واحد (١٠ : ٢٩) وقد ورد ذكرها في حكاية ابي القاسم البغدادي وروى ابياتاً الطافاً تذوب رقةً وحنيناً بلسان ابي عبدالله وهو سكران يرنّق في عينيه النعاس قال : « اذا بالكار يُصعد الى بغداد فلحظه على تلك الحال وانشأ يقول :

يا سُفنَ بغداد روحي جدُّ عالقة ... بان قلبي فيك اليوم قد راحا
يا سفن ما ضرّ فيك المصعدين وقد ... مدّوكِ لو حملوني فيك ملّاحا
تحدوكِ من نَفَسي ريح مصاعدة ... مع الجنائب إمساءً وإصباحا
وتستمدين دمعي كي يُقِلَّكِ إن ... جنحتِ[5] حين يكون الماء ضحضاحا

---

١) الخطط ، مطبعة النيل ٢ : ٢٦٣

٢) مجلة المجمع العربي بدمشق ١٦ : ٥٦٨

٣) عجائب الآثار (٢ : ١٧٥)

٤) محيط المحيط ٢ : ١٧٧٥

٥) يقال جنحت السفينة اذا انتهت الى الماء القليل فلزقت بالارض ولم تمضِ (التاج ٢ : ١٢٤).

يا سفن دعوة صبّ حنّ حين رأى ... فج الطريق الى الاحباب وارتاحا
يا سفن قولي لمن شطّ المزار بنا ... عنهم فشتّت شمل القرن واجتاحا
انا الغريب الذي يبكي الحمام له ... اذا بكى وينوح الطير اذ ناحا[١]

ومنها ايضاً : « هو يصلح الكار ويدخل فيه الشك ويركب فيه المجذاف وتحته (اليد ؟) زريّ خَلَق وفوقه بارية مربدة يستظل بها على القرقور(ص١٠٧)

وفي ديوان ابن الحجاج من مخطوطات اندرة« كان ابن مروان احد روساء الاكراد ينهب السفن رغم انها كانت تسير قوافل تسمى الواحدة منها بالكار (رقم ٤٥٩١) وجاء ذكر الكار غير مرة في كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي قال الحاكي :« كنت في وسط الكار ... واذا بسفينة فيها رئيسهم قد طرح على زنبريتي كما كان يطرح على سفن التجار ليشرف على ما يؤخذ منها فحين رآني منع اصحابه من انتهاب شيء من زنبريتي » (١ : ١٠٧ — ١٠٨).

كاراوانية

ذكرها صاحب احسن التقاسيم في جملة اسماء المراكب في زمانه دون اقل وصف لها (ص ٣١).

ككّة

اختلف الرواة في ضبط هذه اللفظة فوردت في نهاية الارب « كبكة » بالباء بعد الكاف (٩ : ٣١—٣٢) وفي خطط المقريزي « لكبة» بلام اولى وكاف ثانية (١ : ٣٧) والصواب كما اثبتناها بكافين الثانية مشددة ويزيد ذلك ما جاء في بدائع البدائه لابن ظافر قال :

للاديب الثقة المعروف بالمشراني :

يا سابحاً في بُركك وصائداً في شبكك
لا تحقرنّ ككّتي فككّتي ككّكّك

قال والككّة مركب من مراكب صعيد مصر ليس فيها مسمار (ص٢٣).

وفي جواهر العقود من مخطوطات دار الكتب المصرية (رقم ١١٣٩ فقه شافعي) وصف لهذا المركب قال : « الككّة سفينة عريضة السفل والعلو

١) حكاية ابي القاسم للازدي ٨٩ — ٩٠ ، وقد اصلحنا فيها بعض غلطات الطبع .

مقدمها ومؤخرها حادّان ذات طبقات الطبقة السفلى منها للحديد والاثقال والثانية للحريم والجواري والرقيق والعليا للرجال ويشتمل علوها على صار او اثنين وعلى مرساة او اثنين وصهريج برسم الماء الحلو»[1].

وذكر مرارًا «الكبك»بباء مقحمة بين كافين في قوانين الدواوين المطبوع.

ككم

من مراكب الصين الصغار كما تقدم من كلام ابن بطوطة في تعريف الجنك.

الكندوريات

وردت في جملة اسماء المراكب التي ذكرها الازدي في حكاية ابي القاسم البغدادي (١٠٧) ولسنا على ثقة من لفظها المطبوع هل هو كندوريات ام كَندوريات ولم نعثر عليها في كتاب آخر.

ماعونة

من انواع المراكب في الرحلة الطرابلسية لعبد الغني النابلسي ومنها أُخذت اللفظتان الفرنسية mahone والايطالية maona وهي معروفة اليوم.

مالست

وردت هذه اللفظة بين اسماء السفن التي عدها الازدي في حكاية ابي القاسم البغدادي (١٠٧) ولم نقف عليها في رواية اخرى.

مرمّة

يظهر انها من اصل ايطالي maremma وهي اسم ناحية في ايطالية أُطلق على نوع من المراكب كانت تقام عليه الابراج للزحف والقتال ذكره ابن الاثير في اخبار سنة ٦١٥/١٢١٨ لما نزل الفرنج على بر الجيزة وقال «فعملوا آلات ومرمات وابراجاً يزحفون بها في المراكب»[2] وقال في موضع آخر «وصل مركب كبير للفرنج من اعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه

١) نهاية الارب للنويري ٩ : ٢١ - ٢٢ حاشية ٣

٢) الكامل، طبعة سنة ١٣٠١

والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه فوقع عليها شواني المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمرمة وبما معها من الحراقات واخذوها »[1]

ووصف المقريزي احدى هذه المرمات فقال سنة ٦١٥ « اخذ الفرنج في محاربة اهل دمياط وعملوا آلات ومرمات وابراجاً يزحفون بها في المراكب الى برج السلسلة ليملكوه . . فارسل الله سبحانه ريحاً قطعت مراسي مرمة كانت للفرنج من عجائب الدنيا فمرت تلك المرمة الى البر الذي فيه المسلمون فملكوها فاذا هي مصفحة بالحديد لا تعمل فيها النار ومساحتها خمسمائة ذراع وفيها من المسامير ما زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً[2] ».

« وفي سنة ٦٤٧/١٢٤٩ احترقت للفرنج مرمة عظيمة في البحر »[3].

وفي كتاب سير بطاركة الاسكندرية وصف كافٍ لبناء هذه المرمات[4].

مكية

عدها البشاري المقدسي في جملة مرادفات السفن في القرن الرابع للهجرة (احسن التقاسيم ٣٢).

ملقوطة

وردت هذه التسمية في كتاب احسن التقاسيم (٣١).

منورت

قال ابن بطوطة : « ركبنا في قندهار في مركب لابرهيم الناخوذة يسمى الجاكر . . . وجعلنا باقي الهدية مع خيل اصحابنا في مركب لاخي المذكور يسمى منورت »[5].

١) الكامل لابن الاثير ١٢ : ١٥١ والخطط ١ : ٢١٨
٢) السلوك في تاريخ الدول والملوك ١ : ١٨٩ والخطط ١ : ٢١٦
٣) السلوك ١ : ٣٤٨
٤) Histoire des Patriarches d'Alexandrie trad. Blochet. *Revue de l'Orient latin* 1907, p. 243.
٥) رحلته ، مطبعة النيل ٢ : ١٠٤

ناشطيات

قال ابو علي الصوفي : « بلغ المهلبي ،بلغه (من الوزارة) فدخلت البصرة واجترت بسر من رأى واذا انا بناشطيات وحراقات وزبازب وطيارات في عدة وعدد فسألت لمن هذا فقيل للوزير المهلبي »[1] .

نقلية

وردت في الرحلة الطرابلسية .

نقيرة

هي سفينة صغيرة تنحت من سوق الشجر ذكرها البيروني في كلامه على مبايعة من يجيء الى المراكب من اهل الجزائر[2] وعدت ايضاً بين اسماء المراكب المشرين في الرحلة الطرابلسية وكانت معروفة في مصر في القرن الثالث عشر قال الجبرتي : رأوا عدة مراكب ونقاير وصلت الى قرب ساحل بولاق[3] .

هرهور

ضرب من السفن ذكر في المخصص لابن سيده (١٠ : ٢٦) .

الهوري

من اصغر سفن سواحل بحر اليمن[4]

ورحية

نقلت كذا في عداد اصناف المراكب التي نقلها الازدي في حكاية ابي القاسم (١٠٧) .

واسطية

من مرادفات اسماء السفن في احسن التقاسيم (٣١) وتدل تسميتها على عراقيتها ولا شك انها اول ما اتخذ نوعها في مدينة واسط .

---

١) العقد الفريد لابن عبد ربه ١ : ١٦٠ وجمع الجواهر في الملح والنوادر للحصري ٢٧٤

٢) كتاب الجماهر ٢٤٠

٣) عجائب الآثار ٢ : ١٢٢

٤)

ولجية

وردت كذلك في احسن التقاسيم (٣٢).

القرب المنفوخة والاخشاب المشدودة لركوب الماء

الرمث

« خشب يُشد بعضه الى بعض كالطوف ثم يركب عليه في البحر قال ابو صخر الهذلي :

تمنيت من حبي عُلَيَّة اننا على رمث في الشرم ليس لنا وفر

الشرم موضع في البحر والجمع ارماث »[١]

الشنان

« حدث ايوب المعلم قال : لما انهزمنا من مسكن ركبت شناناً من قصب فاذا الحسن على شاطئ دجلة فادنيت الشنان فحملته معي قال الحربي هو كهيئة الطوف . كلمة فارسية وهو خشب يُشدّ بعضه الى بعض ويركب »[٢].

الطوف

« قِرب ينفخ فيها ويشد بعضها الى بعض فتجعل كهيئة السطح يركب عليها الماء ويحمل عليها الميرة والناس ويعبر عليها وهو الرمث وربما كان من خشب والجمع اطواف »[٣] وفي اللسان « قال ابو منصور الطوف التي يعبر عليها في الانهار الكبار تسوى من القصب والعيدان يشد بعضها فوق بعض ثم تقمط بالقمط حتى يؤمن انحلالها ثم تركب ويعبر عليها وربما حمل عليها الجمل على قدر قوته وثخانته »[٤].

١) لسان العرب ٣ : ٤٦٠ – ٤٦١
٢) شفاء الغليل ٢١٠
٣) تاج العروس ٦ : ١٨٤
٤) اللسان ١١ : ١٣١

العامَة

« المعبر الصغير يكون في الانهار جمعه عامات .وفي المحكم : العامة هنة تتخذ من اغصان الشجر ونحوه يعبر عليه النهر وهي تموج فوق الماء .والجمع عام وعوم »[1] وربما قيل عامّة بالتشديد وعمامة والجمع عمائم كما في المخصص (١٠ : ٢٦) .

الكلك

مركب معروف عند العراقيين كالطوف من الفارسية وفي المنتظم لابن الجوزي :

« سنة ٥٥٢ (١١٥٧ م) خرج عسكر الخليفة في السفن ... وجاءتهم سفن من واسط فاقامت في المدائن ووصل لهم من الموصل كلك عليه دقيق وسكر وعسل ونعل الخيل وغير ذلك. فاخذه أصحاب الخليفة »(١٠ : ١٦٩ — ١٧٠). « سنة ٥٦٩ (١١٧٣ م) جاءت في هذه الايام اكلاك من الموصل فتاهت في الماء حتى بيع ما عليها بيعقوبا بثمن طفيف »(١٠ : ٢٤٧).

---

١) لسان العرب ٨ : ٤١٢ وتاج العروس ١٥ : ٢٢٧ — ٢٢٨

التربية عند ابن خلدون *

بقلم جمال المحاسب
استاذ الفلسفة بدار المعلمين (دمشق)

الباب الاول

علوم يستفيد منها المربي

تخصص الباب الاول للعلوم الوضعية التي يستند اليها المربي ويستفيد منها في إطلاق أحكامه التربوية . ونستمدّ ترتيب البحث من المبادئ المنطقية الحديثة . وبهذه الصورة نجمع آراء ابن خلدون المتشتتة بالترتيب الآتي:

١ – بيولوجية التربية
٢ – بسيكولوجية التربية
٣ – سوسيولوجية التربية

---

* خلاصة الاطروحة التي اجتاز بها المؤلف شهادة الادب المدرسي من معهد الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف .

الفصل الاول

بيولوجية التربية

Biologie d'éducation

١ – العقل والدماغ

لا يقبل ابن خلدون التعليل البيولوجي لعلاقة « العقل بالدماغ » . وهو يحمل على المسعودي لقبوله خفة السودان وطيشهم بضعف أدمغتهم . فيقول : « وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم ، وحاول تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحاق الكندي ، ان ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم . وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه . – مقدمة ص٨٧ »

فابن خلدون لا يفهم « اضعف الدماغ » معنى . فهل هو كما يقول العلم الحديث نقص في وزنه او فساد في بعض مراكزه أو نقص في فاعلية بعض خلاياه أو فساد في تركيبها وبنيتها ؟ – إن هذه الأدلة الوضعية لم تكن موجودة في عصر ابن خلدون – فاصطلاح « ضعف الدماغ » بالنسبة إليه اصطلاح ميتافيزياني ليس له برهان وضعي . فرفضه ولجأ إلى التعليل الفيزياني .

فقد لاحظ بالاستقراء صفات الأقاليم السبعة من خط الاستواء إلى القطب الشمالي . فرأى أن العقل ينمو في الأقاليم المعتدلة ويضعف في الأقاليم المتطرفة . فبحث عن سبب اختلاف الأقاليم . فاختلاف الحرارة سبب اختلاف العقول . وخلاصة نتيجته : « أن اعتدال الحرارة يؤدي إلى نمو العقل وشدتها أو ضعفها يؤديان إلى خلل العقل » .

هذه هي النتيجة . وهي ذات قيمة لو أن ابن خلدون وقف عند حد التجربة أي عند حد التعليل الوضعي الذي أراده . ولكنه لم يقف بل تجاوزه . أراد أن ينجو من التعليل الميتافيزياني فوقع في تعليل أكثر ميتافيزياً من تعليل المسعودي وجالينوس والكندي . ولو سمحنا لأنفسنا أن نقسم بحثه في تأثير

الحرارة إلى نصفين لقلنا إن النصف الأول خص به تأثير الحرارة على الجسم والنصف الثاني خص به تأثير الجسم على النفس .

ففي النصف الأول استند إلى التجربة ولم يخرج عنها . ولكنه في النصف الثاني استعمل اصطلاحات ميتافيزيائية أفسدت عليه التعليل التجريبي :

يقول ابن خلدون: « قد رأينا من خُلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق في كل قطر . والسبب الصحيح في ذلك :

١) أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه . وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه . وقد تقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته. ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه . وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح .

٢) نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور .

٣) لما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الاقليم الرابع أشد حرًا فتكون أكثر تفشياً فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً ويجيء الطيش على أثر هذه .

٤) وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية . لمّا كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة . واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فانها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب . . . ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في البلاد الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب .

– فالاستقراء ظاهر في تفكير ابن خلدون باتباعه أربع ملاحظات في تأثير الحرارة على الدماغ . لكن تعليله الفيزيولوجي لتأثير الدماغ على العقل لا يخضع لهذه الملاحظات الأربع. فكيف تتصل حرارة الهواء بالروح؟ وهل في الروح مادة كيمائية حتى يكون لها بخار فيتمازج بخاره مع بخار الهواء المتخلخل بالحرارة ؟؟

هذه الاسئلة ليس لها أجوبة عند ابن خلدون . ولعل الذي حدا به إلى استعمال « بخار الروح » و« حرارة الروح » و« تفشي الروح » اعتقاد ميتافيزيائي كان منتشراً في الفلسفة الإسلامية والفلسفة القديمة يعبر عنه ابن خلدون بقوله : « إن النفس ذاتٌ روحانية موجودة بالقوة إلى الفعل بالبدن وأحواله . وهذا أمر مدرك لكل أحد . وكل ما بالقوة فله مادة وصورة . وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل فهي توجد أولًا بالقوة مستعدة للادراك وقبول الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشوؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن – مقدمة ص ١٠٦ » .

ويمكن أن يؤخذ ايضاً على ابن خلدون نقصٌ آخر في الإحاطة . فهو حين يتحدث عن عدم التبصر في العواقب ينسب هذا الطيش إلى الحرارة فقط كسبب بسيط . فيقول مثلًا : « اعتبر ذلك بأهل مصر كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مأكلهم من أسواقهم . ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف افرطوا في نظر العواقب حتى ان الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة ان يُرزأ شيئاً من مدخره – مقدمة ص ٨٦–٨٧ » .

فالطيش والتبصر يرجعان الى سبب معقد مركب ذكر ابن خلدون ناحية منه دون ان يدري . ونسميه بالنيابة عنه « بالعامل الجغرافي » . إن البلاد التي تكثر فيها الثلوج يخشى اهلها فقدان المواصلات فيُعنون بالمؤونة السنوية ويحيطون أنفسهم دوماً بالحصار الاقتصادي . وبهذا المعنى يكون الانسان ابن بيئته الجغرافية . ولا نعلم كيف اكتفى ابن خلدون هذه المرة بذكر السبب

البسيط اي الحرارة كعامل فيزيائي مع انه يهتم كثيرًا في دراساته الأخرى بالعامل الجغرافي كسبب معقد مركب .

٣ - الذكاء والغذاء

يرجع ابن خلدون هنا إلى التعليل البيولوجي . فبعد أن يقرر أن الأقاليم المعتدلة هي الأقاليم التي يسكنها ذوو العقول الراجحة إجمالاً ، بعد أن يقرر ذلك يعنى في تفريق درجة هذه العقول . فيتوصل إلى سبب هام بنظره هو كثرة الغذاء وقلته . فكثرته تسبب البلادة وقلته تسبب الذكاء والنشاط الفكري ، وهو يستخرج نتيجته كما هي عادته من استقراء أمثلة كثيرة :

١ - « إعلم أن هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه ، وفيها الأرض الحرَّة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن والغرب الحائلين في القفار وسكان صحراء المغرب ... فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول إلّا أن ذلك في الأحايين وتحت ربقة من حاميتها وعلى الإقلال ... وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان وتُعوِّضهم من الحنطة أحسن معاض ... وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش ، فألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن ، وأخلاقهم أبعد من الانحراف ، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات . هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل » .

والسبب في ذلك كما يرى ابن خلدون هو أن كثرة الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة تنشأ عنها بعد إفطارها في غير نسبة ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة .

٢ - « واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والنعام

والمها والزرافة والحُمُر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بوناً بعيداً في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب أعضائها وحدة مداركها . فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير ، والحمار والبقر أخو الحمار والبقر ، والبون بينها ما رأيت ».

وما ذلك إلا لأن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والأخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره ، والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء .

٣ - إن الخشونة في الأجسام يرافقها البلادة في الأذهان ، وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم والحنطة ، مع أن المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة مثل المصامدة وأهل غمارة والسوس ... فتجد هؤلاء أحسن حالاً في عقولهم وجسومهم . – ص ٨٨ .

٤ – وكذا اهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسين في الأدم ... مع أن أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرة ... فتجد لهؤلاء أي أهل الأندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم .

٥ – وإن كان بعض الحضر والأمصار مخصبين في العيش مع ذكاء ... فإن استعمالهم الأدم بعد العلاج بالطبخ والتلطيف مما يذهب غلظها ويرق قوامها، وعامة مآكلهم لحوم الضأن والدجاج ولا ينبطون السمن من بين الأدم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويخف ما تؤديه إلى أجسامهم ...

فابن خلدون يستخرج نتيجته من الأمثلة السابقة ويجعلها ذات قيمة لكثرة الأمثلة التي يستند إليها . وقد تبدو هذه النتيجة لأول وهلة كأنها مخالفة لنتائج التربية الحديثة . إذ كيف تكون قلة الغذاء مساعدة لنشاط الفاعلية الفكرية مع أن العلم الحديث ينظر إلى قلة الغذاء كعامل مضعف للنشاط الجسمي والنشاط الذهني ؟

ـــ الواقع ان نظرية ابن خلدون هي « رد فعل » لحوادث البطنة التي كانت تكثر لأهل زمانه مع كثرة الخيرات في عهودهم . والنظرية الحديثة

هي « رد فعل » أيضاً لحوادث « التقتير » التي جرت في أوربا عن الأزمات الاقتصادية التي كان لها أثر في ضعف أجسام الفقراء، وبالنتيجة في ضعف أذهانهم. يضاف إلى ذلك أن الأقاليم الباردة الأوربية يلائمها كثرة الغذاء، والأقاليم الحارة الجنوبية لا يلائمها إلّا قلة الغذاء. فنتيجة ابن خلدون صحيحة في زمانها ومكانها. وهي صحيحة مطلقاً من حيث أن كثرة الغذاء تؤدي إلى فساد الجسم، وفساد الجسم يرافقه فساد الفكر.

٣ – النفس والجسم

نلاحظ مما سبق أن ابن خلدون يعترف بتأثير الجسم على النفس رغم اعتقاده مع الفلاسفة الإسلاميين أن الروح شيء منفصل عن الجسم.

أما اعتقاده بانفصالية الروح فقد عبر عنه في أماكن عديدة من المقدمة. منها « الإنسان مركب من جزأين: أحدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به. والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني. والجزء الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية. إلّا ان المدارك الروحانية يدركها بذاته وبغير واسطة، والمدارك الجسمانية يدركها بواسطة آلات الجسم من دماغ وحواس».

« إذا خرجت النفس من الجسد مات وبرد ولم يقدر على الحركة ... — والنفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن ... — والموت إنما هو افتراق النفس عن الجسد ».

ويشرح ابن خلدون تأثير الجسم على النفس كما يشرح أيضاً تأثير النفس على الجسم. بمعنى أن تأثير أحدهما على الآخر إنما هو تأثير متبادل:

١ – فمن حيث تأثير الجسم على النفس يذكر الرياضة البدنية عند البدو: « فالرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم في حاجاتهم، فيحسن بذلك كله الهضم ويجود، فتكون أمزجتهم أصلح.

ثم يذكر أثر التقشف في نمو العاطفة الدينية: « فالمتقشفون من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة من أهل الترف والخصب، بل نجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما

بعضها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأدم وألباب البر . ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي – ص ٨٩ ».

ثم يذكر أثر التهيج الجسمي في التهيج النفسي ، سارداً الوصايا التي يوصيها القواد للجنود أثناء الحرب . منها وصية علي بن ابي طالب وتحريضه لأصحابه يوم صفين « عضوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف ، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش ... وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ... » — ومنها وصية الأشتر يوم تحريضه الأزد « عضوا على النواجذ من الأضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين ... ص ٢٧٥ ».

وأخيراً يذكر أثر الاصوات الاصطناعية التي تؤثر على الحواس وبالنتيجة تؤثر على النفس كما تؤثر الخمرة على النفس بطريق الجسم : « النفس عند سماع النغم والاصوات يدركها الفرح والطرب فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت في ذلك الوجه الذي هو فيه . وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم بانفعال الإبل بالحداء ، والخيل بالصفير والصريخ . ويزيد على ذلك تأثيراً إذا كانت الاصوات متناسبة كما في الغناء . وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى . لاجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقية ، لا طبلاً ولا بوقاً ... والغناء يبعث في النفس الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح . ص٢٥٨ ».

٢ – ومن حيث تأثير النفس على الجسم يذكر آثار الفاعلية النفسية في الحركة الجسمية . وهو يرسم خطوطاً عامة لهذا التأثير منها قوله : « الفعل الصناعي مسبوق بتصورات ». «التصور والارادات أمور نفسانية ، ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضاً » . « من شروط الصناعة أبداً تصور ما يقصد إليه بالصنعة ، ومن الأمثال السائرة للحكماء أن أول العمل آخر الفكرة ، وآخر الفكرة أول العمل . وأبرز آثار الفاعلية النفسية « البطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعاً ... كل ذلك من تأثير النفس في الجسم ».

ولا يكتفي برسم خطوط عامة بل يذكر حالات خاصة أحياناً في ثنايا

مقدمته . منها « أن الماشي على حائط إذا قوي عنده توهم السقوط سقط بلا شك . . .» وإن الساحر يعمد إلى التأثير على القوى المتخيلة . . ص٤٩٠—٥٠٠» .

الفصل الثاني

بسيكولوجية التربية

Psychologie d'éducation

١ – من الحيوان الى الانسان

لقد ميز قدماء المفكرين ، الإنسان عن الحيوان ، « بالعقل والنطق » . أي بالحوادث البسيكولوجية التي تتفوق على الحوادث الفيزيولوجية بترتيب النشوء والارتقاء . وقد تعمق ابن خلدون في هذا الموضوع واستطاع أن يحلل الناحية البسيكولوجية في الإنسان تحليلاً له قيمته في العالم الحديث :

١ : إن الإنسان شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والسكن وغير ذلك . إنما تميز الإنسان عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه ، والتعاون عليه بابناء جنسه ، والاجتماع المهيئ لذلك التعاون ، وقبول ما جاءت به الانبياء عن الله تعالى ، والعمل به ، واتباع صلاح أخراه ، وهو يفكر في ذلك كله ، لا ينفتر عن الفكر فيه طرفة عين ، بل إن اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر » .

٢ : إن الإنسان تميز عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأ كماله ونهاية فضله وشرفه . والحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها بما ركب الله فيها من الحواس الظاهرة (السمع والبصر والشم والذوق واللمس). ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسه ، وذلك بقوى جعلت له في بطون دماغه — ص ٣٦٤ طبعة كاترمير » .

٣ : لما كان الانسان متميزاً عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها ، فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به ، ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين

الحيوانات كلها إلّا ما يقال عن النحل والجراد وهذه وإن كان لها مثل ذلك « فبطريق إلهامي » لا بفكر وروية — ص ٤١ » .

٤ : إن الحيوانات إنما تدرك بالحواس ، ومدركاتها خالية من الربط ، لأنه لا يكون إلّا بالفكر ، ص ٣٦٤ كاترمير » .

٥ : لما كان العدوان طبيعياً في الحيوان ، جعل الله سبحانه ، لكل واحد منها عضواً يختص به بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره ، وجعل للإنسان عوضاً عن ذلك « الفكر واليد » . فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر ، والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع ، مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة ، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة ، والتراس النائبة عن البشرات الجاسية .

وقد عالج الفيلسوف برغسون علاقة اليد بالفكر ، معالجة حديثة في القرن الأخير ، لا تختلف في أسسها عن الدراسة التي بدأها ابن خلدون . يقول برغسون :

إن « الفكر » في سبيل التكيف مع الحياة ، يساعد الإنسان على اتخاذ آلات من الجمادات الخارجة عن كائنه الحيوي ، وذلك حين لا تكتفي اليد ، خلافاً لما هي الحال في « الغريزة » عند الحيوان التي تتخذ آلات من أجزاء الكائن الحي نفسه .

٢ – مراتب الفكر الإنساني :

يلاحظ ابن خلدون في الفكر الإنساني ثلاث مراتب . اثنتان منها تصلانه مع المحيط الواقعي . والثالثة تصله مع ما وراء الطبيعة .

فالأولى وهي « العقل التمييزي » تجعله في الواقع الوضعي فيدرك الأشياء الخارجية ويتعلم خواصها ، ويفهم طريقة الاستفادة منها ، وطريقة الدفاع عن نفسه أمام أخطارها . — وتسمى هذه المرتبة في الاصطلاحات الحديثة « بالتفكير التجريبي » تمييزاً لها عن « التفكير المثالي » الذي ينتقد الأشياء ليميز صالحها وطالحها كالتفكير الأخلاقي مثلاً . فابن خلدون يخالفنا في اصطلاحاته السابقة لأنه يسمي العقل التجريبي « عقلاً تمييزياً » ثم يسمي العقل التمييزي بنظرنا ،

أي التفكير المثالي ، يسميه « عقلاً تجريبياً » وهو ما نشرحه في المرتبة الثانية .

فالمرتبة الثانية وهي « العقل التجريبي » ، كما يرى ابن خلدون ، لأنها تنظر إلى الواقع الأخلاقي وتستفيد من تجارب الإنسان في حياته ، حينئذ يفهم الفضائل ويرجحها على الرذائل ، ويعلم « ما ينبغي فعلاً وتركاً » وما هي المعاملات المثلى الواجب اتباعها مع بني جنسه .

أما المرتبة الثالثة فهي « العقل النظري » تستهدف ما وراء الحس ، وتصور الموجودات على حقيقتها العقلية وتساعد على استقصائها باجناسها وفصولها وأسبابها وعللها . وبكلمة واحدة « تصور الوجود على ما هو عليه غائباً وشاهداً » .

ويتوسع ابن خلدون في بيان أن هذه المرتبة الثالثة لا توجد إلّا في حياة الحضر حيث تنضج العلوم . وقد لخّص الدكتور طه حسين بيانه بأسطر نثبت منها ما يلي :

قال طه حسين[1] : « ان ابن خلدون يرى في الإنسان ثلاثة أنواع للفهم : الفهم المميز الذي يميز به مسائل خاصة ، والتجريبي الذي يطبق على الطرق العادية للحياة كالعادات التي تتعلق بمعاملة الأفراد بعضهم بعضاً ، ويكتسب هذان النوعان من الفهم بسهولة تامة ويوجدان في حياة البدو ولكنهما يرتقيان وينتظمان في حياة الحضر . والثالث هو الفهم النظري الذي يؤلف العلائق بين الأفكار العامة . ومن هذه العلائق يستخرج الأفكار العامة التي تؤلف العلوم المختلفة . ولا يوجد هذا النوع إلّا في حياة الحضر لأنه من بعض الوجوه نتيجة لبعض الظواهر التي تحدث فيها فالاضطرار إلى العمل ، وتعقيد الحضارة ، والفراغ الذي يجده بعض الناس في حضارة الحضر للتفكير والتأمل ، كلها ظواهر تدفع هذه الملكة من القوة إلى الفعل ، وهذا هو السر في أننا لا نجد مطلقاً علماً ناضجاً في قبيلة بدوية محضة » .

٣ – الفطرة والوراثة :

لا يعتقد ابن خلدون كثيراً بالفطرة الفردية والوراثة الناتجة عن النسل والنسب . فهو وإن كان يعترف أحياناً بالمواهب التي يمتاز بها بعض الناس ،

١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ١٥٨

وتأثير الوراثة في الاسرة ، إلّا أن اعترافه بآثار التربية ، كما يظهر من ثنايا مقدمته ، أعم وأعمق . وإذا قرأنا مقدمته من أولها إلى آخرها لا نجده يبحث عن المواهب الفردية فطرةً ، إلّا في أماكن قليلة محدودة ، بينما هو يبحث عن آثار الاكتساب في كل المناسبات ؛ بل لا يكاد يخلو فصل من فصول مقدمته عن البحث في آثار التربية كالعادة والممارسة والتقليد . . . وآثار المجتمع كيف يُكسب الفرد طابعاً خاصاً ويجعله نسخة طبق الأصل عن جماعته .

فابن خلدون يمكن أن يوضع في زمرة التجريبيين empiristes الذين يعتقدون أن النفس إنما تولد صفحة بيضاء ويأتي المحيط فيكتب خطوطها عليها بمقتضى أحواله .

وقبل تفصيل آرائه في هذا الاتجاه ، نذكر أولاً أقواله في أثر الفطرة والوراثة . وهي أقوال لأنها محدودة نادرة ، لا تحملنا على اتهامه بالتناقض ؛ بل تجعلنا نكرر ما قاله الدكتور طه حسين ، حين لاحظ أن ابن خلدون يدرس «الدولة» دراسة تجريبية ولكنه يخرج أحياناً عن حدود التجربة ليبرر معجزات الدولة الإسلامية . قال طه حسين[1] : « يترك ابن خلدون الطريقة التجريبية أحياناً ليستخدم ما وراء الطبيعة والكلام ، ولا سيما فيما يعتقد أنه يخرج تماماً عن دائرة الاختبار ، فالتجربة تريه أن دولة فتية تنفق دائماً زمناً طويلاً في فتح دولة أعتورها الاضمحلال ولكنه يقرر من جهة أخرى أن الدولة الإسلامية الناشئة فتحت في ظرف ثلاثين عاماً كل الدولة الفارسية وقسماً كبيراً من دولة الروم ويضطر إلى أن يلتجئ إلى علم الكلام ليبرهن أن ذلك الحادث لا يدحض من يقينه إذ هو نتيجة معجزة » .

فابن خلدون في دراسته التربوية يخرج مثل هذا الخروج متأثراً بتفكيره الديني وعواطفه السياسية . وما عدا هذه الحال فهو تجريبي عملي . ولا شك أننا نأخذ عليه تناقضات في دراساته الميتافيزيائية ولكن مثل هذه الانتقادات خارجة عن موضوعنا الآن لأننا نجمع آراءه في التربية لا في الفلسفة .

١ — أما أقواله في أثر الفطرة والوراثة فهي ١ : اصطلاح أدبي يستعمل

١) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ٦١

مرة واحدة في مقدمته ص٩ وهو « حظوظ المواهب » . ٢ : وفي موضع آخر يتكلم عن الرشيد فيقول : « والرشيد وآباؤه كانوا على نهج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب — ص ١٨ » . ٣ : وفي موضع ثالث يتكلم عن الرسل والأصفياء من البشر فيقول : « إعلم أن الله سبحانه وتعالى اصطفى من البشر اشخاصاً فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته — ص ٩١ » ومن علاماتهم أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع ، وهذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات لها كأنها منافية لجبلته — ص ٩٣ » .

٢ — تلك هي أقواله المحدودة في أثر الفطرة والوراثة . وقبل الانتقال إلى أقواله في أثر التربية والاكتساب ، نذكر مثالا واحداً عن تناقضاته الميتافيزيائية ، له علاقة بسيطة بالموضوع الذي تدور حوله . وهو « قضية الخير والشر » هل أحدهما فطري في الإنسان أم مكتسب ؟ ففي هذه القضية وقع في التناقض كما وقع جان جاك روسو .

يقول ابن خلدون في بعض المواضع : « إن أهل البدو أقرب إلى الفطرة الاولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضر . وقد يتوضح فيما بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير . — وبكلمة واحدة « إن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر — ص ١٢٣ » .

ثم يقول في موضع آخر « إعلم ان الله سبحانه وتعالى ركّب في طبائع البشر الخير والشر . والشر أقرب الخلال إليه إذا اهمل في مرعى عوائده ولم يهذبه الاقتداء بالدين . ومن اخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض — ص ١٢٧ »

ثم يقول في موضع ثالث « لما كان الملك طبيعياً للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع وكان الانسان أقرب الى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لان الشر انما هو جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه ،

وأما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب . والملك والسياسة انما كانا من حيث هو انسان لانهما للانسان خاصة لا للحيوان . فاذن خلال الخير هي التي تناسب السياسة والملك . ص ١٤٢ ».

فمن الفقرة الأولى يتبين ان ابن خلدون يعتبر الفرد صالحاً في فطرته وانما المجتمع هو الذي يفسده .

ومن الفقرة الثانية يتبين ان ابن خلدون يعتبر الفرد شريراً في فطرته وإنما المجتمع والاقتداء بالدين هو الذي يصلحه .

ومن الفقرة الثالثة يتبين ان ابن خلدون يعتبر الفرد صالحاً في فطرته لانه انسان ولانه حيوان اجتماعي . أما من حيث هو حيوان حيواني فشرير بالطبع . فالمجتمع منبع للخير اذن .

فابن خلدون في الفقرة الاولى إذ يعتبر المجتمع والحضارة من منابع الشر يناقض نفسه في الفقرتين الثانية والثالثة إذ يعتبر المجتمع والحضارة من منابع الخير ؛ وما عدا هذه الاعتبارات نجد ابن خلدون في جميع اقواله يعترف بآثار الاكتساب من المحيط . وكثيراً ما نقرأ له هذه الجمل « الانسان ابن عوائده » « الانسان ابن بيئته » « الانسان متهيئ لقبول ما يرد عليه وما ينطبع فيه من خير وشر » . الخ . . .

٣ – ويمكن تصنيف الجانه بصفته مفكراً تجريبياً empiriste بالنواحي الاساسية الآتية :

١ً) رأينا في الفصل السابق كيف يعترف ابن خلدون بآثار التقشف والجوع في نشاط الذهن وصفاء الذكاء .

٢ً) له في « العادة » و« تكون الملكات » دراسة قيمة نفرد لها بنداً خاصاً في هذا الفصل بعد قليل .

٣ً) له في « أثر المجتمع بالفرد » دراسة قيمة نفرد لها فصلاً خاصاً هو الفصل الثالث وعنوانه « سوسيولوجية التربية » Sociologie d'éducation وقد برز ابن خلدون في هذا الموضوع بشكل اختصاصي .

٤ – العادة :

١ – ان النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون. فإذا حصل لها الاعتياد على الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعة لها. وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلّا إذا حملت النفس عليه دفعة وقُطع منها الغذاء بالكلية... اما إذا كان ذلك القدر تدريجاً ورياضة بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً كما يفعله المتصوفة فهو بمعزل عن الهلاك.

وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فإنه إذا رجع به الى الغذاء الاول دفعة خيف عليه الهلاك وانما يرجع كما بدأ الرياضة بالتدريج – ص ٩٠

٢ – إن الاغذية وائتلافها أو تركها ، انما هو بالعادة . فمن عوّد نفسه غذاء ولاءمه تناوله كان له مألوفاً وصار الخروج عنه والتبدل به داء ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم ، وما أفرط في الانحراف . فأما ما وجد فيه التغذي والملاءمة فيصير غذاء مألوفاً بالعادة – ص ٩٠

٣ – الأفعال لا بد ان تعود آثارها على النفس . فأفعال الخير تعود بآثار الخير والزكاء ، وافعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك فتتمكن وترسخ إن سبقت وتكررت ، وتنقص خلال الخير ان تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة في النفس شأن الملكات الناشئة عن الافعال – ص ٣٩٩

٤ – والعوائد انما تكثر رسوخاً بالتكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الاجيال . واذا استحكمت الصّبغة عسر نزعها . ص ٤٠١

٥ – ان اكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته ، او يكون عاجزاً عنها لما رُبي عليه من خُلق التنعم والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويُقطعه عليه أجراً من ماله . وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للانسان... إلّا ان العوائد تقلب طباع الانسان الى مألوفها فهو ابن عوائده لا ابن نسبه . ص ٣٨٤

٦ – واذا اتخذوا الدّعة والراحة مألفاً وخلقاً ، صار لهم ذلك طبيعة

وجبلة ، شأن العوائد كلها وإيلافها فتربى اجيالهم الحادثة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الافتراس وركوب البيداء وهداية القفر . . ص ١٦٩

٧ — ان النفس وان كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الادراكات . واختلافها انما هو باختلاف ما يرد عليها من الادراكات والملكات والالوان التي تكيفها من خارج . فهذه الصورة يتم وجودها وتخرج من القوة الى الفعل صورتها . ص ٥٧٨

والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال . لان الفعل يقع أولا ، وتعود منه للذات صفة . ثم تتكرر ، فتكون حالا . ومعنى « الحال » انها صفة غير راسخة (ص ٥٥٤) واذا استقرت ورسخت في محالها ، ظهرت وكأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل . ص ٥٦٢

الفصل الثالث

سوسيولوجية التربية

Sociologie d'éducation

١ — التقليد والمحاكاة :

درس ابن خلدون قوانين التقليد واوضح تأثيره في تطور الجماعات والمجتمع، كما فعل ذلك من بعده العالم الاجتماعي تارد Tarde .

ولابن خلدون آراء في مضار التقليد ينتبه اليها المعاصرون من المفكرين ويعالجها المؤلفون في الكتب المدرسية بحروف بارزة .

خصائص التقليد : ١) التقليد عريق في الآدميين قديم . ص ٤

٢) السبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه . وأهل السلطان اذا استولوا على الامر فلا بد ان ينزعوا الى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ، ولا يغفلون عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة . وما دامت الاجيال تتعاقب فالمخالفة المتدرجة واقعة . ص ٢٩

٣) أهل البدو ابدًا يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة . فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون . ص ١٧٢

٤) النفس ابدًا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت اليه. إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادًا ، انتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به . وذلك هو « الاقتداء » .

وتأمل في قول المثل « العامة على دين ملوكهم » فإنه من بابه اذ الملك غالبٌ لمن تحت أمره والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم . ص ١٤٧

٢ – مضار التقليد :

١ – المحاكاة طبيعة معروفة ومن الغلط غير مأمونة . تُخرج الانسان مع الذهول والغفلة عن قصده – ص ٢٩

٢ – من كان حظه الاقتداء خاصة يقصر تقصير المقلد عن المجتهد . ص ١٣٧

٣ – ولا يكفي من العلم إلّا ان يكون الإمام مجتهدًا . لان التقليد نقص . والامامة تستدعي الكمال في الاوصاف والاحوال . ص ١٩٣

٤ – ومن اتى بعد اكابر العلماء السابقين ، ليس الا مقصرًا بليد الطبع والعقل ، او متبلدًا . ينسج على ذلك المنوال ويحتذي منه الأمثال . ص ٥

٣ – الحياة الاجتماعية والاخلاق :

١ – أهل الترف يؤثرون الراحة على المتاعب ويتأنقون في احوال الملابس والمطاعم والآنية . ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم الى اجيالهم . ص ١٦٧

٢ – ... ذلك كله إفراط الحضارة والترف . وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الأسواق والعمران . وأما فساد أهلها في ذاتهم واحدًا واحدًا على الخصوص ؛ فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من الوانها. فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه وغير وجهه وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه

واستجماع الحيلة له فتجدهم أجريا. على الكذب والمقامرة والفسق والخلابة والسرقة والفجور في الايمان والربا في البياعات... ص ٣٧٢

٣ — يموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم ممن أهمل عن التأديب وغلب عليه خُلق الجوار وإن كانوا أهل أنساب وبيوتات. وذلك أن الناس بشر متماثلون. وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل. فمن استحكمت فيه لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته. ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة منطرحين في الغمار منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما فسد من اخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة

٤ — إن غاية العمران هي الحضارة. والترف إذا بلغ غايته انقلب الى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات. بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد. لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته إما عجزاً لما حصل له من الدعة أو ترفعاً لما حصل له من المربى في النعيم والترف. وكلا الأمرين ذميم... ص ٣٧٤.

عكس النظرية صحيح. لأن قلة الترف وصعوبة الحياة مما يدعو إلى العمل والجد والشجاعة في الأصل:

١ — في الدولة المتجددة ينقص الترف فيرجع الملك، والرعايا تبع للدولة، إلى خُلق الدولة إما طوعاً لما في طباع البشر من تقليد متبوعهم أو كرهاً لما يدعو إليه خُلق الدولة من الانقباض عن الترف في جميع الأحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد فتقصر لذلك حضارة المصر ويذهب كثير من عوائد الترف... ص ٣٧٥.

٢ — إذا كان أهل الحضر يلقون جنوبهم على مهاد الراحة والدعة... وينزلون منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم، فإن أهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبُعدهم عن الحامية وانتباذهم عن

الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم... ص ١٢٥

٣ — لما كانت البداوة سبباً في الشجاعة كما قلناه، فلا جرم أن الجيل الوحشي أشد شجاعة من الجيل الآخر. فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في ايدي سواهم من الأمم. بل إن الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار فكلما نزلوا الأرياف وتفنقوا النعيم وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم. اعتبر ذلك في الحيوانات العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحمر إذا زال توحشها بمخالطة الآدميين وأخصب عيشها كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة حتى في مشيتها وحسن أديمها. وكذلك الآدمي المتوحش إذا أنس وألف. ص١٣٨

٤ — المهنة والاخلاق:

١ — إن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء. ولا بد فيه من المكايسة ضرورة. فإن اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها. وهي أعني خلق المكايسة بعيدة عن المروءة التي تتخلق بها الملوك والأشراف. وأما إن استرذل خلقه بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم من المماحكة والفسق والخلابة وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأثمان رداً وقبولاً فأجدر بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة، لما هو معروف. ولذلك تجد أهل الرئاسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لأجل ما يكسب من هذا الخلق. وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم جلاله إلا انه في النادر بين الوجود — ص ٣٩٦.

٢ — اهل الدين والعلم لا تضطر إليهم العامة من الخلق وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن اقبل على دينه... وهم أيضاً لشرف بضائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظاً يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ اوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على إعمال الفكر والبدن بل ولا يسعهم ابتذال انفسهم لأهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم بمعزل عن ذلك، فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب. ص ٣٩٣.

الباب الثاني

نواحي التربيـــة

نخصص الباب الثاني للتربية العملية كما رسم موضوعها وطرائقها ابن خلدون. ونتبع الترتيب المدرسي في جمع شتات الآراء التي عرضها في مقدمته فنحصل على الترتيب الآتي:

١ – التربية الخلقية
٢ – التربية الفكرية
٣ – التربية الفنية

الفصل الاول

التربية الخلقية

Education Morale

يرى ابن خلدون أن الأخلاق المثلى هي الأخـلاق التي يبنيها المربي على الدين . وابن خلدون يتخذ من الدين أساساً للأخلاق الناجحة كما يتخذ من الدين أساساً للسياسة الناجحة . وهو متدين في الأصل . وتربيته التي تلقاها في طفولته وشبابه إنما هي تربية دينية متينة . وقد أراد الدكتور طه حسين ان ينفي عنه هذه التربية الدينية إلّا ان هذا النفي لم يرتكز على حوادث مقنعة[1]. وقد ناقشها الاستاذ البستاني وأكد ان ابن خلدون « تأثر وتأثر جداً بتربيته الدينية حتى رافقه هذا التأثر في إعطاء احكامه في مختلف نواحي تفكيره — الروائع ١٣ ص: ف ».

ويؤكد مثل هـذا التأكيد الاستاذ ساطع الحصري في كتاب ظهر له حديثاً ١٩٤٤ بعنوان « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » — فقـال : « ان مقدمة ابن خلدون بهيأتها المجموعة ، تدل دلالة واضحة على ان مؤلفها مؤمن قوي الإيمان . إنه يؤمن بالله وبالاسلام إيماناً راسخاً عميقاً . وآثار هذا الايمان ودلائله بارزة للعيان في جميع فصول المقدمة . ولا يوجد في تلك الفصول فقرة واحدة يمكن ان تعتبر دليلًا على ان ابن خلدون قـد خامره الشك في الله والدين ، ولو لحظة واحدة في مسألة واحدة . . . — ج٢ ص ١٥٠ »

---

١) يقول الدكتور طه حسين ان ابن خلدون مثلًا « لم يأنف من ارتكاب الخيانة التي حرّمها القرآن ، متى رآها وسيلة لنيل السلطة ».

يردُّ عليه الاستاذ فؤاد البستاني قائلًا : « لو أمعن الدكتور نظره قليلًا ، في عقلية ذاك العصر ، لأدرك أن تلك الأعمال ، التي ندرجها نحن والأخلاقيون والقرآن بـزمرة في بـاب الخيانة ، لم تكن تُعتبر ، في تلك الظروف ، إلّا من الطرق المشروعة للفوز بالسلطة ، بل هي لا تعتبر اليوم ، في عصرنا المتمدن ، إلّا من باب الدهاء السياسي . وفضلًا عن هذه الاعتبارات ، فان ابن خلدون نفسه لا يموّه في ذكرها ولا يتكلف إخفاءها ، ولا التخفيف منها . »

١ – الوازع الديني :

يأتي ابن خلدون بأمثلة كثيرة عن تأثير الوازع الديني نجمع منها ما يلي :

١ – ... فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك . وان الأمر كان في اوله خلافة . ووازع كل احد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يؤثرونه على امور دنياهم . – ص ٢٠٧ مقدمة » .

٢ – وإنما صار العرب إلى سياسة الملك بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية ، جعلت الوازع لهم من انفسهم وحملتهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض . ص ١٥٢ .

٣ – الشر اقرب الخلال الى الإنسان اذا لم يزدبه الدين . – ص ١٢٧ .

٢ – الملكات الدينية والملكات الأخلاقية :

ان تعلم النظريات الدينية والأخلاقية مرحلة غير كافية بنظر ابن خلدون. فالمهارة في التربية على اختلاف نواحيها انما هي في « تعويد العادات » .

١ – المعتبر في التوحيد ليس هو الايمان فقط الذي هو تصديق حكمي . فان ذلك من حديث النفس . انما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس . كما ان المطلوب من الأعمال والعبادات ايضاً حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانياً .

٢ – الفرق بين الحال والعلم بالعقائد فرقٌ ما بين القول والاتصاف . وشرحه : ان كثيراً من الناس يعلم ان رحمة اليتيم والمسكين قربة الى الله ويقول بذلك ويعترف . وهو لو رأى يتيماً او مسكيناً من ابناء المستضعفين لفرّ عنه واستنكف ان يباشره . – فضلاً عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة فهذا انما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف .

٣ – ومن الناس من يحصل له ، مع مقام العلم والاعتراف بان رحمة المسكين قربة الى الله ، « مقام آخر اعلى من الأول » وهو : الاتصاف بالرحمة ، وحصول

ملكتها . فمتى رأى يتيماً او مسكيناً بادر اليه ومسح عليه، والتمس الثواب في الشفقة عليه لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده – ص ٤٦١

٤ – وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به . والعلم حاصل عن الاتصاف ضرورة – وهو اوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف.

وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم . . . حتى يقع العمل ويتكرر مراراً . فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق . وهكذا فان العلم المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع . والمطلوب انما هو العلم الحالي الناشئ عن العادة . – ويكون الكمال في المواظبة على العبادات والتكاليف القلبية والبدنية . . . واخيراً تستقر ملكة الايمان ويعسر على النفس مخالفتها شأن الملكات اذا استقرت فانها تحصل بمثابة الجبلة والفطرة – خلاصة ص ٤٦٠ – ٤٦٣ » .

٣ – الشدة مُضِرَّة في التربية والسياسة معاً .

لا ينكر ابن خلدون ضرورة العقاب في التربية ولا في السياسة . وانما ينكر اتباع الشدة في العقاب .

اما اعترافه بضرورة العقاب فنأتي له بمثالين :

اولاً : ايراده وصية الرشيد لمعلم ولده : « لا تمرنَّ بك ساعة الا وانت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير ان تحزنه، فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فان اباهما فعليك بالشدة والغلظة » ص ٥٤١ .

ثانياً : رأيه في تنظيم الاجتماع البشري : « ان الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران . . . ولا بد للبشر من وازع حاكم يرجعون اليه . وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً الى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مُبلّغه . وتارة الى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم . ص ٣٠٣ .

اما انكاره الشدة في التربية والسياسة فنجمع عنه ما يلي :

١ – ان ارهاف الحد بالتعليم مضر بالتعليم ، سيما في اصاغر الولد . ان ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له على الاكثر – ص١٨٨ ».

٢ – من كان مرباه بالعسف والقهر ، من المتعلمين او المماليك او الخدم ، سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه الى الكسل وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الايدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك . وصارت له عادة وخلقاً وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالاً على غيره في ذلك .

بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيتها ، فارتكس وعاد في اسفل السافلين – ص ٥٤٠.

٣ – اذا كان الملك قاهراً باطشاً بالعقوبات منقباً عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم ، شملهم الخوف والذل ، ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة ، وتخلقوا بها وفسدت بصائرهم – ص ١٨٨ .

٤ – اذا كانت الاحكام بالعقاب فمُذهبةٌ للبأس بالكلية لان وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك . اما اذا كانت الاحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثّرت في ذلك بعض الشيء لمرباه على المخافة والانقياد فلا يكون مدلاً ببأسه . ص١٢٦

الفصل الثاني

التربية الفكرية

Education intellectuelle

لم يرسم ابن خلدون برنامجاً للعلوم التي ينبغي ان تكون موضوعاً للتربية الفكرية بحسب درجاتها . وقد عني بذلك الغزالي وقسم العلوم الواجب تحصيلها الى قسمين : منها فرض عين كالعلوم الشرعية واللغوية والادبية التي يحتاج اليها الانسان في حياته العملية . ومنها العلوم الاختصاصية كالطب ؛ فهذه فرض

كفاية ؛ اي يكفي عدد محدود من الناس تعلمها اماً الاولى اي التي هي فرض عين فعلى كل انسان بعينه ان يتعلمها .

غير ان ابن خلدون حين قسم العلوم « تقسيماً منطقياً » تعرّض الى ناحية تربوية هامة ؛ واوضح ان هناك علوماً هي وسيلة لسواها فينبغي ان لا يتوسع فيها كل انسان . اذ لا شيء اضر على الانسان اكثر من « اعتبار الوسيلة غاية » .

١ — ان العلوم المتعارفة بين اهل العمران على صنفين: ١ : علوم مقصودة بالذات كالشرعيات والطبيعيات والالهيات ، ٢ : علوم هي وسيلة لهذه ؛ كالعربية والحساب والمنطق واصول الفقه .

فالعلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الادلة والانظار . فان ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وايضاحاً لمعانيها المقصودة .

اما العلوم التي هي آلة لغيرها من العربية والمنطق وامثالها فلا ينبغي ان يُنظر فيها الّا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط . ولا يوسع فيها الكلام ولا تُفرع المسائل لان ذلك يخرج لها عن المقصود . وكلما خرجت عن المقصود صار الاشتغال بها لغواً مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذاتٌ ... لان العمر يقصر عن تحصيل الجميع بصورة منفصلة .

وهذا ما وقع فيه المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه لانهم اوسعوا دائرة الكلام فيها واكثروا من التفاريع والاستدلالات بما اخرجها عن كونها آلة وصيّرها من المقاصد وربما يقع فيها انظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع اللغو .

٢ — وهذه العلوم التي هي آلة ... هي مضرة بالمتعلمين على الاطلاق لان المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة اكثر من اهتمامهم بوسائلها فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فتى يظفرون بالمقاصد ؟ فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية ان لا يستبحروا في شأنها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده .

ومن نزعت به همّته بعد ذلك الى شيء من التوغل فليرقَ له ما شاء من المراقي صعباً او سهلاً... عن (ص٥٣٧).

١ – تعليم القرآن :

ان جميع المفكرين الاسلام متفقون في تاريخ التربيـة الاسلامية على ان القرآن هو الكتاب الاول الذي يبتغيه كل طالب . والقرآن يمكن اعتباره في العصور الاسلامية كتاباً يحتوي على الثقافة الكافية التي كان يحتاج اليها المسلم في حياته الاجتماعية والعملية . فهو لما يحويه من معلومـات حقوقية وتاريخية واخلاقية... كان يحل مشاكل الافراد في علاقاتهم بعضهم مع بعض .

فابن خلدون لم يتردد ابدًا في اعتباره ايضاً الكتاب الوحيد الذي يمكن ان يعمد اليه الانسان ليكون رجلاً مثقفاً ؛ بشرط ان لا يهمل العلوم الآلية التي تساعد على تفهم القرآن.

والفرق بين ابن خلدون وابي بكر العربي هو أن أبا بكر يرى تأجيل تعلم القرآن بعد ان يكون الصبي قد فهم اللغة العربية والشعر والعلوم الآلية المساعدة على تفسير القرآن ؛ وبعد ان يكون قد درس الحساب ايضاً ؛ حينئذ ينضج ذهنه ويستحق ان يبدأ بكتاب الله عز وجل.

اما ابن خلدون فانه يرى البدء بتعلم القرآن رغم صعوبات هذه الطريقة : « اعلم ان تعليم الولدان للقرآن شعار الدين اخذ به اهل الملة ودرجوا عليه في جميع امصارهم لما يسبق فيه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الاحاديث وصار القرآن اصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات ».

وسبب ذلك ان التعليم في الصغر اشد رسوخاً وهو اصل لما بعده لان السابق الاول للقلوب كالاساس للملكات وعلى حسب الاساس واساليبه يكون حال من ينبني عليه

ويظهر من اقوال ابن خلدون انه يعطف على طريقة ابي بكر بن العربي وكاد يحبذها لولا بعض المحاذير .

قال ابن خلدون : « لقد ذهب القاضي ابو بكر بن العربي في كتاب رحلته

الى طريقة غريبة في وجه التعليم . واعاد في ذلك وابدأ وقدّم تعليم العربية والشعر على تعليم سائر العلوم . قال لان الشعر ديوان العرب ويدعو على تقديمه وتعليم العربية ضرورة فساد اللغة . ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل الى درس القرآن . . . ثم قال (اي ابو بكر) يا غفلة اهل بلادنا في ان يؤخذ الصبي بكتاب الله في اوامره يقرأ ما لا يفهم وينصب في امر غيره اهم ما عليه . ثم قال ينظر في اصول الدين ثم اصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه . . . هذا ما اشار اليه القاضي ابو بكر رحمه الله وهو لعمري مذهب حسن ، الا ان العوائد لا تساعد عليه ، وهي أملك بالاحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن : ١ : ايثارًا للتبرك والثواب ٢ : خشية ما يعرض للولد في جنون الصبي من آفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن لانه ما دام في الحجر ، منقادٌ للحكم . فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة .

فابن خلدون يريد « ان يغتنم في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوًا منه . ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما اخذ به اهل المشرق والمغرب» اي أولى من البدء بتعليم القرآن .

٣ – تعليم اللغة العربية :

١ – اللغة العربية مادة ضرورية في برنامج التعليم : . . . وانما وقعت العناية بلسان مضر (اي اللسان العربي الفصيح) لما فسد بمخالطتهم الاعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب ، وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت اولًا ، فانقلب لغة اخرى . وكان القرآن منزلًا به والحديث النبوي منقولًا بلغته وهما اصلا الدين والملة ، فخشي تناسيهما وانغلاق الافهام عنهما بفقدان اللسان الذي نُزّلا به فاحتيج الى تدوين احكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه .

وصار علماً ذا فصول وابواب... سمّاه اهله بعلم النحو : فاصبح فناً محفوظاً وسلّماً الى فهم كتاب الله وسنة رسوله وافياً .

٢ – طريقة تعليمها تتلخص فيما يلي : ١ً : ان يأخذ المتعلم نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على اساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في اسجاعهم واشعارهم وكلمات المولدين ايضاً في سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم.

٢ً : يتصرف بعد ذلك في التعبير عمّا في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من اساليبهم وترتيب الفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخاً وقوةً ، ويحتاج مع ذلك الى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب واساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الاحوال والذوق يشهد بذلك وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما .

٣ً : على قَدَر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظماً ونثراً . ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر . وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها .

٤ً : لا يكفي العلم بقوانين اللغة العربية من غير اكتساب ملكتها . والّا فيكون المتعلم بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملاً لذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في القوانين اللغوية ، اذا سئل في كتابة سطرين الى اخيه او ذي مودة ، او شكوى ظلامة ، او قصد من قصوده ، اخطأ فيها عن الصواب واكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على اساليب اللسان العربي .

بينما نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ولا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المفعول من المجرور ، ولا شيئاً من النحو .

٥ً – ان ملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى جودة النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم . ولو رام صاحب

هذه الملكة جيداً من هذه السبل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه، ولا وافقه عليه لسانه . لانه يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده . واذا عرض عليه الكلام حائداً عن اسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم، اعرض عنه ومجّه، وعلم انه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم . وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما يفعل اهل القوانين النحوية والبيانية.

٦ : وأخيراً لتعلم الشعر يضاف الطرائق الآتية : وهي الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها. ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب . ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال، يقبل على النظم . وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ . وربما يقال من شرطه نسيان ذلك المحفوظ، لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة . إذ هي صادرة عن استعمالها بعينها، فإذا نسيها وقد تكيفت النفس انتقش الاسلوب فيها كأنه منوال يؤخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة .

ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه... ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام ونشاط فذلك أجمع له وأنشط للقريحة... ص ٥٧٤

٣ – الحساب والهندسة :

١ – لتعلم الحساب قيمة عملية وقيمة فكرية وقيمة خلقية: ١) فالحساب احتيج اليه في المعاملات وألف الناس فيه كثيراً وتداولوه في الأمصار بالتعليم للولدان . ٢) ومن احسن التعليم عندهم الابتداء به لأنه معارف متضحة وبراهين منتظمة فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء درب على الصواب . ٣) وقد يقال من اخذ نفسه بتعليم الحساب أول امره إنه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير ذلك خلقاً ويتعود الصدق ويلازمه مذهباً . ص ٤٨٣

٢ – علم الفرائض يحتاج عند المصنفين الى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج الى استخراج المجهولات من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف

في الجذور وأمثال ذلك فيملأون بها تآليفهم . وهو إن لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد الا فيما يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة نوعه ، فهو يفيد المران وتحصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه . ص ٤٥٢

٣ — في الهندسة : ١ً : يحتاج اليها الناس في صناعة البناء ، وعلم الحيل (اي الميكانيك) . . . وبناء الهياكل انما تم في الحضارات القديمة بفضل الحيل الهندسية . ص ٤٠٩ . ٢ً : ثم لها قيمة فكرية : لان براهينها كلها بينة النظام ، جلية الترتيب ، لا يكاد الغلط يدخل في اقيستها ، لترتيبها وانتظامها . فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع . . . ص ٤٨٦ . ٣ً : ثم لها قيمة خلقية : وقد كتب افلاطون على بابه « من لم يكن مهندساً فلا يدخلن منزلنا » . وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون : ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الاقذار ، وينقيه من الأوضار والأدران ، وانما ذلك لما اشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه . ص ٤٨٦ .

٤ — تعليم التاريخ :

١ — ان علم التاريخ من العلوم التي تداولته الامم والاجيال وتُشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والأغفال . وتتساوى في فهمه العلماء والجهال . ١ً : الّا انه في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول والسوابق من القرون الاولى ، تنمو فيها الاقوال ، وتضرب بها الامثال ص ٤ - ٢ً : اما في باطنه ، فيعرّفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها ، حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على احوال ما قبلك من الايام والأجيال وما بعدك ص ٦ . ٣ً — وحتى تتم لك فائدة الاقتداء ايضاً ، لمن ترومه في احوال الدنيا والدين بتعرفك على احوال الامم في اخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم . ص ٩ .

٢ — ليس التاريخ رواية تقص او تدون فقط . انما يفيد في المناقشات والمحاكمات : ويحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع (لذلك فهو محتاج الى علم الجغرافية) . الاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال

والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق او بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف... ص ٣٨

٦ – الفلسفة والكلام :

ليس للفلسفة بنظر ابن خلدون الّا فائدة واحدة : وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين . وذلك أنّ نظم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والاتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية . وهم كثيرًا ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها...

– هذه هي ثمرة الفلسفة مع شروط الإطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم ومضارها . فليكن الناظر فيها متحرزًا جهده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه . ولا يكبنَّ احد عليها وهو خالٍ من علوم المِلّة . فقلَّ ان يسلم لذلك من معاطبها . ص ٥١٩

٢ – العلوم العربية والحساب للشرعيات كالمنطق للفلسفة . وربما كان المنطق آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين . ص ٥٣٧

٣ – في علم الكلام : ان امهات العقائد الايمانية معللة بأدلتها العقلية وادلتها من الكتاب والسنة كثير . وعن تلك الأدلّة اخذها السلف وارشد اليها العلماء وحققها الأئمة . إلا انه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد اكثرُ مثارها من الآي المتشابهة . فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل وزيادة الى النقل . فحدث بذلك علم الكلام . – وعلم الكلام اجمالا يفيد في تقرير العقائد الايمانية وتثبيتها بطريق الادلة والبراهين . ص ٤٦٢ . ولكن فائدته في آحاد الناس وطلبة العلم منحصرة . ولا ينبغي ان تخرج الى العامة . ص ٤٦٧

الفصل الثالث

التربية الفنية

Education technique

١ – الفكر والصناعة :

أ – ان وجود الصنائع دون الفكر ممتنع ، لأنها ثمرته وتابعة له – ص ٤١١ » . وبتعبير آخر ان الفعل الصناعي مسبوق بتصورات – ص ٥٢٧ . مثال ذلك : التفكير في ايجاد سقف يسكنه العامل ، فهو ينتقل بذهنه الى الحائط الذي يدعمه ، ثم الى الاساس الذي يقف عليه الحائط ، فهو آخر الفكر . ثم يبدأ في العمل بالاساس ، ثم بالحائط ثم بالسقف ، وهو آخر العمل وهذا معنى قولهم : اول العمل آخر الفكرة ، واول الفكرة آخر العمل . ص ٣٦٤ طبعة كاترمير ج ٢

٢ – فالفكر وحده لا يكفي . اذ ينبغي التمرين وحصول الملكة . مثال ذلك : قد يقول بصير بالخياطة غير محكم ملكتها في التعبير عن بعض أنواعها : الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرق الإبرة ، ثم يغرزها في لفقي الثوب مجتمعين ، ويخرجها من الجانب الآخر ، بمقدار كذا . ثم يردها الى حيث ابتدأت ويخرجها قدام منفذها الاول بمطرح ما بين الثقبين الأولين . ثم يتمادى على ذلك الى آخر العمل . . . ويعطي صورة الحبك والتثبيت والتنفيح وسائر انواع الخياطة واعمالها . وهو اذا طولب ان يعمل ذلك بيده لا يحكم منها شيئاً .

مثال آخر : اذا سئل عالمٌ بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول : هو ان تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه ، وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر ، وتتعاقبانه بينكما واطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرّت عليه ذاهبة وجائية ، الى ان ينتهي الى آخر الخشبة وهو لو طولب بهذا العمل او شيء منه لم يحكمه . ص ٥٦٠

٢ – الصناعة والفكر :

١ – كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس اثر يكسبها عقلاً جديداً ، تستعد به لقبول صناعة اخرى ، ويتهيأ بها العقل بسرعة الادراك للمعارف . وان حسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد الانسان ذكاء في عقله واضاءة في فكره ، بكثرة الملكات الحاصلة للنفس . وان كان اهل الحضر اكثر ذكاء وتعمقاً في التفكير ، فمن رونق الصنائع والتعليم فهذه لها آثارها . ص ٤٣٤

٢ – الصنائع ابداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة . فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلاً والحضارة الكاملة تفيد عقلاً . ص ٤٢٨

٣ – فالصناعة هي ملكة في امر عملي فكري . وبكونه عملياً هو جسماني محسوس . والاحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة اوعب لها واكمل . لان المباشرة في الاحوال الجسمانية المحسوسة اتم فائدة . ونقل المعاينة اوعب واتم من نقل الخبر والعلم . ويشترط اجمالا في كل صناعة ان تكون ملكتها بالتدريج شيئاً فشيئاً لان الملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد اخرى . وعلى نسبة الاصل تكون الملكة

٣ – ملاحظة :

١ – قصدنا بالتربية الفنية ما يسمى بالتربية الصناعية . وكنا ننتظر ان ابن خلدون يبحث في التربية الفنية بما يخص الفنون الجميلة . فلم نعثر له في مقدمته الا اشارات عَرَضية عنها . والشيء البارز الذي تكلم عنه هو « فن الخط » كصناعة من جهة وفن جميل من جهة اخرى . ١) فمن حيث هو صناعة لا شك صناعة لها قيمتها العملية سواء في دواوين الخلفاء. (ص ٢٣٦) او كواسطة تخلد الافكار والعلوم بنسخ الكتب والرسائل (ص ٤٠٦) . ٢) ومن حيث هو فن جميل نوعٌ من انواع الرسم يتفنن في خطه الخطاطون (ص ٤١٨).

يقول ابن خلدون : « الكتابة من خواص الانسان التي يتميز بها عن

الحيوان . وايضاً هي تُطلع على ما في الضمائر .وتتأدى بها الاغراض الى البلاد البعيدة فتقضي الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويُطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الاولين وما كتبوه من علومهم واخبارهم . فهي شريفة بهذه الوجوه والمنافع وخروجها في الانسان من القوة الى الفعل إنما يكون بالتعليم . وعلى قَدَر الاجتماع والعمران والتناغي في الكمالات والطَّلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة إذ هو من جملة الصنائع . . . ص٤١٧ .

٢ — ولم يذكر ابن خلدون الغناء الّا مرة واحدة في مقدمته كفن جميل شريف . ذكره بمناسبة الكتابة ايضاً . قال ابن خلدون : « اما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الانسان حاجته ومُقيِّدةٌ لها عن النسيان ومبلغة ضمائر النفس الى البعيد الغائب ومُخلدَة نتائج الافكار والعلوم في الصحف ورافعة رُتَبَ الوجود للمعاني . واما الغناء فهو نسب الاصوات ومظهر جمالها للأسماع . وكل هذه الصنائع الثلاث داعٍ الى مخالطة الملوك في خلواتهم ومجالس انسهم فلها بذلك شرفٌ ليس لغيرها . (ص ٤٠٦) .

اديار دمشق وبرها : ٣ [١] بقلم حبيب زيات

١٢
دير الرصافة
هو دير حنينا

قال البكري هو بدمشق [٢] ويظهر انه نقل ذلك عن ابي الفرج الاصبهاني وورد نظيره في كتاب الديرة للسيساطي كما جاء في معجم البلدان قال ياقوت ما ارى الا انه غلط منه . وبين الرصافة هذه ودمشق ثمانية ايام وقد اجتاز ابو نواس بهذا الدير وقال فيه :

ليس كالدير بالرصافة دير ... فيه ما تشتهي النفوس وتهوى
بتُّ فيه ليلة فقضيت اوطا ... رًا ويوماً ملأت قُطريه لهوا [٣]

ولا يدرى ما كان اسم هذا الدير قبل قدوم العرب وبناء الرصافة بالقرب منه ولذلك تنوسي لقبه النصراني ككثير من القاب الديارات امثاله التي انتسبت في الاسلام الى مواقعها او الى جيرانها من ارباب الضياع والبقاع وتعرَّت من اسمائها الرهبانية القديمة بحيث يتعذر اليوم على المؤرخ معرفة من كان يحتلّها من الروم او السريان ولكن يؤخذ من قول البكري ان دير الرصافة من بناء الروم انه كان للروم الملكية .

وقد نشأ عن ضياع هذه الاسماء الرومية او السريانية وهم وقع فيه غير واحد من مؤلفي كتب الديارات لاعتبارهم الدير الواحد – اذا اتفق احياناً معرفة اسمه القديم واشتهر مع ذلك باسمه الحديث – ديرين مستقلين لا صلة لاحدهما بالآخر ومن هذا القبيل عدُّهم دير الرصافة خلاف دير حنينا وقد اسعدنا الحظ بالوقوف على شهادة أنِف اصنافها في تاريخ ابن عساكر المخطوط يستدل

١) انظر المشرق ١٩٤٨ ص ٣٢٨ ، و ١٩٤٩ ص ٨٠
٢) معجم ما استعجم طبعة مصطفى السقا ١٩٤٧ ج ٢ ص ٥٨٠ – ٥٨٣
٣) معجم البلدان طبعة اوربة ٢ : ٦٦١

من مقابلة ابياتها وخبرها بالابيات والخبر الواردة في اوصاف دير الرصافة ان هذا الدير هو بعينه دير حنينا الذي تقدم تعريفه وهذا نص ما نقله ابن عساكر في ترجمة الفرخ رجل من بني امية قال :

« له قصة مع المتوكل قرأت بخط أبي الحسين الرازي . . حدَّث محمد بن سعيد الربعي قال : لما اراد جعفر المتوكل الخروج من الشام الى العراق احبَّ ان يجعل طريقه على البرية لينظر الى آثار بني أمية ومصانعهم وكان في طريقه دير يُعرف بدير حنينا فلما ازمع على ذلك اتصل خبره ببعض موالي بني أمية فقال والله لانغصنَّ عليه نزهته بأبيات اصيرها ثم تقدمه الى الدير فجعل لصاحب الدير جُعلًا على ان يدعه يكتب في صدر الهيكل ابياتًا فأذن له فكتب :

ايا منزلًا بالدير اصبح خاويًا ... تلاعب فيه شمأل ودبور
كأنك لم تقطنك بيض نواعم ... ولم تتبختر في فنائك حور
وابناء املاك عباشم سادة ... صغيرهم عند الانام كبير
اذا نزعوا تيجانهم فضراغم ... وان لبسوا تيجانهم فبدور
على أنهم يوم اللقاء قساور ... ولكنهم عند السؤال بحور
ولم يصبح الصهريج والناس حوله ... عليه فساطيط لهم وخدور
وحولك رايات لهم وعساكر ... وخيل لها بعد الصهيل نخير
ليالي هشام بالرصافة قاطن ... وفيك ابنه يا دير وهو امير
إذ الملك غضٌّ والخلافة لدنة ... وانت خصيب والزمان طرير
وروضك مرتاض وربعك رائع ... ووجه بني مروان فيك نضير
بعلية الميمون وهو الذي له ... تكاد قلوب المشركين تطير
بلى فسُقيت الغيث صوب سحائب ... عليك بها بعد الرواح بكور
تذكرت قومي بينهم فبكيتهم ... بشجو واني بالبكاء لجدير
وعزّيت نفسي وهي نفس اذا جرى ... لها ذكر قومي أنّة وزفير
رويدك ان اليوم يعقبه غد ... وان صروف الدائرات تدور
لعل زمانًا جار يومًا عليهم ... لهم بالذي تهوى النفوس يحور
فيفرح مرتاب ويأمن خائف ... ويطلق من حبل الوثاق اسير

فلما قرأها المتوكل قال والله ما كتب هذا الّا رجل من بني أمية يريد ان ينغص عليَّ ما انا فيه فمن اتاني به فله ديته فطُلب فأُتي به واذا هو رجل من بني أمية من اهل دمشق يعرف بالفرخ فامر بقتله وقال : بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد . قال ابو الحسين راوي هذه الحكاية ان المتوكل لما قرأها بكى بكاء شديدًا وامر بهدم الموضع »[1] .

(1) تاريخ ابن عساكر في الظاهرية دمشق ١٩ : ١٤٥

وذكر ابو الفرج الاصبهاني في كتابه الديارات الذي نقل عنه الشهاب العمري في كتابه مسالك الابصار ان اول من قصّ هذه الحكاية هو ابن حمدون الذي صحب المتوكل الى دمشق ونقلنا من لفظه زيارته لديارات باب الفراديس وكنائسها في كلامنا على دير صليبا وهو شاهد عياني يوثق به كل الثقة ويظهر ان المتوكل لم يأمر بهدم الدير او الهيكل الذي زعم ابو الحسين الرازي انه كتبت في صدره الابيات ويبعد جدًا ان يكون الديراني اجاز لاحد كتابتها في صدر الهيكل ولعل الاصح قول ياقوت ان الابيات كانت في رقعة ملصقة في حائط من حيطان الدير حيث قرأها المتوكل ولا يتضح لنا السبب الذي دعا المتوكل الى البكاء عند قراءتها كما قيل ومما يثبت انه لم يكن هناك هدم في الموضع ان ياقوت رأى هذا الدير وشهد انه من عجائب الدنيا حسنًا وعمارة وقد اتفق ياقوت والعمري والبكري على ان كاتب الابيات ليس هو الفرخ الدمشقي كما روى الرازي ولكنه رجل من وُلد روح بن زنباع الجذامي من اخوال هشام بن عبدالملك ولم يقل احد منهم ان الخليفة امر بقتله .

١٣

دير الرهبان الروم

بدمشق

كان بدمشق ديارات للرهبان اشار اليها سعيد بن بطريق في تاريخه (٢ : ٨٣ طبعة بيروت) ولكنه اهمل تعدادها وتسميتها فلا سبيل لنا اليوم الى معرفة شيء منها ويؤخذ من شهادة المعلم علي بن محمد بن التقي المهندس الذي ذكره شهاب الدين العمري في كتابه مسالك الابصار انه كان في الرواق الذي كان يحيط بكنيسة يوحنا من الجهات الاربع قلالي وصوامع[1] كانت داخلة في الاديار التي حول الكنيسة .

وفي سنة ١٣٣٥ مرّ احد زوار فلسطين بدمشق وشاهد في اواسط المدينة

١) مسالك الابصار للعمري ١ : ١٨٩

ديرًا يسكنه بعض رهبان الروم[1] (caloyers) ولا يبعد انه كان بجوار كنيسة مريم ولعله كان ايضًا في جملة الديارات التي انتهبت سنة ٩٢٤ ومنها دير للنساء بجانب الكنيسة المذكورة كما سيجيء من كلام سعيد بن بطريق .

١٤

دير زكّى

بدمشق

زكى من الاسماء المعروفة بين النصارى واشتهر به دير في الرها وقيل في الرقة وقد انفرد ياقوت بذكر دير زكى في الشام وكان في زمانه « قرية بغوطة دمشق » قال : وقد مرّ بهذا الدير عبدالله بن طاهر ومعه اخ له فشربا فيه وخرجا الى مصر فمات اخوه بها وعاد عبدالله بن طاهر فنزل في ذلك الموضع فتشوق اخاه فقال :

ايا سروتي بستان زكى سلمتا وغال ابن امي نائب الحدثان
ويا سروتي بستان زكى سلمتا ومن لكما ان تسلما باماني[2]

وقد فاتنا ما قاله مؤلفو كتب الديارات في هذا الدير لضياعها كلها وسقوط اخبار اديار الشام في نسخة كتاب الشابشتي المحفوظ في برلين وفي خزانتنا صورة عنه ومع اننا طالعنا تاريخ ابن عساكر في مجلداته الضخمة النقية في ظاهرية دمشق فلم نوفق الى العثور مرة على اسم دير زكى بين اسماء القرى التي نزلها او نشأ فيها من مر بدمشق من رجال ابن عساكر .

١٥

دير سركيس وباخوس

في معلولا

لا يزال هذا الدير قائمًا في ذروة جبل يشرف على معلولا يسمى مكانه

---

1) Jacques de Vérone : *Le Pèlerinage du moine Augustin Jacques de Vérone* (Revue de l'Orient Latin LII, 1895 Paris nº 2 p. 138

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٦٥

بالمعاولة « بلوطا عليا » اي البلد الاعلى والمرتقى اليه صعب شاق ولذلك لم ترد اقل اشارة اليه في الآثار الاسلامية لبعده عن طريق الزوار والمتنزهين ولا يُدرى في الحقيقة متى كان بناؤه ومن اقام فيه من الرهبان وفي خزانة بريتيش موزيوم كتاب صلوات في السريانية (اكتويخوس) تم نسخه في ٢٩ شباط سنة ١٥٢٤ للاسكندر اي ١٢١٣ للميلاد كان موقوفاً على الدير[1] ويظهر ان مرضى النصارى ما فتئوا يترددون اليه طلباً للشفاء لاشتهاره بعجائب القديس سرجيوس سميه كما نبّه على ذلك الشماس بولس الحلبي في كتابه « رحلة البطريرك مكاريوس الى البلاد المسيحية» حين زار اديار دمشق سنة ١٦٤٢ في صحبة والده ملاتيوس الزعيم مطران حلب[2] .

والدير اليوم في ملك الرهبان المخلصيين من الروم الكاثوليك واول رئيس عليه عُرف منهم الخوري امبروسيوس زعرور سنة ١٧٥٣ ومن الغريب انه مع كل ما امتاز به من حسن الموقع وجمال المُطَلّ لا يزال مُطَّرحاً مهملاً خالياً من كل جمال ورياش في ابنيته ومعبده لقلة اكتراث الرهبان له مع كونـه الدير الاوحد الذي لهم في انحآء الشام وفي بقائه على هذه الحال من الاهمال عار على الرهبانية لقدرتها على ترميمه واصلاحه وبنا. بعض غرف فيه تليق بها وبزواره ولهم في دير مارت تقلا للروم الارثذكس عبرة كافية.

١٦

دير سمعان

في جبل قاسيون

اشتهر هذا الدير بموت عمر بن عبد العزيز فيه ولكن اشتد الخلاف في موقعه وتعددت الاقوال والظنون في تعيين المكان الذي اعتلّ الخليفة الاموي فيه فروى الطبري[3] وتابعه ابن الاثير[4] انه قضى نحبه في خناصرة واضاف صاحب

١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها ١٥٨

٢) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها ١٢٤ — ١٢٨

٣) تاريخ الرسل والملوك المطبعة الحسينية القاهرة ٨ : ١٣٢

٤) الكامل لابن الاثير القاهرة سنة ١٣٠١ ج ٥ : ٢٧

كتاب البدء والتاريخ انه لما مرض فيها « دخل عليه بعض بني امية فرآه على فراش ليف تحته وسادة من أدم محشى كاسف اللون »[1] وهذا الوصف هو احد الاخبار الموضوعة لإطراء زهد الخليفة وفقره وتقواه .

وفي طبقات ابن سعد ان وفاته كانت بخناصرة ودفنه في دير سمعان[2] ولم يقل اين كان الدير وورد مثل ذلك في سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٢٨٦) وفي كتاب العيون والحدائق انه توفي بخناصرة ودفن بدير سمعان من ارض المعرة (٣ : ٦٣) وعرّف ابن حوقل خناصرة بانها « حصن يحاذي قنسرين الى ناحية البادية وعلى شفيرها وسيفها كان يسكنه عمر بن عبد العزيز »[3] وممن ذهب ايضاً الى ان وفاة عمر كانت بخناصرة ابو الفداء وابن الوردي[4] وآخرون من المؤرخين .

وحكى في ضد ذلك ابن واضح اليعقوبي ان عمر بن عبد العزيز « خرج الى دمشق فنزل دار ابيه التي كانت الى جانب المسجد[5] واقام عشرين يوماً وكثر عليه الناس فارتحل الى مدينة حمص راجعاً يريد ان ينزلها فلما صار الى اوائل حمص اعتلّ فمال الى موضع يعرف بدير سمعان فنزله ويقال بل ارتحل اليه قاصداً يريد نزوله بسبب قطعة ارض كان ورثها عن امة فيه »[6] واقتصر المسعودي على هذا الرأي ونص على ان دير سمعان كان من اعمال حمص مما يلي قنسرين وان قبر عمر كان في ايامه (سنة ٣٣٢=٩٤٤) الى هذه الغاية معظماً يغشاه كثير من الناس من الحاضرة والبادية ولم يُعرَض لنبشه في ما سلف من الزمان كما عُرض لقبور غيره من بني امية »[7] وروى ابن عساكر « ان عمر بن عبد العزيز مات يوم الجمعة لخمس بقين من رجب (سنة ١٠١ = ٧٢٠) بدير سمعان من ارض

١) كتاب البدء والتاريخ طبعة هوار ٦ : ٤٧

٢) طبعة اروبة ٥ : ٣٠١

٣) كتاب صورة الارض الطبعة الثانية القسم الاول ١٧٩

٤) المختصر في اخبار البشر ١ : ٢١٢ وتتمة المختصر ١ : ١٨١

٥) دار عبد العزيز بن مروان بدمشق هي « هذه الخانقاه الملاصقة للجامع المعروفة بالشميساطية » (تهذيب الاسماء واللغات للنووي طبعة اروبة ٣٩٣)

٦) تاريخ اليعقوبي طبعة ليدن ٢ : ٣٦٨ - ٣٧٠

٧) مروج الذهب طبعة باريس ٥ : ٤١٦ - ٤١٧ والتنبيه والاشراف طبعة ليدن ٣١٦

حمص[١] وعنه اخذ شمس الدين الذهبي[٢] والنووي[٣] وغيرهما من النقلة والرواة وتردد ابن الجوزي بين خناصرة كما تقدم وحمص بدير سمعان واشاروا الى ان قبره هناك مشهور يُزار ويتبرك به.

ورجح دفنه في حمص من المتأخرين الشيخ عبد الغني النابلسي وحكى في رحلته الحقيقة والمجاز « انه زار القبر وهو في مسافة ميل من بلدة حمص قال : واشرفنا عليه فوجدناه متهدم الجدران من الجهات الاربع في وطاءة من الارض ولم نجد هناك قبراً ولا شيئاً يدل على انه كان هناك قبر معلوم بل قيل لنا هذا مكان دير سمعان وآثاره تدل عليه ولوامع الانوار تشرق لديه. . .وهو مشهور عند اهل حمص انه مدفون في ذلك الدير»[٤]

وكانت صحة القبر في حمص مشكوكاً فيها في ايام صلاح الدين الايوبي ولما مرّ بحلب سنة ٥٨٤=١١٨٨ وتوجه منها قاصداً معرة النعمان احب فيها زيارة الشيخ الزاهد ابي زكريا المغربي وعنده مشهد يقال انه لعمر بن عبد العزيز فتبرك بزيارة الحي والميت ثم قفل راجعاً وبعد ان اجتاز حماة وقلعتها « اصبح راحلاً ولم يقم بحمص»[٥] واعرض عن القبر المنسوب فيها للخليفة الاموي وهو ما يدل على ان هذه النسبة كانت قد ضعفت في زمانه ولذلك لم يحفل بها.

وهذا المشهد الذي آثر صلاح الدين التبرك به كان في ضواحي معرة النعمان في دير يقال له النقيرة زعموا ان عمر بن عبد العزيز كان مدفوناً فيه لاعتقادهم ان دير سمعان هو اسم مدفن الخليفة حيثما كان من الامكنة وقد دافع غير واحد عن صحة مدفن عمر في النقيرة وفي طليعتهم شهاب الدين العمري الدمشقي وتصحف اسم النقيرة في كتابه مسالك الابصار ورُوي فيه « البقرة »[٦] وتقدمه في هذا الوهم القاضي جمال الدين بن واصل ووافقه عليه ابن الوردي واليافعي

---

١) تاريخه المخطوط في دار الكتب الظاهرية (رقم ٣٣ تاريخ) ٧ : ١٢٠ – ١٢١

٢) دول الاسلام طبعة حيدر اباد ١ : ٥٢

٣) تهذيب الاسماء واللغات طبعة اوربة ٣٩٣

٤) دار الكتب الظاهرية (٥٥ ادب) ص ٥

٥) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين لابي شامة ٢ : ١٢٤

٦) مسالك الابصار الجزء الاول المطبوع ٣٥٢

وابن الشحنة . قال صاحب مراصد الاطلاع : « قبر عمر بن عبد العزيز في قرية تعرف بالنقيرة وكان موضعه ديرًا فخرب وسألت بعض اهل المعرة عنه فقالوا الذي فيه قبر عمر بن عبد العزيز يعرف بدير النقيرة ودير سمعان دير آخر قريب منا ولعل الدير الذي بالنقيرة قد كان يسمى دير سمعان »[1]

ومن الرحالين الذين زاروا قبر النقيرة الشيخ علي بن ابي بكر الهروي مؤلف كتاب الزيارات قال: دير النقيرة من بلد المعرة به قبر عمر بن عبد العزيز وقبر الشيخ ابي زكريا المغربي من كبار الصالحين وقيل قبره بدير سمعان والمشهور هذا »[2] ثم مرّ من بعده ابن بطوطة بمعرة النعمان وقال : بخارجها على فرسخ منها قبر امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية له ولا خديم له وسبب ذلك انه وقع في بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضي الله عنهم ولعن متبغضهم ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصاً عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله في تعظيم علي »[3]

وقد تعددت في انحاء الشام الاديار المتّسمة باسم سمعان واشتهر معظمها في جوار حلب وانطاكية ودمشق وحمص والمعرة ولذلك حار المؤرخون في تعيين مدفن عمر في احدها واجمعوا كلهم انه لم يكن في انطاكية في الجبل المعروف قديماً بالجبل العجيب وانفرد كاتب ترجمة عمر في معجم الموسوعات الاسلامية بالظن خطأً ان الخليفة دفن في نواحي حلب[4] اي بين جبل عُلَيم والجبل الاعلى في الدير المعروف اليوم بسمعان العمودي الغني باطلاله ودمنه العجيبة.

وقد اطلنا البحث في ما تناولته اليد من الآثار النصرانية الباقية فلم نقف على اقل اشارة الى دير لسمعان بجوار حمص ولا ندري متى حلّ الخراب به وتحولت بقعته الى شبه قرية اشتهرت بالنسبة اليه كاشتهار غيرها من بقاع الاديار ومن اجلها صرّح النووي ان دير سمعان كان « قرية قريبة من حمص » وهي التي وجدها النابلسي خاوية خالية ليس فيها اثر للدير او للقبر.

١) مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع طبعة اروبة ٤٣٢

٢) كتاب الزيارات في مجموع (رقم ١٠ تصوف) في دار الكتب الظاهرية بدمشق

٣) رحلته طبعة باريس ١ : ١٤٥

٤) Encyclopédie de l'Islam p. 1046

وفي ضد ذلك اسعدنا الحظ بالعثور على ذكر لدير سمعان في النقيرة وجدناه في كتاب الشماس بولس الحلبي ابن البطريرك مكاريوس الزعيم بخط قلمه في تاريخ انطاكية المحفوظ عندنا وقد وصف فيه سمعان مرة « بالقديس الناسك وانه كان اولًا في الجبل الاوسط ثم انتقل الى معرة النعمان ويدعى سمعان النقيري صاحب الجبل الاوسط » ثم نعته مرة اخرى « بالبار سمعان المسمى بالعتيق » ولما أرخ تذكاره في اليوم السادس والعشرين من كانون الثاني قال « انه منذ صباه آثر العيشة الفقرية واحبّها وسكن في مغارة صغيرة . . . وذهب الى الجبل ودخل في باطن المغارة التي اختفى فيها بوسى قديمًا . ثم عاد راجعًا من الجبل وعمر ديرين » وهذا القول يؤيد شهادة صاحب مراصد الاطلاع انه كان في النقيرة ديران باسم سمعان اشتهر الواحد وعفى الدهر على الآخر وجهل مكانه .

ومما تقدم يتبين جليًا تعدد الاديار السمعانية في الديار السورية وفيه حجة كافية لعذر كل خطا في تعيين الدير الحقيقي الذي في ارضه كان قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز ومن اجله اضطربت اقوال المؤرخين وتناقضت اراؤهم في النص على موضع واحد وقد كان يكفي احدهم ان يقع على اسم دير لسمعان ليعتقد انه كان مدفن عمر حيثما وجد من البلاد دون اقل بحث عن موقعه او انتقاد وقد اجمع الرواة على ان هذا الاسم هو اسم اللحد الذي اختاره عمر بنفسه ليكون مثوى له ومرقدًا وابتاع هو مكانه من اصحاب الدير ونقدهم ثمنه على اختلافهم في تقدير هذا الثمن اختلافًا تعدوا فيه النقص والمبالغة الى حد السخف ليوهموا زهد الخليفة الخارق الحد وفقره المدقع حتى زعم صاحب كتاب العيون والحدائق انه اشترى قبره بدينارين وعجز عن ادائها فدفع اليهم دينارًا وقيمتًا[1] وكأن ابن سعد استحيا ان ينقل في طبقاته مثل هذا الهزل والتهويل فروى ان الثمن كان عشرة دنانير[2] وابلغه ابن عساكر الى ثلاثين دينارًا قال ثم دعا بالدنانير فوضعها بيد النصراني[3]

١) كتاب العيون والحدائق . ليدن ٣ : ٦٣

٢) طبقات ابن سعد طبعة اروبة ٢٩٩

٣) تاريخ ابن عساكر المخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق المجلد السابع الورقة ١٨١

ومن راجع نصوص الروايات القديمة التي نقلها ابو الفرج الاصبهاني والخالديان في كتاب الديارات واخذها عنهما لا شك البكري في معجم ما استعجم وياقوت في معجم البلدان يعلم حق العلم ان دير سمعان مدفن عمر كان دون اقل ريب « بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به وعنده قصور ودور »[١] وبساتين لبني امية[٢] بالقرب من الغوطة على قطعة من الجبل يطل عليها[٣] وهو وصف ينطبق على جبل قاسيون ولكن يتعذر الاهتداء منه الى مكان الدير بالضبط لقلة احتفال الرواة والمؤرخين بالاجمال بالتخطيط والتحديد وقد بقيت لنا لحسن الحظ شهادة بلدية تعين على الدلالة على موقعه بوجه التقريب نقلها لنا ابن طولون احد علماء دمشق في المئة العاشرة في كتابه « القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية » في اثناء كلامه على المدرستين المعظمية والعزيزية وكان بناء الاولى سنة ٦٢١/١٢٢٤ والثانية سنة ٦٣٥/١٢٣٧ قال: «شمالي هاتين المدرستين حوش عظيم بحيطان عالية يقال انه دير سمعان كان . وله باب يفتح الى الشرق وداخله عدة قبور معظمة »[٤]

وفي موضع التربة المعظمية في قاسيون كان في قول غير واحد من المؤرخين دير مران المشهور كما سيجيء في الكلام عليه فكان الديران اذن متجاورين وربما وقع الاشتباه والخلط بينهما كما يدل على ذلك قول الزبير ان معاوية وجه يزيداً ابنه لغزو الروم فاقام يزيد بدير سمعان[٥] بدلاً من دير مران في اشهر الروايات .

ويجب ان يكون الخراب قد اسرع الى دير سمعان بدمشق قبل منتصف القرن الثاني للهجرة لان صالح بن علي العباسي « حين قدم الشام سأل عن قبر عمر بن عبد العزيز فلم يجد احداً يخبره حتى دُلّ على راهب فسأل عنه فقال :

---

١) معجم البلدان طبعة اروبة ٢ : ٦٧١ - ٦٧٣

٢) معجم ما استعجم للبكري طبعة القاهرة ١٩٤٧ ج ٢ : ٥٨٥ - ٥٨٦

٣) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٥١ - ٢٥٢

٤) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية تحقيق الشيخ محمد احمد دهمان ١٣٣

٥) معجم ما استعجم للبكري ٢ :٥٨٥ - ٥٨٦ وتاريخ ابن عساكر في الظاهرية ١٨ : ١٠٨ ظهر و١٩ : ٢٠٩

« أقبر الصديق تريدون ؟ هو في تلك المزرعة »[1] كذا دون اقل ذكر لمكانها ويستدل من قول المسعودي بوجود دير سمعان في اعمال حمص ان خبر موت عمر في غير دمشق كان قديماً سبق القرن الثالث وان مكانه في قاسيون كان قد تنوسي وزال ذكره من كل علم واثر حتى زعم البصروي في كتابه فضائل الشام انه « دفن بالباب الصغير من مقابر دمشق وهناك ضريح مشهور انه قبره »[2] ولا حاجة الى التنبيه على غرابة هذا القول ولم نجد من تابعه عليه بين كل من أرّخ دمشق .

وقد انكر شهاب الدين العمري وجود دير سمعان بقاسيون وزعم انه « ليس يسمع بدمشق لهذا الدير نابسة ولا يعرف لمكانه في الغوطة خضراء ولا يابسة » وعنده ان الدير هو في قرية تعرف بالبقرة (النقيرة) من قبلي معرة النعمان وبه قبر عمر بن عبد العزيز لا ينكر »[3] وفاته ان ياقوت نفى قبله نفياً باتاً وجود القبر في النقيره وجزم ببقائه بين قومه في حاضرة الامويين . ومن العجيب ان يجهل العمري ما علمه بلديه ابن طولون بعده بقرنين ويتقدم على تخطئة ابي الفرج الاصبهاني والخالدي لقولهما بقدم دير سمعان بدمشق .

وربما استعظم من ليست له مشاركة في تاريخ الاديار دفن خليفة اموي في دير نصراني والحقيقة ان اسم دير سمعان كان يطلق ليس على منزل الرهبان فقط بل على كل ما احاط به وجاوره من الدور والقصور والجنان والمزارع كما كانت تعرف بقعة دير مران بنفس الاسم دون تمييز ومن احدى قطع الارض التي كانت تحدق بدير سمعان وكانت جارية في ملك الرهبان اشترى عمر محل قبره كما سبق ويظهر انه كان له دار في بقعة دير سمعان مجاورة لهذه الارض فاختار ان يدفن فيها ليكون غير بعيد عن منزله وقد شهد خصي اسود كان له بوجود هذه الدار وقال : « دخلت على عمر بن عبد العزيز في يوم شات في داره بدير

---

١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٣٩

٢) الحقيقة والمجاز لعبد الغني النابلسي دار الكتب الظاهرية بدمشق (٥٥ ادب) الورقة ٣٠

٣) مسالك الابصار ٢٥١ - ٢٥٣

سمعان فألفيته قاعداً في زاوية الدار في شمس »[1] ولا تخفى قيمة هذه الشهادة التي حفظها لنا انس بن مالك .

ومن عرف دير سمعان من الشعراء جرير دخله في يوم عيد فرأى النساء والصبيان يقبلون الصلب ويسجدون لها فقال :

رأيت بدير سمعان صليبا تقبله الشوادن والظباء
تعظمه القسوس وتحتويه فترشفه ويغشاها البكاء
فقلت مه هل غير عود تملكه اعوجاج واستواء[2]

ولا يخفى ظرف هذه الابيات ولعله دخل الدير في احدى زياراته باب الفراديس حين كان يؤرقه فيه صوت الدجاج وضرب النواقيس . ومن بعده مرّ بدير سمعان ابو فراس بن ابي الفرج البزاعي واحزنه ما رآه عليه من الخراب فقال يخاطبه في ظن ياقوت والارجح عندنا انه كان يعني دير سمعان بالقرب من حلب :

يا دير سمعان قل لي اين سمعان وابن بانوك خبرني متى بانوا
واين سكانك اليوم الأُلى سلفوا قد اصبحوا وهم في الترب سكان
اصبحت قفرًا خرابًا مثل ما خربوا بالموت ثم انقضى عُمر وعُمران
وقفت اسأله جهلًا ليخبرني هيهات من صامت بالنطق تبيان
اجابني بلسان الحال انهم كانوا ويكفيك قولي انهم كانوا[3]

ولم نستطع ان نعرف الى اي سمعان كان ينتسب دير قاسيون ألى سمعان الحلبي المشهور بالعمودي ام الى سمعان الانطاكي ولا نذكر انه مرّ بنا قط في تاريخ الاديار وقبور الخلفاء ما سبق مثله من الخبط والتخليط في تعريف مدفن عمر بن عبد العزيز وموقع دير سمعان وزاد في الطين بلة ما نشأ على تتابع الازمان من الاسماء واخبار القصاص في كل ما تناول القبر والدير من الصلات والجوار كالخبر الذي نقله صاحب كتاب مراصد الاطلاع ان « دير مران على الجبل المشرف على كفر طاب قرب المعرة وبه قبر عمر بن عبد العزيز مشهور يُزار

١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابي محمد عبد الله بن عبد الحكم ١٦٣
٢) مسالك الابصار ٢٥١ – ٢٥٣
٣) معجم البلدان ٢ : ٦٧٢

به »[1] وفي هذه النغمة الجديدة ايا. ظاهر الى ان دير سمعان الدمشقي كان في جوار دير مران في قاسيون اي في جبل الصالحية اليوم وان سائر الاديار المنسوبة لسمعان في حمص وخناصرة والنقيرة ليس توهم وجود القبر فيها الا صدى لوجوده في دير سمعان بدمشق.

١٧

دير صليبا

في ظاهر دمشق

ويعرف ايضاً بدير السائمة ودير خالد لنزوله فيه عند حصاره دمشق وقد اختُلف في موقعه في الحقيقة وفي رواية لابن عساكر « ان دير خالد كان خارج الباب الشرقي مما يلي بيت الآبار فخرب »[2] وليس اليوم في جوار قرية بيت الآبار اقل طلل او رسم باق يدل على موقع الدير وتبعد القرية عن دمشق زهاء نصف ساعة وفي قول ابن الكلبي ان الدير كان على ميل من الباب الشرقي[3]

ويترجح من اوصاف كتب الديارات ان دير صليبا كان مقابل باب الفراديس المعروف اليوم بباب العمارة مطلاً على الغوطة وكان بناؤه حسناً عجيباً في بقعة « نزهة كثيرة البساتين والاشجار والمياه دلّ عليها اسمها «الفراديس» اي الجنان وكانت ارضه مفروشة بالبلاط الملون والى جانبه ديرٌ ثانٍ للنساء الرواهب »[4] والى هذين الديرين اشار جرير بقوله :

اذا تذكرت بالديرين ارّقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

واستشهد الخالدي على ان دير صليبا كان يلي باب الفراديس بقول جرير في هذا الشعر :

فقلت للركب اذ جدَّ النجاء بهم يا بعد يبرين من باب الفراديس (٥

---

١) مراصد الاطلاع ١ : ٤٣٩ — ٤٤٠

٢) تاريخ ابن عساكر في الخزانة الظاهرية بدمشق ٦ : ٢٢١ ظ

٣) معجم البلدان لياقوت ٢ : ٦٥٧

٤) الاعلاق الخطيرة لابن شداد خزانة بريتش موزيوم لندرة Add. 23335 f° 108

٥) مسالك الابصار لشهاب الدين العمري ٣٤٩

وفي رواية البلاذري ان اهل هذا الدير اتوا خالد بن الوليد بسلّمين وعليهما رقي بعض جنده الى اعلى سور الباب الشرقي ونزلوا اليه وليس عليه الا رجل او رجلان وتعاونوا عليه وفتحوه[1] قال هشام « سمعت الوليد بن مسلم يذكر ان خالدًا بن الوليد شرط لاهل الدير الذي يعرف بدير خالد شرطًا في خراجهم بالتخفيف عنهم حين اعطوه سلمًا صعد عليه فانفذه لهم ابو عبيدة »[2]

وهذه الرواية ترجح كون الدير في مقابل باب الفراديس لقرب هذا الباب من الباب الشرقي خلافًا للدير المجاور قرية بيت الآبار وبينه وبين الباب الشرقي ميل فيما ذكروا .

ولا يُعلم الى اي زمن استمر الدير في الاسلام بعد زيارة المتوكل له سنة ٢٤٣/٨٥٧ ولا متى استولت الايدي عليه في اثنا. الفتن والحروب التي اجتاحت دمشق وذهبت بدياراتها ومصانعها وآثارها وعرّتها من معظم محاسنها ومفاخرها قال العمري «واليوم لا عين له ولا اثر وانما صار دورًا وابنية ومساجد ومداقن وهي بناحية محلة حمام النحاس»[3]

وليس في الآثار والكتابات النصرانية الباقية اقل اشارة الى هذا الدير فلا يعرف متى بني قبل الاسلام وما كان اسمه في الحقيقة في دولة الروم البزنطيين ونظرًا لحسن موقعه وجمال مُطلّه على جنان الغوطة كثر غشيانه المتطربين له واقبال ارباب الشراب والقصف عليه شأن امثاله من الديارات في الاسلام « وحُكي ان الوليد بن يزيد (الخليفة الاموي) كان كثير المقام في هذا الدير يخرج اليه ومعه حُرَمه استحسانًا له وانه كان يجلس في ايام مقامه فيه في صحنه كل يوم ساعة من النهار ثم يأكل ويشرب في مواضع منه طيبة حسنة »[4] واشتهر الدير به حتى قيل له « دير الوليد » وجهل ياقوت هذه النسبة فقال لا ادري اين هو الا ان مفسري قول جرير قالوا اياه اراد بقوله « لما

١) فتوح البلدان للبلاذري طبعة اروبة ١٢١
٢) فتوح البلدان ١٢٩
٣) مسالك الابصار ٣٥٦
٤) مسالك الابصار ٣٥٦

تذكرت بالديرين ارقني »[1] وجهل ابن قتيبة وجود ديرين باسم صليبا للرهبان والرواهب فقال هو المقصود ببيت جرير وانما ورد بالتثنية كعادة الشعراء في تثنية الاعلام للضرورة[2]

ولم ينته الينا من خمريات الاديار والحانات الا مـا يأتي في اوصاف هذا الدير قال الشابشتي : أنشدت فيه :

يا دير باب الفراديس المهيّج لي   بلابلا بقلاليه واشجـاره
ومقلساً لي من مالي ومن نشبي   بما أباكره من خمر خمّاره
لو عشت تسعين عاماً فيك مصطبحاً   لما قضى منك قلبي بعض اوطاره[3]

ومن الشعراء الذين زاروا هذا الدير واطنبوا في مدحه والثناء على موقعه وجماله ابو الفتح محمد بن علي المعروف بابي اللقاء حدث عنه وقال :

« اقمت بدمشق مدة فاحببت ان امضي الى هذا الدير يعني دير صليبا الذي يعرف بدير خالد فتواعدنا انا واخوان لي على المضي اليه والمقام فيه يوماً وليلة فلما رايناه وحسنه وكثرة رياضه وحدائقه وبناءه اطربنا واعجبنا فاقمنا به شهرًا نصطبح ونغتبق وقلت فيه :

جنة لُقيت بدير صليبا   مبدعا حسنه جمالا وطيبا
جئته للمقام يوماً فظلنا   فيه شهرًا وكان امرًا عجيبا
شجر محـدق به ومياه   جاريات والروض يبدو ضروبا
من بديع الالوان يضحي به النا   ظر مما يرى لديه طروبا
كم رأينا بدرا به فوق غصن   مائس قد علا بشكل كثيب
وشربنا بـه الحياة مداما   تطلع الشمس في الكؤوس غروبا
فكأن الظلام فيهـا نهار   من سناها يسرّ منا القلوبا
لست انسى ما مرّ فيه ولا اجـ   ـمل مدحي الا لدير صليبا[4]

وقد نقل ابن عساكر هذا الخبر وهذه الابيات من كتب الديرة لابي الحسن علي بن محمد بن المظفر السميساطي وقال ان ابي اللقا الشاعر مرّ بدمشق وذكر بعض ديرتها في شعره.

---

1) معجم البلدان ٢ : ٧٠٥
2) الشعر والشعراء لابن قتيبة طبعة ليدن ٣٠٠
3) الاعلاق الخطيرة لابن شداد بريتيش موزيوم
4) تاريخ ابن عساكر الخزانة الظاهرية بدمشق ١٩ : ٢٨؛ ومعجم البلدان ٢ : ٦٧٤

وكانت شهرة هذا الدير وروعة موقعه وطيب ما حُفَّ به من الرياض والاشجار والمياه قد ترامت الى بغداد وبلغت اسماع الخليفة العباسي المتوكل على الله ولما قدم دمشق سنة ٢٤٥/٨٥٧ في من صحبه من الوزراء والقواد والحجّاب والكتّاب لم يدع زيارة هذا الدير في جملة الاديار والكنائس الدمشقية « في الموضع المعروف بالفراديس » وقد وُفِّقنا للعثور على وصف هذه الزيارة في مجموع مخطوط في خزانة بريتيش موزيوم في لندرة وهو أُنُف لم يستخرج بعد من سَفَطه وفيه من الطرافة والظرف والدلالة على احوال النصرانية في القرن الثالث للهجرة « بين كنائس عظيمة وآثار قديمة » ما حدانا الى نسخه هنا بغاية الحرص والاعجاب لجلالة روايته وعظم فائدته حدث به ابو عبد الله بن حمدون نديم المتوكل وشاهده العياني قال :

« كنت مع المتوكل لما شخص الى الشام فعنَّ له ان يطوف كنائس الزهاد والموضع المعروف بالفراديس ثم قال انى كنت اسمع بطيب هذه المواضع فقلت الرأي ما رآه امير المومنين فنزلنا بين كنائس عظيمة وآثار قديمة ترتاح النفوس اليها ويشتهي من يترحلها ان لا يرتحل عنها فلما استراح من تعب الركوب استدعاني وقال هل لك في الركوب قلت كما يأمر امير المؤمنين فاخذ يدي ولم يزل يستقري تلك الكنائس والديارات ويشاهد ما فيها من عجائب الصور ويرى من (f° 126b) احداث الرهبان وبنات القسيسين وجوهاً كأنها اقمار على غصون تتثنّى في تلك الاروقة والصحون وكلما مرَّ بنا شيء منهم يقول لي : ويحك ترى ما نحن فيه ؟ ما شاهدت مثل هذا قط ثم خلونا براهب من قُوَّام الكنيسة فلم يزل المتوكل يسأله عن كل جارية وغلام يمرّ به واسمه ونسبه اذ لمح كتابة على حائط الكنيسة فقرأها واذا هي « حضر الغريب المشتّت الحزين وهو يقول : شُتِّت شملي بعد الأُلفة وشقي جسمي بعد الترفّه ومشيت من العراق الى هذا الرواق وارتحلت عنه في ذي الحجة سنة احدى ومائتين وانا اقول :

آل امري الى اخسّ الامور وتبدلتُ كربة بسروري
واعترتني من الزمان خطوب تتبارى في هتكة المستور
نفس صبراً لحادثات الليالي كل شيء يذلّ للمقدور

فقال لي : ويحك ترى ما اظرف حال هذا المسكين وما احرق هذا الانين ؟

ومرّت به جارية ما رات عيني لها شبهاً وعليها جونا (كذا) وبيدها

بخرة تبخر بها[1] فقال لها المتوكل : تعالي يا جارية فاتيات بحسن ادب وكمال فسأل المتوكل الراهب عنها فقال : ابنتي قال : وما اسمها قال : شعانين فقال لها المتوكل : يا شعانين اسقيني ماء فقالت : يا سيدي ماؤنا ههنا ماء الراهبات القذرات ولست استنظف ماءهم ولا آنيتهم ولو كانت حياتي ترويك (127 م) لجدتُ لك بها ثم اسرعت فجاءت بكوز من فضة فيه ماء. فاومأ الي ان اشربهُ فشربت واشتد عجبه بها وشهوته لها فقال لها : يا شعانين ان هويتك تساعديني؟ فتنفست ثم قالت : اما الآن فانا عبدتك فاما اذا عرفت صحة حبك وتمكنت من قلبك فما اخوفني من حدوث الطغيان عند تمكن الشيطان اوَ ما سمعت قول الشاعر :

كنت لي في اوائل الامر عبدا ثم لما ملكت صرت عدوّا
اين ذاك السرور عند التلاقي صار مني تجنباً ونبوّا

فطرب المتوكل وكاد يشق قميصه ثم قال لها : هبي لي نفسك اليوم حتى نشرب انا وانت فانا ضيفك فقالت : على الرحب والسعة ثم أصعدت بنا على علّية مشرفة على تلك الكنائس فرأينا منظر اهالنا حسناً ثم مضت فجاءت بأشياء من المأكول مستظرفات وكأن المتوكل عاف ذلك لعزّة الخلافة فاستأذنها في احضار طعام فاتونا بخروف محشوّ وسنبوذج واشياء قريبة المأخذ من طعام مثله فاستظرفت ما جيء به واستهولت الآلة وفطنت لامير المؤمنين فقامت قائمة بين يديه تخدمه وتكفّر له فمنعها ثم جاء ابوها بشراب من بيت القربان

---

[1] تقدم القول انه كان في دير صليبا دير آخر للنساء الرواهب فلا عجب اذا كانت ابنة قس الكنيسة تخدم او تبخر في بعض الصلوات والاحتفالات وكان للنساء في بعض الكنائس الشرقية نصيب في خدمة البيعة كالتلاوة والتبخير وما اشبه من نوافل الخدم في ديارات النساء ومعلوم ان القسوس غير الرهبان كانوا يتزوجون مرة واحدة ولا يزالون كذلك في بعض القرى في لبنان والشام وفي كنائس المدن في البطريركيات الغير الكاثوليكية . وقد دعا ابن حمدون قس الدير راهباً لظنه ان كل سكان الديرين رهبان وراهبات وان الراهبات « بنات القسيسين » ولم تكن شعانين ابنة القس القائم بكنيسة الدير راهبة بوجه من الوجوه ولذلك وصفت ماء الدير بانه « ماء الراهبات القذرات » فإسلامها رهبةً من المتوكل لا يعد عاراً على راهبات دير صليبا .

ذكر المتوكل انه لم يرَ مثله قط فشرب وشربتُ معه فاستعفيتُ من حمى كانت لحقتني تلك الليلة فاعفاني وسرَّ بها وبظرفها سرورًا عظيمًا تامًّا

فلما اخذ الشراب منها قالت له : يا سيدي اغنّيك من غنائنا على ضعف الصنعة ؟ فكاد يهيم وقال : ان فعلتِ كل والله ظرفك (f° 127ᵇ) فقامت فجاءت بشي. يسمّونه القيثارة (القيثارة ؟) وصرخت واندفعت تغنّي :

يا خاطبًا مني المودة مرحبا سمعًا لامرك لا عدمتك خاطبا
انا عبدة لهواك فاشرب واسقني واعدل بكأسك عن خليلك ان ابى
قد والذي رفع السماء ملكتني وتركت قلبي في هواك معذّبا

فنعر المتوكل وقال : ويلكِ اميةٌ انت ؟ فانتبهت وعلمت اني اخطأتُ في مساعدته فاخذت رطلًا ولم ازل اشربه حتى لحقته ومضى لنا يوم كان في الايام فردًا ثم ارغبها المتوكل فاسلمت وتزوجها ولم تزل عنده حتى قتل رحمه الله

« ورأيت في بعض النسخ ان شحرورًا وقمريًا كانا يصيحان على اعالي اشجار الدير فاصغى اليهما المتوكل فلما تحقّقت اصغاءه اليهما انشدته هذه الابيات الاربعة :

وكأنما الشحرور راهب بيعة ألهاه طيب الوقت عن ترميره (١
جُعلت له تلك الغصون صوامعًا يتغنى في انجيله وزبوره
وكأنما القمريّ يندب شجوه بانينه وحنينه وزفيره
صبٌّ شجته بلابل لما دنت منه ديار انيسه وسميره

فاعجبه ذلك منها وزاد بها سرورًا ولها محبة ثم انه ارغبها الى ان اسلمت وتزوجها رحمه الله »(٢

ومما يجب ان ينبّه عليه ان ابن حمدون على مكانه من منادمة المتوكل كان غنيًّا عن كل مجاملة او اطراء في ما حكاه من هذه الزيارة ويزيد في قدر شهادته انها الاثر الفرد الذي بقي لنا من الاشارة الى الاديار والكنائس في القرن التاسع بدمشق والدلالة على بعض ما اتصفت به النصرانيات في حاضرة الامويين من جمال الخَلق والخُلق وكمال الادب والعلم ودقة الفطنة والفهم حتى بين « بنات القسيسين » ولا دليل يدعو الى الريب بان الابيات التي غنّت بها

١) الترمير هنا يراد به تلاوة مزامير داود

٢) الدر الملتقط من كل بحر وسفط لجامع شتاته محمد بن علي بن محمود الكاتب الدمشقي بريتيش موزيوم لندرة Add. 14908

شعانين – وهذا الاسم لا يزال معروفاً في لبنان – هي من نظمها وارتجالها وبنت ساعتها وعفو قريحتها وهو ما يزيد في الاعجاب بذكائها وظرفها وبلوغها الغاية من حسن التربية والعشرة والمشاركة في ضروب من العلم كالغناء والنظم وهي صفات تحلّى بها كثير من الفتيات والجواري والاماء. والقيان من كل الملل والنحل في الاسلام كما يعلم ذلك كل واقف على تاريخ الحضارة العربية في الخلافة العباسية[1]

١٨

دير السيدة

بصيدنايا

هو فيما يظهر اقدم الاديار في دمشق وضواحيها وكان ذكره في ايام الصليبيين قد شاع وملأ الافواه والاسماع فكان محطاً للقوافل والركبان وقبلة للحجاج والعبّاد ومقصداً للزمنى والمرضى ومزاراً لكبراء الافرنج لمكان ايقونة العذراء والاعتقاد الشامل انها من رسم القديس لوقا الانجيلي مع ما كان يُعزى لها من الاشفية والمعجزات بفضل الزيت السائل منها . وفي سنة ١٩٣٢ أشرنا تاريخاً خاصاً حافلاً لصيدنايا والدير توسعنا فيه جداً وضمناه كل ما وقفنا عليه من اوصافهما واخبارهما في طوافنا على خزائن المخطوطات والمطبوعات في الشرق والغرب فليراجع

واشتهرت صيدنايا قديماً بجودة خمرها كاشتهار الدير بايقونته واول من تغنّى بطيب مدامتها ابو نواس امير لواء السكارى فقال :

قم فاسقني واشرب فقد ولّى الدجى ... واتت ذكاء بنورها المتوقد
واسبأ لنا بنت الكروم وهاتها ... صرفاً متى تُقطب بماء تزبد
مما اصطفوه بحمص او ما عتّقو ... ه بصيدنايا او خبوه بصرخد
خذها على دين المسيح اذ نهى ... عن شربها دين النبي محمد[2]

---

١) الخزانة الشرقية ٢ : ١٢ – ١٦

٢) الدر الملتقط من كل بحر وسفط رقم ٢١ من الخزانة الخالدية القدس ص:١٢ – ١٤ ولم نجد هذه الابيات في ديوانه

وزاد في اطرائها من بعده ابن عُنَين فقال يخاطب اخاه من الهند :

يا سيدي واخي لقد اذكرتني عهد الصبى ووعظتني ونصحت لي
اذكرتني وادي دمشق وظله الضافي على صافي البرود السلسلِ
ووصفت لي زمن الربيع وقد بدا هرم الزمان الى شباب مقبل
وتجاوب الاطيار فيه فطرب يُلهي الشجيّ ونائح يشجي الخلي
ومدامة من صيدنايا نشرها من عنبر وقميصها من صندل
مسكية النفحات يشرف اصلها من بابل ويجلّ عن قُطرُبُل (١

وله ايضاً فيها :

اجتلي بنت كرمة خزنتها الروم دهرًا ما بين طين وقارِ
صيدنائية المناسب لكنّ اباها اذا اعترى كان قاري (٢

ووصف الشهاب العمري خمر دمشق بقوله : «هي الموصوفة في الآفاق المعروفة في مغارسها بكرم الاعراق . . . وصيدنايا معدن ذهبها وافق كوكبها[٣] وزعم بعض السفّار من الفرنج ان شاربها يأمن من الخمار

وبقيت ايقونة الدير ملجأً للاعلّاء والاصحاء حتى اوائل القرن الخامس عشر دون ان يتوجّه لاحد شكّ في وجودها حتى شهد بعض الفرنج الزوار الثقات بسرقتها وشاهد صندوقها فارغاً[٤] ولكن الراهبات حرصن غاية الحرص على كتمان فقدانها وتحيّلن في ذلك بكل الحيل لئلا تنقطع النذور عن الدير فكان المصلون والراكعون يسجدون حتى اليوم امام صندوق خالٍ من الصورة القديمة التي كانت دهرًا طويلًا ظاهرة للعيان ثم :

تفيّت على «عبّادها» فكأنما يجدون ريّاً من اناء فارغ

وكان في الدير خزانة قديمة حافلة بالمخطوطات ولا سيما السريانية فخشي بطريرك الروم الارثوذكس ان يحتج السريان بكثرتها لاثبات حق لهم على الدير فجمعها انوكلا. واضرموا فيها النار وخبزوا عليها خبزتين بقلب راضٍ.

---

١) ديوانه ٨٤

٢) ديوانه ٧٥

٣) مسالك الابصار ٥٠٣٤ باريس ١١٢

٤) *Voyage du Sieur Paul Lucas au Levant.* Paris, 1704 pp. 310-313

ونفس مطمئنة وباؤوا بالاثم والعار وسوء السمعة ولا يخفى على احد ما فقده العلم والتاريخ من الفوائد والقيود الدينية والبلدية التي كان يمكن تعليقها على تلك الذخائر المغضوب عليها

وفي ثورة سنة ١٨٦٠ اوشك الدير ان ينهب ويحرق فتداركت رئيسة الراهبات الامر ورشت عصابة اللصوص فارتدّوا على اعقابهم راجعين بعد ان كانوا على مقربة من الدير واشاعت الرئيسة ان هذا الانقلاب كان باعجوبة من الايقونة.[١]

١٩

دير قانون

بظاهر دمشق

ذكره ياقوت في جملة الاديار النصرانية واقتصر على القول انه من نواحي دمشق[٢] وموقعه اليوم تجاه قرية كفر الزيت وفيه محطة السكة الحديدية على بعد زهاء ٢٥ كيلومتراً من دمشق واسم قانون او قونن (Conon) من اسماء قديسي النصارى ويعرف به موضعان من اعمال صور يقال لكل منهما دير قانون قال ياقوت : « القانون بنونين منزل بين دمشق وبعلبك»[٣] ولم ينتبه الى انه هو دير قانون الذي اشار اليه سابقاً .-

والدير قديم لا يدرى متى كان بناؤه وقد اضمحلت آثاره ورسومه وكان يعد من متنزهات دمشق ذكره ابن منير الطرابلسي في قصيدته :

حيّ الديار على علياء جيرون ... مهوى الهوى ومغاني الخُرَّد العين

وبعد ان عدد فيها معظم متنزه دمشق وقراها المشهورة بالطيب والقصف جعل دير قانون بعد آبل السوق فقال :

فالناطرون فداريا فجارتها ... فآبل فمغاني دير قانون[٤]

١) Souvenir de Syrie 1903 p. 176-177

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٨٤

٣) معجم البلدان ٤ : ٢١

٤) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ خزانة باريس

واشار ايضاً الى الدير محاسن الشوّا الحلبي في قصيدة له طويلة تكاد تبلغ مئة بيت سرد فيها كل مغاني دمشق في زمانه ومواطن اللهو والفرح فقال:

حَبَّبا ساكني بلوذان عني   ورجالاً بدير قانونَ زُمرا (١

ويظهر ان الدير كان عامرًا في زمان ابن الحجاج الشاعر المشهور لانه المح في بيت له الى خمر الرهبان للقربان فقال في الحث على شرب الصهباء :

اشربوها مما اقتناها   آل دير القانون للقربان (٢

٢٠

دير القسّيس

في جوار بقّين ومضايا

اشار اليه محاسن الشوّا الحلبي في قصيدته التي عدّد فيها اشهر قرى دمشق ومتنزهاتها فقال :

والشُّا لي ثرى مضايا وبُقَّينا   ودير القسّيس شبرًا فشبرا (٣

ورواه شهاب الدين فينان الشاغوري بتخفيف السين اي قسيس لضرورة الوزن فقال بعد ان ذكر قرية عين حور في بيت سابق :

ودير قَسِيس جنّة اي جنّة   مشاربها مشفوعة بالمآكل (٣

ولولا هذين الشاعرين لجهلنا اسمه وموقعه.

دير القس

بدمشق

كذا ورد في تاج العروس (٤ : ٢١٨) دون اقل تعيين او وصف ولم نقف على ذكر آخر له في مطبوع او مخطوط مما تناولته اليد في الخزائن ولا يبعد ان يكون هو دير القسيس المشار اليه آنفاً .

١) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ خزانة باريس

٢) ارشاد الاريب ٤ : ١١   ٣) عيون التواريخ لابن شاكر ١٥٨٧ باريس

٢١

دير الماطرون

روى ياقوت عن ابي محمد حمزة بن القاسم انه قرأ على حائط من بستان الماطرون هذه الابيات :

أرقتُ بدير الماطرون كأنني … لساري النجوم آخر الليل حارس
واعرضت الشعرى العبور كأنها … معلق قنديل عليها الكنائس
ولاح سُهيل عن يميني كأنه … شهاب نحاه وُجهة الريح قابس (١

قال ياقوت : وهذه الابيات قديمة لارطاة بن سُهية[٢] ولا شك ان هـذا الدير سبق الاسلام وكان من جملة الاديار العديدة التي كانت منتشرة للعاقبة في كل برّ دمشق ولو كان انتهى الينـا اسمه النصراني ربما كنا نهتدي الى ذكر له بين الديارات التي وقع عنها رؤساؤها في بعض المجامع القديمة وأشير اليها في المخطوطات السريانية كالتي نبّه عليها مؤلف فهرست المصاحف الارامية في خزانة بريتيش موزيوم.

وفي تاريخ ابن عساكر ان هذه الابيات لجواس بن تعطل الكلبي[٣] وكانت النصرانية فاشية في بني كلب ولا شك انه كان منهم قوم في الماطرون

وقد اقتصر ياقوت وصاحب القاموس على القول ان الماطرون موضع او قرية قرب دمشق وزعم ابو الحسن القفطي انه بستان بظـاهر دمشق يسمى اليوم الميطور[٤] ولا ريب انـه اشتبه عليه الاسمان فجعلها واحداً وهما متباينان والميطور بين قاسيون وبرزة وقد جمعها عرقلة الدمشقي حبًّا بالجناس والطباق فقال في بيت له ناطق بالتمييز بينهما :

وكم ليلة بالماطرون قطعتها … ويوم الى الميطور وهو مطير (٥

---

١) في الاصل المطبوع « نحاة وجهه » وفي تهذيب ابن عساكر « تجاه وجهة » والمعنى لا يستقيم في كلتا الروايتين والصواب : نحاه أي اماله وصرفه

٢) معجم البلدان طبعة اروبة ٤ : ٣٩٤

٣) تاريخ ابن عساكر في الظاهرية ٤ : ٣٤ ظ

٤) خزانة الادب للبغدادي طبعة بولاق ٣ : ٢٧٩

٥) معجم البلدان طبعة اوروبة ٤ : ٧١٦

وعدّه ابن منير الطرابلسي مع داريا في جملة متنزهات دمشق في قصيدته التي مطلعها :«حيَّ الديار على عليا. جيرون» فقال بعد ان سرد اشهر ما عُرف منها في زمانه :

فالماطرون فداريا فجارتها فآبل فمغاني دير قانون(١

وحار كل من تكلم على الماطرون من المستشرقين في تعيين موقعه فاجترأ دوسّو بالقول ان ضالّة المـاطرون يجب ان تُنشد حوالي دمشق[٢] وتردد الاب لامنس بين ان يكون في الغوطة او في وادي بردى[٣]

وذكر ابن عُنين الماطرون دون اقل اشارة الى موضعها فقـال من قصيدة يمدح بها الملك المعظم :

فيا من لراجٍ ان تبيت مُنيخةً بعيدا دون الماطرون ركابه (٤

وسبق ابن الرقيات فعدّ الماطرون بعد ضُمير فقال :

اقفرت منهم الفراديس فالنو طة ذات القرى وذات الظلال
فضـمير فالماطرون فحورا ن قفار بسابس الاطلال (٥

ولما شبب ابو دهبل الجمحي بعاتكة بنت معاوية قال في قصيدة له :

طال ليلي وبتُّ كالمجنون واعترتني الهموم بالماطرون (٦

وفيه إلماع الى ان معاوية كان يصطاف احيـاناً بالماطرون ومما يزيد ذلك ايضاً ابيات لابنه يزيد في فتاة هويها كانت تقضي الربيع في جلق والخريف في الماطرون قال فيها :

ولها بالماطرون اذا أكل النمل الذي جمعا
خرفة حتى اذا ارتبعت ذكرت من جلق بيعا
في جنان ثمَّ مؤنقة حولها الزيتون قد ينعا (٧

١) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٠٨٧ ومعجم البلدان ١ : ٥٧
٢) R. Dussaud : *Topographie historique* p. 306
٣) P. Lammens : *Etudes sur le règne de Mo'awia* p. 378
٤) ديوانه ١٩
٥) معجم البلدان ٣ : ٤٨١
٦) الاغاني وخزانة الادب للبغدادي ٣ : ٢٧٩
٧) انساب الاشراف للبلاذري ٢ : ٢ ومعجم البلدان ٤ : ٣٩٥

ويروى في البيت الثاني « خرقة » بدلاً من « منزل » وفي عجزه ايماء الى بِيَع جلق وهي غير كنائس دمشق ولعل ذكر البيع هو الذي اوهم ان يزيداً تغزل في نصرانية ترهبت في دير خراب عند الماطرون[1] والارجح عندنا ان لفظة « بيعاً » هي تحريف « بقعاً » وهي بقع الجنان التي ينع فيها الزيتون المذكورة في البيت التالي .

وفي عقد الجمان لليافعي[2] وكتاب البدء والتاريخ للبلخي[3] ان يزيد بن معاوية ولد في الماطرون وفي هذا المولد كان سرّ هواه في بلدتها وما جاورها من القرى وسبب اختياره لها لاصطيافه ولهوه وصيده وفيها ايضاً فاجأه نعي الخليفة والده ولنا على ذلك شاهد يرشدنا الى تعرف موقع الماطرون وهو قول سبط بن الجوزي :« لما مات معاوية كان يزيد بحوّارين وذَنَبة والماطرون مشغولاً بلهوه وصيده »[4] وفي حوّارين ايضاً ادركه الاجل والى قبره فيها اشار الاخطل بقوله في رثائه :

مقيم بحوارين ليس ببارح سقته الغوادي من ثويّ ومن قبر[5]

ومما يزيد قرب الماطرون من ذَنَبة قول سبط ابن الجوزي ايضاً في كلامه على نهر يزيد :« كان يمتدّ في القديم الى الماطرون وذنبة والقناطر في لحف الجبل باقية الى الآن (منتصف القرن السابع للهجرة) وذنبة هي « داناڤا » التي وَهِم كتاب الروم وظنوا انها هي صيدنايا وموقعها في الارجح في موضع قرية مهين[6] فلم يبقَ من ثم ريب ان الماطرون كانت قبلها للقادم من دمشق قريباً من حوارين .

وليس لدينا اليوم من اخبار دير الماطرون ما يكشف لنا طرفاً من الحجاب المسدول على غابر ايامه فلا ندري كيف تطرق اليه الخراب واندرست آثاره

---

١) الاغاني وخزانة الادب للبغدادي ٣ : ٢٧٩
٢) دار الكتب المصرية ١١ : ٤٦
٣) طبعة فرنسة ٦ : ١٦
٤) مرآة الزمان في خزانة اكسفرد Marsh. 289
٥) انساب الاشراف ٢ : ٤
٦) R. Dussaud : *Topographie* p. 271

وغاية ما نعرفه من اوصافه كثرة الاعناب في بقعته وجواره من القرى والدساكر وقد اشتهرت خمرته بالجودة والإطراب ولذلك قال محاسن الشوّا الحلبي :

يا نديمي اسقني بالماطرون خمرة تجلب افراح الحزين (١

وكان القيان والمغنون يرددون احياناً في مجالسهم قول يزيد : « ولها بالماطرون اذا » ولذلك اقترح ابو نواس هذا الصوت فقال :

غنّني يا ابن أذين ولها بالماطرون (٢

ولعل اضمحلال الماطرون كان في اثناء القرن السابع للهجرة بعد وفاة محاسن الشوّا الحلبي

٢٢

دير متى

بظاهر دمشق

انفرد عون الدين بن العجمي الكاتب المتوفى سنة ١٢٥٨/٦٥٦ بالاشارة الى هذا الدير وحرّض على زيارته بعد دير مرّان وهو ما يدل على قربه من دمشق وهذه هي الابيات التي ورد فيها ذكر الديرين من جملة قصيدة له يمدح بها الملك الناصر صلاح الدين داود الايوبي قال :

يا سائقاً يقطع البيداء معتسفاً بضامر لم يكن في سيره واني
ان جزتَ بالشام شِمْ تلك البروق ولا تعدل بلغت المنى عن دير مرّان . . .
وعُجْ على دير متى ثم حيِّ به الر بّان بطرس فالربّان ربّاني
فهمتُ منه اشارات فُهمتُ بها وصنتُ منثورها في طي كتمان (٣

ويظهر ان عون الدين ولد وتوفي بدمشق وكان متأهلاً للوزارة فهو اعرف بديار مدينته وما في برّها وضواحيها ومما يجدر التسآل عنه هل كان الربان بطرس الذي ذكره رئيسَ الدير في ذلك الوقت وهل في قوله : «الربان رباني» تلميح الى انه درس عليه بعض العلوم ام انه اراد به مجرد المجاملة او حب

١) عيون التواريخ للكتبي ١٥٨٧ باريس

٢) اخبار ابي نواس لابن منظور ٢١٢ وقوله : «ولها بالماطرون» اشارة الى بيت معاوية في الفتاة النصرانية السابق الذكر

٣) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١ : ٢٢٥ – ٢٢٦

الجناس؟ ولولا هذه الابيات لجهلنا كل الجهل وجود هـذا الدير وكم للشعرا. عندنا من اياد وحسنات في التنبيه على ما اخلّ الكتاب والمؤرخون البلديون بالاشارة اليه او التنويه به من مـآثر البلاد ومجانها ومغانيها ومتنزهاتها كما يتضح ذلك مما رويناه من اقوالهم وشهاداتهم في كتابنا الديارات النصرانية في الاسلام.

ويصعب تعيين موقع دير متى في ظاهر دمشق لغياب كل اشارة اليه في ما عدا الابيات الآنفة الذكر ولعله هو المعروف اليوم في تربة كفر العواميد شرقي سوق وادي بردى وآثاره هنالك بادية باقية[١]

٢٣
دير مُرّان
في قاسيون

ضُبط اسمه بالإجماع بضم الميم وتشديد الرا. « تثنية المُرّ »[٢] قال البكري: «وهناك عقبة المُرّان سميت بذلك لأنها تنبت شجرًا طوالًا مستوية تشبه المُرّان. ومَرّان بفتح الميم موضع آخر ولكنه ليس الشام»[٣] وفي كتب اللغة ان المُرّان شجر الرماح والواحدة مرّانة فيكون من ثم اسم الدير أُطلق عليه بعد الفتح لجواره للعقبة المذكورة كما أُطلق اسم دير البُخت على دير ميخائيل بظاهر دمشق لان عبد الملك بن مروان كان ارتبط بقربه بختًا له[٤] ويترتب على هذا القول ان اسم الدير العربي حلّ في الخلافة الاموية محل اسمه القديم في الدولة البيزنطية فما كان يا ترى اسمه الرومي قبل ان ينادي فيه يزيد بن معاوية لاول مرة مشيرًا الى ما لاقاه جيش غزاة العرب امـام خاقيدونية (الغذقدونة) من الامراض والجوع ويقول :

---

١) منتخبات التواريخ لمحمد اديب آل تقي الدين الحصني ٣ : ١٠٤٩

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٩٩

٣) معجم ما استعجم طبعة وستنفلد ٣٦٣

٤) الديارات للشابشتي ٩٣

ما ان أُبالي بما لاقت جوعهم بالفد قدونه من حِمّى ومن موم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقاً بدير مُرّان غدي ام كلثوم (١

وقد يتطرق الى الوهم ان اسم مران اصله في السريانية « ماران » اي سيدنا عُرف به في ايام الروم لغلبة اللغة الارامية على سكان بر دمشق وجبالها ومنهم كان على هذا الرأي بُناة الدير ولكن هذا الزعم ليس الا مجرد افتراض وحدس لا يزيده شيء من الآثار السالفة ولم تتقدم بمثله عادة ولا تقليد لاننا لا نجد بين كل اسماء الديارات التي تُعدّ بالمئين ديرًا واحدًا دُعي « ماران » كذا مختزلًا مقتطعاً دون تعيين آخر وانما اعتاد الرهبان والنساك ان يتبركوا بنسبة الأديار الى مار فلان وفلان من الحواريين والشهداء والقديسين والاستشفاع بهم لحماية الاديار فكيف انفرد قاسيون بتسمية شاذة وكيف لا نجد اليوم بين كل هذه الآثار السريانية والمصاحف الدينية الحافلة في الخزائن الكبرى في الشرق والغرب مصحفاً واحداً من تركة دير قاسيون يكون قد خُطّ فيه بالارامية او حُبس عليه كالمصاحف الأخر الشاهدة بتغلب السريانية على بعض اديار الملكيين وقد كان دير مُرّان مشهورًا حتى في الاسلام بصبغته الرومية وانتسابه الى رجال الدولة وكُتّاب الخراج وعُمّال الخلافة الاموية كآل سرجون واشياعهم من البيزنطيين او المتأدبين بآداب الروم اللاحقين بهم والمتسين اليهم ولذلك قال ابن منير الطرابلسي من قصيدة له يذكر فيها متنزهات دمشق وضواحيها واعياد الشعانين التي اكثر الشعراء من وصفها وكانوا يعدّونها من اكبر المواسم :

وبطّنّيني لدار الروم ما شُهرت بدير مرّان اعياد الشعانين (٢

وقال ايضاً عرقلة الكلبي متشوقاً الى بعض الحانات اللاحقة بدير مرّان ومن كان فيها من بنات الروم :

وفي دير مُرّان خمّارة من الروم في يوم شعنينها
ستتني على وجهها المشتهى ارق واعتق من دينها (٣

---

١) الكامل لابن الاثير ٣ : ١٨١

٢) تحفة ذوي الالباب للصفدي باريس ٨٢٧ في الورقة ٦

٣) خريدة القصر لعماد الدين الكاتب باريس ٣٣٢٩ ص ٣٦

وقد تتبعنا اكثر المخطوطات الملكية السريانية المحفوظة في اشهر الخزائن الشامية والاروبية فلم نجد بينها سفرًا واحدًا كُتب بمدينة دمشق نفسها او حُبس على احدى بِيَعها الملكية وانما معظم ما هنالك مصاحف شتى نُسخت او وُقفت على كنائس القرى كالزبداني وصيدنايا ومعلولا وقارة والنبك ودير عطية وهو يؤيد ما كنا اول من بادر الى اذاعته واثباته من شواهد الصلاة بالارامية في كنائس برّ دمشق الملكية[1] وكل واقف على تاريخ دمشق يعلم بما كان للروم البلديين فيها من النفوذ والجاه والتفوق اذ كان اكثر كتاب السلطان وعُمّال الدواوين في الاعم الاغلب منهم في زمن كانت حسبانات الخلافة الاموية ونقودها لا تعرف من اللغات الا الرومية وحدها وما من احد يجهل ايضاً ما كان لآل سرجون بن منصور مستشار معاوية وابنه يزيد من المنزلة والمكانة في الدولة الناشئة وان سليلهم المشهور بالقديس يوحنا الدمشقي كان من اشد خصوم البدع النصرانية واكبر انصار الامانة الكاثوليكية وهو لم يكتب مقالاته ومصنفاته الطائرة الصيت الا باللسان الرومي ولا نعلم انه وُجد له الى اليوم سطر واحد في السريانية او العربية فكيف يُعقل ان امثال هؤلاء الحماة الساهرين على الكنيسة يغفلون لحظة عن شد ازر لغة الدين ويدعون الطريق واسعة لاحبة لتغلب النبطية عليها وتسلطها على اعظم اديارهم في قاسيون مع معرفتهم ان السريانية كانت وتتنذ مطية البدع والضلالات ولسان الشيع والخوارج ولم تكن تعوزهم رهبان للروم لإسناد دير مران اليهم ومنهم كثيرون كانوا متوزّعين في كنائس دمشق الخاصة كما حكاه ابن عساكر نقلًا عن ابي مسهر قال وقوله حريّ بان يحتفظ به : « اقام بدمشق بعد فتحها اثنا عشر بطريقاً من بطارقة الروم فأقرّوا في منازلهم وكان لكل بطريق منهم في منزله كنيسة »[2] ولا يخفى قدر هذه الشهادة الراجحة ومنها يتّبين جليًا غلط الذين يزعمون ان الروم باجمعهم جلوا عن دمشق ولم يبقَ فيها الا سكان البلاد من الارامين والانباط في حين انه كان يكفي الرومي ان يدفع الجزية ليظل

---

١) تاريخ صيدنايا لنا ص ٢٤ – ٣١

٢) تاريخ ابن عساكر دار الكتب الظاهرية ١ : ١٧٢ – ١٧٣

وادعاً مطمئناً في موضعه لا يخشى حيفاً ولا بأساً ولذلك تخلف بدمشق من البزنطيين واتباعهم كل من كانت مصلحته او مصلحة المدينة تدعوه الى الاقامة وعدم الجلا. ولنا ايضاً على ذلك شاهد آخر من ابن عساكر لا يُجادل ولا يُمارى وهو ما نقله عن سمرة بن فاتك احد من شهد فتح دمشق قال :« هو الذي تولى قسمة المساكن بين اهلها بعد الفتح... فكان يترك الرومي في العلو ويترك المسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي»[1] اي خصّص الطبقات العالية من بيوت دمشق للروم الراضخين للجزية الداخلين في الذمة وهذا القول شاهد صريح بتخلف كل من اراد البقا. من البزنطيين كالرهبان ورجال الدين والتجار والصناع والأكرة وارباب العقارات من ذوي العلائق فضلاً عن عمّال الدواوين الذين كان الفاتحون لا يستغنون عنهم وهؤلاء كلهم اصل من اصول الاعاجم المستعربين في الاسلام وفرع من فروع الكنيسة الملكية وانضم اليهم في ما بعد جماهير اسرى الروم العديدين في الحروب والناقلة من المماليك والخدام والفراشين والغلمان والجواري الذين لم يكن يخلو منهم بيت من بيوت الاشراف والمثرين في الاسلام وليس هنا محل الإفاضة في هذا الباب واقامة الحجج على تألف الروم الملكيين من عنصرَي البزنطيين والاراميين المتخلقين باخلاق اليونانيين واللاتينيين مدة تناهز عشرة قرون منذ قدم الاسكندر والسلوقيون سنة ٣٣٣ قبل المسيح وخلفهم الرومان والروم الى سقوط دمشق سنة ٦٣٤ وانما استطردنا الى ذكر ما تقدم للتنبيه على امتناع ارامية دير مرّان ولعلنا ابلينا عذرًا في تصوير الواقع وتبديد كل شك ووهم.

ومن الاوهام التي تعرض لمن طالع اخبار قاسيون ان كل ما جاء باسم الدير من الحوادث والاشعار واوصاف مجالس القصف والشراب كان واقعاً في داخل الدير وازاء مساكن الرهبان وانما هو في الحقيقة كان في المحلة التي نشأت بعد الفتح في جوار الدير ونُسبت اليه لطوافها به وكان بعض العرب المحتلّين قد أعجبوا بما رأوه من محاسن بقعته وإشرافها على وادي دمشق وراقهم ما اجتمع فيها من طيب الهوا، وعذوبة الما، فاقتنوا لهم في ما حوله منازل لهم

١) تاريخ ابن عساكر ٧ : ٢١

وجنّات تألف منها على ترادف الايام ناحية عُرفت بدير مران لوقوعها بقربة منه واتصالها به والارجح ان اتكاء يزيد على الانماط بجنب ام كلثوم كما سبق من لفظه لم يكن وراء اسوار الدير ولكن في قصر له اتخذه ليخلو فيه بمن احب اذا جلس للشراب ونُقل عن عبد الملك بن مروان انه كان « يشتو بالصِّنَّبْرَة من الاردن فاذا انسلخ الشتاء نزل الجابية. . . فاذا مضت ايام من اذار دخل دمشق فنزل دير مرّان »[1] ومعلوم ما يصحب الخليفة عادة من الحاشية والحَرَم والاتباع والثَّقل في حله وترحاله فيبعد جدًا ان يكون عبد الملك رضي ان ينزل ضيفاً ثقيلاً في كل ربيع على رهبان الدير ان لم يكن ابتنى له جوسقاً في بقعة الدير. ولو لم ينصّ على ذلك احد من المؤرخين ولا شك ان ابنه الوليد توفي في هذا القصر وحُمل منه على اعناق الرجال ليدفن في الباب الصغير[2] كما نقل غير واحد من الاخباريين ومن هنا يتضح غلط ابن الازرق الفارقي الذي زعم انه مات ودفن في دير مرّان[3] وبعد وفاة الوليد صار هذا القصر الى ابنه عبد العزيز وفيه كان يستقبل ندماءه وشعراءه كما رواه ابو الفرج الاصبهاني عن عبد الرحمن بن سعيد الجرمي قال :

« قدم جرير على عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك وهو نازل بدير مرّان فكنّا نغدو اليه بكرًا فيخرج الينا ويجلس في برنس خزّ له لا يكلمنا كلمة حتى يجيء طباخ عبد العزيز اليه بقدح من طلاء مسخّن يفور وبكتلة من سمن كأنها هامة رجل فيخوضها فيه ثم يدفعه اليه فيأتي عليه ويقبل علينا ويحدّثنا في كل فن وينشدنا لنفسه ولغيره حتى يحضر غداء عبد العزيز فنقوم اليه جميعاً »[4]

وفي هذا القصر او غيره « شهد عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس عرساً بدير مران لبعض بني مروان »[5]

وفي دير مرّان ايضاً مات قتيلاً خمارويه بن احمد ابو الجيش بن طولون قال الصفدي : « قتله الخدم في ذي الحجة من السنة (٢٨٢ = ٨٩٦ م) بدير مران

١) الجزء الحادي عشر من تاريخ طبعة غريفزولد سنة ١٨٨٣ ص ٢٠٠
٢) العيون والحدائق طبعة ١٨٧١ ص ١٢ والكامل لابن الاثير ٥ : ٢
٣) تاريخ ميافارقين خزانة بريتيش موزيوم Or. 5803 f° 76b
٤) الاغاني طبعة بولاق ٧ : ٥٥–٥٦
٥) تاريخ ابن عساكر ١٦ : ١١ بدمشق

ظاهر دمشق. وهربوا »[1] ولا حاجة الى القول انه لو كان بين الرهبان لما استطاع خدمه ذبحه ولما تمكنوا من الهرب وقد صرّح سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان انه كان « قد بنى قصراً بسفح قاسيون اسفل من دير مران يشرب فيه فدخل تلك الليلة الحمام به فذبحه خدمه »[2] وهو ما يؤيد ما زعمناه من نزول الخلفاء الامويين في قصور لهم خاصة في قاسيون في جوار دير مرّان في المحلة المشهورة به .

وقد نقلنا في الكلام على دير مار تاودرس تعريف السمعاني دير مرّان بأنه « بقعة نزهة » على باب دمشق اي باب الفراديس واوردنا شهادة ابن الاثير في اقبال اهل دير مران والأرزة وسَطرا برئاسة حميد بن حبيب النخعي لمبايعة يزيد بن الوليد وكانت الارزة وسطرا قريتين في جوار محلة مران من اشهر متنزهات قاسيون البائدة وهذه شهادة اخرى للمدائني في المعنى نفسه قال : « واقبل حميد بن حبيب اللخمي في اهل دير مرّان والارزة ودخلوا من باب الفراديس »[3] وفي زمان عبد الملك بن مروان « كان الحارث الكذاب من اهل دمشق ... وكان يريهم الاعاجيب ... وكان يقول لهم : اخرجوا حتى أُريكم الليلة فيخرجهم الى دير مران فيريهم رجالاً على خيل فتبعه بشر كثير ... فأمر عبد الملك بطلبه »[4] ولما مات المعتصم سنة ٢٢٧ / ٨٤٢ « ثارت القيسية بدمشق وعاثوا وافسدوا وحصروا اميرهم فبعث الواثق اليهم رجاء بن ايوب الحضاري وكانوا معسكرين بمرج راهط فقتل رجاء بدير مران ودعاهم الى الطاعة فلم يرجعوا فواعدهم الحرب بدومة »[5]

ومن هذه الشواهد يتضح جلياً ان اسم دير مران كان يطلق قديماً على العمر نفسه اي جماعة قلالي الرهبان وعلى ناحية محدقة به حافلة بالغرف والجواسق والقصور والجنان والحدائق كان ينتابها الخلفاء والامراء والمتنزهون والشعراء

١) الثامن من الوافي بالوفيات للصفدي . باريس ٢٠٦٤ ص ٣٥

٢) الثاني من النجوم الزاهرة باريس ١٧٧٤ ص ١٩ وتاريخ ابن عساكر ٥ : ٢٥٤

٣) العيون والحدائق ١٣٧

٤) معجم البلدان لياقوت ٢ : ٦٦٦ – ٦٦٧

٥) الكامل لابن الاثير ٦ : ١٧٩

وعشاق الخمور النصرانية مأهولة بأربابها من اهل دمشق والغوطة والغرباء. وقد مرَّ بنا في جملة هذه الادلة التي نقلنا لفظها بضعة حوادث يخال قارئها لاول وهلة انها حدثت في العمر نفسه وانما هي صدى من احداث محلة مران فلا بد اذن من التروي في النصوص والاستدلال من قرائن الاحوال لِرَدّ كل خبر الى نصابه ونسبته الى موقعه الحقيقي.

ولا يُعلم بالضبط متى تم خراب الدير نفسه ولكن يترجح ان كل ما روي فيه من الاخبار والاشعار بعد القرن الخامس والسادس يجب ان يعزى بالاحرى الى محلة مران ويظهر ان اثار الدير بقيت شاخصة الى ما بعد القرن الحادي عشر كما يستفاد من ابيات لعبد الرحمن بن حمزة رواها المحبي[1]

وقد اتفق كل المؤرخين والبلدانيين والشعراء على وصف الدير بالنزاهة والنضارة وحسن الموقع وطيب المطّل لامتداد النظر منه الى حدائق دمشق ورياضها وسهولها وانهارها ونصّوا خصوصاً على مزارع الزعفران تحته[2] وهي ولا شك كانت لاحقة بالدير لتخصص الرهبان قديماً بزراعة الزعفران لشدة الطلب عليه في الاسواق ودخوله في الطيوب والاصباغ والمآكل كما نبهنا على ذلك في فصل عقدناه له في كتابنا « الديارات النصرانية في الاسلام »(ص٥٠—٥٧) ولما تقوض الدير ودرست آثاره بقيت شهرة ناحيته بالحسن والبها، متصلة مشهوداً بها في اجل متنزهات دمشق ولا غرو فان مرأى دمشق من تلعتر قاسيون من المشاهد الخلّابة التي تفعم الصدر حبوراً والعين بهجة ونوراً ويقل جداً وجود نظائر لها في الامصار الشرقية ويكفي تلاوة ما خطه قلم لامرتين الشاعر الفرنسي الطائر الصيت في وصف قاسيون[3] ومُستشرفه على الغوطة والمدينة معاً للوقوف على شدة إعجاب الغربيين بنظر من افتن مناظر دمشق:

يحيُّ هواءُ الغوطتين معطَّر النسيم بانفاس الرياحين والزهر

ولا سبيل اليوم لمعرفة شيء من وصف بناء الاديار قديماً وتخطيطها وما

١) خلاصة الاثر للمحبي ٢ : ٣٢٢

٢) معجم ما استعجم للبكري ٣٦٣ ومعجم البلدان لياقوت ٢ : ٦٤٩

٣) Oeuvres Complètes de M. A. de Lamartine T. VI. Paris 1850 p. 49-50, 74

كانت تشتمل عليه عادة من المعابد والهياكل وقلاليّ الرهبان وحُجر الضيوف وبيوت الموائد ومستودعات المؤن والاشربة والغلال والمطاحن والافران والحدائق والحانات وسائر ما يلحق بالبيع والاعمار فلا ندري من ثم من وصف دير مران سوى ما ذكره الخالدي من ان « بناءه كان بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملوّن وفيه رهبان كثيرة وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني والاشجار محيطة به»[1] وزاد العمري على هذه الرواية « ان قلاليه دائرة به واشجاره متراكبة وماءه يتدفق»[2] ويؤخذ من حكاية البيغاء الشاعر الآتية ان بعض قلاليه كانت غاية في التنوق والزخرفة والاعتناء. ونعت بيتاً منها دخله بانه كان « فضي الحيطان رخامي الاركان يضمّ طارمة خيش»[3] وهو ما ينبئ عن غنى الدير واتساعه وحسنه وجلالته واتقان تشييده وكان الى جانبه دار للضيوف ينزلها من شاء من العابرين وابناء السبيل والمتنزهين واللاجئين الى الدير للاستشفاء او الاختفاء عن الغرماء. قال سعيد بن بطريق « لمن كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلون فيها ويسكنون فيها »[4] ولما كان الدير كما قال البيغاء « مشهور الموقع في الجلالة وحسن المنظر » كان عدد الطارئين عليه او المتطرحين فيه غير قليل ووصف البيغاء ليلته فيه فقال : « اقبل الليل فطلع القمر فتُحت مناظر ذلك البيت الى فضاء. أدّى الينا محاسن الغوطة وحبانا بذخائر رياضها من المنظر الجناني والنسيم العطري » ومع ذلك فلم ينته الينا من مدائح الشعراء له الا النزر النادر جدّاً بالنسبة الى ما رُوي من الخمريات والغزليات التي قيلت في ديارات العراق مثلًا .

ولعل ذلك كان لأن اكثر مزروعات دير مران كانت من الرياحين والازهار وخصوصاً الزعفران ومن الاشجار وقليلًا بينها الكروم والاعناب كما هو الحال اليوم في حدائق الصالحية المعروفة بالحواكير فلذلك لم يتغنّ الشعراء كثيرًا بدير لم يشتهر بخموره شهرته بطيب موقعه ورياضه ولا سيما لغنائهم عنه

١) معجم البلدان ٢ : ٦٦٩

٢) مسالك الابصار ٣٥٣

٣) يتيمة الدهر للثعالبي طبعة دمشق ١ : ١٧٧

٤) تاريخه طبعة بيروت ٦٦

بما اجتمع لهم من اسباب التنزه واللهو في المغاني المجاورة له مثل سطرا ومُقرا وبيت لهيا والنيرب من القرى البائدة وهذا ما وقفنا عليه من اقوال الشعراء الذين مرّوا به او ضافوا به قال الببغاء :

يا صباحا بدير مران راقا ∗ هِجت منا القلوب والاحداقا
ومشت نسمة تؤمك حتى ∗ رفعت بالعبير فيك رواقا
واتينا اليك نقطع ارضاً ∗ ملأتنا الى اللقا إشواقا
وسمعنا الطيور تصدح زهوا ∗ حيث سكران طيبها ما افاقا
وصبا قياسيون تنفح فينا ∗ سكبت من هبوبها رقراقا
فجلسنا في مجلس مستطاب ∗ فيه كأس السرور كان دهاقا
ونظرنا من ربوة الشام مرأى ∗ قلبنا لم يزل له مشتاقا

ولابن ابي جبلة الدُمشقي من قصيدة :

يا دير مران ما لي عنك مصطبر ∗ وفي فنائك احسان واكرام
عمر به للصبا واللهو معتمر ∗ وللصبابة اجلال واعظام
تسحبت فيه اذيال السحاب فقد ∗ تفتحت عن جنيّ الورد اكمام
وللحمائم إفصاح يذكّرنا ∗ احبابنا ولنا بالسكر إعجام
دير نعمتُ زمانا في مسارحه ∗ كأن ايامه في الحسن اعلام
شماسه هو وزّان ومنتقد ∗ وقسّه هو خمّار وكرّام (١
فيه جنيت ثمار اللهو عن طرب ∗ وصاحبا رحليّ الابريق والجام
اشتاقه شوق صبّ لا يفارقه ∗ فكل يوم لنا في الدير إلمام
يا دير لا فارقتك الساريات لها ∗ على ثرى ربعك الفيّاح الجام (٢

١) تاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٩ : ١٢٤
روى ابن عساكر هذه القصيدة بزيادة خمسة ابيات بعد البيت الخامس وذكر في عجزه «مطرانه» بدلًا من «قسّه» وهذه هي الزيادة في وصف العنب الاسود والحمرة قرأها في كتاب الديرة للسيساطي :

كأنما بينه من رحمة وهوى ∗ وبين معترشات الكرم ارحام
حتى اذا الكرم امسى عقده سبجاً ∗ وكان درا ولم ينظمه نظام
غدا وراح له من دونه خلف ∗ وبين منظومه نقض وابرام
وظل يبطل في بيع امانته ∗ فهن بين عدات يومها عام
وجاءة خطابها الاكفاء فاجتليت ∗ حسنا وليس لها عاب ولا ذام

٢) مجلد فيه مختارات من الاعلاق الخطيرة لابن شداد خزانة ليدن Arab. 1466 fº 63

ولابي بكر الصنوبري من قصيدة :

امرُّ بدير مران فاحيا واجعل بيت لهوي بيت لهيا
ويبرد غلّتي بردى فسقيا لايام على بردى ورعيا
ولي بباب جيرون ظباء أعاطيها الهوى ظبيا فظبيا
ونعم الدار داريا ففيها حلا لي العيش حتى صار أريا (١

وله ايضاً :

متى الأرحُل محطوطه وعَير الشوق مربوطه
باعلى دير مران فداريا الى الغوطه
فشطّي بردى في جنـ ـب بُسط الروض مبسوطه
رباع تخبط الاخطا رُ منها خير مهبوطه
وروض احسنت تكتيـ ـبهُ المزن وتنقيطه
ومدّ الورد والآس لنا فيه فساطيطه
ووالى طيره ترجيـ ـعه فيه وتمطيطه
محل لا وَنَتْ فيه مزاد المزن معطوطه (٢

ولكشاجم عدة قصائد ومقطعات في الدير اشهرها قصيدة في مديح الدير ورهبانه وتنسب ايضاً الى ابي بكر الخالدي ولعلها من الابيات التى دسّها السري الرفاء في ديوانه :

بحاسن الدير تسبيحي ومسباحي (٣ وخمره في الدجى صبحي ومصباحي
اقمت فيه الى ان صار هيكله بيتي ومفتاحه للانس مفتاحي
منادماً من قلاليه رهابنة راحت خلائقهم اصفى من الراح
قد عدّلوا ثقل ابدان بمرفقة منهم لخفة ابدان وارواح
ووشّحوا غرر الاداب فلسفة وحكمة بعلوم ذات اوضاح
في طب بقراط لحن الموصلي وفي نحو المبرِّد اشعار الطرمّاح
ومنشد حين يبديها البزال لنا «ألمع برق سرى ام ضوء مصباح

١) معجم البلدان ٢ : ٦٩٦

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٠٦

٣) في الاصل «وتصباحي» وفي رواية اخرى «وتسباحي» ولم يرد مصدر تصباح او تسباح في اللغة كقولهم تجواب او تجوال وما نظن الاصل الا «مسباحي» بلفظ الآلة بمعنى مسبحة مقابلة لقوله في الشطر الثاني مصباحي.

اخلقت في العمر عمري حين راح إلى ... غير البطالة قلبي غير مرتاح
ما نور احداقنا الا حدائقه ... لام اللوائم فيها او لحى اللاحي
بُسط البنفسج والمنثور تبسط في ... صحون آس وخَيريات تفاح
بدائع لا لدير العاث هنّ ولا ... لدير حنّة من ذات الأكيراح
فكم حننت الى حاناته وغدا ... صوتي يكاثر اصواتاً باقداح
حتى تخمر خمّاري بمرفقي ... وحيرت مُلحي في السكر ملّاحي
يا دير مران لا تعدم ضحى ودجى ... سجال كل ملثّ الودق سحّاح
ان تُغنِ كأسك اكياسي فان بها ... يفل جيشَ همومي جيشُ افراحي
وان أُقم سوق اطرابي فلا عجب ... هذا بذاك اذا ما قام نوّاحي[1]

وله ايضاً :

هل احد نال لذتنا ... بدير مران ليلة الاحد
يا طيب يومي به وأمسي ويا ... حسن غدي بعده وبعد غد
جداول فوق جدول صخب ... وبانة تحت طائر غرد[2]

وله ايضاً :

لا تُغنِ عمر الزمان الا ... ما بين قلاية وخمر
يا دير مران كم غزال ... فيك وكم جنة وزهر
فكم تطربت مستهاما ... اليك اذ عيل فيك صبري
وفي يميني شمال شمس ... وفي شمالي يمين بدر[3]

وله كذلك :

سقيا لليل قصّرت مدته ... بدير مران مر مشكورا
يوم اتيناه زائرين فصا ... دفنا به روضة وماخورا
وبات بدر الدجى يشعشها ... نورية تملأ الدجى نورا
غارت على نفسها وقد سفرت ... فماد جيب الحَباب مزرورا
حتى رأيت الظلام يدرجه الغر ... ب ودرج الصباح منشورا
فاختلط الليل والنهار كما ... تخالط كفٌّ مسكاً وكافورا[4]

---

١) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٣٦ – ٣٧ ويتيمة الدهر للثعالبي طبعة دمشق ١ : ٥١٢

٢) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٥٦

٣) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٨٥ – ٨٦ وتاريخ ابن عساكر بالظاهرية ١٦ : ١٤٤ ظهر

٤) ديوانه ، المطبعة الانسية بيروت ص ٨٧ وزهر الاداب للحصري بهامش العقد الفريد ٣ : ٥١ وبين الديوان وزهر الاداب نقص وزيادة ، اختلاف في الرواية .

ولمحاسن الشوّا الحلبي يذكر مستنزهات دمشق :

عاطياني حديث سطرا ومقرا   وابسطا لي في هجري الكأس عذرا
انا مالي وشرب كاسات خمر   شغلتني عنهن كأسات ذكرى
كم نعمنا في بيت لهيا بلهوٍ   وعلونا بالقصر والسهم قصرا
ومررنا بدير مران نشدو   فيه نظما وتسجع الورق نثرا[1]

وروى البكري والعمري وغيرهما ابياتاً للحسين بن الضحاك ذكروا انه قالها للرشيد في دير مران واولها فيما زعموا :

يا دير مران لا عُرّيت من سكن   قد هجتَ لي حزنا يا دير مرانا

والصواب يا دير مِديانا بالدال والياء. وهو دير على نهر كرخايا قرب بغداد[2] ومن العجب ان العمري استشهد ببعض هذه الابيات في كلامه على الديرين باسم كل منهما دون ان ينتبه الى ما في احدهما من التحريف وما في استشهاده بها في الموضعين من الذهول والتناقض.

وقد تقدم قول سعيد بن بطريق ان دير مران كان المسلمون ينزلونه ويسكنون فيه وهذا القول ينطبق ايضاً على سائر الديارات في الاسلام ولذلك كان في اكثرها دور او حُجَر للضيافة بمعزل عن القلالي وغالب من ينتابها قوم من المتنزهين عشاق المدام . واحياناً من المرضى المنتجعين للعافية لان الرهبان كانوا يحسنون طب النفوس وطب الاجساد وقد وصفهم الخالدي بالتفوق في « الفلسفة والحكمة وطب بقراط » ويظهر ان بين المصابين اللاجئين الى الدير بعض الموسوسين والمجانين وقد نقل العمري حكاية عن المبرّد قال فيها : « وافيت الشام وانا حدث في جماعة احداث لاكتب الحديث والقى اهل القلم فاجتزت بدير مران فاحببت النظر اليه فصعدناه فرأيت منظرًا حسنًا واذا في بعض بيوته كهل مشدود حسن الوجه عليه اثر النعمة فدنونا منه وسلمنا عليه فرد السلام» وانشد ابياتاً في البكاء من الفراق والحنين الى الاحبة قال في آخرها :

اني على العهد لم انقض مودتهم   فليت شعري لطول العهد ما فعلوا

قال المبرّد فقال له فتى من المجّان الذين كانوا معي : ماتوا فقال : فاموت ؟

١) الثالث من عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ باريس ٦٦

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٩٥

فقال له : «مت فتسطى وتقدد وما برحنا حتى دفناه»[١]. ولم يذكر العمري عمن نقل هذه الحكاية كعادته في كل ما يرويه وساقها النويري بالفاظ أخر وحكى انه خرج وجماعة من اصحابه مع المأمون وبرّ بهم بدير كبير في الرقّة وسرد بقية القصة بالمعنى نفسه[٢] ورواها ايضاً الخالدي في دير هزقل بين البصرة وعسكر مكرم[٣] وهو كافٍ لاثبات ان الحكاية من الاقاصيص الموضوعة للهو والسمر وهي متناقضة فلا يُلتفت اليها ولكن روى ابن عساكر قصة رابعة لا يبعد ان تكون وقعت حقاً اسندها الى ابي عثمان النصيبي من اهل التصوف قال :

«كنت سائحاً ببلاد دمشق وعلي خرقتان واحدة في وسطي واخرى على كتفي فانتهيت الى دير مران والثلج يسقط مثل الورق فاطّلع الي راهب من غرفة وقد لويت عن باب الدير فقال : بحق من خرجت من اجله ألا عدلت الى الدير فرجعت نحو باب الدير فاستقبلني منه واخذ بيدي وصعدنا الى غرفة حسنة الآلة فاقمت عنده ثلاثاً في حسن عشرة فاستحسنته فقلت يا راهب اراك عاقلاً فكيف اقمت على النصرانية فقال : قد قرأت المسطور يعني القرآن ولو قُضي شيء لكان وهممت بالسير فرام وقوفي فقلت : قال نبينا صلوات الله عليه وسلامه : للضيف ثلاثة فما زاد فهو صدقة فقال : صدق نبيكم ولكن من الضيف على صاحب البيت فقلت اراك اديباً أسألك عن شيء فقال : قل فقلت : ما صفة المحبة فقال : المحبة لا صفة لها ولكن ان اردتَ اصف لك شيئاً من ادب المحبة فقلت : قل قال : ادناه ان لا يزيد بالبرّ ولا ينقص بالجفا ونهضت فقام معي ونزلنا الى صحن الدير واذا باب مردوم فقال لي : ادفعه فدفعت الباب واذا شاب حسن الشباب في عنقه سلسلة مشدودة الى السقف تمنعه من الجلوس فقلت ما هذا فقال كلّمه فقلت ما اسمك يا فتى ؟ فقال عبد المسيح فقلت ما وقوفك ههنا ؟ فقال عبد المسيح فقلت اما تؤلمك السلسلة ؟ فقال عبد المسيح فالتفت الى الراهب فقلت ما هذا ؟ فقال : هذا العيان وذاك الخبر اوكما قال[٤]

ومن انكد حظوظ الديارات النصرانية واسوإها مغبّة واثراً الشروط المشترطة على الرهبان في الاسلام بضيافة كل مجتاز بهم من المارّة وابناء السبيل[٥] دون ان يكون لهم اقل حق في التمييز بين الاشراف والسفلة فكانت

١) مسالك الابصار ٣٥٣ – ٣٥٤
٢) نهاية الارب ٢ : ١٩٠ – ١٩١
٣) معجم البلدان ٢ : ٧٠٦ – ٧٠٧
٤) مجلد من مختصر تاريخ ابن عساكر لابن ابي شامة ، باريس ٢١٣٧ ص ١٩٤
٥) كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف ١٦٥

مساكنهم من ثم وخلواتهم في نظر العابرين والمسافرين كالخانات والحانات ينزلها الاضحاء المغرمون بالقصف والشراب والاعلاء المبتلون بالعاهات والاسقام وربما كان بينهم المفاليس الذين قعدت بهم حالهم عن اداء ما وجب عليهم من بقايا الضمانات السلطانية او ديون لزمتهم للغرماء فكانوا يؤثرون حبس نفوسهم في الاديار في ضيافة الرهبان بدلا من التعرض لاخطار احكام القضاء والاعتقال في مضيق السجون وذلك ريثما يتسع الوقت لاهلهم واصحابهم لتسوية امرهم وحط بعض المال عنهم ومن اغرب ما روي في هذا الصدد وابلغه رقة وظرفاً ما حكاه بلفظه الببغاء شاعر سيف الدولة وقد اتفق له مرة بدمشق ان عاشر في الدير احد هؤلاء الهاربين من وجه السلطان من ابناء المادرائيين بيت رئاسة ووزارة ووصف ليلة قضاها معه ذكر فيها لقاءه له في الخفاء في « بيت فضي الحيطان رخامي الاركان » وشرح بافصح عبارة منادمته له ومبيته عنده شرحاً تتمثل من خلاله حياة هؤلاء الاضياف الذين أباحت لهم عزة السلطان وذلة الرهبان التبسط وعدم الانقباض في جوار المصليات والمعابد عن كل ما تطالبهم به النفس من الملاذ والشهوات وهذا اهم ما خطه قلم الببغاء برواية الثعالبي قال الثعالبي: « لم اسمع اظرف من حكايته في فنها ولا الطف ولا اعذب ولا اخف وان كان فيها بعض الطول والبديع غير مملول ». قال ابو الفرج :

« تأخرت بدمشق عن سيف الدولة رحمه الله مكرهاً وقد سار عنها في بعض وقائعه وكان الخطر شديداً على من اراد اللحاق به من اصحابه حتى ان ذلك كان مؤدياً الى النهب وطول الاعتقال واضطررت الى اعمال الحيلة في التخلص والسلامة بخدمة من بها من رؤساء الدولة الاخشيدية وكان سني في ذلك الوقت عشرين سنة وكان انقطاعي منهم الى ابي بكر علي بن صالح الروزباري لتقدمه في الرئاسة ومكانه من الفضل والصناعة فاحسن تقبلي وبالغ في الاحسان بي وحصلت تحت الضرورة في المقام فتوفر علي قصد البقاع الحسنة والمتنزهات المطرفة تسلياً وتعللاً فلما كان بعض الايام عملت على قصد دير مران وهذا الدير مشهور الموقع في الجلالة وحسن المنظر فاستصحبت بعض من كنت آنس به وتقدمت لحمل ما يصلحنا وتوجهنا نحوه فلما ترلناه اخذنا في شأننا وقد كنت اخترت من رهبانه لعشرتنا من توسمت فيه رقة الطبع وسجاحة الخلق حساجرى به الرسم في غشيان الاعمار وطروق الديرة من التطرف بعشرة اهلها والانسة بكاهنا ولم تزل الاقداح دائرة بين مطرب الغناء وزاهر المذاكرة الى ان فض اللهو ختامه ولوح السكر لصحبي اعلامه وحانت مني نظرة الى بعض الرهبان فوجدته الى خطابي متوثباً ولنظري اليه مترقباً فلما اخذته عيني اكب يزعجني بخفي

الغمز ووحي الايماء. فاستوحشت لذلك وانكرته ونهضت عجلا واستحضرته فاخرج الي رقعة مختومة وقال لي: قد لزمك فرض الامانة فيا تتضمنه هذه الرقعة وونى وسقط ذمام كاتبها في سترها بك عني ففضضتها فاذا فيها باحسن خط واملحهِ واقرإهِ واوضحهِ:

«بسم الله الرحمن الرحيم

لم ازل فيا تؤديه هذه المخاطبة يا مولاي بين حزم يحثّ على الانقباض عنك وحسن ظن يحض على التسامح بنفيس الحظ منك الى ان استنزلتني الرغبة فيك على حكم الثقة بك من غير خبرة ورفت بيني وبينك سُجُف الحشمة فأطمت بالانبساط اوامر الآنسة وانتهزت في التوصل الى مودتك فأتت الفرصة والمستاح منك — جعلني الله فداك — زورة ارتجع بها ما اغتصبتنيه الايام من المسرة مهنأة بالانفراد الا من غلامك الذي هو مادة سرنك «وما ذاك عن خلق يضيق بطارق» ولكن لاخذي بالاحتياط على حالي فان صادف ما خطبته منك ابدك الله قبولا ولذلك تفاقا أُثنية غفل الدهر عنها او فارق مذهبه في ما اعداه الي منها وان جرى على رسمه في المضايقة في ما أوثره واهواه واترقبه من قربك واقتناه فذمام المروءة يلزمك ردّ هذه الرقعة وسترها وتناسيها واطّراح ذكرها»

واذا بابيات تتلو الخطاب وهي:

يا عامر العُمر بالفتوة والقصف وحث الكؤوس والطربِ
هل لك في صاحب تناسب في الـ غربة اخلاقهُ وبالادبِ
اوحشه الدهر فاستراح الى قربك مستنصرًا على النُوَبِ
فان تقبلت ما اتاك به لم تَشِنِ الظن فيه بالكذبِ
وان أتى الزهد دون رغبتنا فكن كمن لم يَنَل ولم يُجَبِ

قال ابو الفرج: فاتى علي ما حيرني واسترد ما كان الشراب حازه من تمييزي وحصل لي في الجملة ان اغلب الاوصاف على صاحبها الكتابة خطًا وترسّلا ونظمًا فشاهدته بالفراسة من الفاظه وحمدت اخلاقه قبل الاختبار من رقعته وقلت للراهب: ويحك من هذا وكيف السبيل الى لقائه فقال: اما ذكر حاله فاليه اذا اجتمعتما واما السبيل الى لقائه فتسهّل ان شئت قلت: دُلّني قال: تظهر فتورًا وتنصب عذرًا تفارق به اصحابك منصرفًا واذا حصلت بباب الدير عدلت بك الى باب خفيّ تدخل منه فرددت الرقعة عليه وقلت: ارفعها لينا كد انسه بي وسكونه الي وعرّفه ان التوفر على إعمال الحيلة في المبادرة الى حضرته على ما آثره من التفرد اولى من التشاغل باصدار جواب وقطع وقت بمكاتبته ومضى الراهب وعدت الى اصحابي بغير النشاط الذي نهضت به فانكروا ذلك فاعتذرت اليهم بشيء عرض لي واستدعيت ما اركبه وتقدمت الى من كان معي ممن يخدم بالتوفر على خدمتهم وقد كنا عملنا على المبيت فاجمعوا على تعجل السكر والانصراف وخرجت من بـاب الدير ومعي صبي كنت آنس به وبخدمته وتقدمت الى الشاكري برد الدابة وستر خبري وماكرني وتلقاني الراهب وعدل بي الى طريق في مضيق وادخلني الى الدير من باب غامض وصار بي الى باب قلاية متميز عما يجاوره من الابواب نظافة وحسنًا فقرعه بحركات مختلفة كالعلامة فابتدرنا منه غلام كأن

البدر رُكّب على ازراره . . . ثم اجفل كالظبي المذعور وتلونهُ والراهب الى صحن النلاية فاذا انا ببيت فضيّ الحيطان رخامي الاركان يضم طارمة خيش بحصير مستعمل فوثب الينا منه فتى متبتل الشيبة حسن الصورة ظاهر النبل والهيئة مُئتزر من اللباس بزيّ غلامهِ فلقيني حافياً يعثر بسراويله واعتنقني ثم قال : انما استخدمت هذا الغلام في تلقّيك يا سيدي لاجل ما لملك استحسنته من وجهه مصاناً عما ترد عليه من مشاهدتي فاستحسنت اختصاره الطريق الى بسطي وارتجاله النادرة على نفسه حرصاً في تأنيسي وافاض في شكري على المسارعة الى امره وانا اواصل في خلال سكناته المبالغة في الاعتداد به ثم قال يا سيدي انت مكدود بمن كان معك والاستمتاع بمحادثتك لا يتم الا بالتوصل الى راحتك وقد كان الامر على ما ذكر فاستلقيت يسيرًا ثم نهضت فخُدمت في حالتي النوم واليقظة الخدمة التي ألفتُها في دور اكابر الملوك واجلّة الرؤساء .

واحضرنا خادم له لم ارَ احسن منه وجهًا ولا سوادًا طبّقًا يضم ما يتّخذ للعشاء مما خف ولطف فقال : الأكل مني يا سيدي للحاجة ومنك للمباحة والمساعدة فنلنا شيئاً واقبل الليل فطلع القمر فتُفتحت مناظر ذلك البيت الى فضاء أدّى الينا محاسن الغوطة وحيانا بذخائر رياضها من المنظر الجناني والنسيم العطري وجاءنا الراهب من الاشربة بما وقع اتفاقنا على المختار منه ثم اقتعدنا غارب اللذة وجرينا في ميدان المفاوضة فلم يزل يناهبني نوادر الاخبار ومُلح الاشعار ويخلط ذلك من المزح باظرفه ومن التودد بالطفه الى ان توسطنا الشراب فالتفت الى غلامه وقال له :

يا مُعترف ان مولاك ما ادّخر عنا السرور بحضوره وما يجب ان ندخر ممكنًا في مسرته فامتنع وجه الغلام حياء وخفرًا فاقسم عليه بحيانه وانا لا اعلم ما يريد ومضى فعاد يحمل طنبورًا وجلس فقال لي : يا سيدي تأذن لي في خدمتك ؟ فهمت بتقبيل يده لما تداخلني من عظم المسرة بذلك فاصلح الغلام الطنبور وضرب وغنى :

يا مالكي وهو ملكي وسالي ثوب نسكي
تَرّه بعين الهوى في لك عن تمرّض شكّ
لولاك ما كنت أبكي الى الصباح وأبكي

فنظر الى الغلام وتبسم فعلمت ان الشعر له فكدت والله اطير طربًا وفرحًا بملاحة خلقه وجودة ضربه وعذوبة الفاظه وتكامل حسنه فاستدعيت كبيرًا فاحضرنا الخادم عدة قطع من فاخر البلور وجيد المحكم فشربت سرورًا بوجهه وشرب بمثل ما شربت ثم قال لي : انا والله احب ترفيهك وان لا اقطعك عما انت متوفر عليه ولكن اذا عرفت الاسم والنسب والصناعة واللقب فلا بد ان تُشيَّ ليلتنا بشيء يكون لها طرازًا ولذكرها معلمًا فجذبت الدواة وكتبت ارتجالًا وقد اخذ الشراب مني :

وليلة اوسعتني حسنًا ولهوًا وانسا
ما زلت الثم بدرا بها واشرب شمسا
اذ اطلع الدير سعدا لم يُبق مذ بان نحسا
فصار للروح مني روحًا وللنفس نفسا

فطرب على قولي « اثم بدرا واشرب شمسا » وجذب غلامه فقبّله وقال : ما جهلت ما يجب لك يا سيدي من التوقير وانما اعتمدت تصديقك في ما ذكرته فبحياتي الا فعلت مثل ذلك بغلامك فامتنعت ايثاره خوفاً من احتشامه واخذ الابيات وجعل يرددها ثم اخذ الدواة وكتب اجازة لها :

ولم اكن لفريثي والله ابذل فلسا
لو ارتضى لي خصي بدير مران حبسا

فقلت اذاً والله ما كان احد يؤدي حقاً ولا باطلاً وداعبته في هذا المعنى بحضر وعرفت في الجملة انه مستتر من دين قد ركبه وقال لي : قد خرج لك أكثر الحديث فان عذرت والا ذكرت لك الحال لتعرفها على صورتها فتبينت ما يؤثره من كتمان امره فقلت له : يا سيدي كل ما لا يعرف بك نكرة وقد اغنت المشاهدة عن الاعتذار ونابت الخبرة عن الاستخبار وجعل يشرب وينخب علي من غير اكراه ولا حث ولا استبطاء الى ان رأيت الشراب قد دبّ فيه واكبّ على مجاذبة غلامه والفطنة تثنيه في الوقت بعد الوقت فاظهرت السكر وحاولت النوم وجاء الغلام بردعة ففرشها لي بازاء بردته فنهضت اليها وقام يتفقد امري بنفسه فقلت له ان لي مذهباً في تقريب غلامي مني واعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذا الحال في غلامه فتبسم وقال لي بسكره : قد جمع الله لك شمل المسرة كما جمعه لي بك واظهرت النوم . . . وغلبتني عيناي الى ان ايقظني هواء السحر . . . فازدت نوديمه وجاذرت إنباهه وازعاجه فخرجت ولقيني الخادم يريد ايقاظه وتعريفه انصرافي فاقسمت عليه ان لا يفعل ووجدت غلامي قد بكر بما اركبه كما كنت امرته فركبت منصرفاً وعاملاً على العود اليه والتوفر على مواصلته واخذ الحظ من معاشرته ومتوهماً ان ما كنت فيه منام نطيبه وقرب اوله من آخره واعترضتني اسباب أدّت الى اللحاق بسيف الدولة فسرت على اتم حسرة لما فاتني من معاودة لقائه وقلت في ذلك :

ويوم كأن الدهر ساعني به فصار أسمه ما بيننا هبة الدهر
جرت فيه افراس الصبابا بارتياحنا الى دير مران المعظم والعمر
بحيث هواء الغوطتين معطَّر النسيم بانفاس الرياحين والزهر
فمن روضة بالحسن ترفد روضة ومن نهر بالفيض يجري الى نهر
وفي الهيكل المعمور منه افترعتها وصحبي حلالا بعد توفية المهر
وترّهت عن غير الدنانير قدرها فما زلت منها اشرب التبر بالتبر
وحلّ لنا ما كان منها محرّماً وهل يُحظر المحظور في بلد الكفر
فاهدت لي الايام فيه مودة دعتني في ستر فلبّيت في ستر
اتى من شريف الطبع اصدق رغبة تخاطبني عن معدن النظم والنثر
وكان جوابي طاعة لا مقالة ومن ذا الذي لا يستجيب الى اليسر
فلاقيت مِلَّ العين نبلا وهمة على السجايا بالطلاقة والبشر
واحشمني بالبر حتى ظننته يريد اختداعي من حياتي ولا ادري
وترّه عن غير الصفاء اجتماعنا فكنت واياه كقلبين في صدر

وشاء السرور ان يلينا بثالث ... فلاطفنا بالبدر او بأخي البدر
يُمطي عيونٍ ما اشتهت من جمالهِ ... ومُضني قلوبٍ بالتجنب والحجر
جنينا جنيّ الورد في غير وقته ... وزهر ازبى من روض خديه والثغر
وقابلنا من وجهه وشرابه ... بشمسين في جُنحي دجى الليل والشعر
وغنّى فصار السمع كألطرف آخذاً ... باوفر حظ من محاسنه الزهر
وامتعنا من وجنتيه بمثل ما ... تمزّج كفّاه من الماء والخمر
سرور شكرنا منّة الصحو اذدعا ... اليه ولم نشكرْ به منّة السكر
كأن الليالي يِغِنَّ عنه فعندما ... تنبّهن نكّبن الوفاء الى الغدر
مضى وكأني كنت فيه مُهَوِّماً ... يحدّث عن طيف الخيال الذي يسري
وهل يحصل الانسان من كل ما به ... تسامحه الايام الا على الذكر

ولم ازل على اتم قلق واعظم حسرة واشد تأسف على ما سُلبته من فراق الفتى لا سيما ولم احصل منه على حقيقة علم ولا يقين خبر يزدياني الى الطمع في لقائه الى ان عاد سيف الدولة وانا في جملته فما بدأت بشيء قبل المصير الى الراهب وقد كنت حفظت اسمه فخرج الي مرعوباً وهو لا يعرف السبب فلما رآني استطار فرحاً واقسم ان لا يخاطبني الا بعد النزول والمقام عنده يومي ذلك ففعلت فلما جلسنا للمحادثة قال لي : ما لي لا اراك تسأل عن صديقك قلت : والله ما لي فكر ينصرف عنه ولا اسف يتجاوز ما حُرمته منه ولا سررت بعودي الى هذه البلدة لا من اجله ولذلك بدأت بقصدك فاذكر لي خبره فقال لي : اما الآن فنعم هذا فتى من المادرانيين جليل القدر عظيم النعمة كان ضَمِنَ من سلطانه بمصر ضياعاً بمال كثير فخاس به ضمانه لقعود النسر واشرف على الخروج من نعمته فاستتر ولما اشتد البحث عنه خرج متخفياً الى ان ورد دمشق بزي تاجر فكان استتاره عند بعض اخوانه ممن اخدمه فاني عنده يوماً اذ ظهر لي وقال لصديقه اني اريد الانتقال الى هذا الراهب ان كان علي مأموناً فذكر له صديقه مذهبي واظهرت السرور بما رغب فيه من الانس بي . وانا لا اعرفه غير ان صديقي قد امرني بخدمته وحصل في قلايتي فواصل الصوم فلما كان بعد ايام جاءنا الرسول من عند صديقنا ومعه الغلام والخادم وقد لحقا به ومعهما سفاتج وعليهما ثياب رثة فلما نظر الى الغلام قال : يا راهب قد حلّ الفطر وجاء العيد ووثب اليه فاعتنقه وجعل يقبّل عينيه ويبكي ووقف على السفاتج فانفذها مع درج رقعة منه الى صديقه فلما كان بعد يومين حمل اليه الفي دينار وقال له : ابتعْ لنا ما نستخدمه في هذه الضيعة فابتاع آلة وفرشاً ولم يزل مكباً على ما رأيت الى ان ورد اليه بالبغال والآلات الحسنة وكُتب اهله باجتماعهم الى صاحب مصر وتعريفهم اياه بالحال في بعده عن وطنه لضيق ذات يده عما يطالب به والتوقيع بحطيطة المال عنه مقترن بالكتب فلما عمل على المسير قال لغلامه سلّم ما بقي معك من نفقتنا الى الراهب ليصرفه في مصالح الدير الى ان نواصل تفقده من مستقرنا وسار وما له حسرة غيرك ولا اسف الا عليك يقطع الاوقات بذكرك ولا يشرب الا على ما يغنّيه الغلام من شعرك وهو الآن بمصر على افضل الاحوال واجلّها ما يخل بتفقدي ولا يُغبّ برّي فتعجلت

بعض السلوة بما عرفت من حقيقة خبره. واقمت يومي عند الراهب وكان آخر العهد به(١).

ولا يخفى على احد ان الرهبان الذين كانوا يخالطون الزوار والاضياف ويتولّون تفقدهم وقضاء حاجاتهم كانوا في الاعم الاغلب من الشمامسة المرصدين لخدمة الدير والسعي في مصالحه بينما كان الرهبان القسوس معتزلين في قلاليهم منقطعين الى اشغالهم عاكفين على التلاوة والعبادة واستثمار ما لديهم من الحدائق وقد اطنب كشاجم الشاعر المشهور في وصف رهبان دير مران عامة بحسن الخُلق ورقة الطباع ومتانة الدين واخلاص التقوى واشار الى تضلعهم من علوم الفلسفة والحكمة والطب والالحان والنحو والشعر وقال من قصيدة تقدم الاستشهاد ببعض ابياتها :

محاسن الدير تسبيحي ومسباحي	وخمره في الدجى صبحي ومصباحي
اتت فيه الى ان صار هيكله	بيتي ومفتاحه للحسن مفتاحي
منادماً في قلاليه رهابنة	راحت خلائقهم اصفى من الراح
قد عدّلوا ثقل اديان ومرفقة	فيهم بخفة ابدان وارواح
ووشّحوا غرر الآداب فلسفة	وحكمة بعلوم ذات ايضاح
في طب بقراط لحن الموصلي وفي	نحو المبرّد اشعار الطرمّاح(٢)

وناهيك بمثل هذا المديح من احد مؤرخيهم العارفين بهم للدلالة على ما تحلّوا به من الفضل والفضيلة والنزاهة عن ملابسة العار والبعد عن كل ريبة.

ويظهر انه كان الى جانب دير الرهبان بنيّة خاصة بالراهبات وهو ما يتحصّل من قول عون الدين بن العجمي من قصيدة له في مدح الملك الناصر صلاح الدين داود الايوبي :

يا سائقا يقطع البيداء معتسفاً	بضامر لم يكن في سيره واني
ان جزت بالشام شِم تلك البروق ولا	تعدل بلغت المنى عن دير مرّان
واقصد علالي قلاليه تلاقِ بها	ما تشتهي النفس من حور وولدان
من كل بيضاء هيفاء القوام اذا	ماست فيا خجلة المرّان والبان
وكل اسمر قد دان الجمال له	وكمل الحسن فيه فرط احسان(٣)

---

١) يتيمة الدهر للثعالبي طبعة دمشق ١ : ١٧٤ – ١٨٣ . ومطالع البدور في منازل السرور للغزالي ١ : ٢٥١ – ٢٥٧

٢) يتيمة الدهر ١ : ٥١٣ – ٥١٢

٣) فوات الوفيات للصلاح الكتبي ١ : ٢٢٥ – ٢٢٦

ولا غرو في هذا الوصف فقد اشتهر اهل دمشق في كل حين بالصباحة والجمال وهذه الابيات هي الشاهد الفرد الذي وقفنا عليه بوجود الراهبات في دير مران .

ومن نزل دير مران من بني امية بعد يزيد بن معاوية وامرأته ام كلثوم كما ذكرناه آنفاً الوليد بن يزيد بن عبد الملك واخوه الغمر ونزله ايضاً من العباسيين الرشيد والمأمون وحكي عن ابرهيم الموصلي انه قال :

« مر الرشيد بدير مران فاستحسنه ونزله وامر ان يؤتى بطعام خفيف فأُتي به وأُتي بالشراب والندماء والمغنيين فخرج اليه صاحب الدير وهو شيخ كبير هرم فوقف بين يديه ودعا له واستأذنه في ان يأتيه بشيء من طعام الديارات فاذن له فاتاه باطعمة نظاف وإدام في غاية الحسن والطيب فاكل منها اكثر اكل وامره بالجلوس فجلس معه يحدثه وهو يشرب الى ان جرى ذكر بني امية فقال له الرشيد : هل نزل بك احد منهم فقال : نعم نزل بي الوليد بن يزيد واخوه الغمر فجلسا في هذا الموضع وشربا وغنيا فلما دب فيهما السكر وثب الوليد الى ذلك الجرن فملأه وشربه وملأه وسقى اخاه الغمر فما زالا يتعاطيانه حتى سكرا وملأه لي دراهم فنظر اليه الرشيد فاذا هو عظيم لا يقدر ان يُقلّه ولا يقدر ان يشرب ملأه فقال ابى بنو امية الا ان يسبقونا الى اللذات سبقاً لا يجاريهم فيه احد ثم امر برفع النبيذ وركب من وقته »(١.

وفي تاريخ ابن كثير ان في سنة ٢١٥ (٨٣٠م) « سار المأمون في جحافل كثيرة الى بلاد طرسوس فدخلها في جادى الاولى وفتح حصناً هناك عنوة وامر بهدمه ثم رجع الى دمشق فنزلها وعمر دير مران بسفح قاسيون واقام بدمشق مدة »(٢

ولا ريب ان ابن كثير يريد بقوله « عمر الدير » ما رواه ابن عساكر عن احمد بن الخير الوراق الدمشقي قال :

« لم يزل ملوك بني العباس تخف الى دمشق طلباً للصحة وحسن المنظر منهم المأمون فانه اقام بها واجرى اليها قناة من نهر منين في سفح جبلها الى معسكره بدير مران وبنى القبة التي في اعلى جبل دير مران وصيرها مرقباً يوقد في اعلاها النار لكي ينظر الى ما في عسكره اذا جنّ عليه الليل »(٣.

---

١) مسالك الابصار للعمري ٣٥٥ - ٣٥٦

٢) البداية والنهاية ١٠ : ٢٦٩

٣) تاريخ ابن عساكر ١ : ١٧٩

ونقل الاصبهاني عن الصولي وعمرو بن بانة ان المعتصم زار ايضاً دير مران[١]
ويؤخذ من الابيات التي انشده فيه الحسين بن الضحاك ان الزيارة كانت لدير مديان على نهر كرخايا كما سبقنا ونبهنا على ذلك .

وتتابع الامراء والقواد على احتلال محلة دير مران كلما اضطربتهم الاحوال الى نزول دمشق وقد اشرنا قبلاً الى القصر الذي بناه في محلة الدير خمارويه ابو الجيش بن طولون ولما نشبت المعركة بين خمارويه والامير محمد بن ابي الساج في ثنية العقاب وانهزم ابن ابي الساج قال البحتري يمدح ابا الجيش :

اما كان في يوم الثنية منظر ومستمع ينبي عن البطشة الكبرى
وعطف ابي الجيش الجواد بكرة مدفّعة عن دير مران او مقرى[٢]

ومن الغريب الذي يحار فيه فهم اللبيب ان دير مران على شهرته وتقادم عهده وجلالة بنائه لم تذكر كنيسته في جملة الكنائس الاربع عشرة التي أخذ عليها العهد بعد الفتح ولذلك زعم بعض المؤرخين ان عمر بن عبد العزيز لما شكا اليه النصارى خروج كنيستهم الكبرى من ايديهم وإحلال الجامع الاموي محلها خيّرهم بين ردّها عليهم وهدم كل الكنائس التي حول دمشق والغوطة كدير مران وباب توما والراهب في العقيبة وبين التخلي عنها وتسجيل بقية الكنائس لهم انهم آمنون عليها ان تخرب او تسكن[٣] فاختاروا التسجيل

ومن تدبّر اقوال الرواة في هذه المصالحة واختلافها في تعيين الكنائس التي أُقطعت عوضاً عن كنيسة يوحنا يدرك جلياً ان معظم هذه الروايات وُضع بعد الفتح في القرن الثاني للاعتذار عن اغتصاب مار يوحنا وتنزيه الجامع الاموي عن كل شبهة حيف وظلم وحسبك من الشواهد على ما هنالك من التباين والتناقض انهم اتفقوا جميعاً على ان كنيسة مريم كانت في عداد الكنائس الاربع عشرة المُصالَح عليها ومع ذلك فقد نقل العمري عن المغيرة المقري وكان في ايام الوليد ان الوليد اعطى النصارى في نظير نصف كنيستهم الكبرى اربع

١) الاغاني ٦ : ١٥٦
٢) . . . . .
٣) مسالك الابصار ١٩٠

كنائس هي كنيسة حُميد بن درة وكنيسة سوق الجبن وكنيسة مريم وكنيسة المصلَّبة[1] فكيف تكون كنيسة مريم داخلة مع الكنائس الثلاث المذكورة في العهد ثم تعطى بعد كأنها خارجة عنه ثم اختلفوا ايضاً في اسماء هذه الكنائس المعطاة وعددها وقد مر بنا آنفاً انها دير مران وباب توما والراهب ومع ذلك حكى ابن عساكر ان الوليد اعطى النصارى مكان الكنيسة التي في المسجد الكنيسة التي تعرف بحمام القاسم بحذاء دار ام البنين في الفراديس[2] وفي كل هذه الاقوال من الاختلاف والارتباك والتردد ما يوضح لكل ذي بصيرة ان مسئلة الكنائس في صلح دمشق لا تخلو من التخليط والتلفيق حباً بالدفاع عن حرمة الجامع وحِلّ بنائه وتبرئته من كل وصمة وعيب.

بقي الكلام على خراب الدير وتعيين موقعه في سفح قاسيون وقد تتابعت علينا عدة اعوام ونحن نرتاد حلاً قاطعاً لهذه المشكلة دون ان نهتدي اليه فلا ندري كيف درج الدير وتهدم بنيانه وتشتت رهبانه ودرست رسومه ومحاسنه وهل كان زواله في بعض الفتن والحروب التي توالت دائماً على دمشق وسلبتها كل مصانعها ومعاهدها ام ذهب فريسة المطامع والاحقاد كغيره من الاديار وآخر ما وقفنا عليه من الاشارات اليه خصوصاً — دون بقعته — قصيدة لعون الدين بن العجمي وصف فيها ثلاثة من اديرة دمشق والغوطة وتقدم لنا الاستشهاد بابياتها للاستدلال على وجود دير للراهبات في جوار دير مران ومعلوم ان عون الدين توفي سنة ٦٥٦/١٢٥٨ فهل كان الدير لا يزال ماثلاً مأهولاً في اوائل القرن السابع للهجرة كما زعم دوسو في قول عزاه غلطاً الى ياقوت[3] وكنا نرجح ذلك الى ان تسنَّى لنا مطالعة تاريخ ميافارقين لابن الازرق الفارقي في خزانة بريتيش موزيوم فعثرنا فيه على الشهادة الآتية للمؤلف حكاها بعد المعاينة وأرخها لحسن الخط بقلمه وهذا نصها بالحرف:

« سنة ٩٦ في السبت منتصف جمادي الآخرة مات الوليد بن عبد الملك . . . ودفن بدير مران بباب دمشق على النهر الذي يعرف بنهر يزيد تحت الموضع المعروف بكهف جبرائيل

١) مسالك الابصار ١٨٠

٢) تاريخ ابن عساكر ، دار الكتب الظاهرية بدمشق ١ : ١٥٥

٣) Topographie Historique de la Syrie, p. 298.

ولقد كنت بدمشق في سنة خمس وستين وخمس مئة (٥٦٥/١١٦٩م) واتفق ان رجلاً متزهداً مضى الى تحت الكهف ليبني له زاوية ينقطع فيها فحفر في موضع هناك فخرج عليه اثر بناء قديم وعمارة واثر دير وحيطان فيها صور اليونان والنصرانية والصلبان مصورة فخرج خلق كثير ومضوا وابصروا الموقع وساعدوا الزاهد ونقضوا معه فقال جماعة من مشايخ دمشق وعلمائها والشيخ العالم الحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق وعلمائها ان هذا دير مران الذي كان في ايام بني امية ودفن فيه الوليد بن عبد الملك ثم بنى ذلك الزاهد له هناك موضعاً واقام فيه وهو موضع مليح يطلّ على غوطة دمشق والبساتين تحته ونهر يزيد بالقرب منه»[١]

ومن الشقاء والخسران ان لا يكون اتصل بنا شاهد آخر يشفي لنا غلة لمعرفة شيء آخر من بناء الزاهد واثاره وتعيين موقعه تقريباً .

وفي هذه الشهادة الراجحة برهان قاطع على ان دير مران كان قد دثر باسره وامّحت رسومه قبل ايام عون الدين بن العجمي وقبل عصر ابن عساكر ولولا ذلك لما كان ابن عساكر عرف انقاضه واطلاله المستخرجة ولا شك ان ابن العجمي لم يتغزل بالبيض والسمر من حور دير مران وولدانه الا تفنناً بالشعر واقتداء باسلوب من اساليبه المعروفة في اطراء الخور النصرانية والاطناب في وصف علالي القلالي الرهبانية ومن ثم لا ينتفي ان يكون خراب الدير قد تم قبل القرن الخامس للهجرة ولعلنا نقف يوماً على اشارة اليه في بعض المخطوطات الأُنُف يمكن ردها الى تاريخ معلوم تقطع بـه جهيزة قول كل خطيب كالتي سبقت من كلام ابن الازرق الفارقي.

ويظهر انه كانت لا تزال منه بقايا في زمان شهاب الدين العمري في القرن الثامن للهجرة فانه لما اشار الى الدير قال : « بدمشق في سفح جبل قاسيون الصالحية ... وبجانبها ... كان دير مران المشهور مكانه الآن من المدرسة المعظمية الى عقبة دُمّر ومنه هناك بقايا اثار »[٢] وقال ايضاً في كتاب الديارات من مسالك الامصار : « والناس في اختلاف اين كان دير مران فمن قائل انه كان بشارق السفح نواحي برزة والاكثر على انه كان بمغاربه والى مكانه الآن المدرسة المعظمية واما الذي بشارق السفح فهو دير السائحة المسمى دير صليبا»[٣]

١) تاريخ ميا فارقين ، خزانة بريطش موزيوم Or. 5803 f° 76b

٢) مسالك الابصار ٣ : ٢١ خزانة باريس ٥٣٢٣

٣) مسالك الابصار ، طبعة الدار ٣٥٥

وفي هذه المدرسة المعظمية كانت القبة التي دفن فيها الملك المعظم عيسى ابن العادل ابي بكر بن ايوب وامه وابناؤه وغيرهم من البيت الايوبي[١] واشار اليها النويري فقال : هذه التربة هي دير مران المذكور في اشعار المتقدمين[٢] وورد مثل ذلك في كتاب البداية والنهاية لابن كثير فقال : كنيسة دير مران بسفح قاسيون وهي بتربة المعظمية (٩ : ١٥١)

وذكر ابن شاكر الكتبي دير مران فقال : هو احد مستنزهات دمشق وهو في سفح قاسيون نزله جماعة من الخلفاء . ومدحه جماعة من الشعراء . وهو على تل عال وتحته رياض زعفران وتُنبت في زمن الربيع من سائر الالوان قيل انه قرية دمر اليوم[٣]

والى جانب هذا الدير كانت الدكّة المعروفة بالدوّاسة احدى عجائب دمشق فوق يزيد وفيها كان ينزل جعفر بن فلاح احد قواد المصريين واول امير ولي لهم دمشق[٤]

٢٤

دير مار موسى الحبشي

بجوار النبك

هو دير قديم مبني بالحجر الصلد فوق قمة جبل عال يقاد له «الجبل المدخن» وتسمى هذه القمة في بعض المخطوطات السريانية «القمة الكبيرة ܘܡܥܠܘܐ» وهو شرقي النبك يبعد عنها مسافة ساعتين ويشرف منها على سهل افيح يتصل ببادية تدمر وفلسطين وهو اليوم في حوزة السريان الكاثوليك وصفه بطريركهم مار افرام الرحماني في مجلة الآثار الشرقية وقال :

«كان هذا الدير مرحلة للقوافل الغادية والرائحة من بلاد ما بين النهرين وفيه كنيسة جميلة قديمة وعلى جدرانها داخلاً وخارجاً تصاوير وكتابات سطرنجيلية وسريانية سطرها غير

١) الذيل على الروضتين لابي شامة ، باريس ٥٨٥٢ ص ٥٧ — ٥٨ و٢١٩

٢) نهاية الارب ، خزانة ليون 112 Arab. 19b Goul.

٣) عيون التواريخ ، باريس ١٥٨٧ ص ٤٣

٤) مختصر مرآة الزمان لابي المظفر الجوزي ، باريس ١٥٨٦٦ ص ٣

واحد من الرهبان والزوار الذين كانوا يحجون الى الاراضي المقدسة فكانوا يمرّون بذلك الدير ذهاباً واياباً»[1]

وورد ذكر الدير في عدة مخطوطات سريانية سبق بعضها تاريخ الهجرة وتف منها البطريرك المشار اليـه على مصحف خُطَّ في الدير سنة ٥٧٥ في عهد ابي كريب الغساني[2] وهو ما يشهد بتوغل بنائه في القدم وفي خزانـة بريتيش موزيوم مخطوط سرياني رقم ٥٨٥ جاء فيه ان في سني ٩٢٠ الى ٩٣٠ حضر الى الدير القس موسى النصيبيني واخذ منه بعض مخطوطات نقلها الى دير والدة الاله في الصعيد بمصر وفي خزانة كمبريدج كتاب رقم Add. ٢٢٨٠ خُطَّ سنة ١٤٩٤ واصله من كتب الدير وفي خزانة باريس كتاب القداس رقم ٧٢ كتبه ديسقورس مطران اورشليم ، حين زار الدير سنة ١٤٦٢.

واكثر التعليقات التي علّقها النساخ على مصاحف الدير خالية من كل فائدة تاريخية وليس هناك مـا يستفاد سوى ان الدير اصبح كرسياً اسقفياً لازدياد رهبانه واقبال الزوار والحجاج عليه وان اللصوص من الاعراب كانوا ينتهبون احياناً امتعته ومخطوطاته.

ومن اسماء الاساقفة الذين اتفق ذكرهم فيها مـار جورجي رئيس الدير اسقف مدينة تدمر (مخطوط رقم ٥٨٥ بريتيش موزيوم) وديسقورس صروخان اسقف مار موسى (١٧٢٧ — ١٧٦٩)[2] وبرانيس الياس الاصفر الموصلي مطران النبك(١٧٩٧ — ١٨٣٢)[3] وفي الدير سجل محفوظ جاء فيه اسم المطران الياس رئيس الدير سنة ١٨١٠ وعددت فيه بالتفصيل اوقاف كثيرة حبسها اصحاب النذور من القرى المجاورة في جبل قلمون والغوطة وبرّ دمشق والزبداني وجبل لبنان وبعض قرى طرابلس وهي شاهدة باشتهار هذا الدير ووفود الزوار اليه من كل حدب وصوب وربما كانت بعض النذور لقوم من المسلمين كما اعتـادوا امثالها في دير السيدة في صيدنايا.

---

١) مجلة الآثار الشرقية ٢ — ١١ — ٣٢٦

٢) مجلة الآثار الشرقية ١ — ٩ — ٣٦٢

٣) نزهة الاذهان في تاريخ دير الزعفران للاب افرام برصوم ص ١٢٢ و١٢٣

ومما هو حريّ بالتنبيه عليه هنا انه لم يبقَ من كل الاديار القديمة التي كانت في دمشق وبرّها فيما عدا دير مار يعقوب المقطّع الذي غلب الخراب عليه في قارة الا ثلاثة اديار عامرة وهي دير السيدة بصيدنايا ومارجرجس في بلودان ومار موسى بالنبك ولعل بعدها عن المدينة وبناءها فوق قمّة جبل وصعوبة التوغل اليها وعدم اعتصار الخمور فيها للحانات زهّد المتنزهين وابناء السبيل في طروقها وارتياد الشراب فيها كسائر الاديار المشهورة ولذلك لم ينته الينا اقل شعر في مار موسى او اشارة اليه في الادبيات الاسلامية ولولا معرفة شهاب الدين الدمشقي بحسن موقع دير بلودان وذكره اياه في ابيات اراد ان ينحو فيها منحى الشعراء المتطرحين في الديارات والمعجبين بجمال حورها وولدانها كما يقولون لكان نصيب دير مار جرجس في بلودان لا يختلف عن نصيب دير مار موسى في النبك من الإغفال والاهمال

٢٥

دير ميخائيل او دير البُخت

بظاهر دمشق

اغفله العمري في كتاب الديارات من مسالك الابصار واقتصر ياقوت في معجم البلدان على نقل ما رواه الشابشتي في النسخة اليتيمة المحفوظة من كتاب الديارات في خزانة برلين وهذا نص ما جاء فيه :

« هذا الدير بدمشق على فرسخين منها وهو دير كبير حسن وكان يسمى دير ميخائيل فسمّي بهذا الاسم لبخت كانت لعبد الملك بن مروان مقيمة هناك فعرف بها . وكان لعلي بن عبدالله بن عباس بذلك الموضع جنينة مقدارها اربعة اجربة فكان يخرج اليها ويتنزه فيها ايام مقامه بدمشق » (الورقة)

وقد فات الشابشتي ان يذكر في اي ناحية من دمشق كان هذا الدير وفي جوار اي قرية من قرى الغوطة لنهتدي الى اثر من اثاره ومثل هذا التقصير والغموض في التعريف هو آفة معظم المؤرخين والبلدانيين فلا نكاد ننتفع بكثير من اقوالهم واوصافهم على قلتها وايجازها

ولم نجد اشارة واحدة في الاشعار الخمريات واوصاف الحانات الى هذا الدير فهل كان بعيداً عن دمشق ومنازهها وكان الوصول اليه عسراً طويل الشقة ام كان خالياً من الكروم والاعناب فلم يشتهر بشيء من الخمور التي نوّهت بسائر الديارات وجلبت لها ضروب المخازي والفضائح

ويؤخذ من رواية لابن عساكر انه كان حول دير ميخائيل بقعة مأهولة من منازل بني امية كانت تعرف باسم دير البخت قال في الكلام على داود بن يحيى بن الحكم بن ابي العاص «كان يسكن دير البخت من اعمال دمشق»[1] وذكر ايضاً من ساكنيه قبلاً سليمان بن داود بن موان بن ابي الحكم[2].

٢٠٦

دير النساء

بجانب كنيسة مريم بدمشق

انفرد بذكره سعيد بن بطريق وهو افتيشيوس بطريرك الملكيين في الاسكندرية واغفل اسمه فقال :

« ثار المسلمون في دمشق فهدموا كنيسة مرتمريم الكاثوليكية وكانت عظيمة كبيرة حسنة أُنفق فيها مائتا ألف دينار ونهب ما كان فيها من آنية وغير ذلك من حلي وستور ونهبت ديارات وخاصة دير النساء الذي كان جانب الكنيسة وشعّثوا كنائس كثيرة وهدموا كنيسة النسطورية وذلك في نصف رجب سنة اثنتي عشرة وثلثمائة[3] » (١٧ تشرين الاول = اكتوبر ٩٢٤).

ولا شك انه لما أُعيد بناء الكنيسة بعد سكون الثورة جُدّد ايضاً دير النساء. ولم نجد اقل خبر عنه لضياع كل الكتابات النصرانية بدمشق وبرّها بتوالي النكبات والفتن والتهام النيران مصاحف الكنائس وخزائن الاديار ولا سيا مخطوطات دير السيدة في صيدنايا التي اتلفها الروم الارثذكس جهلاً وتعصباً.

---

١) تاريخ ابن عساكر ، دار الكتب الظاهرية بدمشق ٦ : ٣٢
٢) تاريخ ابن عساكر ، دار الكتب الظاهرية بدمشق ٧ : ٣٠٢
٣) نظم الجوهر ، طبعة بيروت ٢ : ٨٢

٢٧
دير هند في الغوطة
وهو دير محمد عند المنيحة

اشتهر ديران في الحيرة باسم هند الصغرى وهند الكبرى ولكن لا نعلم من هي هند التي قام باسمها دير دمشق ولا متى كان بناؤه او في اي وقت أُقطع لبعض رجال بني امية واصبحت بقعته قرية عدّها ياقوت من قرى الغوطة نقلا عن ابن عساكر وابن ابي العجائز وقالوا انها كانت من اقليم بيت الآبار[١] ويغلب على الظن ان هذا الدير هو الذي اشار اليه ابن عساكر في كلامه على محمد بن الوليد بن عبد الملك قال « واليه تنسب المحمديات التي فوق الارزة ودير محمد الذي عند المنيحة من اقليم بيت الآبار »[٢] وفي مراصد الاطلاع « عند المسجد من بيت الآبار » (١ : ٤٣٩—٤٤٠) وهو تحريف ظاهر.

٢٨
دير مار يعقوب المقطع
غربي قارة

كانت قارة من أُمهات القرى في جبل قلمون واهلها كلهم نصارى كما نبّه على ذلك ياقوت[٣] وكانوا ذوي منَعة وجرأة وشجاعة ولذلك استعان بهم احياناً بعض النواب والملوك لاغتيال مناوئيهم من رجال الدولة[٤] وكانت تطيف بقارة عدة اديار لم يشتهر بينها الا هذا الدير لقدم بنائه وحسنه واتساعه ووفرة رهبانه واملاكه وإقبال الحجاج والزوار اليه من كل الانحاء المجاورة ولا سيا من حوران وكثرة ما يُحمل اليه من النذور والصدقات ولهذه الاسباب

---

١) معجم البلدان ٢ : ٧١٠ ، وتاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٦ : ٤٦ ظ . و٤ : ٦٢
٢) معجم البلدان ٢ : ٦٩٥ ، وتاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٦ : ٤٦ ظ .
٣) معجم البلدان ٤ : ١٢
٤) نهاية الارب للنويري ، خزانة ليون Arab. 2¹ Col. f°319

كان مطمح ابصار اللصوص وتتابعت عليه غارات التركمان وقطّاع الطريق فظل حيناً يتراوح بين اليسر والعسر الى ان جرّد عليه وعلى قارة السلطان بيبرس البندقداري سيف النقمة والبغي سنة ٦٦٤/١٢٦٦ وكان قادماً من دمشق فقيل له ان اهل قارة يتخطّفون احياناً المسلمين ويبيعونهم الافرنج الصليبيين[١] قال النويري : « وكان قد حضر من قارا رهبان بضيافة الى الدهليز (اي الخيمة السلطانية) فأمر السلطان بالقبض عليهم وركب بنفسه وقصد الديرة التي خارج قارا فقتل من بها ونهبها ثم عاد وامر العسكر بالركوب وقصد التلّ الذي بظاهر قارا من جهة الشمال واستدعى ابا العزّ الرئيس بها وقال له : نحن نقصد الدير فمُرْ اهل قارة بالخروج باجمعهم فخرج منهم جماعة الى ظاهر القلعة فلما بعدوا عنها امر بضرب رقابهم فضربت ولم يسلم منهم الا من هرب واختفى بالمغاير والآبار . . ثم امر بتوسيط الرهبان الذين حضروا بالضيافة فوسّطوا وتقدم الى العسكر بنهب قارا فنهبوها ثم امر ان تجعل كنيستها جامعاً ونقل اليها الرعية من التركمان وغيرهم حتى شحنها بالناس ورتّب فيها خطيباً وقاضياً وكانت قبل ذلك تسكنها النصارى »[٢] .

ومنذ ذلك الحين ضعف حال الدير وافتقر بقلة من انضوى اليه من الرهبان وكثرة ما تتابع عليه من تسلط التركمان وفي سنة ٨٠٥/١٤٠٣ « اغار التركمان على قارة وما حولها من القرى ونهبوا تلك البلد[٣] وذهب للدير بعدة ذخائر من النذور والاواني البيعة والمصاحف النادرة والمؤن والغلال وتفاقمت الحال عليه في ايام الدولة العثمانية فكان لا يخلو من التعديات والنكبات ومن اشنعها وافظعها ما حلّ به وبرهبانه في اوائل القرن السابع عشر وقد وقفنا على شرح هذه الواقعة في ذيل كتاب الدر المرصوف في تاريخ الشوف لحنانيا المنيّر في نسخة منه مخرومة في خزانة الآباء اليسوعيين في بيروت وهذا نصّها كما وردت بالفاظها وعاميّتها وعنوانها وهي حافلة بالفوائد والاخبار :

١) نسب ابن خلدون تخطف المسلمين وبيعهم للفرنج لا الى نصارى قارة ولكن الى عدوان الاحياء الرحالة » (العبر ٥ : ٨٦) .

٢) نهاية الارب ، باريس ١٥٧٨ ص ٧٣ - ٧٤

٣) ذيل ابن قاضي شهبة ، باريس ١٥٩٩ ص ٢٠٤

«خبرية دير مار يعقوب المقطع في قارا وكيف قتلوا رهبانه وعن خرابه»

«ان هذا الدير بنيانه قديم وعماره حصين وله تاريخ وضيح ونظروه اناس كثيرين وبعده فقد واننا في زماننا حضننا رهبان قليلين وكانوا ذو عمر طويل لان مناخ هذا الدير جيد جدًا وقريب اليه قرية تدعى قارا فاخبرونا هؤلاء الرهبان انه حين ترهبوا في ابتدا عمرهم كان الدير عامرًا قديمًا وكان قبلًا يحوي رهبان كثيرين وهم روم ماسكين قانون باسيليوس الكبير وكان هذا الدير يقصدوا زيارته كثيرين وفيه نهر ماء يدوّر به طاحون وكامل القرايا اللايذين بالدير المذكور يطحنوا بها وله اراضي متسعة اذا كانت تزرع جميعها فيحصل ارباح وافرة وبالنتيجة ان مداخيل هذا الدير كافية لرهبانه معاش ولو كانوا كثيرين وله سمعة مشهورة ويطعم عيش للنصارى وللنادي وعماره في نصف السهل ولكن عالي محصّن جدًا فاتفق من غدرات الزمان من نحو مايه وخمسون سنة على التقدير باطن سنة الف وستماية وكسور مسيحية جاء للدير يدرق عسكر نحو ثلاثين نفر متطوع جرايتهم مروا على الدير وقت العصر وقايدهم مغضوب شيطان فنزلوا عن خيلهم وطلبوا ان الريس يقدم لهم اكل وشرب وعليق فقدم لهم حسب العادة ثم بعد برهة وهم خارج الدير طلب قايد العسكر مواجهة الريس وافهمه ان اخص مجيه للدير يقصد زيارة البطل ماري يعقوب ويريد يزور الكنيسة ويقدم النذر الذي معه واراه قطعة ذهب ستة فانطلى لكلامه وفتح له باب الدير ودخل معه اثنين عسكر فزار المقام واعطى النذر وصار يتفرج على الدير ونظر حالة الرهبان وعيشتهم واحوالهم ثم اظهروا وداد ومحبة للريس وبعض الرهبان حتى ان جميعهم انحظوا منه وقصدوا ان يبات عندهم داخل الدير عدا العسكر واكرموه كثيرًا وثاني يوم وعدهم والرهبان مشفوقة خبه لهم وطلبوا منه يقيم عندهم يومين فاعتذر ان الوزير ارسله في مصلحة ولكن ان شاء الله تعالى بعد قضاها نجتهد ان برجوعنا نمر عليكم وهكذا ذهب من عندهم فغاب يومين وحضر لعندهم آخر النهار وصحبة نحو خمسين عسكري وينوف فخرج الريس لملاقاته وفتح له باب الدير وادخله الى وسطه مع جملة عسكر وبقي الباب مفتوح ضد العادة وهو سايب والعسكر يدخل ويخرج من غير تكلف والاغا مع الرهبان سلك سلوك عجيب حتى كان يسميهم اخوته.

ثم قدموا العشاء داخل الدير وعليقًا وافرًا لخيلهم حتى كان العسكر داخل الدير والرهبان مطمئنين من نحوهم فقام العسكر نصف الليل تسلحوا وهجموا اولًا على اوضة الريس ذبحوه ثم داروا على الرهبان ذبحوهم جميعًا وكان عددهم انوف من مايه وعشرين راهبًا ونهبوا الدير والكنيسة تمامًا وذهبوا حالًا واغلقوا الباب خلفهم . ففي الصباح لحظوا اهل قارة بما صار فاعرضوا للشام وخرج عسكر وافر يطلب هولاء الاشرار الارديا فما وجدوا لهم اثر ومن وقته زال رونق الدير من الدثار والخراب.

ثم حضر بعض رهبان الذين كانوا دايرين بالقرايا والشام لمصالح تخص الدير ايضًا حضر رهبان القاطنين بدير سيدة رأس بعلبك الذي تابعا لدير مار يعقوب وهذا الدير في يومنا بيد رهبنة الشويريين بدير مار يوحنا وقبلًا ما كان رهبنة في الشرق غير مار يعقوب كان كرسي وتبعه دير السيدة المذكور فلما نظروا الرهبان ما حدث بديرهم من النهب والقتل

فافتقروا جدًا ما يدم حيلة غير الصبر غير انه حصل جفل للناس الذين يرغبون دخولهم بالرهبنة لان الدير افتقر نوعيًا وصار يعيبون ما بقي امان واذا كان احد يترهب فهو نادرًا جدًا وخفّت الرهبان لان الذي يموت ليس له عوض ثم بعد مدة من السنين وهي سنة الف وسبعماية وتسعة وخمسون حصل زلزلة هائلة في بلاد الشرق فغرق الذي بالدير وغار النهر بالارض كليًا وبطلت الطاحون وهكذا وهذا مما ختّم خراب الدير والرهبان حين غار الماء فصاروا قليلين وقضوا معيشتهم بالفقر والقهر .

واخيرًا حدود سنة الف وسبعماية فجاؤا لدير مار يوحنا واشتركوا معهم وتركوا ديرهم سايب ما به احد وهؤلاء الرهبان شاهدناهم بالجبل اسمائهم متى وسمعان وارسانيوس وجميعهم من عمر تسعين سنة وطالع واهل قارا تلاحظ الدير من الخراب وهم روم كاثوليك وبعد كم سنة حضر راهب شويري وهو متزيي زي الرهبان واشاع انه كاهن وسارق كتب طقسية وكان يخدم بالمذبح وهو لص سارق وحين لحظ فحص اهل قارة عنه فهرب من الدير ومسكوه بالجبل وقلت منهم ولا نعلم كيف جرى بامره وهكذا بقي سايب دير مار يعقوب زمانًا طويلًا . اخيرًا من ايام قريبة توجه اليه راهبين من دير مار يوحنا الشوير كاهن وراهب نظفوه وانتفتوا لمار رزقه وقيل انه ظهر فيه عين ماء زهيدة مكان العين التي غارت بالزلزلة قديمًا وثبتوا فيه الرهبان الى يومنا هذا .

وبقي الدير في حوزة الرهبان الشويريين الى زمان البطريرك مكسيمس مظلوم وفي خزانتنا منشور له بتاريخ ٣ آب سنة ١٨٣٦ هذا نصه :

« اننا قد اتفقنا يوم تاريخه ادناه مع حضرة ولدنا العزيز الخوري فلايانوس رئيس عام الرهبنة الحناوية البلدية الجزيل الاكرام على ما يأتي ذكره بخصوص دير القديس يعقوب الذي في قارة اذ ان هذا الدير هو يختص بكرسي قارة وبالابرشية وهو الاساس لاسقف معاش اسقف الكرسي من المداخيل التي تفيض من ارزاقه عن مصاريفه ومن ثم عدلًا وذمة يلزم ان يستمر كما كان وكما هو الآن تحت ولاية اسقف الابرشية من دون توسط ولا يباح اصلًا تخصيصه برهبنة من الرهبنات وذلك للسبب المذكور اي لان اساس معاش اسقف الابرشية هو من مدخوله فالرئيس العام المذكور قد ارتضى لمجد الله وخير الابرشية المذكورة وتتميمًا لرغبتنا بان يرسل من قبله احد كهنة رهبنته الذي هو ولدنا القس باناديكتوس فرح الاكرم مع ولدنا راهبه اثناسيوس المكرم الى الدير المرقوم ليقيما فيه ويتسلما ارزاقه مع كل ما يخصه ويتوليا مداخيله من اليوم الحاضر فصاعدًا الى مدة ثلث سنوات . . . (التي نهايتها تكون في اول تشرين الاول سنة ١٨٣٩) . . .

ثم ان الوكيل المذكور يلزمه ان يحفظ عنده اولًا قائمة الموجودات المختصة بالدير التي يتسلمها من يد ولدنا العزيز الشيخ ابرهيم سرور وتبقى صورتها مختومة منه بيد ابرهيم المذكور . ثانيًا ان يرتب له دفترًا خصوصيًا ليدوّن فيه جميع المداخيل والمصاريف . . . من حيث انها عادة قديمة هي ان يجمع له خصوصية باسم هذا الدير تكريمًا لصاحبه القديس يعقوب من ابرشية حوران ومن المحلات الاخر المجاورة من نذورات وحسنات . .

ومن اخباره التي تلقطناها انه في سنة ١٧٩٠ اغار الامير جهجاه الحرفوش على الدير ونهب ما اجتمع فيه لاهل الرأس والفيكة من الودائع والحرير والدواب[١] وفي سنة ١٨٥١ نقب اللصوص احد جدرانه وسلبوا الراهب المقيم فيه امتعته ونقوده واتُّهم اثنان من الروم الارثذكس فأُخذا واقرّا بالسرقة[٢].

وفي ايام البطريرك مكسيمس مظلوم رُمّ الدير وجُدّد ما غلب عليه الخراب ولما زرناه سنة ١٩١٣ وجدنا في ارض الكنيسة وكانت مهملة مهجورة حجرًا مطروحًا قرأنا فيه الكتابة التالية في اربعة اسطر :

قد تجدّد هذا الدير مزهرًا بناه بعناية قدس السيد السامي فضله مكسيموس مظلوم البطريرك الانطاكي ادام الله طهره وبرّه وعلاه.

وقبلًا تولى اسقفية حمص وملحقاتها السيد يوسف سفر وكانت قارة والدير في حكمه فاقام على الدير الخوري بطرس مسلم ولكنه لم يلبث فيه الا قليلًا وخرج منه لخلاف حدث بينه وبين حاكم الناحية ثم تقلد الاسقفية غريغوريوس عطا فاسند رئاسة الدير الى الراهب اناطوليوس شاهيات وخلفه القس بناديكتس فرح كما ذكرنا آنفًا وصُرف بالقس فلاسيوس بسيريني وبقي الدير مطّرحًا متهدمًا الى ان دخله في ١٥ ايلول سنة ١٩٠٨ الخوري غريغوريوس بندق فوجد الدير خرابًا وارض الكنيسة ملأى بالبعر والاقذار لأنها جعلت حظيرة وزريبة تأوي اليها اسراب الجداء والماعز والغنم فاشتغل بتنظيفها مدة ثمانية ايام ولم يبلغ الغاية وكان بالدير قديمًا مطحنة وفرن ومعصرة دبس وحمّام وصهريج ماء وبرج حمام لم يبقَ من الاوكار فيه الا نحو الثلث وفي الدير ايضًا عين ماء زلال وبستان وامامه جفان وكروم وله اراضٍ بعل نحو من مائتي فدان يتصرف اهل قارة بها من نصارى ومسلمين ويستأثرون بغلالها ولو رُزق من يحسن سياسته والقيام عليه لكان في مقدمة اديار الروم الملكيين طيب بقعة وصفاء هواء وعذوبة ماء واصبح معهدًا من معاهد التثقيف والتعليم وملجأً للعجزة وشيوخ الرهبان.

---

١) تاريخ الخوري روفائيل كرامة ص ١١٧

٢) حوض الجداول المخطوط للمطران عطا ص ٢١٥

ولا شك انه كان في الكنيسة قديماً عدة صور ومصاحف ثمينة انتهبت واغتالتها ايدي الحوادث والكوارث والتهمتها افواه النيران فلم نجد فيها الا صورة واحدة من القرن الثامن عشر كُتب عليها :

« اوقف هذه الايقونة المباركة العبد الفقير المقري عبدالله بن يوسف مرة الدمشقي اصلًا على دير مار يعقوب المقطع من قرية قارة بيد جرجس بن حنانيا المصور سنة ١٧٥٢ ».

ومن كتب الدير المحفوظة في الخزائن « كتاب السواعي رقم ٨٤ وقف برباريني على خزانة الفاتيكان » سطره . . . الحقير في الرهبان ديونيسي ابن رزق بن داود من قرية الراس عمرها الله تعالى وهو قاطن يوم بذا في الدير المبارك دير مار يعقوب المقطع غربي قارا . . . » وتاريخ كتابته نهار الجمعة عاشر شهر ايار سنة ٧٠٦٨ للعالم (= ١٥٦٠ للميلاد)

وفي خزانة برلين :

١ كتاب تريودي سرياني ملكي خُط سنة ٦٩٩٩ لآدم = ١٤٩١ للميلاد بيد « حبيب بالاسم قسيس ابن الاب السيد الاسقف مقاريوس بن حبيب بن داود » رقم ٣١٠ كان قبلًا موقوفاً على كنيسة دير عطية ثم « أُوقف وحُبس عن روح القس يونان بن القس يعقوب لدير القديس المجيد مر يعقوب بقارا » .

٢ كتاب ميناون سرياني ملكي رقم ٣٢١ كُتب في الورقة ٣٢١ منه « هذا الكتاب لدير مار يعقوب » ويظهر ان تاريخه لا يتجاوز القرن الرابع عشر وفي مكتبة دير السيدة بصيدنايا « كتاب قرآات الانجيل » رقم ٤ وبآخره هذا التعليق :

« كان الفراغ من هذا الكتاب المبارك في خمسة ايام مضت من شهر حزيران المبارك سنة ستة آلاف وتسعماية وخمسة وثمانين لابينا آدم . . . (١٤٧٧ م) وذلك بيد عبد المسيح الحقير في الكهنة يواكيم باسم قسيس ولابس ثوب التوبة ابن ابرهيم من قرية حناك وهو يومئذ ساكن في دير مار يعقوب المقطع غربي قارا . . . »

٢٩
دير يُونّى (يوحنا)
بظاهر دمشق

وَهِمَ في ضبطه كل من ابن شدّاد في الاعلاق الخطيرة وياقوت في معجم البلدان وشهاب الدين العمري في مسالك الابصار ورووه في حرف الباء الموحّدة بدلًا من الياء المثنّاة المضمومة واورده ياقوت بعد دير بولس وقبل دير التجلّي ولعلّه جاء بالموحدة ايضاً في نسخ كتب الديارات للاصبهاني والخالدي وقد سقط من نسخة الشابشتي في برلين فلا يدرى كيف كان مثبتاً فيها واغفل ذكره البكري في معجم ما استعجم في جملة الديارات الكثيرة التي ضرب عنها صفحاً واللفظة رومية كما هو معلوم والدير من اديار الروم الملكيين ولا شك انه كان مبنياً على اسم يوحنا المعمدان لقول ياقوت والعمري ان الدير كان من اقدم ابنية النصارى « بني بعد المسيح عليه السلام بقليل » فلا تمكن نسبته الى يوحنا فم الذهب او يوحنا الدمشقي.

وفي ياقوت والعمري ان الدير كان بجانب غوطة دمشق في انزه مكان بين رياض مشرقة وانهار متدفقة ولا يخفى ما في هذا التحديد من الغموض والابهام وهو قد يصدق على غير موضع واحد في ظاهر دمشق ولعل الاغلب انه كان في ناحية باب الفراديس حيث تعددت الديارات والبيع وقد شهد احد شيوخ بني حمدون حين صحب المتوكل وقدموا دمشق سنة ٢٤٣/٨٥٧ انهم طافوا الموضع المعروف بالفراديس (ظاهر باب العمارة اليوم) ونزلوا منزلًا بين كنائس عظيمة وآثار قديمة[١] فلا يبعد ان دير يونّى كان في جملتها وكان موضعه في زمان العمري قد تنوسي واضمحلّت معالمه ولذلك قال فيه : « هذا الدير اليوم لا وجود له وقد اقفرت الارض منه من رسم وطلل ومضى وحادث كل دير بعده جلل »[٢] وكان خرابه دون ريب بعد القرن السابع للهجرة او في اواخره . لان

١) الدر الملتقط من كل بحر وسفط خزانة بريتيش موزيوم Add. 19408 fº 126ᵇ
٢) مسالك الابصار ٣٥١

معجم البلدان تشهد انه كان صغيرًا ورهبانه قليلين وحكى ان الوليد بن يزيد الخليفة الاموي اجتاز به فرأى حسنه فاقام به يومًا في لهو ومجون وشرب وقال فيه الابيات الآتية اذا صحت نسبتها اليه ولا يخفى على احد ما فيها من الغلو الشعري وحب الاغراب والتطرف :

حبذا ليلتي بدير يونّى ... حيث نُسقى شرابنا ونُغنّى
كيف ما دارت الزجاجة درنا ... يحسب الجاهلون انّا جُننّا
ومررنا بنسوة عطرات ... وغناء وقهوة فنزلنا
وجعلنا خليفة الله فطرو ... س مجونا والمستشار يُحنّا
فاخذنا قربانهم ثم كفّر ... نا لصلبان ديرهم فكفرنا
واستهنّا بالناس فيما يقو ... لون اذا خُبّروا بما قد فعلنا (١

ومن البيت الرابع يستدلّ على ان رأس الدير في عهد الوليد بن يزيد كان اسمه بطرس ولعل اسم المستشار يحنّا لم يرد معه الا لاتمام القافية او انه اشارة الى سميّ الدير ويتحصّل من ذكر « النسوة العطرات والغناء والقهوة » في البيت الثالث انه كان الى جانب الدير حانة يباع فيها الشراب كما يشهد بذلك ايضًا حديث ابن ابي اللقاء الشاعر عن عبد الملك الدمشقي الشاعر الذي رواه السيساطي في كتاب الديرة قال :

« خرجت في عصبة من اصدقائي الى دير مار يونًا فاخرج الينا قس كان فيه شرابًا عتيقًا وكان معنا غلام حسن الوجه يضرب بالعود ويغني احسن غناء فجلسنا في روضة اريضة تطل على الغوطة واقمنا ثلاثة ايام وانشد فيه عبد الملك :

قليت طيب العيش في دير ياونًا ... بندمان صدق اكملوا الظرف والحسنا
خطبت الى قس به بنت كرمة ... معتقة قد صيروا خدرها دنًّا
فتاهَ بها عجبًا وقال بهذه ... تتيه على الآفاق عجبًا بها منا
دفعنا اليه مهرها حين زفّها ... عروسًا تمادى في قراطقها زفنا
وقمنا الى روض اريض وشادن ... غضيض تحار الحور في شكله حسنا
له جيد جيداء وعين غزالة ... يريك اذا عاينته البدر والغصنا
يغنّي فيُغنينا بحسن غنائه ... عن الغانيات المحسنات اذا غنّى
وتنثني لنا الاطراب رنّات عوده ... اذا عوده في حجره مرّحًا رنّا

١) من الغريب ان ياقوت الرومي روى هـذه الابيات في دير بونى (٢ : ٦٤٩) ونسبها للوليد بن يزيد ناسيًا انه سبق ونقلها في تعريف « تل بَوَنّا » من قرى الكوفة حيث عزاها لمالك بن اسماء الفزاري (١ : ٨٦٥) وهو سهو منه ظاهر .

ويثني الى غي التصابي قلوبنا ... اذا استنطق الاوتار او حرك المثنى
ويبدي لنا اللحن المليح اذا شدا ... وقد أمن الاسماع ان تسمع اللحنا .
خلعنا عذار اللهو عنا ولم نزل ... اذا اسرف العذال في الغي اسرفنا
وهان علينا القرن في طاعة الهوى ... فان اكثر اللوّام في اللوم هوّنا
فسقياً لذاك العيش لو كان عائدًا ... علينا وكنّا فيه مثل الذي كنّا
ساشكر ما قد قلته ووصفته ... من القصف والاطراب في دير باونا (١

وقد رويت هذه الابيات في كتاب برق الشام (كذا) وهو بعض كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد في خزانة جامعة ليدن arabs. 1466 f° 62 وممن تابع ياقوت وسائر النقلة في غلط رواية اسمه وضبطه بالبا. الموحدة العالم الاثري دوسّو في كتابه Topographie de la Syrie p. 297

٣٠

دير مار يونان

بدمشق

كان هذا الدير لليعاقبة بدمشق ولا يعلم موضعه وغاية ما روي من اخباره ان يعقوب احد اساقفة طبرية في القرن العاشر للميلاد كان قبلًا راهباً من دير مار يونان[١] وان سلمون مطران دمشق في منتصف القرن التاسع[٢] وتاوفيلس مطرانها في اواخر القرن العاشر[٣] كانا كلاهما من رهبان هذا الدير ونظيرهما خريستودولو اسقف بعلبك اقامه البطريرك اثناسيوس بعد شهر تشرين الاول سنة ٩٨٦[٤].

---

١) تاريخ ابن عساكر المخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق المجلد العاشر رقم٩ (تاريخ) الورقة ٢٦٩ ظ .

٢ و٣ و٤) J. Chabot : *Les Evêques Jacobites au VIII Siècle* p. p. 20, 13, 24, 25

الاديار التي ضاعت اسماؤها ونسبت الى ما جاورها من البقاع او الى مُقطعيها من الامراء الامويين

لُمَع من اخبارها بعد الفتح

٣١
دير أبان

دير ابان من قرى الغوطة قال ابن عساكر في تاريخه : عثمان بن أبان بن عثمان بن حرب بن عبد الرحمن بن الحكم بن ابي العاصي بن امية كان يسكن دير أبان عند قرحتا وهو منسوب الى ابيه ابان ذكره ابن ابي العجائز[١].

وتعد قرحتا اليوم من قرى المرج وهي في شرق « خيارة نوفل » وتبعد عن قرية جسرين نحو ساعتين وممن سكنها من الامويين يحيى بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية[٢].

٣٢
دير الباسي

ورد ذكر هذا الدير في قصيدة لمحاسن الشوا الحلبي عدّد فيها متنزهات دمشق في ايامه وقال فيها :

بجبيرا وتلفيانا ودير البا سيّ اضحكت في اللهو سرّا[٣]

ومن اخبار هذا الدير ان في سنة ٦٩٥/١٢٦١ وصل الخطيب ناصر الدين بن عبد السلام من الديار المصرية الى دمشق ... لاجل مشترى دير الباسي ظاهر دمشق للملك العادل[٤].

١) معجم البلدان ٢ : ٦٣٩
٢) تاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ١٨ : ٧٤ ظ .
٣) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ١٥٨٧ باريس
٤) تاريخ الجزري « حوادث الدهر وانبائه ٦٧٣٩ باريس ١٧٣

٣٣ دير بجدل

كان هذا الدير من اقليم بيت الآبار في موضع منه اغفل ابن عساكر ذكره. وابن بجدل هذا هو سعيد بن مالك بن بجدل اقطعه يزيد بن معاوية هذا الدير فنُسب اليه[١] وهذا كل ما يعرف من اوصافه.

٣٤ دير سابر

قالوا: من نواحي دمشق من اقليم حرلان سكنه عمر بن محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وذكره ابن ابي العجائز في تسمية من كان بدمشق وغوطتها من بني امية[٢] ولم يقل احد من هو سابر ولا في اي قرية من قرى دمشق كان هذا الدير.

٣٥ دير العصافير

هو اليوم اسم قرية عامرة في قضاء دومة في الجنوب الشرقي من زبدين وكان يعدّ قبلًا من منازه دمشق اشار اليه ايضاً محاسن الشوا الحلبي في قصيدته التي تغنى فيها بمواطن الانس واللهو في ضواحي دمشق وقال:

واذكرا عقربا ودير العصا فير لسمعي ان شئتما ان تسرّا[٣]

ولم نعثر على ذكر له في تاريخ ابن عساكر ولا نعلم لِمَ أُطلق عليه هذا الاسم.

٣٦ دير قيس

هو ايضاً فيما ذكروا من اقليم حرلان ولكنهم اهملوا تعريف موضعه كعادتهم غالباً في التعمية والالغاز ويظهر انه كان حسن الموقع جليل العمارة واسع البقعة لان معاوية الخليفة الاموي اختصه لنفسه واعتقده في جملة ضياعه في الغوطة وممن سكنه من ذريته سعيد بن محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وابنه خالد بن سعيد[٤] ولا ندري من هو قيس الذي عُرف به الدير.

---

١)

٢) معجم البلدان ٢ : ٦٦٦ - ٦٦٧

٣) عيون التواريخ لابن شاكر ١٥٨٧ باريس

٤) معجم البلدان ٢ : ٦٦٦ وتاريخ ابن عساكر في ظاهرية دمشق ٥ : ١٦٤ظ . و٧ : ١٧٢ظ .

تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطيّ

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

للمفريان غريغوريوس ابن العبريّ السريانيّ المشهور عند العرب بأبي الفرج الملطيّ (١٢٢٦—١٢٨٦) بثلاثة مؤلفات تاريخيّة دقيقة محكمة في العربية والسريانية ١ — « تاريخ مختصر الدول » في العربية نشره عام ١٨٩٠ الاب انطون صالحاني اليسوعيّ في المطبعة الكاثوليكية وصدّره بمقدّمة لخص فيها اخبار المؤلف . ٢ — تاريخ بيعي في مجلّدين طُبع نصّه السريانيّ مع ترجمة لاتينيّة عام ١٨٧٢ — ١٨٧٧ في لوڤان . ٣ — تاريخ الدول العامّ نُشر اولاً نصّه السرياني عام ١٧٨٩ مشحوناً بالأغلاط ثم تولّى طبعه عام ١٨٩٠ الاب بولس بيجان الكلدانيّ المرسل اللعازريّ الطيّب الآثار .

ويشتمل هذا التاريخ الدوليّ على ٦٠٠ صفحة كبيرة حوت اخبار احدى عشرة دولة بدءا من الآباء الاقدمين فالقضاة فملوك العبرانيين فملوك الكلدانيين فملوك مادايي فملوك فارس فملوك اليونان الوثنيين فملوك رومية فملوك اليونان المسيحيّين فملوك العرب فملوك الهونيين اعني التتر او المغول .

نقل ابو الفرج الملطيّ تلك الاخبار والسِيَر والوقائع عن مؤرخين معاصرين اثبات او شهود عيان بدءا من يوسيفوس اليهودي واوسابيوس القيصريّ (٢٦٥—٣٤٠) وزكريا البليغ ٤٩٠ ويوحنا الافسوسي ٥٨٥ وثوفيل بن توما الرهاويّ المارونيّ ÷ ٧٨٥ والبطريرك ديونيسيوس التلمحري ÷ ٨٤٥ وابي الحسن ثابت بن قرّه الصابئ ٩٠٠ واغناطيوس الملطيّ ÷ ١٠٩٠ وميخائيل الكبير ÷ ١٢٠٠ والمؤرخ الرهاويّ ١٢٣٤ الخ . وقد أحصى ميخائيل المشار اليه ٢٤

مؤرخاً سريانياً كتبوا بلغتهم السريانية اخباراً وحوادث عمومية وخصوصية وذكروا وقائع مهمّة خطيرة قلّما ذكرها غيرهم ولا سيما ما تعلّق بحوادث النصارى وقياصرة قسطنطينية الذين واصلوا محاربة العرب واسترجاع البلاد الشرقية من يدهم غير مرّة . وتبادلت الدولتان رسائل معتبرة لم يذكرها سائر المؤرخين .

نسج ابو الفرج على منوال المؤرخين اسلافه فروى اخباراً جمة عن الروم والعرب وعن نصارى لبنان وسوريا وما بين النهرين والعراق والعجم ومصر الخ الخ لم يسردها في تاريخه العربيّ المذكور تخوّفاً او تزلّفاً . واستغرقت هذه الاخبار وحدها ٤١١ صفحة من الصفحة ٩٥ حتى الصفحة ٥٠٦ اعني ثلاثة ارباع تاريخه هذا

ذلك ما حدانا على نقل تاريخه هذا الفريد الى العربية بدءاً من اخبار الحقبة العاشرة وعنوانها «الملوك العرب» ندرجها تباعاً على صفحات المشرق كيما يطّلع القراء على حقائق تاريخية جمة غالباً ما تأتي مكمّلة لرواية المؤرخين بالعربية وسننشر تعريب التاريخ برمّته في كتاب خاص تعميماً لفوائده بحوله تعالى وعليه الاتكال في البداية والنهاية .

الجبة العاشرة

الملوك العرب

[ص ٩٥] من هنا تبتدئ الجبة العاشرة المنتقلة من الملوك اليونان الى الملوك العرب

في السنة الثانية عشرة لهرقل بدأ ظهور محمد . ومن هذه السنة كذلك يبدأ تاريخ العرب القمري وهي السنة ٦١٣٠ لآدم و٩٣٣ لليونان و٦٢٢ لمخلصنا.

ففي السنة الاولى للعرب دوّخ شهربراز آنقرة . وفي السنة التالية احتلّ رودس . وفي السنة الرابعة للعرب حاصر هو وقرديجان قسطنطينية ووصلت جنودهما الى تراقية وحلّوا في ناحية قسطنطينية الغربية وضايقوها جداً ثم انكشفوا عنها بغتةً . ذلك لان كسرى لمّا بلغه ان شهربراز يسخر به مدّعياً ان الغلبة علته بعث الى قرديجان ليحتزّ راسه . فقبض الروم على الرسول وأخبروا هرقل فارسل يستدعي اليه شهربراز سرًّا وأمنه بقسَم ؛ ولمّا دخل شهربراز ولمح الرسول والرسالة وعرف الحقيقة احتال فبدّل الرسالة واضاف اليها : ان يُقتَل ثلاثمائة زعيم كذلك مع شهربراز . ثم خرج بها وقرأها على مسامع قرديجان والجنود وقال لقرديجان : هل يطيب لك ان تفعل هذا ؟ امّا الزعماء فسخطوا واستهزأوا بكسرى وهادنوا هرقل وعرضوا عليه اولادهم بمثابة رهائن توثيقاً لشروط الهدنة [٩٦] وارتحلوا .

وبعث هرقل الى الخاقان ملك الخزر ليوجّه اليه اربعين الف عسكري فيزحف بهم الى العجم . ووعده ان يزفّ اليه ابنته اودكسيا . ولمّا عرف كسرى ان شهربراز انتقض عليه وانّ هرقل زاحف الى بلاده صغُرت نفسه وفُتّ في عضده فحشد ما تيسّر له من العساكر وولّى عليهم رزبيهان . فاصطدم العجم بالروم فانكسر العجم وقُتل رزبيهان . وبلغ الخبر كسرى فانهزم من البلدة التي كان فيها ، فتبعه هرقل واحتوى على خزائنه وامواله . امّا شيرين ابنهُ وكان ابوه كسرى قد طرحه في السجن فقد خرج وأدرك أباه وفتك به وملك بعده تسعة شهور .

وعاد هرقل الى الرها ليشتّي فيها وأرسل اليه شيرين يخبره بقتل ابيه وعقد

الصلح معه على ان يُخرج العجم من بلاد الروم . وملك شيرين تسعة شهور ومات . وخلفه اردشير سنةً واحدةً وعشرة شهور . واردشير هذا فتك به شهرباز الذي كان عند هرقل وملك مكانه . وأيّد ما سبق فأبرمه من العهود والشروط مع هرقل .

وفي السنة السادسة للعرب انكسف نصف جرم الشمس وثبت كسوفها مذ تشرين الاوّل الى حزيران حتى قال الناس ان جرمها لن يعتدل . وحدث في فلسطين وباءٌ أهلك ربوات من البشر .

فصل

ذكر المؤرّخون أن الملك هرقل لمّا ادركته عساكر العرب واحتلّت البلاد جمع كلّ الاساقفة ورؤساء الكهنة وسائر الزعماء . واستفسرهم عن كيف ومَن هم اولئك العرب . فاجابه كلّ منهم حسب معرفته واطّلاعه . ولمّا افضى الأمر اليه قال : اني اشاهد هذا الشعب باعماله واشكاله وديانته كفجر عميق مكفهر ليس فيه ظلام تامّ ولا نور بهيّ كامل . فسألوه شرح العبارة فقال : أجل انهم بعيدون [٩٧] عن الظلام لانهم رفضوا عبادة الاوثان وعبدوا الله الواحد . ولكن نورهم غير كامل لانهم بعيدون عن نور ايماننا المسيحيّ وليسوا راسخين في الدين القويم . فاستحسن القوم كلامه

خبر ديانة العرب التي ظهرت في هذا الزمان

لمّا كان محمّد فتى صغيرًا توفي ابوه عبدالله . فربّاه عمّهُ ابو طالب وزوّجه بامرأة ارملة غنيّة يقال لها خديجة . فجعل يتاجر بمالها وعلى جمالها مسافرًا من يثرب وطنه الى فلسطين وشاهدها مخصبةً بالخيرات . فجعل يحادث بعض اليهود وتلقن منهم انهم لاعتقادهم بالله الواحد ونبذهم عبادة الاوثان منحهم الله عزّ شانه أرض الميعاد . فارتاح محمد الى حديثهم وجعل يرشد ابناء وطنه الى ذلك وهو في السنّ الاربعين . وما ان بلغ أعيان مكّة انه يروم انشاء ديانة غريبة حتى طردوه وهدّدوه بالقتل ان لم يكفّ عن تعليمه . غير ان اهل المدينة خرجوا الى لقائه ورحّبوا به ووعدوه بالمساعدة في كل شيء ولذا دُعوا

أنصاراً . والتّهم محمد عقيدة الاله الواحد والإعراض عن عبادة الآلهة الباطلة. وحرّضهم على طهارة الجسد والوضوء. لان العرب كانوا يومئذٍ غاية في القذر. ثم انتقى منهم مشايعين وغزاة بعثهم الى فلسطين وسار معهم غير مرّة فظفروا وعادوا سالمين حاملين مالاً ورزقاً ومن ثم تبعوه بكلّ قلبهم . وسمع كثيرون غيرهم اخبار النصر والغنى فخضعوا له دون عناء . ولمّا ازداد اصحابه عدل عن الذهاب معهم للغزو وجعل يرسل من يترأس على عساكره ويقيم هو في مدينته معززاً [٩٨] . والذي كان يرفض عقيدته لم يكن يخاطبه بالبرهان بل بالسيف.

اما الموالون له فلم يكتفِ بان يؤكد لهم التمتع بالشهوات البدنية وان ينكح الرجل نساء حرّات وسراري ويطلّق امرأته وينكح غيرها ويكتفي بالصوم شهراً في السنة نهاراً فقط والأكل طول الليل حتى الفجر بل كان يقول : ان الله عزّ وجلّ قد أعدّ لابناء مذهبه بعد القيامة في العالم المزمع انهار عسل وابن وخمر واشجاراً حافلة بالثمار الشهية واتّكاء على سُرُر ذهبية وفُرُش بطائنها استبرق . ونكاح نساء يَفقن الشمس جمالاً .

وعاش محمد بعد نبوته عشرة اعوام وشهرين . وتسلسلت دولته من واحد الى واحد ونمت واتّسعت واحتلّت أغلب بلاد الروم والمملكة الفارسيّة برمّتها. وقام فيها فلاسفة ورياضيّون واطبا . فاقوا الاقدمين بدقيق المعاني وأسسوا مبادئهم الحكمية السامية طبقاً للعلوم اليونانية وأفرغوها في عبارات بليغة ومباحث دقيقة حتى انا نحن الذين عنّا اخذوا الحكمة على يد نقَلة كلّهم سريان أصبحنا مفتقرين الى أخذ الحكمة عنهم . ولقد توسّعوا في تصانيف الشرع كقوانين الزواج والحقوق والطهارات وكيفية الصلوات وكميّة الزكاة وضروب التجارات والقروض وتوزيع المواريث واعتاق العبيد توسّعاً فوق الحدّ حتى ان الواحد اذا صرف كل زمن حياته في دراستها لا يتيسر له في كل عمره ان يُلِمّ المامًا تامًا بكل الاسئلة والاجوبة التي تنطوي عليها .

وقد حصل بينهم اختلافات شتّى بحيث ان محمدًا قال فيما ذكروا : ان أمتي تتشعّب سبعين شعبة لا تخلص منها الّا شعبة واحدة وسائرها للنار . واراد بالشعبة الواحدة تلك التي تتمشّى طبقاً لاعماله وبسائر الشعب تلك التي تبتدع

البدع. ومنهم من اختلفوا في أمر المملكة كالذين يقرّرون ان الرئاسة الاولى بعد نبيّهم انما تحقّ لعليّ ابن عمه وصهره [٩٩] ولابنائه من بعده. ومنهم فريق يقرّرون ان الرئاسة الاولى انما تحقّ للشيخ ابي بكر حميه والرابعة لعليّ. واختلف بعضهم في مسئلة الدين كالذين يزعمون ان الله عزّ وعلا جسمٌ وانه مستوٍ على مركبة جسمانية هي اكبر من السماء والارض. وقال بعضهم انه تعالى غير متجسم وان الصدّيقين يعاينونه في القيامة بعيون بشريّة. وقال بعضهم انه عزّ وجلّ يتكلم بكلمة ازلية قائمة بذاتها وانه حيٌّ حياةً ازلية. واضطرّ بعضهم ان يقولوا انه تعالى يتكلم لكن لا باللفظ وانه حيّ لكن لا بالحياة: ذلك تفادياً من القول باقنوميّة المسيحيّين ومن الاعتقاد بان كلمة الله وروحه هما عرضان وزمنيان. وزعم غيرهم ان الله سبحانه وتعالى قد خلق الخاطئ ليرتكب الاثم ويحترق في جهنم. وخلق البارّ ليتبرّر ويتمتع في الفردوس دون ان يُقال له لماذا؟ وان الانسان ليس حرّاً مستقلاً. واثبت فريق ان الانسان حرّ وفقاً لعقيدة المسيحيين.

هذا ولئلّا نشرد عن موضوع كتابنا نعود الى هدفنا. وبما إن الدولة العربية قامت مقام الدولة الرومية في بلادنا فقد نظمنا طبقاً لما وقفنا عليه من الحوادث سواء أكان بالمطالعة ام بالسماع.

بعد محمد ابو بكر

تولّى سنتين. ووجّه اربعة ضبّاط الى فلسطين والى مصر والى فارس والى العرب النصارى. فالذي وصل الى فلسطين قصد قيسارية فلقيه سرجي البطريق في جيش جمعه من الروم ومن السامريّين بلغ زهاء خمسة آلاف راجل والتحم القتال بين العرب والروم فتشدّد العرب وحاربوا اوّلًا السامريين. ولمّا رأى البطريق انكسار من معه ولّى هارباً. فتتبّع العرب الروم وسحقوهم سحق الحصّادين للسنابل. وسقط سرجي البطريق عن حصانه واجتمع غلمانه فاركبوه فسقط فاركبوه ثانية فسقط مرّة ثالثة وحاولوا ان يركبوه ايضاً فقال لهم: دعوني أُقتل وحدي وانجوا انتم بانفسكم [١٠٠] لئلّا تُقتلوا معي. ثم أدركه

العرب وفتكوا به وانقلبوا منصورين . وقد جرى مثل ذلك للذين توجهوا الى سائر الاطراف واستحوذ الرعب على جميع الملوك .

وفي تلك الغضون انتزح العجم عن مصر وعن فلسطين وعن سائر بلاد الروم . ووجّه شهربراز الى هرقل واستصحب عسكرًا وقتل قرديجان وملك مكانه سنة واحدة وقُتل . وخلفتهُ بارام (بوران) ابنة كسرى بضعة اشهر وتوفيت . وملكت اختها زديودخت بعدها . وتولّى العجم عدّة ملوك في مدّة سنتين .

وفي هذا الزمان عاد الرهاويّون الذين كان كسرى قد جلاهم . وخالف هرقل الناموس واقترن بمرطينا ابنة اخيه وولدت له ابنًا غير شرعيّ سمّاه هرقلونا . وفي شهر ايلول حدثت زلزلة وظهرت في السماء علامة سارت من الجنوب الى الشمال شكل نشّابة واستمرّت ثلاثة ايام ممّا دلّ دلالة واضحة على انتصار العرب .

بعد ابي بكر عُمر بن الخطّاب

تولّى عشر سنوات . وبعث جيشًا الى بلاد العرب فاحتلّ البصرة . وبعد سنة سيّر جيشًا آخر الى العجم وكانوا مختلفين بعضهم مع يزدجرد بن كسرى وبعضهم مع هرمزد فتغلّب عليهم العرب وقُتل هرمزد وملك يزدجرد .

امّا هرقل فوجّه الى العرب جيوشًا مع اخيه ثاودوريقي ولمّا وُصلوا الى جوسيت قرية بضواحي انطاكية شاهدوا راهبًا عموديًا خلقيدونيًا قال لثاودوريقي : عاهدني بان تمحو اتباع سويرا وانا اضمن لك الغلبة . فقال له ثاودوريقي : اني مصمّم ان اضطهد اليعاقبة خلافًا لقولك . ولمّا دنا الروم من العرب خيّموا قريبًا منهم واصطفّ الفريقان للقتال وجعل العرب يقطّعون الروم تقطيع اغصان منبوذة ويطأونهم وانهزم بقيتهم . فنهب العرب ذخائرهم واغتنوا بما صادفوه من ذهب وفضّة وعبيد وماشية .

وفي السنة الرابعة لعمر [١٠١] اتّفق بأنيس قائد الروم وابن شهربراز الفارسيّ الذي انضمّ الى الروم على اثر قتل ابيه واتّفق معها كذلك مندوب الملك في الرها فحشدوا ستين الف فارس وناوشوا العرب في بلد حمص فانكسر

الروم وهلك منهم اربعون الفاً واختنق اغلبهم في نهر اليرموك . ونجا شهرباز فاوفد الى عمر أن امددني بالعساكر فأخضع لك العجم . غير ان بنات كسرى وكان العرب قد سبوهنّ أخبرن عمرًا بما صنعه شهرباز وابنه بكسرى واولاده وقلنَ له : لا تغترَّ بكلامه لانه غدّار . ولمّا اطّلع عمر على كلامهنّ ارسل الى حمص فعلّق ابن شهرباز على خشبة وانطلق الى دمشق وأمن اهاليها الدماشقة ففتحوا له الابواب . ووجّه من هناك خالدًا في جيش الى حلب وانطاكية ، وهلك خلق كثير .

وسار العرب الى دير مار سمعان العمودي وكبسوا الرجال والنساء والفتيان والفتيات وهم محتشدون يوم العيد وسبوهم قاطبةً .

وخرج في تلك الاثناء سعد من يثرب وخيّم بظاهر الكوفة . وسيّر يزدجرد جيوشاً حلّوا على الفرات . وأرسل العجم جاسوساً عربيًا ليجسّ العرب . ولمّا دنا منهم شاهد رجلاً مَعَدّيًا يتغوّط وهو يأكل خبزًا . فقال له الجاسوس باللغة العربية : ماذا تعمل ؟ قال المعدّي : كما ترى أخرج عتيقًا وأُدخل جديدًا . عاد الجاسوس واخبر العجم يقول : رأيتُ شعبًا حافيًا عريانًا لكنّه شجاع . وقصّ على القائد ما سمعه وشاهده وقال له : ان نصرتهم هي من الله . ولمّا التحم القتال انكسر العجم وتتبّعهم العرب حتى قطسفون على نهر دجلة . وانّ رجلاً معدّيًا طارد قائدًا اعجميًا كبيرًا وهزمه فوصل القائد الى قرية قريبة وأخفاه فلّاحٌ هناك وشاهد المعدّيّ عريانًا يطارد وبيده قصبة لا غير [١٠٢] فعاد الى الاعجميّ وهزأ به وقال له : كيف انهزمتَ وانت مدجّج بهذا السلاح من رجلٍ عريانٍ ولم ترجع لتأخذ رأسه ؟ فقال الاعجميّ للفلّاح : هات مسًّا فجاءه به فصوّبه وثقبه وقال : هكذا رشقتُ المعدّي الذي رأيته فكان يجمع السهام في كمّه كمن يجمع ذبّانًا .

وجهّز يزدجرد جيشاً ثانياً وزحف الى قتال العرب على الفرات فانتصر العرب ودخلوا قطسفون واحتووا على ذخائرها واهاليها . وهيّأ يزدجرد جيشاً ثالثاً في جلولا وزحف ليقاتل العرب فانكسر كذلك . وحشد جيشاً رابعاً في جبل ماداي وهجم على العرب فتطحطح . وقد تمّ هذا الزحف اربع مرّات

في سنة واحدة . ولمّا خارت قوى يزدجرد انهزم الى حدود الترك ببلد سجستان واختفى ثمّ خمس سنوات وقُتل . وانقضى امر الدولة الفارسيّة الساسانيّة وكان اوّل ملوكها اردشير بن بابك عام ٥٣٨ لليونان وآخرهم يزدجرد عام ٩٥٦ اليونان (٢٢٧–٦٤٥ م) .

وبنس هرقل كذلك فارتحل عن انطاكية الى قسطنطينية وهو يقول : «سوزو سوريا» اعني الوداع ياسورية . ووجّه جنوده فسلبوا المسيحيّين الوطنيين كلّ ما صادفوه سلباً فاق سلب العرب . وكتب هرقل الى جميع الروم في بلاد ما بين النهرين ومصر وارمينية بان لا يحاربوا العرب بل يظلّ كلٌّ منهم محتفظاً بحاميته متربصاً في مكانه .

وارتحل حين ذاك عمر الى مصر وخرج الى لقائه قورا اسقف الاسكندرية وتكفّل بان يؤدي له كل سنة مائتي الف دينار بشرط ان لا يدخل العرب مصر . فرضي عمر بذلك . ولمّا سمع هرقل ظنّ انه يؤدي المال للعرب طوعاً فأوفد رجلاً ارمنياً يقال له منوئيل ليستدرك الامر . ولمّا اقبل وفود العرب ليقبضوا الذهب اعترضهم منوئيل وهو في المعسكر ببابلونيا وهي الفسطاط[١٠٣] وقال لهم : انا لستُ نظير قورا لابساً قميصاً فادفع لكم ذهباً لكنّي مدجّج بالسلاح . ولمّا عاد الوفود الى عمر فارغين تخوّف منوئيل وانهزم فدخل العرب مصر واحتلّوها .

وفي السنة الخامسة عشرة للعرب (٦٣٦ م) شخص عمر الى فلسطين وخرج الى لقائه صفرونيوس اسقف اورشليم واخذ الأمان لكلّ البلد . وكتب له عمر عهداً ذكر فيه انه لا يحلّ لليهودي ان يقيم في اورشليم . ودخل عمر المدينة وأمر ان يُبنى فيها مسجد للصلاة مكان هيكل سليمان . ولمّا شاهد الاسقف عمراً لابساً ثياباً وسخة الحّ عليه ليتقبّل منه ثوباً ورداء جديداً احضرهما اليه فلم يرضَ . لانه كان عادلاً متنزّهاً عن الطمع . وعلى احتوائه على خزائن العجم والروم كلّها فانه لم يبدّل عاداته القديمة .

ثم مرّ عمر بمدن سورية واحتلّها بأسرها . وعبر الفرات الى المشرق وخرج

الرهاويون وأخذوا الأمان لمدينتهم . امّا تلّ موزل ودارا فقد احتلّها عنوةً لان اهاليها لم يتساهلوا معه وقتل مَن فيهما من الروم .

وفي السنة التاسعة عشرة للعرب أمر عمر ان تكتب جميع بلاد مملكته بالجزية . وتوفي هرقل عام ٩٥١ لليونان (٦٤٠ م) وخلفه قسطنطين الثالث ابنه الكبير باربعة اشهر فسقته مرطينا امرأة ابيه سمّاً وقتلته وملّكت ابنها هرقلونا الصغير ويقال له داود الجديد . فامتعض اقطاب الدولة وعزلوه وملّكوا قسطس ابن القتيل . وهذا قسطس قتل عمّيه كليهما ومرطينا امرأة هرقل . واستغرق ملك عمر اثنتي عشرة سنة . وان غلاماً صقلّاً شكا اليه مرارًا مولاه فلم يكترث له عمر فطعنه الغلام في جوفه بسكّين وهو يصلّي فقضى .

بعد عمر عثمان

تولّى اثنتي عشرة سنة وجعل يطمع ويحشد الذهب لنفسه فتألّب العرب ليقتلوه فوعدهم [١٠٤] ان يسير على مثال أسلافه فأغمضوا عنه . ثم أرسل ابنه سعيدًا ليلحق يزدجرد ملك العجم وكان مختفياً في سجستان منذ خمسة اعوام ثم خرج واقبل الى الكوفة فوصل سعيد الى مرو بعدما فرغ من احتلال بلاد العجم كلها . وخاف يزدجرد الوقوع بين يديه فاختفى في طاحونة وفتك به رجل تركيّ هناك .

وفي تلك الاثناء زحف معاوية قائد العرب وحاصر قيسارية فلسطين بحرًا وبرًا حصارًا شديدًا من اوّل كانون الاول حتى ايار . وطرح العرب اثنين وسبعين منجنيقاً على سورها ولم يخرقوه . فحفروا طريقاً ضيقاً ودخلوها . وارتقى بعضهم سلالم ظلوا بها ثلاثة ايام ولم يستطيعوا الهبوط الى المدينة . ولما اشتد ساعد العرب تجفّل سبعة آلاف رومي كانوا يحرسون المدينة وانهزموا في السفن . واحتوى معاوية على ما بها من المال وضرب الجزية على اهاليها .

وسار العرب من هناك الى قيليقية ووصلوا بغتةً الى اوخيطا واستولوا على ابوابها واضطرّوا زعماءها ان يطلعوهم على الخزائن ثم استاقوا الاهالي قاطبةً رجالًا ونساءً وفتياناً واستعبدوهم ودنّسوا الكنائس واقترفوا القبائح فيها .

وفي السنة ٢٥ للعرب وهي السنة ٩٥٨ لليونان (٦٤٧ م) انتقض غريغوريس

بطريق افريقية على قسطس الملك . ودخل العرب افريقية متلصصين واحتلوا مدن ساحل البحر كلها سوى البطريق فلم يقووا عليه وعاد فادّى الطاعة لقسطس . ثم قسم معاوية جيوشه قسمين وولّى على الاول رجلاً سريانياً شرّيراً يقال له حبيب وسيّره الى ارمينية في فصل الشتاء. فدخلها وسبى العربُ اهاليها وقتلوا من صادفوا من الرجال واحرقوا القرى ورجموا . اما القسم الثاني فزحف به معاوية الى قيسارية قبادوقية . ولما عبر العرب الثغور شاهدوا القرى خصبة فنهبوها ونازلوا قيسارية عشرة ايام فامتنعت عليهم [١٠٥] فأفسدوا ضواحيها وتركوها قفراء وانقلبوا راجعين . ثم كرّروا الزحف وحاربوا اياماً كثيرة. ولما استفظع اهالي قيسارية سخط العرب ولم يساعدهم احد طلبوا الامان وتكفّل الزعماء بتأدية الجزية . فدخل العرب وشاهدوا ابنيةً جميلةً وثروةً وافرة فندموا على أيمانهم ولم يتيسر لهم ان يحنثوا فيها . ثم توجهوا الى عمورية فلم يقووا عليها فباتوا في ضواحيها الحافلة بالاشجار.

وفي السنة ٩٦٠ لليونان (٦٤٩ م) عبّى معاوية العساكر وهيأ الفاً وسبعمائة سفينة وأبحر من الاسكندرية الى جزيرة قبرس وأرسل الى اهاليها ليطلبوا الأمان فرفضوا . فدخل العرب مسلحين وقاتلوا ونهبوا وارتكبوا المنكرات حتى في الدار الاسقفية وانصرفوا . وبعد قليل سار ابو العور القائد الثاني الى قبرس ثانيةً ونهبها بأسرها وكان العسكر يُخرجون الاهالي من السراديب . ثم اغاروا على فاتوس وحاصروها واحتووا على ما بها من ذهب وفضة ولم يتعرّضوا للاهالي لانهم طلبوا الأمان . ثم نازل معاوية جزيرة ارواد واحتلها وأحرج اهلها وقوّضها كي لا تُعمر فيما بعد.

وفي السنة ٩٦٥ لليونان (٦٥٤ م) احتلّ ابو العور جزيرة قو بدها. استقفها وغزا وسلب وقتل اهاليها وقوّض قلعتها. وانتقل الى اقريطش وغزاها وذهب الى رودس وحاربها وتألب الكثيرون فالقوا حبالاً ضخمة في الصنم النحاسي ودكوه ووزنوا منه ثلاثة آلاف حمل نحاس قرنثي اشتراها تاجر يهودي حمصي.

وفي السنة ٣٧ للعرب أعدّ معاوية السفن للذهاب الى قسطنطينية فنهض رجلان طرابلسيّان واغريا أصحابها فاحرقوا سفن العرب وهلك الكثيرون [١٠٦]

من العرب وركب من بقي السفن وانهزموا الى بلاد الروم . فسخط معاوية ووجّه ابا العور في جيش الى مكان يقال له فونيقي ولما وصلوا اليه صادفوا قسطس الملك واخاه ثئودوسيوس واستعدّوا للقتال في الغد . وفي تلك الليلة رأى قسطس في حلمه انه في تسلونيقي واخبر مفسّر الاحلام فقال له : ليتك ايها الملك لم تنم ولم تحلم هذا الحلم . لان تسلونيقي يُراد بها : اعطِ النصر للآخرين . فاستحقر الملك ذلك التفسير وجهّز السفن للقتال فانكسر الروم وكاد يُقتل الملك عينه لو لم يطفر ابن بقناطور الى السفينة الملكية وينقل الملك الى سفينة غيرها وينقذه . وظلّ هو في تلك السفينة واهلك كثيرين ثم هلك هو كذلك . اما الملك قسطس واخوه فانهزما الى العاصمة . وشوهد زهاء عشرين الف جثة من الروم عائمة فوق المياه .

وتحفز العرب للزحف تكرارًا الى قسطنطينية . فخرج فطولماوس وأدّى لهم ذهبًا وعقد معهم صلحًا لثلاث سنوات . اما قسطس فقد قتل اخاه ثئودوسيوس فحقد عليه الجنود فخاف وانطلق الى رومية وابتقرّ هناك . فثار ثائر الجنود وقالوا : كلّا لا يوافقنا ان يقيم الملك في رومية لانها بعيدة عن العرب. فاقبل الملك الى جزيرة صقلية ولما وصل الى سراقوسة استطاب الاقامة بها وبعث في طلب بنيه . فاغتاظ الاهالي وقالوا : اننا لن نترك ملوكنا ينتزحون عنّا . غير ان قسطس اقام بنيه الثلاثة قسطنطين وطيباريوس وهرقل ملوكًا وأسكنهم في العاصمة وظلّ هو في سراقوسة خيفة ان يفتك به جنوده . وكانوا يسمّونه قايين الثاني .

اما عثمان فلم يكفّ عن سوء عاداته فاحتشد [١٠٧] العرب وبلّغوه ان يسلك سلوكًا معتدلًا كاسلافه فقال لهم : اني افعل كل ما اريد لاني ملك . فانصرفوا عنه متذمّرين ثم هجموا عليه مسلحين يقولون له : غيّر سيرتك او تموت حالًا . فكتب عثمان الى معاوية يستنجده . بيد ان العرب بادروا فوثبوا اليه وثبة عنيفة وقتلوه . وسيّر معاوية الجنود مع حبيب وببلوغهم الى البصرة سمعوا بقتل عثمان فكرّوا راجعين .

بعد عثمان عليّ بن ابي طالب

تولّى خمس سنوات في يثرب وفي بابل فقط . لان سورية ومصر كانتا مع معاوية . وفي السنة ٩٦٨ لليونان (٦٥٧ م) اصطدم الفريقان معاً وهلك الكثير من الجانبين وعاد معاوية ولم يلاقِ عليّاً . ثم اصطدما تكراراً وباد الكثير كذلك في المعركة . وحين ذاك اتفق ثلاثة من الزعماء على ان يزحفوا ويفتكوا بالثلاثة الذين بسببهم انتشبت الحرب بين العرب وهم عليّ ومعاوية وسعيد القائد في مصر . فقُبض على الذي سار الى مصر وقُتل . وقتل كذلك الذي سار الى معسكر معاوية . اما الثالث فظفر بعليّ وطعنه بزراق وقتله . وعندئذٍ اتفق العرب شرقاً وغرباً مع معاوية فنقل المملكة من يثرب الى دمشق .

بعد عليّ معاوية

تولى تسع عشرة سنة وساس فلسطين ايام عثمان خمس عشرة سنة وايام عليّ خمس سنوات ومجموعها تسع وثلاثون سنة . وفي السنة ٩٧٧ لليونان (٦٦٦ م) خلع شابور قائد رومانية الطاعة لقسطس ووجّه الى معاوية رجلاً اسمه سرجي يقول اضرب لي عهداً فأُخضع لك رومانية كلها . وكان قسطنطين في العاصمة فلما بلغه الامر وجّه هو كذلك الى معاوية اندرأا الخصيّ حاجبه وكان محنكاً في الحروب [١٠٨] .

دخل اولاً سرجي طبقاً لامر معاوية ثم دخل اندرأا . فتخوّف سرجي ونهض فانحنى لاندرأا . فردعه معاوية وقال له : اذا كان العبد خوّفك فما كنتَ تصنع لو شاهدتَ مولاه ؟ قال سرجي : لقد اضطرّتني العادة لا الخوف فصنعتُ ما صنعتُ . فقال معاوية لاندرأا لماذا جئتَ ؟ قال سيّرني الملك لاحذّرك من هذا المتمرّد الخدّاع . لانه ان كان قد جازى مولاه ووليّ نعمته جزاءً سيئاً فما يكون جزاؤه لك ؟ قال معاوية : انكما كلاكما عدوّان لنا فايّكما زاد لنا الجزية راعيناه . قال اندرأا : لئن كان ذلك كذلك فمن العدوّين من هو افضل وليس العبد والمولى على حدّ سوى . لان المولى يتصرّف في الامور باوفر حريّة وافضل لياقة بخلاف العبد فانه يعيش خانعاً وجلاً ذليلاً .

إذن ما يؤديه مولاي ولو كان اقل مما يقرره الطاغي يلزمك ان ترضى به وتكف عن مضاغطته بالمسرة . قال اندراأ ذلك وانصرف .

وفي الغد بكر سرجي وأقبل ولما وافى اندراأ لم ينهض سرجي فقال له اندراأ : عَلامَ لم تنهض يا ايها الآيس ؟ فاتقح سرجي وقذف اندراأ قذف الخنثى . فتهدده اندراأ بنزع خصيتيه . ثم قال معاوية لاندراأ : أدوا لنا الجزية عن بلدكم كله وحسبكم اسم المملكة لا غير والّا فانصرف . فاخذت النخوة اندراأ وقال : إذن العرب هم الجسم والروم هم الخيال ؟ كلا . ان لنا الله عز شأنه فاليه مرجعنا . قال هذا وخرج متوجهاً نحو ملطية وأمر حماة الثغور ان يكمنوا لسرجي في مروره . اما معاوية فوعد سرجي ان يمده بالجيش ولما عاد سرجي قبض عليه الكمناء وأتوا به الى اندراأ فأمرهم ان ينزعوا خصيتيه ويضعوهما في يديه ثم يشنقوه .

اما شابور فقبل وصول الجيش العربي اليه ضُغط في باب داره وهو راكب ومات . فغزا [١٠٩] العرب البلاد حتى خلقيدونية وكثروا .

وفي السنة ٩٨١ لليونان (٦٧٠م) أصدر قسطنطين الأمر الى جميع الروم ان يخضعوا له ولاخويه طيباري وهرقل معاً وان يُحفر على الدراهم صُور ثلاثتهم . وحذّر الجميع من ان يُلقوا ما بينهم شقاقاً وانطلق الى غالية وايطالية وأخضع جميع الامم الغربية .

اما العرب فزحفوا الى افريقية وسبوا زهاء ثمانين الف نسمة . وفي القابل سبوا كذلك لوقية وقيليقية ثم انقلبوا الى لوقة فادركهم ثلاثة من بطارقة الروم ودحروهم واتلفوا من العرب نحو ثلاثين الفاً وقصد بقيتهم السفن فازعجتهم الانواء . وان نجّاراً بعلبكياً اسمه قلونيقس أصلح ناراً وأحرق تلك السفن . وتلقّن الروم منذ إذٍ ان يُصلحوا ناراً ويتلونها بالنفط . الى هذا التاريخ كان النصر محالفاً للعرب فقط . ومذ ذاك فصاعداً اصبحوا تارةً يغلبون وطوراً ينكسرون .

ثم ان قسطنطين سيّر رجالاً لصوصاً روميين مَرَدة أطلق عليهم السريان لقب جراجمة . فاستحوذوا على البلاد التي من جبل الجليل حتى الجبل الأسود وعلى

جبل لبنان اجمع . وانزلوا بالعرب أذى كثيرًا . واشتدّ العرب اخيرًا فقتلوا البعض وفقأوا عيون البعض الآخر .

اما قسطنطين فلما ترعرع ابنه يسطينس خلع اخويه واستمال اليه الزعماء بالعطايا . غير ان لاون احد اولئك الزعماء ناهضهم فأمر الملك بقطع لسانه ويديه ورجليه . واذ كان الجمع يرافقه في ذهابه كان ينادي ويقول : اني لن اكفر بالثالوث السماوي ولن ارفض الثالوث الارضي . وقد مُثّل به وهو ينادي بذلك . ثم استحضر قسطنطين اخويه وقال لها تجاه اعيان الروم : ما قولكما عني يا طيباري ويا هرقل ؟ هل انا اخوكما ام ملككما ؟ فان قلتما اني ملككما قلت انكما اخويّ . وان قلتما اني اخوكما اعتبرتكما عدوّين لي . فقالا له : اننا لن نتأبى ان ندعوك أخاً كبيرًا وشيخاً [١١٠] ولكنّنا لن ندعوك ملكنا أصلًا لاننا مَلِكان معك . غير ان الاعيان تحزّبوا لقسطنطين وخلعوا الملكين لان الرشوة اعمتهم .

وفي السنة ٩٨٩ لليونان (٦٧٨) ظهرت قوسٌ كاملة في الهزيع الثالث من الليل والشمس غائبة تحت الارض . وهو حدث خارق الطبيعة . واستفحلت النيران في سوريا وفونيقي وأفسدت الارض . وفي القابل ظهر جراد زحّاف .

بعد معاوية يزيد ابنه

تولّى ثلاث سنين وثمانية شهور . وحشد عملة كثيرين محاولًا ان يستنبط نهر ماء السحجان وبالغ في ذلك جدًا لكن الأجل عاجله فخاب أمله ولم يخرج ماء . وفي السنة ٩٩٤ لليونان (٦٨٣ م) ظهر نجم كبير مذنّب مدة احد عشر يوماً . وصار شتاء قاس وجمد الفرات ونشف الزيتون وجفّت الكروم وتلفت البهائم والحيوان والطير .

بعد يزيد معاوية ابنه

تولّى نحو اربعة اشهر . لمّا مات يزيد بن معاوية انتقض عليه المختار في الكوفة وكان محتالًا خدّاعاً مراوغاً . امّا اهالي يثرب فولّوا عليهم عبد الله بن الزبير ونادى الدماشقة بمعاوية بن يزيد بن معاويـة . ولمّا دخلت السنة ٩٩٦ لليونان

(٦٨٥ م) نشبت حربٌ طاحنة في ثالث ايلول بين العرب وهلك من الطرفين زهاء اربع ربوات عند نهر الخزر ببلد نينوى . امَّا معاوية الفتى وكانوا يسمّونه ابا ليلى بسبب جَزَعه كما اعتاد العرب ان يسمّوا الجبناء نظير الاطفال الذين يهلعون ليلاً فلمَّا رأى الخلاف بين العرب جَمَعَهُم قاطبةً للصلاة يوم الجمعة واستقال من المملكة وانزوى في بيته ثلاثة اشهر واثنين وعشرين يوماً وتوفي.

بعد معاوية بن يزيد مروان بن الحكم

تولّى اربعة اشهر . وقدم من يثرب الى دمشق ليلقي الصلح بين الفريقين لانه كان شيخاً عاقلاً . فاستشارهم في ان يدوّن اسماء ثلاثة اشخاص على ثلاثة سهام ويدفعها الى رجلٍ (١١١) يجهل الامر واول سهم يصوّبه منها فذاك يكون الملك . فوافقوا على ذلك وخرج سهم مروان ولم يملك سوى اربعة اشهر . وفي تلك السنة وهي السنة ٩٩٧ لليونان (٦٨٦ م) توفي كذلك قسطنطين وملك يسطنيان ابنه عشر سنوات .

بعد مروان بن الحكم عبد الله بن الزبير

تولّى ثماني سنوات واربعة اشهر . وكان كما قلنا في يثرب وحدث في ايامه نزاع شديد بين العرب . ففي بابل استبدّ رجل اسمه عبدالله . وفي رأس العين حباب . وفي نصيبين يوريدا . وفي دمشق عمر بن سعد . وفي قرقيسيا زوفرا. وكان المردة الروم في لبنان يغزون في كلّ الاطراف . واستغرق هذا النزاع نحو ثماني سنوات . اما اهالي دمشق فنادوا بعبدالله بن مروان بن الحكم ملكاً عليهم .

بعد عبد الله بن الزبير عبد الملك بن مروان

تولّى ثلاث عشرة سنة وستّة اشهر . ولُقِّبَ بابي الذبّان لان الدماء كانت تسيل من لثته فتجتمع الذبّان على فمه دون ان يكترث لها . ولمّا نودي به ملكاً ورأى الحروب تكتنفه من كلّ صوب ولاسيّما من المردة الروم الذين ضايقوه في لبنان أبرم الصلح لعشر سنوات مع يسطنيان بشرط ان يرحل المردة

وهم اثنا عشر الفاً عن ارض العرب وان يؤدّي عبد الملك للروم بدلاً من ذلك كلّ يوم الف دينار وحصاناً واحداً وعبداً واحداً . وان تكون قبرس للدولتين فيؤدّي اهاليها نصف الجزية للروم والنصف الثاني للعرب . وان تكون ارمينية وغرزان وارزون واذربيجان للروم . ولمّا تمّ الصلح نازل عبدُ الملك ابنَ الزبير وقهره فانهزم الى يثرب ولاذ ببيت الصلاة فلحقه الحجّاج وحاصر البيت بالمجانيق وقوّض السور ودخل ففتك بابن الزبير ثم عاد فابتنى البيت .

امّا يسطنيان فاستبدّ ونقض [١١٢] العهود وألغى الصلح قبل اوانه وبعث فغزا العرب في قبرس . فزحف محمّد امير جزيرة قردو الى قبدوقية ولقيه الروم والصقالبة فانكسر الروم بناحية قيسارية واتّفق الصقالبة وهم سبعة آلاف مع العرب وقدموا معهم الى سورية فأسكنوهم في انطاكية وفي قورس واعطوهم نساء وذخائر .

ولم يقتصر يسطنيان على نقض العهود مع العرب بل نشّم يفتك باعيان الروم . فتألّبوا وقبضوا عليه وشرموا أنفه وملّكوا عليهم عام ١٠٠٧ لليونان (٦٩٦ م) رجلاً يقال له لونطيوس .

وبعد سنة جعل العرب يسكّون الدنانير والدراهم والفلوس بالكتابة دون صُوَر .

وفي السنة ١٠١٠ لليونان (٦٩٩ م) اقبل افسيارس المدعوّ طيباريوس رئيس قوّاد قيلقية وعزل لونطيوس وملك مكانه ولم يقتله . وهذا طيباريوس عاد فأخضع الصقالبة الذين خرجوا على الروم . وسار الى بلد سيساط وقتل خمسة آلاف عربي وغزا وسبى وعاد .

امّا عبد الملك فانتقى القائدين محمّداً والحجّاج فولّى الاول على ما بين النهرين وآثور وارمينية واذربيجان وولّى الثاني على العجم والعرب عامةً . ونشم الحجّاج ينهب اعيان العرب دون شفقة . امّا محمّد فأرسل واستحضر الموعدَ رئيس العرب التغلبيّين النصارى وأراده على الاسلام فأبى فألقاه في بئر حمأة ثم أخرجه وتلّقه ليسلم فلم يُذعن له فقتله . ثم حشد اعيان الارمن وحشرهم في احدى كنائس ارمينية واضرم فيها النيران واحرقهم قاطبةً . وقتل انسطاس

بن اندراأ صاحب الرها مع ان اعيان النصارى كانوا متوالين يومئذٍ شؤون السياسة في المملكة العربية .

قال ديونيسيوس التلمحري البطريرك (٨٦٨- ٨٤٥) اشتهر اثناسي بن جومية في كلّ مكان وكان رجلا [١١٣] عاقلا متضلعاً من العلوم . فلمّا سمع عبد الملك ملك العرب بأمره انفذ في طلبه واختبر كفاءته في كلّ شيء . ثم وجّهه مع اخيه عزيز الفتى الى مصر وفوّض اليه ان يتمّمه . وتوفّق اثناسي هناك حتى أفضت اليه سياسة المملكة العربية باسرها واستفحل أمره واغتنى جدًّا واقتنى اربعة آلاف عبدٍ ودورًا وقرى وجنائن وذهباً وفضة كالحجار . وكان له في الرها اربعمائة حانوت أوصى ان يُبنى بوارداتها كنيسة فخمة تيمّناً باسم والدة الله العذراء . وشاد في الفسطاط بمصر كنيستين معتبرتين . وأسس في الرها كذلك بيتاً للعمودية ووضع فيه صورة السيّد المسيح التي أرسلها المخلّص الى ابجر الملك . وجعل له مجاري مياه مثلما صنع اموزينس الاسقف (؟) في كنيسة الرها القديمة ودبّجه بالذهب والفضّة المطعّمة بالنحـاس . فهذا اثناسي حسده كاتبٌ خلقيدونيّ دمشقيّ يقال له سرجي بن منصور . ولمّا توفّي الامير عبد العزيز وغادر اثناسي مصر سعى به سرجي وادّعى ان ابن جومية اغترف خزائن مصر ونقلها معه . غير ان عبد الملك لم يغضب على اثناسي بل جامله وقال له : لسنا نوافق ان تكون كلّ هذه الثروة للنصارى فارضخ لنا حصّةً منها . فلبّى اثناسي مبتهجاً وأعطى ما أعطى حتى قال له الملك كفى . وبقي لاثناسي شيء اكثر وأوفر .

وفي السنة ١٠١٥ اليونان (٧٠٤ م) وجه عبد الملك مسلمة الى المصّيصة فدوّخها . وفي السنة عينها ناهض عرب الكوفة والبصرة وحاربوا عبد الملك . وفيها كذلك أفلت يسطنيان من المنفى وقصد الخاقان ملك الخزر فرحّب به وزوّجه بابنته وولدت له ابناً سمّاه طيباريوس . ثم حشد جيوشاً من الخزر ومن البلغار وزحف الى قسطنطينية فانهزم افسيارس وملك يسطنيان ثانيةً ستة اعوام [١١٤] بعد ما قضى عشر سنوات منفيًّا . وقتل لونطيوس وافسيارس وكثيرين من الاعيان حتى اقفرت الدولة الرومية من الجهابذة . وأطلق ستة آلاف من

الأسرى العرب ورحّلهم الى بلادهم . وبعث عدة عساكر ليحضروا امرأته وابنه فاغرقتهم جميعاً امواج البحر . ولما بلغ الخبر الخاقان ارسل يعنف يسطنيان ويقول : كان الخليق بك ان تكتفي بارسال نفر في استحضار امرأتك وابنك وهل غلب على ظنك اني امنعها ؟ كلّا وحق جنونك اني ما كنتُ امنعها . فخجل يسطنيان وبعث قوماً استحضر امرأته وابنه .

وفي السنة ١٠١٧ لليونان (٧٠٦م) ابتنى العرب اسواراً للمصيصة واقاموا فيها جنوداً يحمونها من الروم ثم سار اليها عبد الملك وفيها ادركته المنيّة.

بعد عبد الملك بن مروان الوليد ابنه

تولى تسع سنوات وخمسة اشهر . وسيّر العساكر مع مسلمة فنازلوا طوانا (آطنة) بكبدوقية وحاربوها تسعة شهور . ووجّه اليها يسطنيان عساكره ولما التقى الجيشان انكسر الروم وسقط منهم نحو اربعين الفاً فاحتل العرب المدينة ونهبوها . وفي السنة ١٠٢٢ لليونان (٧١١م) دوّخ مسلمة طورندا واقام فيها حامية عربية وفتح قلاعاً جمة اظنها ابلستين التي في بيفولس بجدود الروم.

وفي السنة السادسة للوليد وهي السنة ١٠٢٣ لليونان (٧١١م) انتقض فيليفيقس على يسطنيان ملك الروم وعلى ابنه طيباريوس وقتلها وملك هو. ونفى الأرمن الذين في ولايته فأسكنهم العرب في ملطية وضواحيها وفي ارمن الرابعة . وجعل الارمن يعضدون العرب ويناهضون الروم.

وكان فيليفيقس خبيراً بالحكمة الدنيوية وحاول نقض المجمع السادس الذي أيد عقيدة مكسيمس في المشيئتين . ولما تم له في الملك سنتان وستة اشهر عزله الروم وكحلوا عينيه [١١٥] وملك انسطاس سنتين وخمسة اشهر.

وكان الوليد يبغض المسيحيين بغضاً شديداً. وهو الذي بدّل وضع كنيسة الروم الكبرى القديمة في دمشق بعدما احتلها العرب وأعطى النصارى بدلًا منها مكاناً شيّدوا فيه كنيسة جديدة باسم والدة الله . اما الكنيسة الكبرى القديمة المشار اليها فقد ابتناها مسجداً فخماً مشهوراً . وامر الكتّاب النصارى ان لا يكتبوا دفاتر الاحصاء بالرومية لكن بالعربية .

ثم ان الوليد قال لشعلا زعيم التغلبيين العرب النصارى : بما انك زعيم العرب فانك بسجودك للصليب تجلب العار عليهم . فامتثل أمري وأسلم . فقال شمعلا : بما اني زعيم التغلبيين اجمع فاخاف اذا كفرتُ وكفروا بالمسيح أصبح انا سبباً لهلاكهم . وما ان سمع الوليد كلامه حتى أمر فجرّوه على وجهه وأخرجوه . وأرسل يحلف له انه إنْ لم يُسلم يُطعمهُ لحمَهُ . غير ان شمعلا لم يفشل فأمر الوليد فقطع من فخذه فلذة وشواها وألقموه اياها . فاصطبر شمعلا على ذلك ايضاً . فبرّحه الوليد وظلّ شمعلا حيّاً والجرح ظاهر في جسمه.

وأمر الوليد عينه بقتل السحَرة في الكوفة ذلك بان يوثقوا بالاخشاب كي لا يعاجلهم الموت ويلقوا في النهر . فالذين عاموا قتلوهم كمن عاموا بوساطة سحرهم . والذين غرقوا نشلوهم وتركوهم .

وأمر الوليد كذلك بقتل الاسرى المسيحيين ضمن الكنائس في مدن سورية جمعاء. ومات عام ١٠٢٦ لليونان (٧١٥ م).

بعد الوليد بن عبد الملك بن مروان اخوه سليمان

تولى سنتين وخمسة اشهر . وأغار مسلمة في اول ملكه على غلاطية واحتلّ قلعتها وانقلب في غنيمة وافرة. اما العساكر الذين وجّههم انسطاس الى المغرب فقد انتقضوا عليه وقتلوا قائدهم وأحضروا تئودوسيوس وملكوه سنة واحدة وفرّ انسطاس الى نيقية . وفي السنه ١٠٢٦ لليونان (٧١٥م) حاصر مسلمة لاتراك في ارضهم وسبى منهم [١١٦] جمّاً غفيراً وعاد راجعاً .

وفي السنة ١٠٢٧ لليونان (٧١٦م) زحف مسلمة الى بلاد اسيا ودوّخ فرغامس ورودس واستاق الاهالي سابياً . وفي السنة عينها جهّز سليمان مسلمة ليتوجّه الى قسطنطينية فحشد مائتي الف عسكري وخمسة آلاف سفينة مشحونة عسكراً وذخائر . وجمع اثنى عشر الف عامل وستة آلاف جمل وستة آلاف جحش موسقة زاداً وسلاحاً وآلات مجانق واقام لهم قائداً ثانياً يقال له عمر ابن هبيرة. وانضمّ الى هؤلاء كلهم ثلاثون الف رجل تطوّعوا بنفقاتهم ليحاربوا

لوجه الله تعالى وأطلق عليهم لقب متطوّعة وهكذا زحفوا في جيشين احدهما بحرًا وثانيهما برًّا .

وما ان التقى لاون قائد الروم بمسلمة قائد العرب حتى صرّح له بانه يساعدهُ على فتح العاصمة فوعده مسلمة بمملكة الروم. ولما أحسَّ الملك ثاودوسي بخيانة لاون قبض على ذويه وزجّهم في السجن بمدينة عمورية . فسمع لاون وقصد سليمان الملك وهو يحاصر مدينة خلقيدونية ليمنع دخول الاقوات الى قسطنطينية واخذ من عنده ستة آلاف عسكريٍ وخيَّم في عمورية . فخاف اهاليها وسلّموه اهله . ثم اطلق لاون العرب ودفع الى كل واحد اثني عشر دينارًا وعاد هو والروم الى قسطنطينية وصرّح للجيش الرومي بانه انما يساير العرب مخادعاً . فاقتنعوا وملّكوه عليهم . ولما دخل لاون العاصمة خرج عنها ثاودوسي الملك وقصَّ شعره وصار اكليريكيًا.

وملك لاون اربعاً وعشرين سنةً . وطفق يعلل العرب بآمال فارغة ريثما حصَّن المدينة بالذخيرة وغيرها . ولما عرف مسلمة ان لاون خدعه وخاتله عبر البحر في اربعة آلاف ساخطاً وشدَّد الحصار على قسطنطينية . وبسبب تأخره في الذهاب باغته البلغار الذين استأجرهم لاون فاوسعوا العرب قتلًا وافلت مسلمة بالجهد ووصل الى المعسكر الكبير الذي كان مخيماً غربي قسطنطينية تجاه باب الذهب . ووضع سدًّا امامهم ما بين المعسكر والمدينة وخندقاً وُراءهم تجاه البلغار والبحر عن يمينهم ويسارهم . وكان اهل المدينة والبلغار يقاتلون العرب وسفن الروم في البحر تعضدهم. واحتاج العرب الى اكثر من الفي رجل ليذهبوا ويأتوهم بالذخائر فأمسوا هم والاتراك ظاهرًا وداخلًا في ضيقٍ شديد وأدركهم الشتاء والجوع والبلغار يواصلون القتال . وبلغ الجوع من العرب حتى أكلوا زفت السفن . ولما كان مسلمة يعللهم بوصول الاقوات والمؤن باغتهم نبأ موت الملك سليمان .

بعد سليمان عمر بن عمّه عبد العزيز

تولّى سنتين وخمسة اشهر . وأرسل مَن يأتيه باخبار الجنود المحاصرين في قسطنطينية . فكتب اليه مسلمة اخبارًا ملفقة مدّعياً ان الجماعة في احسن حال وان المدينة تسقط قريباً . غير ان الرسول افضى بالحقيقة الى عمر فكتب عمر الى مسلمة في العودة مع العسكر . فتعلل مسلمة بسبب الشتاء . ولما انقضت شدة الشتاء سيّر عمر رسولًا ثانياً يقول للجماعة كي يعودوا راجعين على رغم مسلمة . ففتك الروم بكثيرين منهم برًا وبحرًا لدى خروجهم . وكان عمر قد وجّه اليهم عشرين الفاً من الخيل وعشرة دنانير الى كل منهم ينفقها في سبيل نجاته .

وبسبب ما احاق العرب من التقهقر والانكسار في زحفهم الى قسطنطينية اضمر عمر الحقد الشديد على المسيحيين وضايقهم وابطل نواقيسهم وامر ان لا يرفعوا أصواتهم وقت الصلاة وان لا يلبسوا ثوب الجنود ولا يركبوا دابة مسرَّجة . وتوفي عمر في شباط ١٠٣٤ لليونان (٧٢٣م) [١١٨] .

بعد عمر بن عبد العزيز يزيد ابن عمه عبد الملك

تولّى اربع سنوات . وانتقض عليه يزيد بن المهلّب العربي الحيريّ وحالفه عرب الكوفة والبصرة والعجم كافة . فبعث يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفاً ظفر بابن المهلب قرب بابل وقتله .

وأمر يزيد ان تُنزع صورة كل حيٍّ من الهياكل والجدران والاخشاب والحجار والكتب . ومائله لاون ملك الروم فانتزع من الكنائس والبيوت صور القديسين والملوك . وبسبب ذلك ثارت فتنة بين الروم وتنكروا للملك وتهدّدوه علانيةً . ونفى الملك منْ بلاده كلَّ من لا يوافق على عقيدة المجمع الخلقيدونيّ . واشتدّ على اليهود فتنصّر كثيرون منهم وانهزم البقية الى سورية .

وفي هذا الزمان ادَّعى رجل سوريّ يقال له سَريوا بانه هو المسيح ولما قبض عليه الوالي صرَّح بقوله له : اني مازحتُ اليهود وضحكتُ عليهم .

وفي السنة ١٠٣٢ لليونان (٧٢١ م) قلَّت مياه الينابيع واضطرَّ اهالي القرى ان يسعوا مسافة سبعة اميال ليستقوا الماء . وشحَّت الغلال كذلك . وظهر الجراد في القابل واكتسح النبات . وبعد سنتين حدث طاعون ووباء ولاسيما في بلاد ما بين النهرين . وتوفّي يزيد في البلقاء ببلد دمشق عام ١٠٣٧ لليونان (٧٢٦ م)

بعد يزيد بن عبد الملك هشام أخوه

تولّى اثنتي عشرة سنة وثمانية شهور . وضايق الناس بكثرة الضرائب والجزية وأنبط انهارًا من الفرات عند الرقة لسقي الزروع والاغراس فتوفّرت فيها الغلّات توفرًا أربى على كلّ خراج ولايته .

وفي هذه السنة زحف العرب الى نوقيسارية البنطس وأخربوها بالمرَّة . وزحفوا كذلك الى ارض الاتراك في الجرَّاح قائدهم ودوَّخوا هناك مدينة كبرى واحتووا على غنائم وافرة وعادوا راجعين .

وفي السنة ١٠٣٨ لليونان (٧٢٧ م) انتقض الاقباط على العرب فوثب عليهم [١١٩] الجند وفتكوا بعدد وافر منهم وانهزم البقية في السُّفن .

وفي السنة ١٠٣٩ لليونان (٧٢٨ م) اغار مسلمة تكرارًا على ارض الاتراك فانكسر العرب وتركوا اثقالهم وانهزموا . وفي السنة ١٠٤٢ لليونان (٧٣١ م) برز الاتراك واحتلوا مدن اذربيجان فكرَّ عليهم مسلمة بعساكره وهلك الوف وربوات من الجانبين . واكتفى الاتراك بما دوَّخوه من المدن ولم يزحفوا الى سائر امصار العرب . ثم عقد العرب معهم الصلح .

وبعد هذا اغار العرب على بلاد الروم مع معاوية ابن الملك وقوَّضوا اسوار مدينة انقرة ونازلوا نيقيَّة وحاصروها وحاربوها اربعين يومًا ودكّوا سورها وانهزم الروم اهاليها في السفن فاحتلّها العرب ودمّروها . واذ بلغ هشام ان لاون قتل الاسرى العرب أصدر الامر بقتل جميع الأسرى الروم .

وفي تلك الغضون اتخذ لاون الملك ابنة الخاقان ملك الخزر زوجةً لابنه قسطنطين . وبعد عمادها وتكليلها وضع لاون التاج لابنه ونادى به ملكاً.

وفي السنة ١٠٤٨ لليونان (٧٣٧ م) سار الى حرّان رجلٌ روميٌّ اسمه بشير وتظاهر بالاسلام وقصد رجلاً الثغ يقال له ثنوفيطس وأخبره سرًّا بانه هو طيباريوس بن قسطنط (يسطنيان ؟) الذي كان على ما يُظَنّ قد توفي . ثم ان الالثغ واجه سليمان بن هشام وسعى بالرجل الروميّ فقبض عليه وأخبر أباه هشام . فارتاح هشام للخبر وغلب على ظنّه ان ابن ملك الروم حصل في قبضته وأمر فألبسوه ثوباً ارجوانياً وأحضروه اليه . وهذا بشير الروميّ سار الى كنيسة الرها ودخل المذبح وتناول القربان بيده من مائدة الحياة طبقاً لعادة ملوك الروم . وجعل يستدعي اليهود ويطلب منهم ان يصنعوا له رُقية . وسأل زعيم الحرّانيّين ان يتطلّع له في الكبد ليعرف ما يزول اليه أمره . وقد افتضح هذا الشقي بعد ذلك وقُتل .

وفي السنة ١٠٥٣ لليونان (٧٤٣ م) [١٢٠] مات لاون وخلفه ابنه قسطنطين اربعاً وثلاثين سنة . فانتقض عليه ارطباس صهره ودخل العاصمة واحتلّ البلاط . وكان الملك متغيّباً فارًّا من وجه خدّامه مستعيناً بحاشيته مسافرًا مع جنوده الى عمورية فروجية وقضى فيها الشتاء . فحشد ارطباس الجنود واغار على الملك فانكسر ارطباس وانهزم . ومات هشام في رصافة الرقة عام ١٠٥٦ لليونان (٧٤٥م) .

بعد هشام الوليد بن يزيد بن عبد الملك

تولّى سنة وثلاثة اشهر . وأساء الى ابناء آل هشام وابتزّ بيوتهم . وأمر ان يُبتر لسان بطريرك الخلقيدونيّين (اسطفان الثالث ٧٤٢–٧٤٥) في سورية . وكان العرب يبغضون الوليد بغضاً شديدًا بسبب معاقرته الخمرة والمسكر وخلاعته حتى اطلقوا عليه اسم الفاسق والفاجر . ثم انتقض عليه العبّاس بن الوليد وهو عمه وحاول ان يخلفه فلم يرضَ العرب لانه اعني العبّاس كان ابن سريّة فلكوا

عليهم اخاه يزيد بن الوليد في دمشق . وهذا يزيد وجّه العساكر الى الوليد ابن يزيد فادركوه في البرية واحتزّوا رأسه وربطوه برمح وشدّوا معه ظرف خمر وطافوا به في دمشق.

بعد الوليد بن يزيد يزيد بن الوليد

تولى شهرين وهو الذي قتل الوليد ابن عمه كما ذكرنا . فوقع بين العرب خلاف شديد . وتولى في كل ناحيـة حاكم مستبد برأيه . فكان بسطام في الجزيرة . وسعيد بن هُدَيل في الموصل . وعبدالله ابن الملك عمر في واسط . ومروان في ارمينية . وابن سارج في خراسان . وابو هُدَيل في افريقيـة . وأُصيب يزيد بالطاعون لشهرين من ملكه ومات .

بعد يزيد بن الوليد أخوه ابرهيم

كان ابرهيم هذا لطيف المعشر كريم الاخلاق. وما ان مضى [١٢١] شهران عليه حتى استقال من مملكة دمشق واختفى . ولم يُعرَف مكانه الا بعـد خمس سنوات فعثروا عليه بين القتلى في حرب اهلية انتشبت بين العرب .

بعد ابرهيم بن الوليد مروان بن محمد بن مروان بن الحكم

لُقّب بهار الجزيرة لانه كان يؤثر ورد الزعفران أعني بهار البرّ وكان متوليا في كل زمـانه جزيرة فردو . فخرج عن ارمينية والتقى بسليمان في سواحل الفرات وفتك باثني عشر الفـاً وانهزم الى الرصافة . وعاد مروان الى دمشق وتولى أمرها ، ثم نقل خزائن الدولة على نحو ثلاثة آلاف جمل وزحف الى حمص وشد الحصار عليها اربعة اشهر ودوّخها ودكّ سورها وحطم بالمرازب منحوتاته . وقوّض كذلك سور بعلبك . وسار الى حرّان وانحدر الى بلاد آثور وفرثيا اعني اصبهان .

وفي تلك الاثناء ظهر ابو العبّاس وهو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله

ابن العباس عمّ نبي المسلمين في جيش كثيف من اهالي خراسان وضرب خيامه على نهر الزاب قرب آثور . فزحف مروان والتقى بجيش ابي العباس فانكسر مروان وخسر سبعمائة حمل جمل ذهباً ودراهم . وانهزم مع ابنه وصهره خازياً الى حرّان . ونقلوا كنوزه على ثلاثة آلاف جمل وانطلق الى عسقلان على شاطئ البحر . فطارده ابو العبّاس واصحابُه فانهزم مروان الى اطراف مدينة سيواني بحدود النوبة . وفيما كان حالًا بسواحل النيل ادركوه وفتكوا به .

وفي هذا الزمان خرج من قسطنطينية اشكيرش قائد الجيش الارمني ووافى الى ملطية واستباح بلدها باجمعه . اما الملك قسطنطين فبعدما تغلب على ارطباس الطاغي استقرّ له الملك ورُزق ابناً من زوجته ابنة الخاقان وأسماه لاون . وسادت الطمأنينة في جميع بلاد الروم لان العرب كانوا منهمكين في حروب اهلية .

بعد مروان ابو العبّاس

تولّى اربع سنوات [١٢٢] وثمانية شهور . وأجهز على مروان واستقلّ بالملك وحده في الاقطار العربيّة جمعاء . وألغى مملكة دمشق ونقلها الى بابل . ومنه يتحدّر خلفاء بغداد الذين قضى الهونيّون المغول على دولتهم في عهدنا (في القرن الثالث عشر) .

ولما كان ابو العبّاس مقيماً في احد بلاد المغرب حدثت في معسكره بغتةً ضجّةٌ شديدة . وسارع الناس والملك كذلك ليشاهدوا المعجزة . فأبصروا ثمانية رجال قد انبعثوا من القبور بانَ بعضُهم حتى الثندوتين وبعضهم حتى الظهر والبعض حتى الركبتين . وكانت لحى بعضهم مصبوغة كعادة العرب وعرفهم كثيرون . ولمّا دنوا ليكلّموهم لم يجاوبوهم قطعاً . فأخذهم الدهش وأمر الملك ان ينحرفوا عنهم يومئذٍ ولا يعتوهم مزملًا انهم يتكلّمون فيما بعد . وفي الغد انطلق الناس ثانيةً وشاهدوهم احياء صامتين . فأمر الملك ان يُدفَنوا ثانيةً .

وفي السنة ١٠٦٣ لليونان [٧٥٢م] توفيت امرأة الملك قسطنطين ابنة الخاقان . واقام ثلاثة اعوام دون زواج وفقاً لشريعة الملوك المسيحيين . وحاول بعض

الدهاة ان يعزلوا الملك فاشاروا عليه على سبيل التجامل ان يتزوج . فقال لهم وهو عارفٌ بغدرهم: ان شريعة الروم غير خافيةٍ عني . وأعتقد ان الملك خليقٌ بان لا تستعبده الشهوة . ومع هذا فاني ممتثل مشورتكم ان رأيتم ذلك فرضاً واجباً بشرط ان تنادوا بابني ملكاً عوضاً عني وبعدئذٍ الّتي طلبكم . ولمّا توّجوا ابنه ملكاً ظلّ هو متوليًا شؤون الدولة اذ كان حكيماً يهابه الاعداء. وفي تلك السنة زحف الى ملطية وحاصرها واقام عليها المتاريس وثغر جانباً من سورها. واخيرًا صالح مَن فيها من العرب وسرّحهم . وأجلى اهالي قلودية وجميع قرى ارمن الرابعة ، وفي تلك السنة عينها توفي[١٢٣] ابو العبّاس عبدالله .

بعد ابي العبّاس اخوه ابو جعفر المنصور

تولّى اثنتين وعشرين سنة . وفي السنة الاولى لخلافته وهي السنة ١٠٦٦ لليونان (٧٥٥م) والسنة ١٣٥ للعرب شدّ قسطنطين ملك الروم على قليقلة وهي ارضروم ودوّخها وتركها خالية خاوية . ووضع حامية في حصن كامخ.

امّا عبدالله بن علي فلمّا بلغه نبأ موت ابي العبّاس طفق يطوف المدن ويحتلّها. فوجّه اليه المنصور أبا مُسلِم قائد الجيوش فتغلّب عليه. ثم انتقض ابو مسلم على الخليفة ابي جعفر وجعل يتوغل في البلاد يحاول احتلالها . فسيّر اليه ابو جعفر رجلًا يقال له عيسى فأقنعه وجاء به. وما كاد يدخل دار الخليفة حتى اشار ان يُبطَش به . واستقلّ ابو جعفر بالدولة العربية وأمر ببناء ملطية كالاوّل واقام فيها العسكر . وابتنى كذلك قليقلة ووضع فيها حامية.

وفي السنة ١٠٧١ لليونان (٧٦٠م) فتح العرب افريقية . وفي تلك الاثناء خضع للعرب بلد طبرستان. وهذا البلد يحدّه شمالًا بحر قزوين. وشرقًا جرجان. وجنوباً ماداي وبعض فرثية. وغرباً الديلم . وهو يشتمل على خمس مدن مسوّرة وتكثر فيه الجبال والغابات والمروج والاودية والمضايق . وطوله من الشرق الى الغرب اربعون فرسخاً. وعرضه من الشمال الى الجنوب عشرون فرسخاً.

وفي السنة ١٠٧٣ لليونان (٧٦٢م) ابتنى ابو جعفر على دجلة مدينة فوق قطيسفون وأسماها بغداد باسم صنم كان في ذلك المكان واستقرّ فيها . وبعد

سنة مرق من طاعته رجل يقال له محمد من ابناء علي صهر نبيهم وابن عمه ومالت اليه الامة العربية جماء . فزحف اليه عيسى قائد الجيش وبطش به في يثرب في شهر رمضان صومهم. ثم انتقض على الخليفة كذلك ابرهيم اخو محمد في البصرة فقتل مثله.

وفي السنة ذاتها زحف الخزر وسبوا خمسين الف نسمة [١٢٤] من اهالي غرزان. وفيها كذلك خضع للعرب بلد كابول بناحية الهند. ووضع ابو جعفر الضرائب على جميع الشعوب وضاعفها على المسيحيين.

وفي السنة ١٠٧٦ لليونان (٧٦٥م) حدثت زلزلة عنيفة في ارض خراسان وانتقل احد الجبال من مكانه نحو ثلاثة اميال ثم تبدد لانه كان من تراب مطين.

وفي السنة ١٠٨٠ لليونان (٧٦٩م) خرج بعض مجوس العجم على العرب واقاموا لهم زعيماً. فشن العربُ الغارة عليهم فانكسر العرب وتشدد المجوس واعتزموا ان يؤسسوا دولة مستقلة. فزحف اليهم العرب في جيوش قوية جداً وبطشوا بهم وقتلوا زعيمهم واربعين الفاً منهم. وفي تلك السنة اغار العرب ساخطين على وادي مرعش اذ بلغهم ان الاهالي هم جواسيس للروم. فأجلوهم وساقوهم الى بلد الرملة واسكنوهم هناك. وفعل العرب نظير ذلك باهالي سميساط. وفي تلك الغضون انتقض البربر في افريقية وفتكوا بالعرب والعجم. فشدّ عليهم يزيد القائد وقهرهم وأتلف زهاء ثلاثين الفاً منهم.

وفي السنة ١٠٨٠ لليونان (٧٦٩م) عينها وُجدت امرأة في بخارى لا تأكل ولا ترضع ولا تشرب شيئاً بتةً. وبلغ المهديَّ ابنَ الملك خبرُها فأوفد من أحضرها الى بغداد وجرّب أمرها واستيقن ذلك الحادث الخارق العادة.

وفي السنة ١٠٨٣ لليونان (٧٧٢م) شاد ابو جعفر مدينة بناحية الرقة دعاها الرافقة. ولم يشاهد احدٌ مثل صناعة ابوابها. ولما كنتُ انا الحقير متولياً ابرشيَّة حلب (في القرن الثالث عشر) نقلوا منها مصراعين ضخمين من الرصاص وركّبوهما على باب قنسرين ومصراعين آخرين اصغر منهما لم يتيسّر لهم وضعُهما لان المغول باغتوا المدينة وقوّضوا اسوارها وحطموا ابوابها.

وفي السنة المذكورة عينها ارتحل ابو جعفر من بابل الى ما بين النهرين وسورية واشتدّ [١٢٥] على الاهالي بضرائب باهظة. وحشد كلّ الفضّة والذهب في خزائنه. فتضايق الناس وجعلوا ينبشون القبور علّهم يعثرون على حليّ مصوغة دُفنت مع الموتى.

وفي هذا الزمان حفر الروم في مدينة نيقومدية وعثروا على مغارة قد دُفن فيها نيقوميدس مؤسسها وهو محنّط وعليه حليّ ذهبيّة ويواقيت حمراء تنير في الظلمة. فشعر الملك قسطنطين بالخبر وأبدى شهامة ممتازة اذ لم يَرَ ان يأخذ شيئاً من تلك الحُلى وهو يقول: قبيح بالأحياء ان يحتاجوا الى الموتى! ثم ارسل عَمَلَةً سدّوا المغارة سدًّا محكماً وكوّموا فوقها جبلاً عظيماً من تراب وحجر.

وانتشر في تلك الغضون وباء وجوع شديد في سورية وآثور لا لنقص الحنطة بل لخلوّ أيدي الناس من الدراهم. فكان ثمن الثور والحمار درهماً واحداً. وعشرة اكيال خمر درهماً واحداً. وخمسة امداد حنطة درهماً. وثمن كلّ صبيّ وصبيّة خمسة دراهم. وبعد ثلاثين (؟) سنة لتلك الرزايا توفي ابو جعفر في الكعبة وانفرج الناس من ضيقهم. وتوفي كذلك قسطنطين ملك الروم قبل خمسة وعشرين يوماً لوفاة ابي جعفر وملك لاون ابنه خمسة اعوام.

واشتهر في تلك الايام جيورجيس الطبيب ابن بختيشوع العيلاميّ. واستحضره الخليفة المنصور الى بغداد ليعالج داء ادركه في معدته. ولمّا حضر جيورجيس دعا للخليفة بالفارسية والعربية بعبارات بليغة جدًّا أعجبت المنصور فأجلسه ووصف له مرضه. فوعده الطبيب بالشفاء تدرّجاً ريثما زالت علّته. قيل ان جورجيس زار الخليفة يوم ميلاد ربّنا فقال له الخليفة ماذا اكلتَ؟ قال الطبيب: كلّ لذيذ وطيّب كما شاء الربّ. قال الخليفة بلغني ان ليس لك امرأة. قال الطبيب: أجل لي زوجة كبيرة ضعيفة لا تقوى على النهوض على قدميها [١٢٦]. فانتظر الخليفة حتى انصرف الطبيب وأمر سالماً كبير خدّامه ان ينتقي ثلاثاً من الجواري الروميّات الممتازات بالجمال ويذهب بهنّ الى بيت الطبيب مع ثلاثة آلاف دينار. فامتثل الأمر وكان جورجيس وقتئذٍ متغيّباً عن منزله. فلمّا عاد وشاهد الجواري سخط على تلميذه وقال له: يا تلميذ الشيطان لماذا ادخلتَ هولاء.

الى منزلي؟ أتريد ان تنجسني؟ ثم أرسل فاستدعى كبير الخدام وردّهن معه. ولما اتصل الخبر بالخليفة قال لجورجيس ما بالك رددتَ الجواري؟ قال الطبيب: عشتَ الى الابد! اننا نحن معشر النصارى لا يحلّ لنا الزواج باكثر من امرأة واحدة. وشريعتنا تمنع الزواج بامرأة ثانية ما دامت الاولى في قيد الحياة. فاستحسن الخليفة كلامه ورخّص له ان يختلف الى نسائه وبناته دون مانع. وازداد اعتباره لديه وأحبّه كنفسه. تلك ثمرة العفاف يا اخوتي!

بعد ابي جعفر المهديّ ابنهُ

تولّى عشر سنوات. وفتح خزائن الدولة وجعل يُسرف ثروة ابيه اسرافَ المذراة لا على جنوده فحسبُ بل على سراريه ايضاً اذ كان منهمكاً في الملاذّ واللهو. وتشبّث بالسحر والعرافة والقضاء والقدر وجعل يجمع كتب السحر وأرسل اليه لاون الملك كتاب ينّيس ويمبريس وهو يحكي عن عرافة المصريين كلها وعمّا فعلوه تجاه موسى الكليم. وفي اول خلافته أعتق الأسرى النصارى كافةً ونهج نهجه لاون الملك فسرّح جميع الاسرى العرب.

غير ان المهديّ قوّض الكنائس التي ابتناها النصارى في عهد العرب وأخرب كنيسة الخلقيدونيين (الروم) في حلب. وأشهر الاضطهاد على المانويين وقوّض موضعاً يقال له الفدّان الكبير كان غاصّاً بهم. وأمر بقتل كثير من العرب تشيّعوا بالمانوية. وقبض على ثمانية رجال أجلاّء من آل جومية (السريان) فأذيقوا اعذبة فادحة وقضى ثلاثة منهم في السجن ونجا الخمسة.

وفي هذا الزمان اشتهر ثئوفيل بن توما الرهاويّ الخبير بالتنجيم [١٢٧] وكان من أتباع بدعة الموارنة. وخلّف تاريخاً معتبراً في اللغة السريانية تحامل فيه على المستقيمي الايمان (اليعاقبة) واستحقرهم، ونقل كتابَيْ اوميرس في فتح ايليون عن اليوناني الى السرياني، وثئوفيل هذا خدم الخليفة المهديّ فاحبّه المهديّ حبّاً جمّاً لتضلّعه من علم الفلك والتنجيم. قيل ان الخليفة همّ يوماً بالسفر الى احدى مدنه مع اهل بيته. فارسلت امرأته جاريتها تقول لثئوفيل: انكَ قد اشرتَ على الملك بالسفر فجشّمتنا مشقّةً وعناء في الطريق كنّا في غنى عنهما. فلي

رجاء بالله عزّ وجلّ ان يهلكك وينقلك من الارض لنستريح بنجاتنا منك .
فقال تنوفيل للجارية التي أتته بالرسالة : ارجعي وقولي لمولاتكِ : اني لم أشر على الخليفة في السفر . فهو يسافر كما يشاء . اما دعاؤكِ عليَّ بان يعجّل الله تعالى موتي فهذا شيء قد قضى به تعالى وأصبح مؤكّداً اني اموت سريعاً . ولكن لا تتوهمي اني أموت لان الله قبل دعاءكِ . لكن مشيئة من خلقني ستكمل . امَّا انتِ ايتها الملكة فأقول لكِ : أعدّي لنفسك تراباً كثيراً فاذا سمعتِ اني متُّ فاجعلي ذلك التراب كلّه على رأسكِ ! فخافت الملكة خوفاً شديداً لمّا سمعت ذلك وما زالت متوقّعة تأويل هذا القول حتى مات تنوفيل بعد ايّام معدودة ثم مات الخليفة بعد عشرين يوماً وصحّ ما قرّره تنوفيل .

وفي السنة ١٠٩٠ لليونان (٧٧٩ م) أقبل المهديّ الى حلب وخرج الى لقائه التنوخيّون الذين كانوا يقيمون في الخيام بضواحي المدينة وهم يمتطون خيولاً مطهّمةً ورافلون بالحلل . فقيل له : ان هؤلاء هم نصارى . فاحتدم المهديّ سخطاً . واضطرّهم ان يُسلموا . فأسلم زهاء خمسة آلاف رجل ولم تُسلِم النساء . واستشهد منهم رجل جليل اسمه [١٢٨] ليث .

وارتحل المهديّ بعد ذلك الى بلاد الروم واناخ ببلد اربيسوس على نهر فرمون . ودوّخ ابنه هرون قلعة سيالوس وغزا وانطاق .

وفي السنة ١٠٩٢ لليونان (٧٨١ م) أجلى العرب من افسوس نحو سبعة آلاف نسمة ومات من العرب زهاء اربعة آلاف .

اما لاون الملك فوجّه جيوشاً أجلوا جماعةً من السريان المستقيمي الايمان (اليعاقبة) وأسكنهم في تراقية . ويقال ان هذا الملك كان يحتقر الصُوَر ويتالى المستقيمي الايمان كأبيه وقد ادركته المنون في هذه السنة وقام بعده ابنه قسطنطين وملك اثنتين وعشرين سنة . وتولّت ايريني امّهُ تدبير المملكة ونادوا بها ملكةً معه .

وفي السنة ١٠٩٤ لليونان (٧٨٣ م) وجّه المهدي ابنه هرون الى قسطنطينية فاستدرك الروم الأمر واقاموا سدّاً تجاه العرب عند نهر سغريس . فاصبح العرب يحصرهم الجبل من الجانب الواحد والنهر المذكور من الجانب الآخر . وتضايقوا

جدًّا وطلبوا الصلح لثلاث سنوات . وقد وافقتهم ايريني الملكة لضعف رأي النسا . وأفرجت عنهم . وبعد سنة ابتنى عليّ مدينة الحدث .

بعد المهدي موسى ابنه

تولّى سنة واحدة وشهرًا ونصف شهر . وقبل ان تُعقَد له الخلافة أي في السنة ١٠٩٥ لليونان (٧٨٤ م) ظهر جراد طيّار عاث الزروع وفقس ثم خرج وجعل يلترق بالاسوار ويدبّ في الجدران ويحشّ في المنازل من الكوى والابواب حتى ملأ قِرَبَ المياه والفرش والموائد والصحون . وكان يدخل من جنوبي البيت ويخرج من شماليه . والتهم الاعشاب والاشجار وأمتعة الصوف وثياب البشر . وأتلف نواحي الرها وسروج برمّتها ثم انتقل الى المغرب . وبعد مرور ثلاث سنوات على هذه الضربة القاسية عمّ الغلاء الارض جمعا .

وفي السنة ١٠٩٧ لليونان (٧٨٦ م) أغار الروم على الحدث التي ابتناها العرب حديثًا واخربوها وقوّضوا اسوارها وحطوها بالمرّة . وفي تموز تلك السنة توفّي الخليفة .

بعد موسى هرون الرشيد أخوه

تولّى ثلاثًا وعشرين سنة وشهرين . ووجّه عبد الملك فقوّض كنيسة [١٢٩] الكيسوم الكبرى وخمس عشرة كنيسة غيرها . ونقل حجارها على الفي عجلة الى الحدث التي أخربها الروم وجدّد هو بنيانها . وتوغل العرب في بلاد الروم وساحل البحر وغنموا غنائم وافرة .

وفي السنة ١١٠٠ لليونان (٧٨٩ م) خرج الوليد وهو من بدعة الروافض وحشد خمسة آلاف مقاتل وشدّ على نصيبين وفتك بأميرها واستصفى أموال تجارها . واستنزف من كلّ مسيحيّ خمسة دراهم . وبعدما بطش بجيش عبد الملك وفتك بالعرب وأقفرت الطرق من الغادين والرائحين باغته يزيد في عسكره وأجهز عليه .

وفي القابل ارتحل هرون من بغداد الى الرقّة يريد الاقامة فيها فزاد في

عمارتها وغرس في ضواحيها جنائن كثيرة وجلب لها نهرًا من الفرات ونهرًا ثانيًا من سروج. وقد اشترى مياه قرى سروج من اصحابها واحتفر لها نهرًا جديدًا.

وفي السنة ١١٠٤ لليونان (٧٩٣ م) اصطدم القيسيون واليمنيون في حمص وقُتل منهم الكثيرون. وغنم عبد الملك غنيمةً وافرةً من بلاد الروم. ودوّخ ابنه عبد الرحمن قلعة ربسة في قبدوقية ومات فيها اربعمائة رجل عطشًا ثم سلّموها.

وفي هذا الزمان حاول قسطنطين الملك ان يفقأ عيني ألفيدي بطريق صقلية لارتكابه المنكر مع امّه وانهزامه الى العرب. واستحلف الزعماء ان لا ينادوا بامّه ملكة. امّا ألفيدي فقد اخذ اربعين الفًا من العرب مع الامير سليمان واغار على سمسون فادركهم الشتاء. وهلك اربعة آلاف منهم واضطّروا ان يستغيثوا بالروم فأبدى الروم عطفًا عليهم ولم يمسّوا احدًا منهم بأذى. وانصرف العرب في كانون الثاني وقد أهرأ الثلج أرجلهم. قال البطريرك ديونيسيوس التلمحري: شاهدتُ منهم نحو اربعمائة رجل في الرها.

بعد هذا صار قسطنطين الى موادعة ايريني امّه وأمر ان ينادوا بها ملكة [١٣٠] فامتثل الأمر جميع الاهالي سوى الارمن فانهم بسبب الايمان لم يأتمروا بأمر الملك الجائر فاوقع بهم واضطهدهم.

وفي السنة ١١٠٨ لليونان (٧٩٧ م) مرّ هرون الرشيد بالرها فواجهه المسلمون وشكوا النصارى مدّعين انّ ملك الروم يزورهم كلّ سنة تحت السرّ ويصلّي في كنائسهم. فبحث الخليفة عن الأمر واستبان له افتراؤهم فأوسعهم ضربًا وطردهم.

امّا آل جومية الرهاويّون فبعدما بذروا ثروتهم كلّها حفروا يومئذٍ في بيتهم ونبشوا كنزًا مخفيًّا. وكانوا قد دانوا بدين العرب فافحشوا في البهائم وكلاب الصيد وتهتكوا وبلغ الملك هرون خبرُهم فألقاهم في السجن بالرقّة وبعث حاجبه فاحتوى على كلّ ما باعوه من الاموال الملكيّة وفي جملتها حيّات وعقارب فضيّة مملوءة اكسيرًا أسرفوها جهلًا. ثم قبض الحاجب على امّهم العجوز وعلى نسائهم الحرائر وانتزع منهنّ ما بقي من اكواز الذهب والفضّة والامتعة والدنانير الرومانيّة وطرحهنّ في السجن وحبس اختهنّ العذراء في بيت

رجل خلقيدوني (رومي) في غرفة عالية بالطبقة الرابعة واقام رجالاً اعاجم لحراستها . ولمّا جنّ الليل سمعت العذراء، وطأة اقدام فظنّت ان رجلاً اعجمياً مقبل ليفتضّها فتقنّعت ورمت بنفسها من النافذة وقضت حياتها في الغد . فارتعش الحاجب وتأسف الملك عليها ثم أطلق اخوتها من السجن وردّ اليهم خمس اموالهم . وقد اطّلع على هذا الحادث البطريرك ديونيسيوس التلمحري اطّلاعاً تامّاً ولاسيما لانه كان من اسرة ايونيس الرصافي فقال: ان البيت الذي عثروا فيه على الكنز كان يخصّ ايونيس المشار اليه وهو الذي تخلّى عنه لآل جومية بمثابة جهاز لابنته وقد خبأته امرأة ايونيس لمّا اصدر الملك كسرى الامر بنفيها .

امّا الملك قسطنطين فقد خالف الشريعة واقترن بامرأة ثانية وامرأته الشرعية في قيد الحياة . وكان يستدعي بنات الأعيان ويفتضّهنّ [١٣١] ولمّا زحف الى تراقية ليحارب البلغار ظلّ يتمادى في معاقرة الخمرة والخلاعة . فاتفق لذلك الزعماء مع امّه وإذا قفل راجعاً فقأت عينيه وافقدته البصر وتفرّدت بالملك وحدها واقامت أطيس الحاجب مساعداً لها ورئيساً على البطارقة . فبطش بالعرب الذين زحفوا الى بلاد الروم . وما مرّ العام حتى شنّوا الغارة وتغلّبوا عليه وكرّروا الزحف فانتصروا . وحين ذاك أجمع الروم على تنصيب نيقفور لوجيديط القبدوقي ملكاً . فسمعت ايريني الملكة وأمرت ان يسملوا عينيه لكنّ أطيس أنقذه من دهائها . وعند ذاك اجتمع نيقيطا البطريق بالبطريرك وشاوروا مجلس الحكومة واتفقوا قاطبةً على المناداة بنيقفور ملكاً في السنة ١١١٤ لليونان (٨٠٣ م) وقد أحسن نيقفور معاملة الملكة ايريني وأطيس الحاجب وأغمض عنهما . غير انهما اضمرا ان يقتلاه على يد بعض الرهبان. وما ان انجلت الخديعة لنيقفور حتى نفى ايريني الى اثينا وترهّبت هناك وعاقب أطيس بما استحقه . ولم يمسّ الرهبان بأذى .

وكان هرون الرشيد يومئذ منصرفاً الى بنيان مدينة زبطرا بارمينية الصغرى عند ملطية . فزحف سطوريقس قائد جيش الروم الى بلد فيلوفونيسوس وكان في حوزة العرب منذ امد مديد واحتلّه واقام فيه حامية وانقلب في غنيمة وافرة من العرب والغنم والخيل والبعير .

ويُحكى ان رجلاً يقال له جَبلة كان ملكاً على العرب النصارى ثم أسلم على يد عمر بن الخطّاب وحضر معه في المسجد بيثرب . فتصدّى له رجل من قبيلة فزارة ووطأه برجله . فالتفت اليه جبلة وضربه وهشم أنفه . فرافعه الفزاري الى عمر فقال عمر لجبلة أرضِه او دعه يهشم أنفك : فقال جبلة : كيف يتيسّر للملك مثلي ان يسمح لرجل سوقة بضربه ؟ قال عمر : ان كنتَ اكرم منه في الملك فانت مساوٍ له في الاسلام ، قال جبلة : أمهلني اذاً حتى الصباح لأُعمل الروية في احد الامرين . ولمّا جنّ الليل نهض [١٣٢] جبلة واصحابه وانهزموا الى قبدوقية وتنصّروا ثانية . ومن جبلة هذا يتسلسل نيقيفور ملك الروم المشار اليه . وكان نيقيفور داهيةً حازماً وصائماً ومصلّياً . ولذا قال ألفيدي المتمرّد المذكور لعبد الملك قائد الجيوش العربيّة : متى ملك نيقيفور ألقِ عنك ثوبك الناعم وتدرّع بالسلاح وتهيّأ للقتال . على انه ما كاد يملك نيقيفور حتى وجّه الرسائل الى هرون الرشيد يستفزّه للحرب . وظلّ القيصر والخليفة مدّة شهرين يتراسلان حتى صارا الى الموادعة وتبادلا الهدايا وعاد كلّ منهما الى بلده .

وفي هذا الزمان كان رجل قرشيّ مسلم اسمه رُوَيح . وكان بيته مجاورًا للكنيسة . وكان يضايق الكاهن ويزعجه وقت الصلاة ويطرح عليه من الكوّة كُرات من طين . ولمّا كان يحدّق فيه يوماً وقت ذبيحة القدّاس شاهد في الطبق على مائدة الحياة حَمَلاً مذبوحاً فانحدر الى الكنيسة وشاهد امام الكاهن خبزًا مكسورًا . فعاد الى الكوّة وحدّق ثانية فشاهد الحَمَل . فجاهر حالاً بالنصرانية وترك بيته وقصد احد الاديار واصطبغ بالمعمودية . ولمّا بلغ هرون الرشيد خبرُه استحضره ولاطفه ليعود الى الاسلام فأبى . فأوثقه وألقاه في السجن وظلّ سنتين كاملتين راسخاً في عقيدته . فأصدر الخليفة الأمر فجُزّ راسه بالسيف وعُلّق على سور الرافقة ورأى الكثيرون نورًا هابطاً عليه . ثم أحدره من السور رجل مسيحيّ من بلاد فارس ونقل جثمانه الى مدينته .

وفي تلك الغضون اقبل رجل روميّ اسمه توما بن موسمار وزار هرون الرشيد مدّعياً انه ابن قسطنطين الملك . فرحّب به هرون كمن يرحّب بابن ملك .

وفي السنة ١١١٥ لليونان (٨٠٤ م) اذ كان هرون الرشيد في بلاد العجم زحفت جيوش من الروم ضخمة وغزت بلد المصيصة وعين زربة . فانصب عليها العرب واسترجعوا الغنائم . وسمع هرون فبادر الى الرقة وغزا في نيسان مدينة هرقلية. فشدّ عليه نيقيفور لیناوشه . وما ان شاهد هرون جيوش الروم الضخمة حتى طلب الصلح وأطلق [٣٣٣] جميع الأسرى الروم الذين في حوزته . ولمّا قرّر نيقيفور الهدنة تخلّى له هرون عن جميع خيامه ومعداتها ايضاً .

وفي السنة عينها ابتنى هرون مدينةً فوق الرقة دعاها ايرقلية باسم امرأةٍ أخذها من اهالي هرقلية. ولمّا اطمأنّ نيقيفور من محاربة العرب شيّد هو كذلك مدينة انقرة وغيرها بدلاً من طوانة وايرقلية اللتين احتلّها العرب في عهده .

وفي السنة ١١١٩ لليونان (٨٠٨ م) تفاقم الجوع في البهائم وجعلت تنبش قبور الموتى وتأكلهم وتهجم على الاحياء. فتفترس النساء والفتيان وهم يلتقطون الاعشاب خارجاً .

وعوّل هرون على الشخوص الى بلاد العجم ليحارب العصاة وعقد لابنه محمّد الولاية على بغداد ولابنه القاسم على سوريّة واستصحب ابنه المأمون الى خراسان وأسنى له الف ربوة من الفضّة بدلاً من المُلك . ولما وصل الى مدينة طوس وبطش بالخارجيّ ادركه الأجل في السنة ١١٢٠ لليونان (٨٠٩ م) .

واشتهر في هذا الزمان بختيشوع بن جورجيس الطبيب العلاميّ . وارسل الخليفة هرون الرشيد يستدعيه ليعالجه . ولمّا دخل الطبيب دعا الملك في اللغتين الفارسيّة والعربيّة فابتهج الملك وانتدب سائر الأطبّاء ليباحثوا بختيشوع . فقال الطبيب عيسى ابو قُرَيش : ثق يا مولاي الملك بانه ليس فينا طبيب كفوء ان يحادث بختيشوع لانه قلّة تلوة وهو ووالده وأهله فلاسفة. ثم أمر الخليفة احد الحجّاب ليُحضِر على السكت تفسرةَ بهيمةٍ كي يمتحن بختيشوع هل يميّزها ام لا . ولمّا أحضرت وشاهدها بختيشوع قال: انها ليست تفسرة بشر. فعارضه ابو قريش وقال له: كذبتَ. انها تفسرة احدى حظيات الملك. فاحتدّ بختيشوع وقال له : ايّاك اخاطب ايها الشيخ الوقور ان الانسان لا يبول هكذا . تبصّر ان كنتَ تدري في لون التفسرة ومادّتها ورائحتها . فقال له ابو قريش : ما يكون طعام

من يكون هذا الماء ماءه ? قال بختيشوع [١٣٤] طعامه شعير جديد حسن لم يأكله احد. فضحك الخليفة وأمر له بثياب وذهب كثير.

وخلف بختيشوع بن جورجيس بن بختيشوع ابنه جبرائيل واشتهر مثله بالطب وخدم هرون الرشيد . قيل ان احدى حظايا الخليفة الكريمة لديه تمطّت يوماً ورفعت يدها فتشنّجت وتعذّر عليها ردّها . وتعب الاطباء وهم يعالجونها بالادهان والتمريخ ولم يفيدوها . حينئذ أحضر الخليفة جبرائيل وقصّ عليه خبرها فقال له : ان لها عندي دواء ان كنتَ تُخرجها الى ههنا بحضرة الجمع فأصنع لها ما أرى دون ان تسخط عليّ. فوافق الخليفة وأحضروها. وما ان رآها جبرائيل حتى أسرع اليها وأمسك اذيالها كمَن يريد ان يكشف سوءتها . امّا الجارية فلشدّة الحياء اتّقد جسمها حرارةً وعرقت واسترسلت أعضاؤها وبسطت يدها المشنّجة الى اذيالها وأمسكتها لتستتر . وللحال تركها جبرائيل وقال للخليفة: لقد برئتْ. ثم بسطت الجارية يدها يمنةً ويسرةً . فدهش الخليفة وجميع الحاضرين وأمر لجبرائيل بخمسمائة الف فضّة . ولما نهض جبرائيل سأله عن السبب فقال: ان خلطاً رقيقاً انصبَّ الى اعضائها وقت الغشيان وبما ان حركة الغشيان تسكن بغتة وتقف جمدت فضلة الخلط في بطون الاعصاب المحرِّكة لليد وما كان يحلّها الّا حرارة متوقّدة تتأتّى من تلك الحركة الاضطراريّة . وكان راتب جبرائيل في السنة تسمائة الف دينار. وبعد وفاة الرشيدٌ قام بخدمة الامين ابنه حتى قُتل الامين فنهض بخدمة المأمون أخيه . غير ان المأمون حرد على جبرائيل في اوّل الأمر وابتزّ امواله كلّها ثم رضي عنه وردّ له كل ما اخذه منه وأحبه وأكرمه.

وان رجلا نسطوريًا زار مصر قال لجبرائيل : ان اليعاقبة كثيرًا ما يسخرون بنسطور في مصر ويرجمون قبره ويدّعون ان المطر لا ينحدر [١٣٥] عليه . فاستشاط جبرائيل سخطًا وحصّل من الخليفة رسالةً الى صاحب مصر ليرسل اليه عظام نسطور في صندوق الى بغداد كي يدفنها في كنيسة كوكي (مقرّ جثالقة النساطرة) . فاستدرك الأمر راهب نسطوري ليزيل العار عن ابناء ملّته ويبرهن لهم انّ الذي يسخر به اليعاقبة ويرجمونه ليس هو نسطور

فادّعى ان أحد الرسل القديسين ظهر له في الحلم ليلا وقال له: ان هذه الحكاية لا نصيب لها من الصحة وان عظام نسطور ليست في مصر ولا يعرف احد مكان قبره . فكفَّ جبرائيل الطبيب عن نقل العظام من مصر .

بعد هرون الرشيد محمَّد امين ابنه

تولّى اربع سنيْن وسبعة شهور وأمر العَمَلة بالعدول عمّا باشره ابوه من بناء هرقلية . ونقل الى بغداد خزائن ابيه من الرقّة واموال المأمون اخيه وآله من خراسان .

وفي السنة ١١٢١ لليونان (٨١٠ م) نشَم الامين والمأمون يتحرَّشان احدهما بالآخر . وكانت بداية الشر من الأمين لانه كان خالعاً وشرهاً ولم يؤدّ لاخيه المأمون ما ارصده له أبوه من المال بل ابتزّ امواله كلها وبعث يستدعيه بعجلة ليقبض عليه . فاستدرك المأمون الخديعة واستمرّ في مركزه . وظهر اذ ذاك طائفة من الخوارج نظير عمر الذي كان مسجوناً في الرقّة بسبب افحاشهِ في القتل لمَّا كان بسيساط . وفتك بحارس السجن وانهزم ثانيةً الى سميساط وفتك بالامير الذي سُجن بسببه . ونهب التجّار وحشد العسكر وجعل ينهب ويغزو ويقتل في فلسطين . ونازل كذلك جيشاً وجّهه اليه سليمان القائد . ومن الخوارج كذلك رجل اسمه ناصر ظهر في ارمينية واتفق مع عمر ونشَّما يفنيان الناس .

ثم ان الأمين وجّه عليًّا القائد في ثلاثين الفاً ليبطشوا بالمأمون اخيه . فشعر المأمون وجيَّز اربعة آلاف على رأسهم الطاهر . والتقى الخصمان عند نهر البليخ فانكسر عليّ وغرق اغلب عسكره في النهر .

وفي السنة ١١٢٣ لليونان (٨١٢ م) زحف نيقيفور ملك [١٣٦] الروم الى بلاد البلغار وحاصر عاصمتهم ودوّخها وأخربها وقتل خلقاً كثيراً وبلغت منه الفظاظة حتى جعل يسطح الفتيان على الحضيض ويطأهم بالجراجر . وفي هذه السنة عينها قُتل نيقيفور قتله رجل روميّ .

وفي السنة ١١٢٣ لليونان (٨١٢ م) اتّفق ناصر وعمر الخارجيّان وعبرا الجزيرة وجعل اصحابها يقتلون دون شفقة ويسبون ويغزون ويفحشون في النساء .

والعذارى والفتيان . وفيما كانا يحاصران حرّان كتب اليهما الرهاويون (العرب) يقولون : إن أرسلتما من يدمّر كنيسة النصارى فانهم يضحّون باموالهم كلها حرصاً عليها . وكان سور الرها يومئذ قد سبق فقوّضه ابو جعفر . فهلع الرهاويون كل الهلع وأوصوا بالصوم واعتكفوا على السهر والصلاة . فسمع الربّ طلباتهم وألهم شيخاً من العرب يقال له يحيى بن سعيد فخرج يريد مواجهة ناصر وعمر الخارجيّين واشار عليها ان يعدلا عن قصدهما فلبّيا مشورة الشيخ وأدّى لهما الرهاويون خمسمائة الف درهم ورحّلوهما .

وفي رابع عشر ايّار تلك السنة انكسفت الشمس ساعتين وظهرت النجوم واضاءة الاهالي السروج ثم لاحت الشمس ساعةً في المغرب .

وفي السنة ١١٢٤ لليونان (٨١٣ م) دوّخ الخارجيّان ناصر وعمر بلاد طرسكانا وزاباريا وباماريا وشاهدا في دير بظاهر قرية حديض راهباً حبيساً جليلاً طلبا منه كلّ ما لديه ولدى غيره فألقاه اليهم . ثم ثاروا عليه واحرقوه واحرقوا صومعته . وبعد هذا سار عمر الى سيساط وابتنى قلعتها وتحصن بها وانطلق ناصر الى سروج واضطرّ أهلها ان يؤدّوا له الجزية .

وفيما كان العرب يفعلون مثل تلك الافعال كان الروم كذلك يسيرون على خطتهم. ذلك انه لمّا قُتل نيقيفور وخلفه ابنه سطوريقي حمل البلغار بعد خمسة اشهر على قسطنطينية وأصابوا سطوريقي في فخذه ومات. وخلفه صهره ميخائيل سنةً واحدةً. وروى بعضهم ان اخته فرقوفيا ستته سمّاً ليخلفه ميخائيل زوجها . واغار البلغار على الروم ولم يزحف ميخائيل [١٣٧] ويقاتلهم. عند ذلك حملت النخوة لاون البطريق فبرز لقتال البلغار وبطش بهم وفتك بملكهم . وانقلب فقبض على ميخائيل وحلق رأسه وجعله في احد الاديار وخصى ابناءه وملك سبع سنوات ونصف سنة وعقد الصلح مع البلغار وتخلى لهم عن الملّاحة التي لاجلها حدث النزاع بين الدولتين.

وفي السنة ١١٢٥ لليونان (٨١٤ م) استولى ناصر على بلدة راس كيفا وعلى سروج والكيسوم . وشيد ثلاثة اسوار في الكيسوم . وابتنى ابو شيخ اسوار الرها بنفقات اهاليها . واحتلّ عبدالله بن هشام مدينة حرّان وتولّى عمر

مدينة تلّ موزل وحبيب رأس العين وعبدالله ماردين وعبّاس قورس وعثمان قنسرين وانطاكية وافاميا. وابتنى ثابت بابين في ثغور قيليقية واقام فيها حامية ليكون بلد قيليقية ملاذاً للمضطهدين والمساكين.

اما الحسين القائد فأضمر الانتقاض على الامين الخليفة وقال للعجم : ان الامين يعضد العرب ويعاديكم. ثم ثار على الامين في فريق من العجم وأوثقه وزجّه في السجن ثم خرج وجلس على جسر بغداد واستدعى الجنود ليحالفوا المأمون. اما الامين فأرسل من سجنه الى الحسين يُقسم له ويلتمس منه ان يعطيه أمواله ويشفق على حياته. فتوجّع الحسين والعجم وأطلقوه وردّوه الى كرسيه. وحلف الامين للحسين انه يغفر له زلته ودفع له خاتمه. لكنّ الحسين لم يثق به فانهزم يريد هرثمة رئيس قوّاد المأمون.

امّا ناصر الخارجي فكتّب العرب القيسيين كافّةً واقبل بهم الى الرقة وحلّوا في دور النصارى وضايقوهم في استنزاف ما يقوم بنفقاتهم الوافرة. ثم زحفوا الى الرافقة وحاصروها وكان مقيماً هناك يومئذٍ البطريرك قرياقس (٧٩٣ — ٨١٧) وثيودوسيوس مطران الرها. واشتدّ الغلاء حتى أكل الناس خبز الرزّ والبقول. ثم عقد ناصر الصلح كيفما كان لانّ عساكر الكوفة احتلوا الرّقة واستولى العجم على الرافقة.

ولمّا رأى المأمون ان الكثيرين انتقضوا على الامين [١٣٨] اخيه وجّه القائدَين هرثمة والطاهر الى بغداد. فانقسم البغداديّون شطرين وساد الاضطراب كلّ المدينة. وجعلوا يدخلون الخزائن الملكية وينهبون الذهب والامتعة ويتقاتلون عليها. وأفضى بهم الأمر الى تحطيم أعمدة الكنائس واتخاذ حجارتها للمنجنيقات لان بغداد خالية من الحجار. عند ذلك بعث الامين الى هرثمة يستحلفه حفظاً لحياته وامواله فحلف له. فسخط الطاهر وانتقى حرّاساً ادركوا الامين ليلاً وهو منهزم في قارب. فألقى بنفسه في النهر وسبح حتى وصل الى بيتٍ ضيق واختفى فيه فلقيه الجند وفتكوا به وعلّقوا هامته في رمح وطافوا بها في بغداد يوم الاحد خامس محرّم عام ١٩٨ للهجرة (٨١٣ م).

(له صلة)

من الخزانة الشرقية — بقلم حبيب زيات

رقص القضاة والوزراء والامراء

ولهوهم في مجالسهم وخلواتهم

في المؤلفات الادبية والكتب الموضوعة في الاغاني والملاهي اخبار شتى عن مجالس الرؤساء والوزراء وخلوات الخاصة للشرب واستماع الغناء. وبينا نلمع يسيرة الى ما كان يجري فيها من غرائب التبذل وترك الوقار والاسترسال في فنون العبث والتصابي والانقياد لدواعي الطرب والسكر ولكن لم يصف احد في ما نعلم هذه المجالس العلية بمثل الوصف الممتع الذي اذاع الثعالبي سره مرة في كلامه على القاضي التنوخي قال :

« يحكى انه كان في جملة القضاة الذين ينادمون المهلبي ويجتمعون عنده في الاسبوع مرتين على اطّراح الحشمة والتبسط في التصف والخلاعه وهم ابن قُريعة وابن معروف والقاضي التنوخي وغيرهم وما منهم الا ابيض اللحية طويلها وكذلك كان الوزير المهلبي فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذّ السماع واخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار وتقلبوا في اعطاف العيش بين الخفة والطيش ووُضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب من الف مثقال الى ما دونها مملوءة شرابًا قُطْرُبُّليًّا او عُكْبَرِيًّا فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب اكثره ويرشّ بها بعضهم على بعض ويرقصون اجمعهم وعليهم المصبغات ومخانق البَرَم والمنثور ويقولون كلما يكثر شربهم : هَرْهَرْ واياهم عنى السري الرفاء بقوله :

مجالس ترقص القضاة بها	اذا انتشوا في مخانق البَرَم
وصاحب يخلط المجون لنا	بشيمة حلوة من الشيم
تخضب بالراح شيبه عبثًا	انامل مثل حمرة العنم
حتى تخال العيون شيبته	شيبة عثمان ضُرِّجت بدم

فاذا اصبحوا عادوا لعادتهم في الترمت (١ والتوقر والتحفظ بأبّهة القضاة وحشمة

---

١) في الاصل المطبوع في دمشق والقاهرة « الترمث » بالراء والميم والثاء المثلثة وهو تصحيف « الترمت » بمعنى التوقر والاحتشام .

المشايخ والكبراء »(١

يريد بمخانق البرم اطواق الاراك وله حمل كحمل عناقيد العنب كانوا يضعون بها الازهار والرياحين ويتزينون بها اذا جلسوا للشرب وكانوا لا يشربون الا على تحايا الزهور والورود يكللون بها رؤوسهم وآذانهم واعناقهم ويفرشون بها مجالسهم كما وصفناه ملياً في فصل «التحايا» من كتابنا «الديارات النصرانية في الاسلام » (ص ٤٤ – ٤٩) وكانوا اذا خلوا في مثل هذه المجالس يخلعون ثيابهم ويلبسون « ثياب المنادمة » وهي ثياب ملونة بالاصباغ الحمر والصفر والخضر[٢] ولذلك عرفت بالمصبّغات كما سبق من لفظ الثعالبي وقد ذكر في كتابه برد الاكباد ان مثل هذه الثياب كانت عادةً لا تجمل بالشيوخ والقضاة وذوي الوقار ونقل عن عبدالملك بن نوح قوله « لا يحسن بالاحرار والسادة لبس الملونات والمصبغات فانها من لباس النسوان والغلمان »[٣] ومع ذلك لما فاجأ عبد الملك بن صالح الهاشمي جعفر بن يحيى البرمكي في خلوته وازاد مجاملته واستدعاء الأنس به خلع ثيابه وسواده وسيفه على ما اشتهر به من الوقار والشرف والتصوّن « وجاء الغلام وطرح عليه ثياب المنادمة »[٤] وجارى الحضور في تناول بعض الشراب على سوء رأيه فيه واستحرامه اياه وكانت بيوت

---

١) يتيمة الدهر طبعة دمشق ٢ : ١٠٦–١٠٧ ، وقد راجعنا هذه الابيات في ديوان السري الرفاء في نسختين مطبوعة ومخطوطة وجدناهما في خزانة الدكتور سامي الدهان فاذا هنالك خمسة أبيات اغفلها الثعالبي وهي :

١	كيف خلاصي من العراق وقد	آثرت فيها معادن الكرم
٢	رأيت فيها خلاعة وصلت	اطرافها بالعلوم والحكم
	مجالس ترقص القضاة بها	اذا انتشوا في مخانق البرم
٣	كأنهم من ملوك حمير ما	اوفت اكاليلهم على اللمم
	وصاحب يخلط المجون لنا	بشيمة حلوة من الشيم.
٤	اذا سقى الله منزلاً فسقى	بغداد ما حاولت من الديم
٥	يا حبذا صحبة العلوم بها	والعيش بين اليسار والعدم

٢) الفخري ، الآداب السلطانية ، طبعة القاهرة ١٨٧

٣) برد الاكباد في الاعداد رقم ٣١٧ في دار الكتب المصرية صفحاته غير مرقومة

٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ ج ١ : ٣٠٩

الكبراء والوزراء تحتاط لمثل هذه المفاجآت والمنادمات بالاحتفاظ بفضول من كل انواع المصبغات يتخفّف بها كل من اراد ان ينتظم في سلك الندماء .

ولما ورد الصاحب بن عباد بغداد استدعاه الوزير المهلبي الى احد مجالسه المذكورة وجمع بينه وبين ندمائه ووصف الصاحب في كتاب الروزنامجة الذي كتبه لابن العميد احد هؤلاء الندماء. فقال « كلمني منهم شيخ ظريف خفيف الروح اديب متقعر في كلامه لطيف يعرف بالقاضي ابن قُريعة فانه جاراني في مسائل خفتها تمنع من ذكرها » ولما انصرف ابن عباد من المجلس ورد الخبر بوفاة صاحب البريد فاراد ابن عباد ان يجلس مع القوم للتعزية فما لبث ان جاءه رسول المهلبي يستدعيه فاعتذر فلم يُعفِه ولما دخل عليه قال له المهلبي : أتعرف احسن صنيعاً مني بك وقد نقلتك عن « واحرَباه » الى « واطرباه ».

ثم حضر الصاحب ايضاً مجلساً في عُكبُرا وهي بليدة في نواحي دُجَيل بينها وبين بغداد عشرة فراسخ مشهورة بجودة الخمر وكتب يصفه لابن العميد :

« وعلى ذكر عكبرا حضرنا مع الاستاذ ابي محمد (المهلبي) ايده الله تعالى فاستدعى دنّاً للوقت وخمّاراً من الدير وريحاناً من الحانة واقترح غناء من الماخور واخذنا في فنّ من الانخلاع عجيب بطريق من الاسترسال رحيب »

وسئل الصاحب ان يقول شيئاً في هذا المجلس فنظم فيه من ابيات :

وقلت لعلج يعبد الخمر زُفّها	مشمّمة قد شاهدت عصر قيصرا
فناولنيها لو تفرق نورها	على الدهر نال الليل منها تحيّرا
واوسعني آساً ووردًا ونرجساً	واحضرني نايّاً وطبلًا ومزهرا
هنالك اعطيت البطالة حقها	والفيت هتك الستر مجداً ومفخرا . . .
فكان الذي لولا الحياء اذعته	ولا خير في عيش الفتى ان تسترا »(١)

يعني بالعلج الذي يعبد الخمر ساقي الدير اشارة الى خمر كأس القربان ونكتة الوصف قوله « اقترح غناء من الماخور » اي من اغاني بيوت الريبة والفسق وهذا الغناء كاف وحده لتخيل ما كان يجري هنالك من التهتك والتصابي ولا شك انه اراد بفن الانخلاع العجيب فن التفكك والتلوي في الرقص الذي كان لا يخلو منه مجلس من مجالس القضاة والوزراء متى تناهى الطرب وتداعى

١) يتيمة الدهر للثعالبي ، طبعة دمشق ٢ : ١١ — ١٤

القوم وثارت الخمر في الرؤوس ومن الشقا. والحرمان ان تكون فاتتنا لذة اوصاف فنون الرقص باصنافه في الاسلام بين طبقات الخاصة والعامة من المقلّسين والقيان على تباين اجناسهن وزفنهن الشعوبي وكان منهن الحسان الفائقات اللواتي بلغن الغاية في التفنن والابتداع والى احداهن اشار كشاجم فقال :

وراقصة على كُرة وحبل كخطف البرق او لمع السراب(١

وكان الرقص مشتهرًا كذلك في مجالس الملوك والوزراء في الاندلس حتى نعت بعض الوزراء نفسه « بالرقّاصة » وهو الوزير ابو مروان بن عبد الملك بن شُهيد وكان الملك المنصور بن عامر قد استدعاه في يوم قرّ « فمرّ لهم يوم من الطيب لم يُشهد والونسة من اللهو لم تُعهد وطما الامر وسما حتى تصايح القوم وترافنوا ودار الدور ثم انتهى الى الوزير ابن شهيد وكان لا يطيق القيام لنقرس كان يلازمه فاقامه الوزير ابو عبدالله بن عياش فارتجل الشيخ ابياتًا جعل يقود بها وينشد :

هاك شيخ قاده عذر لكا قام في رقصته مستهلكا
لم يُطق يرقصها مستثبتًا فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزّها منتدلًا نقرس اخنى عليه فاتّكا
طرب اللهو وقد جنّ له طربا ارمضه حتى اشتكى
من وزير فيهم رقاصة قام من طيب يناغي ملكا
انا لو كنت كما تعرفني قمت اجلالًا على رأسي لكا
قهقه الابريق مني ضحكًا ورأى رعشة رجلي فبكى

قال ابن بسام «وكان في اصحاب ابن شهيد رجل بغدادي يعرف بالكلك له نوادر تضحك فحضر معه في بعض مجالس الانس وقد الحّ عليه وجع النقرس فجعل يصلي الصلوات كلما حانت واحدة بعد اخرى جالسًا وكان عنده ذلك اليوم احد اصحاب المنصور ممن يعز عليه ويكرم لديه فلما حمي الوطيس وانس الجليس وطاب المجلس ودارت الاكؤس ونسيت اوجاع النقرس قام ذلك الصاحب الجليس يرقص ودار الدور حتى انتهي الى ابن شهيد فقام يرقص معتدًا على

١) ديوانه نسخة خطية في خزانة الدكتور سامي الدهان

عادته فقال له البغدادي « لله درك يا وزير تصلي بالقاعدة[1] وترقص بالقائمة » فطاب المجلس بهذا الكلام وتم حسنه اكمل تمام »[2]

وكان اهل الاندلس شديدي الرغبة في تقليد اهل المشرق في كل ما يبلغهم عنهم حتى قال ابن بسام الشنتريني « اهل هذا الافق ابوا الا متابعة اهل الشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب او طن باقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتاباً محكماً[3] ومن قلد بينهم المهلبي والتنوخي في التهتك ليلا والتوقر نهاراً القاضي ابو بكر بن زكوان « اجل من اشتمل عليه اوان مجداً وشرفاً وتفنناً في العلم وتصرفاً مع دعابة حين خلواته تحل حبى المحتبي ورقاعة عند نشواته كالتنوخي والمهلبي فاذا اصبحوا بكر ابو بكر الى مصادرة ما يتجه عليه ومواجهته وانكر ما كان عليه من فكاهته فكأنما في برديه الامام وكأنه وقار يدخل او شمام مع عدله في قضائه ونفاذ الحكم بمقتضى الحق ومضائه حتى اذا راح الرواح عادوا الى القصف وتجاوزوا في ميدانهم كل وصف »[4]

وليت ابن بسام اقل من اسجاعه وافاض في وصف بعض مجالس ابي بكر ابن زكوان اسوة بالثعالبي لنقف على فكاهات الاندلسيين في مجالسهم كما عرفنا شيئاً من خلاعات البغداديين في خلواتهم على « اتصال اطرافها بالعلوم والحكم » كما قال السري الرفاء.

ومن نوادر المولعين بالرقص في مدمر المتهوسين فيه الى حد الجنون على غير تهتك فيه ولا خلاعة الامير طاجار سيف الدين الدوادار الماردانى الناصري

١) من نكات «الصلاة بالقاعدة» ما رواه السبكي عن الشافعي قال الشافعي «رأيت بالمدينة شيخاً اتى عليه تسعون سنة يدور نهاره اجمع حافياً داخلاً على القينات يعلمهن الغناء فاذا اتى الصلاة صلى قاعداً » (طبقات الشافعية الكبرى ١ : ٢٤١)

٢) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة القسم الرابع المجلد الاول ص ١٧ — ١٨ والمغرب في حلى المغرب ، دار الكتب المصرية (رقم ١٠٣ م تاريخ) ص ٢٦٦ وبدائع البدائه لابن ظافر ٣٠٠

٣) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ١ : ٢

٤) الذخيرة ١ : ٢٥٨

« كان يغلب عليه اللعب واللهو والانشراح والزهو لا يؤثر على الرقص شيئاً ولا يتخذ غير ظله فيئاً كان كثير اللعب يخرج من قدام السلطان وينزل الى القاهرة ويعمل سماعاً ويرقص الى ان يجيء وقت الخدمة فيطلع الى القلعة وكان عليه في الرقص خفة وحركة وروح وما تقرب اليه عماد الدين بن الرومي بشيء غير الرقص وكان اذا ساق البريد في مهم السلطان ينام طول ليله ويقوم بكرة فيركب خيل البريد الجياد ويسوق مشواراً واحداً من المركز الى المركز وتزل قال لمماليكه : صفقوا فيصفقون له ويرقص الى ان يشدوا له الخيل فيركب ويفعل ذلك من باب مصر الى باب دمشق وكذا اذا عاد »[1]

واشهر الامراء الذين انفقوا ايامهم ولياليهم في مجالس الغناء والرقص وخلوات الشرب واللهو امير فارقين احمد بن مروان الكردي المتوفى سنة ٤٥٣/١٠٦١ وله ألف ابن بطلان كتاب دعوة الاطباء. وقد وصف ابن الازرق الفارقي سيرته في كتابه المخطوط تاريخ ميارقين وحكى كيف كان يقضي حياته باسرها في التنعم والتلذذ بعشرة حظاياه وجواريه مع مثابرته في آن واحد على الصلوات في اوقاتها ولا نذكر انه مر بنا قط في خلال مطالعاتنا العديدة بين مطبوع ومخطوط وصف اغرب وامتع واصدق تصويراً لما كان عليه بعض الامراء والملوك من الانقطاع كل حياتهم للعبث والطرب والانقياد لدواعي اللذات والشهوات وقد حافظنا على عبارة الاصل ونقلناها دون اقل تصرف او تصحيح قال :

« كان للامير نصر الدولة احمد بن مروان ثلثمائة وستون جارية حظايا[2] وفيهن عوّالات وكانت لا تصل نوبة احداهن في السنة الا مرة واحدة وكان في كل ليلة له عروس

---

١) اعيان العصر لصلاح الدين الصفدي نسخة مصورة في دار الكتب المصرية رقم ١٠٩١ ص ١٠٦—١٠٨

٢) في كتاب روضة المناظر لابي الوليد محمد بن الشحنة انه ملك خمسمائة سرية سوى توابعهن وخمسمائة خادم (طبعة جاش الكامل لابن الاثير ١٢ :١٦)

واربى عليه ابن كثير في التعظيم والتهويل فقال : كان عنده من المغنيات شيء كثير كل واحدة مشتراها خمسة الاف دينار واكثر وكان يحضر مجلسه من آلات اللهو والاواني ما يساوي مائتي الف دينار وتزوج بعدة من بنات الملوك وكان كثير المهادنة للملوك واذا قصده عدو ارسل اليه بمقدار ما يصالحه به فيرجع عنه . . . وقد وزر له ابو القاسم المغربي مرتين ووزر له ابو نصر محمد بن محمد بن جهير وكانت بلاده آمن البلاد واكثرها عدلا

جديدة وكان له من المغنيات والرقاصات والعالات واصحاب سائر الملاهي ما لم يكن لسواه من سائر الملوك والسلاطين وكان كلما سمع بجارية مليحة او مغنية مليحة نفذ وبالغ في مشتراها ووزن اضعاف قيمتها وكان رسمه ان يجلس يوما للجند ويوما معهم يأكل ويشرب الى الليل ويخلو بنفسه ويجلس يوماً لبني عمه واولاده واقاربه وخاصته فيأكل معهم ويشرب الى الليل ثم يخرج للمغنيات والرقاصات وجماعة اصحاب الملاهي الى بين ايديهم ساعة ثم يتفرقون ويبقى الامير في خلوته مع جواريه ويجلس يوما ثالثاً وحده على السرير وليس في المجلس غيره ويحضرون حظاياه وجواريه ونساؤه وبناتهويأكلون الطعام ويرقصون ويلعبون بسائر الملاهي طول يومه الى الليل ثم يمضون نساؤه وبناته ويجلس ويشرب وجواريه والعالات بين يديه الى وقت نومه قريب الصبح ويخلو بصاحبة النوبة .

قيل وكان يركب نصر الدولة من غدوة الى الصيد ويعود ضحوة ويجلس ساعة ويدخل اليه الوزير ويستأذنه في ما يحتاج الى اذنه ثم انه يجلس على الطعام ويستريح الى قبل العصر ويجلس على الطعام والشراب بعد ان يكون صلى الظهر والعصر في وقتها ثم يشرب ويحفظ نفسه الى ان يصلي المغرب والعشاء ثم يشرب الى الثلث الاول من الليل ثم ينفضّ من عنده ويخرجن الجواري والعالات فيغنونه ويلعب معهن الى الثلث الاخير من الليل ويشرب وهم بين يديه وهو على مسرته ثم يقوم الى الموضع لمنامه ويأتيه الخادم بصاحبة النوبة فتبيت عنده الى السحر ثم يجلس فيدخل الحمام ويخرج ويصلي الصبح في وقتها وقيل انه مدة ولايته لم تفته صلاة الصبح في وقتها ولقد غُنّي بين يديه ذات يوم بابيات ابي نواس التي اولها يقول :

وهبتَ النوم للنوّا م إشفاقا على عمري
وقضّيت سواد الليـل باللذات والخمر
فما يطمع في النو م الا ساعة السكر

قيل فطرب لها الامير وقال : لله درّه فكأنه غنى بنا في شعره .

ولقد قيل لندمائه بعد موته : كم كانت دولة نصر الدولة وولايته فقد سُمّت انها كانت ثلاثا وخمسين سنة(١ فقال له ذلك الرجل : ولمَ لا تقول مائة وستا وستين سنة ؟ (هكذا بدلا من مائة وست سنوات) فان لياليها كانت احسن من ايامها . . .

ولقد كان لغيره من السلاطين والملوك من البلاد والاسم ما لم يكن له مثله ولكن ما تنعموا مثلما تنعم نصر الدوله ولا نالوا من اللذة والرفاهية ما نال ولا حصل لهم ما حصل له من النعم والاموال والاولاد »(٢

وقد بلغه ان الطيور تجوع فتجمع في الشتاء من الحبوب التي في القرى فيصطادها الناس فامر بفتح الاهراء والقاء ما يكفيها من الغلات في الشتاء فكانت في ضيافته طول الشتاء مدة عمره (البداية والنهاية ١٢ : ٨٧) .

١) اختلفوا في مدة امارته فروى ابن خلكان انها كانت اثنتين وخمسين سنة وقيل اثنتين واربعين سنة (وفيات الاعيان ، طبعة باريس ٨٣ — ٨٤) وفي رحلة ناصر خسرو اثنين وخمسين لانه ملك سنة ٤٠١ ومات سنة ٤٥٣ (سفرنامه تعريب يحيى الخشاب ص٦ — ٧) .

٢) مجلد مخروم فيه تاريخ ميافارقين في خزانة بريتيش موزيوم 141 :° Oriental 5803

هذا ما رواه ابن الازرق الفارقي وهو اعرف بجياة امير بلده ولكن لا ندري هل كل ما بلغه عنه كان حقاً وهيهات ان يستطيع احد ولو كان كِرديا ان يعيش مثل هذا العيش الخارق واذا صح جانب منه فنكتة ما هنالك محافظة الامير اثناء خلوته بحظاياه ونسائه وامعانه في الشراب والطرب على الصلوات الخمس في اوانها واعتقاده انه كان يوفي الله حقه عملاً بقول القائل :

ولله مني جانب لا أضيعه وللّهو مني والبطالة جانب[١]

وقد كان مثل هذا الاعتقاد مذهب كثيرين في الشرق حتى بين العلماء والصلحاء للجمع بين العبادة واللذاذة وحكي عن ابي حفص عمر بن داود الانطرطوسي المتوفى سنة ٣٩٠/١٠٠٠ انه كان يفتخر في آن واحد بالاكثار من تلاوة القرآن والجمع بين النسوان ويقول : ختمت اثنتين واربعين ختمة وتزوجت بمائة امرأة واشتريت ثلثمائة جارية[٢] واوفى عليه محمد بن الطيب في التهالك على الزواج مع ولعه بالحديث النبوي فكتب عنه ابو بكر الخطيب البغدادي : كان صدوقاً . . تزوج زيادة على تسع مائة امرأة[٣] « ولما مات سُليم ابن عتر قاضي مصر قالت امرأته في جنازته : يرحمك الله فقد كنت ترضي اهلك وترضي ربك فقيل لها : وكيف ذلك ؟ قالت كان يغتسل اربع مرات ويختم القرآن اربع مرات في الليلة »[٤]

ومن الشرق سرى هذا الرأي الجامع بين الصِلات والصلاة الى الاندلس فقال الرمادي القرطبي الشاعر من قصيدة :

فاذا ما انقضت ديانة ذا اللهو اعتمدنا مواضع الصلوات

لو مضى الوقت دون راح وقصف لعددنا هذا من السيئات[٥]

ومن اشهر اتباع ديانة هذا اللهو المقدس كشاجم الشاعر الطائر الصيت

١) الكامل للمبرد ، طبعة ليبسيك ٣٢٧

٢) معجم البلدان لياقوت ١ : ٣٨٨–٣٨٩ طبعة اروبة وتاريخ ابن عساكر في دار الكتب الظاهرية بدمشق ١٣ : ٢/١٠٢

٣) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي طبعة ليدن ٢ : ١٦٠

٤) اخبار قضاة مصر للكندي ٣٠٨

ارشاد الاريب لياقوت ٧ : ٣٠٦

الذي كان ريحانة اهل الادب في زمانه ولكنه كان اقوم رأياً واعدل مذهباً لانه كان يجمع بين طاعة النفس وطاعة العقل ويؤلف بين الادب والطرب حتى اذا جنه الليل انتصب للتلاوة والدعاء. وهو قوله في ابيات يجب على العاقل ان يأخذ منها ويدع :

عجبي ممن تناهى حاله ... وكفاه الله ذلات الطلب
كيف لا يقسم شطري عمره ... بين حالين نعيم وادب
ساعة يمتع فيها نفسه ... من غذاء وشراب منتخب
ودنو من دمى هن له ... حين يشتاق الى اللعب لعب
فاذا ما نال من ذا حظه ... فحديث ونشيد وكتب
مرة جد واخرى راحة ... فاذا ما غسق الليل انتصب
فقضى الدنيا نهاراً حقها ... وقضى لله ليلاً ما وجب
تلك اقسام متى يعمل بها ... دهره يسعد ويرشد ويصب (١

١) ديوانه المخطوط خزانة الدكتور سامي الدهان

الفقراء المخربون

والشيخ علي الحريري الحوراني

يصعب جدًا تعيين الزمن الذي أطلق فيه لقب المخربين على الفقراء الذين عرفوا بالاستهانة بالشرائع والآداب واستباحة المحارم والمآثم والذلك حار في تفسيره طابع كتاب الحوادث الجامعة لابن الفوطي (ص ٢٢٥) ولم يدر له توجيهاً وقد اشتهر الشيخ خضر الكردي شيخ الملك بيبرس البندقداري بارتكاب ضروب المنكرات واقتراف انواع المخازي ومع ذلك لم ينعته احد بالتخريب فهل كان الشيخ علي الحريري اول من عُرف به ونسب اليه وقد حاول بعضهم الاعتذار عن هؤلاء الاباحيين والمجاذيب وزعم ان التخريب الظاهر منهم لم يكن الا مغالطة وتستراً وهو ما نقله ابن تغري بردي في كلامه على سليمان ابن المولّه المجذوب وروى قول الذهبي عنه « انه كان يأكل في شهر رمضان ولا يصوم ولا يصلي قال اليافعي : » ومثل هذا قد شوهد كثيراً من المخربين يصلون في اوقات لا يشاهدون فيها وان الاكل لا يدخل الى بطونهم وما يرى الناس انهم يأكلون ليس كذلك بل يمضغونه تخريباً وتستراً وغير ذلك من الاحوال المحتملة لنقل الصلاة في وقتها فالقوم في ذلك احوال يحتجون فيها»[1]

فهل كان اليافعي يعتقد ان هذا التخريب الظاهر كان تمويهاً وستراً لما كان لهم في الباطن من الخوارق والمعجزات.

واكثر ما ورد لفظ التخريب في اشاراتهم الى صحبة الفقراء للغلمان الاحداث قال شهاب الدين الدلجي يعني الشيخ علياً الحريري : « كان يعاشر الاحداث ويعتمد ما يسمونه تخريباً »[2] وزاد الفوطي في التصريح والشكوى وقال : « كان يعاشر الصبيان الاحداث بل يدخل معهم الحمام ويعتمد ما يسميه الفقراء

---

١) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ٣ : ١٢٤

٢) الفلاكة والمفلوكون ٧٢ – ٧٣

تخريباً والفقراء ينكرون فعله »[١]. ومن هاتين الشهادتين يستدل على ان التخريب هو من وضع الفقراء انفسهم وكانوا يعنون به اولاً مناقضة السنن والعادات المألوفة ثم تناول عندهم كل خروج عن الآداب والشرائع .

وقد اشار غير واحد من المؤرخين الى نشأة الشيخ علي الحريري وقالوا انه علي ابن الحسن بن المنصور ولد في قرية بسر من حوران شرقي اذرع من عشيرة يقال لهم بنو الزمان وتقدم دمشق صبياً وتعلم فيها صنعة الحريري والعتابي ولذلك عُرف بالحريري ولم ينص احد على سنة ميلاده واقتصروا على ذكر وفاته سنة ٦٤٥/١٢٤٨ وفي قول الفوطي ان السنة كانت ٦٤٦ ولكن يستفاد من قول الذهبي في العبر انه توفي وقد نيف على التسعين فتكون من ثم ولادته حول سنة ٥٥٥/١١٦٠

وما عتم ان ترك صناعة الحرير وآثر عليها حرفة الفقراء وصحب الشيخ ابا علي المغربل خادم الشيخ ارسلان في ظاهر الباب الشرقي وزاد عليه في الإغراب والحزقة « فكان يلبس الطويل والقصير والمدوّر والمفرّج والابيض والاسود والعمامة والمئزر وثوب المرأة والمطرّز والملوّن »[٢] وقد اشار ابن كثير الى هذه الطريقة السخيفة الشنيعة فقال في وفاة الشيخ عبدالله الملطي سنة ٦٧٦/١٢٧٧ « له اشياء كثيرة من الطراريح والآلات الفقرية ويلبس على الطريقة الحريرية وشكله مزعج »[٣]

ثم ادعى الحريري بعد ذلك المشيخة وابتنى له زاوية على الشرف القبلي وسكن العلية المشهورة بالقرمانية من مقابر الصوفية على نهر باناس[٤] وعظم امره وكثر اتباعه واقبل على الطيبات والراحة والسماعات وجذب اليه الغلمان الحسان « فكان من وقع نظره عليه من الاحداث واولاد الاجناد والامراء وغيرهم يحسن ظنه فيه ويميل اليه ولا يعود ينتفع به اهله بل يلازمه ويقيم عنده اعتقاداً فيه وميلاً اليه »[٥]

١) الحوادث الجامعة ٢٣٥
٢) الفلاكة والمفلوكون ٧٢ – ٧٣
٣) البداية والنهاية ١٤ : ٣١٢
٤) الدر الملتقط الخزانة الخالدية بالقدس ٣١ ص ١٠٦
٥) الحوادث الجامعة للفوطى ٢٣٥

ومما زاد افتتان الخلق به انه كان يقول لمن يريد ان يتلمذ له : لا تمنع النفس شيئاً من حظها فمها طلبت نفسك فهو حقها فأبلغها ذلك »[١] فلا غرو اذا اشتد الاقبال عليه وكان له شهرة ومحبة عظيمة عند الاحداث وقد اشار بعضهم الى هؤلاء الغلمان الحريرية فقال متغزلاً :

حريري قلكني بطرف كحيل ناعس غنج غرير
يلذ لي التهتك في هواه كذاك عهدت غلمان الحريري[٢]

ولما تفاقم البلاء به وازدادت فضائحه وقبائحه نما امره الى السلطان الملك الاشرف فامر بالقبض عليه سنة ٦٢٨ واعتقاله في قلعة عزتا[٣] في جوار الفيجة واقام بالحبس ست سنين وسبعة اشهر ورفع وهو بالحبس قصة اي عريضة الى السلطان وصف فيها نفسه بكل جرأة وقحة فقال :

فقير ولكن من صلاح ومن تقى وشيخ ولكن في الفسوق امام[٤]

وبقي في الاعتقال الى ان مات السلطان الاشرف فاطلقه الصالح اسمعيل واشترط عليه ان لا يقيم بدمشق فلزم بلده بسر حتى كانت وفاته فجأة في قول الذهبي[٥] او قتلاً في رواية الدر الملتقط .

وقد اختلفت الآراء في الحكم عليه وغُرَّ بـه صاحب شذرات الذهب فذهب الى انه احد من لا يقطع له بجنة ولا نار[٦] وعرفه ابن ابي شامة مواطنه ووقف على حقيقة باطن اشياعه ومريديه فقال : « هم اصحاب الزي المنافي للشريعة وباطنهم شر من ظاهرهم الا من رجع الى الله منهم وكان عند هذا الحريري من الاستهزاء بامور الشريعة والتهاون بها من اظهار شعار اهل الفسوق والعصيان شيء كثير وانفسد بسببه جماعة كثيرة من اولاد كبراء دمشق وصاروا على زي اصحابه وتبعوه بسبب انه كان خليع العذار ويجمع مجلسه الغناء الدائم

---

١) المختار في كشف الاسرار للجوبري ٣٠
٢) الدر الملتقط ١٠٩
٣) المختار في كشف الاسرار للجوبري وفي الاصل المطبوع « حصن عرقا » وهو غلط وتحريف .
٤) الفلاكة والمفلوكون ٧٢-٧٣
٥و٦) شذرات الذهب في اخبار من ذهب للعماد الحنبلي ٥ : ٢٢١

والرقص والمردان وترك الاحتجار على احــد فيما يفعله وترك الصلوات وكثرة النفقات فأضل خلقاً كثيراً وافسد جمعاً غفيراً وقد افتى في قتله جماعة من علماء المسلمين ثم اراح الله منه »[١]

واقر ابن شاكر الكتبي انه كان من افتن شيء واضره على الاسلام قال « ولما مات سن اصحابه المحيا في شهر رمضان كل ليلة سبع وعشرين وهي من ليالي القدر فيحيون تلك الليلة الشريفة بالدفوف والشبابات والملاح والرقص الى السحر »[٢]

ونشأ له تلامذة واتباع مشوا على منهاجــه في التخريب الديني والادبي وتجاوزوهما بارشاده الى التخريب المادي فكانوا يهدمون كل ما تناولته ايديهم من معابد النصارى ونص ابن شاكر على ان خراب كنيسة المصلبة اي كنيسة حنانيا بدمشق سنة ٥٨٠/١١٨٤ وتحويلها الى مسجد قام به رجل حريري في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب[٣] ولم يدرك المستشرق سوفير في ما نقله من عيون التواريخ الى الفرنسية معنى لقب الحريري فترجمــه :

partisan de la secte Haririeh بدلاً من marchand de soie

---

١) ذيل الروضتين لابي شامة المطبوع سنة ١٩٤٧ بعنوان « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » ص ١٨٠

٢) فوات الوفيات ٢ : ٤٢-٤٣

٣) عيون التواريخ ١٥٨٧ خزانة باريس ٢٤

لغة الحضارة

نعني بلغة الحضارة مجموع الالفاظ والعبارات والمصطلحات التي طرأت على لغة البداوة بعد الاسلام بين معرَّب ودخيل ومولَّد ومستحدث كالتي عُني دوزي بجمعها في كتابه الذي دعاه «تكملة المعجمات العربية» وقد دلّنا طول البحث والتنقيب في كتب الادب والتاريخ على ان لها هنالك اشباهاً جمّة ونظائر فاته استدراكها يجدها اليوم كل من شاء ان يتتبعها في مصنفات السلف ولا سيما ما لا يزال مخطوطاً منها حتى سقوط دولة المماليك ومع اننا لسنا من المتخصّصين لمثل هذه الدروس رأينا من باب المشاركة في الخدمة ان نتقرّب الى القرّاء – وما اكثر عشاق اللغة بين الكتّاب عندنا – ونذكر لهم في كل مرّة ما يمرّ بنا عفوًا اثناء مطالعاتنا من امثال هذه الالفاظ الطارئة نوردها على هيئتنا رجاء الاصابة في ما نختاره منها مع الاقتصار على ما نرى فائدة وإمتاعاً في الاشارة اليها لصلاحية قسم منها للاستعمال بالمعنى الذي دلّت عليه قبلًا او لامكان سدّ عوز بها من حاجات الاقلام في هذا العصر وسنعزّز كل رواية منها بشهادات الكتّاب والشعراء والمؤرخين وغنيّ عن البيان ما في مثل هذه التنبيهات والاستدراكات من المادة والمؤونة لتذييل دواوين اللغة وتأريخ الدخيل والمولَّد من اوضاعها تمهيدًا لجمع معجم شامل لكل الكلمات المستحدثة في حضارة الاسلام.

مربعة

جهلها ياقوت الرومي في كلامه على مربّعة الحرسي وهي محلة قديمة في شرقي بغداد فقال: «اما مربعة فكأنه يراد بها الموضع المربّع»[1] وفاته ما كان الجاحظ قبله ذكر في تفسيرها حيث قال: اهل البصرة اذا التقت اربع طرق يسمونها مربعة ويسميها اهل الكوفة «شهارسوك» بالفارسية[2] اي الاربعة الطرق وربما كتبت بالشين باولها والجيم المصرية بآخرها «شهار سوج» قال ابو زيد الخطيب: «سمعت ابي يقول: شهارسوج الهيثم هو الهيثم بن معاوية القائد»[3] وفي كتاب الاغاني: ان النبيه التميمي كان ينزل شهارسوج الهيثم في درب الريحان»[4]

١) معجم البلدان ٤: ٤٨٥
٢) البيان والتبيين المطبعة العلمية ص ١٠
٣) تاريخ بغداد للخطيب ١: ٨٥
٤) الاغاني ٦: ١١

ويقال اليوم لمثل هذه المربعة « المصلّبة » لوجود اربع طرق فيها متحاذية متفرعة على شكل صليب ومنها كنيسة المصلبة الواردة في عهد الكتانس بعد فتح دمشق وقد فسرها بمثل هذا اليعقوبي في وصفه مدينة سرّ من رأى فقال : « سوق الرقيق في مربعة فيها طرق متشعبة »[١] .

وكانت المربعات كثيرة في مدينة كبيرة مثل بغداد ذكرنا منها مربعة الحرسي حدّث علي بن موسى الكاتب قال : « اتفقت انا وابو العيناء الضرير بمربعة الحرسي فسلمت عليه »[٢] ومنها مربعة شبيب ومربعة ابي قرّة[٣] ومربعة أبي العباس بين الحربية وباب البصرة متصلة بشارع باب الشام منسوبة الى ابي العباس الفضل بن سليمان الطوسي احد النقباء. ومربعة الفرس جمع فارسي متصلة بربعة ابي العباس وهم قوم اقطعهم المنصور هذا الموضع لما اختط بغداد[٤] ومربعة القطانين وهي محلة الملّاحين[٥] وغير ذلك وكان في البصرة مربعة الاحنف[٦] وفي نيسابور سوقان احداهما تعرف بالمربعة الكبيرة والاخرى بالمربعة الصغيرة[٧] .

ومن المربّعات بدمشق مربعة القزّ او القزازين ومربعة القطن[٨] ومربعة باب البريد ذكرها المحبي في ترجمته لمراد باشا الوزير المتوفى سنة ١٠٢٠/١٦١١ فقال : « بنى على مربعة باب البريد قبة عظيمة عالية »[٩] قلنا ومن اشد الحسرات ان هذه القبة هدمت ولم يبقَ لها اليوم اثر ادركناها وقد خُطّ في باطنها البيتان :

عرّج ركابك عن دمشق فانها   بلد تذل لها الاسود وتخضع
ما بين جابيها وباب بريدها   شمس تغيب والف بدر يطلع

---

١) كتاب البلدان ليدن ٢٦٠
٢) تاريخ بغداد ٣ : ٢١٧
٣) تاريخ بغداد ١ : ٨٤
٤) معجم البلدان ٤ : ٤٨٥
٥) الكامل لابن الاثير ١٠ : ١١٧
٦) نشوار المحاضرة ١ : ١١٥
٧) مسالك الممالك للاصطخري ٢٥٥
٨) تنبيه الطالب للنعيمي ٥٩١٢ باريس ٢٤٠ – ٢٦١
٩) خلاصة الاثر ٤ : ٣٥٦

دمنة ودمن

كنا في كتابنا « خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا » قد استعملنا لفظة دمنة لتعيين بقايا الاديار وما شخص من اطلالها فكتب لنا احد علماء اللغة ينكر علينا هذا الاستعمال وقال لنا بلفظه :

« دمنة بمعنى الاثر لا تستعمل بهذا المعنى الا اذا كان هناك اثر اوساخ الحيوانات ورماد الاثافي وابوال الغنم وهي تستعمل هنا بهذا المعنى وليس بمعنى اثر البناء من طلل ونحوه »

ومن الغريب ان يقدم عالم باللغة منقطع لدرسها على تخطئة لفظ قبل ان يتحقق ما عسى ان يكون قد طرأ عليه من التوسع والتطور في عهد الحضارة فالدمنة عنده لم تبرح منذ اربعة عشر قرناً «البقعة التي سوّدها اهلها وبالت فيها وبعرت مواشيهم »[1] ولو اجال نظر المنقب في كتب الادب والتاريخ لوجد ان الدمنة في عرف الشعراء والادباء الحضريين قد خلت من هذه «الاوساخ والرماد والابوال » وتحولت بقعة صالحة انيقة تتمثل فيها الوسوم والاطلال ولا تخلو من المنازه والرياض ألا يذكر ابيات علي بن محمد بن جعفر العلوي المشهورة في ديارات الاساقف ظاهرَ الكوفة :

كم وقفة لك بالخَوَرْ نَقِ لا توازى بالمواقف
بين الغدير الى السديرِ الى ديارات الاساقف
فمدارج الرهبان في اطمار خائفة وخائف
دِمَن كأن رياضها كسيت باعلام المطارف[2]

فان الدمن فيها قد اصبحت رياضاً زاهية كاعلام المطارف يطيب فيها اللهو والهواء. كما قال في وصف امثالها احمد بن عمّار الحسيني الكوفي من ابيات مدح بها الوزير جلال الدين بن صدقة :

دمن دام لي بها اللهو وصفا لي الهوى والهواء[3]

---

١) اساس البلاغة طبعة الدار ١ : ٢٨٤
٢) مسالك الابصار ٢٨٥ – ٢٨٦
٣) الدر الملتقط من كل بحر وسفط لجامعه محمد بن علي بن محمود الكاتب الدمشقي المكتبة الخالدية في القدس ص ٢٨

ومثله قول عرقلة الدمشقي من قصيدة ذكر فيها باب الفراديس وباب البريد وبعض قرى دمشق وفضّلها على مغاني بغداد :

دمن هنّ لي احبّ من الكر خ واشهى من شط نهر المعلّى(١

وبهذا المعنى لمحاسن الشوّا الحلبي من قصيدة وصف بها ايضاً بعض متنزهات دمشق :

بجيرا وتلفياثا وذير الباليّ اضحكت في اللهو سرّا

دمن لو قستَ حسن دماها بسواها لجئتَ شيئا نكرا(٢

فان الدمن في كل هذه الابيات يُراد بها مجرّد البقايا والآثار والبقاع التي اكتست بالاعشاب والازهار ولكن معنى الخراب والعفاء لم يفارق قط اصل الكلمة ولذلك قال شرف الدين عبد العزيز الانصاري الأوسي الدمشقي مورّياً :

ربع اصطباري دمنة وسيوف عذالي كليله(٣

ومن شواهد النثر في النص على معنى الخراب والهدم قول قطب الدين اليونيني في اخبار سنة ٦٦٣/١٢٦٥ :

« يوم السبت رابع ربيع الآخر توجه الملك الظاهر في عساكره قاصداً قيسارية . . . فاخرب المدينة والقلعة وتركها دمنة »(٤

ونظيره قول ابن حوقل :« قنسرين اكتسحتها الروم فكأنها لم تكن الا بقايا دمَن فديتها من دمن ».(٥

ولا نعلم ان المؤرخين والبلدانيين استعملوا كلمة اخرى عدا الدمنة لتعيين بقايا الابنية وآثارها الماثلة وقد وردت غير مرة في كتاب نخبة الدهر لشيخ الربوة منها في الكلام على تدمر :

« من الابنية العجيبة القديمة ايضاً مدينة تدمر بسُدها وجدرانها وآثارها ودمنها ».

---

١) عيون التواريخ للكتبي ١٥٨٧ باريس ٢٦

٢) عيون التواريخ ٧٦

٣) ذيل مرآة الزمان لليونيني اكسفرد Poc. or 132 fº 102 b

٤) 〃 〃 〃 〃 Poc. or 132 fº 118 b

٥) المسالك والممالك طبعة ليدن ١١٨

وفي وصف ملعب أنصنا في الصعيد :

« مثل هذا الملعب ايضاً بدمنة مدينتي العان وجرش بالشام بانبلقاء . . . لا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة بعلبك وبباب البريد من دمشق المحروسة »[١]

وقد يراد بالدمنة اصل البناء، وعُقر الدار والقرية ومنه قول شهاب الدين العمري في تعريف دير صيدنايا «هو في دمنة القرية »[٢] وعلى هذا اصطلاح اهل دمشق في قولهم «اشتريت دملة البيت بكذا » باللام بدلًا من النون اي اصل بقعة البيت الخربة وفي هذا المعنى يترجح قول ابن الازرق الاندلسي:

اسرّح الطرف ومالي دمنة في الدمن[٣]

الباقة والطاقة

في كتب اللغة ان الباقة هي الحزمة من البقل ومثل هذا التعريف والاقتصار يوهم أن استعمالها في الريحان والزهر غير صحيح وهو القول الذي جنحت اليه مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (سنة ١٩٢٤ ص ٤٧٣) ورجّحت ان يقال باقة في البقل وطاقة في الزهر على ان من تتبع لفظة الباقة في اقوال الكتاب والشعراء الاقدمين يتحقق ان استعمالها ايضاً في الريحان وغيره كان شائعاً مستفيضاً لم يسبق لاحد من النقاد انكاره والاستدراك عليه وهذا يرض من عدّ من الشواهد على صحته وسداد وضعه .

اما في النثر فاول ما نرويه منها قول ابي الفرج الاصبهاني « كانت في يد المعتصم باقة نرجس فقال لابرهيم بن المهدي : يا عم قل فيها ابياتاً وغنّي فيها»[٤] ومثله للمسعودي « كان المعتضد قد بعث الى وصيف الخادم بعد ان قبض عليه وأوثق بالحديد : هل لك من شهوة قال: نعم باقة ريحان اشمها »[٥] وللشابشتي في وصف إعذار المعتز « كان في صحن الدار ... خمسة آلاف باقة نرجس

---

١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر طبعة بطرسبرج ٣٢ و٣٤ – ٣٥

٢) مسالك الابصار ٢٥٦

٣) نفح الطيب للمقري ٣ : ١٩٤ .

٤) الاغاني ٩ : ٥٩

٥) مروج الذهب بهامش الكامل ١٠ : ٦٣

وعشرة آلاف باقة بنفسج »[١] ووردت للثعالبي مرتين في يتيمة الدهر (ص ٦٣ و ١٥٣ طبعة دمشق) ومرة في كتاب « من غاب عنه المطرب » واعادها في كتاب « النهاية » فقال طلب رجل غريب ببغداد امرأة حسناء يتزوجها فقالت له دلالة : عندي امرأة كأنها باقة نرجس »[٢] وفي « قطب السرور » لابي اسحق ابرهيم المعروف بالرقيق النديم « لما وضع النرجس بين يديه ... تناول باقة ودعا برطل ليشربه »[٣]

واما في الشعر-فالامثال كثيرة نذكر منها شعراء فارس والعراق ومصر والشام قول ابي العباس الضبّي في الثريا :

خلتُ الثريا اذ بدت   طالعة في الحندس
سنبلة من لؤلؤ   او باقة من نرجس[٤]

وقول الناشئ في الثريا ايضاً :

وليل توارى النجم من طول مكثه   كما ازورّ محبوب لخوف رقيبه
كأن الثريا فيه باقة نرجس   يحيي بها ذو صبوة لحبيبه[٥]

ولموفق الدين العيلاني المصري المتوفى سنة ١٢٢٦/٦٣٢ من الشعراء العميان :

حيّيت من اهوى بباقة نرجس   غنت محاسنها على لحظاته
وسنيته بيد المحبة خمرة   فبدت مصحّفة على وجناته[٦]

ولابي العز مظفر الاعمى من شعر في له فانوس

فطوراً تحييه بباقة نرجس   وطوراً يحييها بكأس تلهّب[٧]

وللقيراطي في مليح بيده باقة نرجس :

١) كتاب الديارات ٨٣٢١ برلين ٦٥ — ٦٦
٢) النهاية في التعريض والكناية ١٤
٣) قطب السرور في اوصاف الخمور خزانة بريتش موزيوم Or. 3628 fº 18 b
٤) يتيمة الدهر ٣ : ١٢٢
٥) ارشاد الاريب ٥ : ٢٤١
٦) نكت الهميان للصفدي ٢٩١
٧) انسان العيون في الخزانة التيمورية ١١٨

عاينت باقة نرجس في كف من اهواه غضّة
فكأنها قضب الزمر دِ اثمرت ذهباً وفضّة(١

ولمجد الدين الدمشقي خطيب النيرب المتوفى سنة ٦٩٤/١٢٩٤ في ضوني :

بأبي غزال جاء يحمل مشملا يكسو الدجى بجلاه ثوب اصفر
فكأنه غصن عليه باقة من نرجس او زهرة من نوفر(٢

ولابن حمديس الصقلي

وباقة مستحسن نورها وقد خلت في الشم من كل طيب
كمعشر راقتك اثوابهم وليس في جملتهم من اديب

وله ايضاً :

كأن الثريا فيه باقة نرجس من الشرق يحيها الى مغرب مُهدِ(٣

ونختم بقول الثعالبي : « من احسن ما سمعت في باقة ريحان قول بعض الكتاب :

وباقة ريحان كعقد زبرجد حوت منظرًا للناظرين انيقا
اذا شمّها المشوق خلت اخضرارها ووجنته فيروزجا وعقيقا(٤

ونقل النويري لشاعر اندلسي يصف الديك : وقام له ذنب مُعجب كباقة زهر بدت من بنان (نهاية الارب ١٠ : ٣٢) .

ولوفرة مثل هذه الشواهد لا يبعد ان يكون استعمال لفظة « الباقة » في الازهار والبقول اوفر من استعمال « الطاقة » فيها ولكنهم لم يقتصروا فيها على هذا الوجه بل توسعوا في اطلاقها على كل حزمة وضغث كقول ابن ابي الصقر الواسطي في ضغث الكبريت كتبه الى قادم من بغداد :

من هدايا بغداد في الف حلّ انت الا من باقتي كبريت(٥

---

١) مراتع الغزلان للنواجي خزانة الفاتيكان رقم ٧٨٣ ص ٧٣
٢) المنهل الصافي لابن تغري بردي الخزانة التيمورية ٤ : ١٨ – ١٩
٣) ديوان ابن حمديس رومة ٣٢ و١٣٥
٤) من غاب عنه المطرب ٢٤٠١ باريس ١١٨
٥) خريدة القصر للعماد الكاتب ٣٣٢٦ باريس ١٣٦

وقول عبد الرزاق الفوطي في حزمة الحطب والشوك في كلامه على زيادة مياه دجلة سنة ٦٤٦/١٢٨٤ :

« خرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الى هناك ونزل عن فرسه وحمل باقة حطب فوافقه كافة الناس[1] وقال ايضاً في اخبار سنة ٦٥٤/١٢٥٦ وقد زادت دجلة زيادة عظيمة « فركب الوزير وكافة الولاة معه واخذ الوزير في يده باقة شوك ففعل سائر العالم مثل ذلك[2] » ولابن المعتز في شمبة تفاح :

مخلوقة بنعيم كلها بدع كان وجنتها باقات تفاح[3]

ومما يدل على ترادف لفظتي الباقة والطاقة وتعاقبهما في التعبير على كل حزمة قول ابي نواس في طاقة الشوك يهجو جارية اليزيز واسمها نبات :

وجه نبات كأنه قمر يلوح في ليلة الثلاثين
واخشن من حسنه وبهجته كطاقة الشوك في الرياحين[4]

١و٢) الحوادث الجامعة ٢٤ و١٠١ و٢٨٥

٣) ديوانه طبعة بيروت ٢١٧

٤) ديوانه ٤٨٢٩ باريس ٢٧٩

الاطباء الكاثوليك

في مؤتمرهم الدولي الرابع

ذكريات أحد الاطباء المؤتمرين ، الدكتور مرسل أدفيه

أحد اساتذة المعهد الطبي الفرنسي ببيروت

يُبدي الجميع ، في أيامنا ، اهتماماً للقضايا الطبية ، ورغبةً في معرفة تطورات الطب والجراحة . والدافع لذلك هو الخوف والامل في آن واحد ، لان كل امرئ يتمنى الحماية مما يرهب من أمراض ويصبو الى التأكد من احراز الشفاء السريع وبدون ألم حالما يصاب بداء ما من الادواء .

وإجابة لهذه الرغبة يقدّمون من كل جانب الى جمهور الناس الشيء الكثير من البيانات عن طرائق مختلف العلاجات الاكثر نجوعاً ، مما لا يخلو ، في غالب الاحيان ، من توجيه خاطئ وخيم العاقبة . ومن ثم ، يجدر بالطبيب احياناً ان يتدخل في الامر لوضع الامور في نصابها .

لقد طالما تحدثوا ، في الاعوام الاخيرة ، عن أساليب صحية جديدة ، يتمكن للانسان ، بفضلها ، ان يحتكم في مصيره حسبما يشاء ، فلا يتشيّخ ، وينجو من كل ألم ، ويتصرف بمصير ذريته كما يشاء .

واذا كان وجود الوسائل محققاً ، فهل يمكن تطبيقها عملياً ؟ ألا يعترض المتذرعين بها صعوبة ؟ أليس من خطر في ان تأتي بنتائج معارضة الغاية المنشودة والمفروض فيها انها صالحة من الناحية الاخلاقية ؟ ألم تسفر عن أضرار تفوق الخير المرغوب فيه ؟

لقد عتبوا ، احياناً ، على الاطباء متهمين اياهم بانهم يحصرون همهم بالجسد دون ما اكتراث للنفس . لكن هذه التهمة باطلة لان الاطباء عرفوا ان الانسان مؤلف من روح وجسد قبل اكتشاف الابحاث عن العلاقة بين الحياة

النفسانية والجسدانية، فكانوا في كل زمن وقبل كل شيء يسعون لانقاذ المرضى من كل اذى، سواء أكان ادبياً ام جسدياً، ناهجين على هذه الخطة كلما توجب عليهم تطبيق طرائق جديدة في علاجاتهم واذا توفقوا الى اكتشاف ما، لايحتكرون بفائدته واستعماله الا اذا تحققوا من نجاعته لا لبعض الاشخاص فحسب، بل ايضاً للانسانية.

ولا مندوحة لنا من اعتبار هذه الملاحظات لتفهم اعمال المؤتمر الدولي الاخير للاطباء الكاثوليك.

٥

انعقد هذا المؤتمر في رومية، في ٢٤ ايلول ١٩٤٩، وترأس جلساته الاستاذ لويس جدًّا (Gedda)، واشترك فيه اربعمائة طبيب يمثلون ثلاثين دولة، ودام خمسة ايام باحثاً الموضوع التالي :

« الشخصية الانسانية من الناحية الطبية. »

وتفرع هذا الموضوع أجزاء عديدة فطُرحت قبل عقد المؤتمر بشهور كثيرة، خمس قضايا رئيسية على اللجان المعهود اليها في تحضير التقارير في بلدان مختلفة. وهذه القضايا هي :

خلق النفس

تحسين النسل والوسائل الواجب اتخاذها قبل عقد الزواج (l'eugénique prématrimoniale)

فحص الاطوار العصبية بالوسائل المخدرة (narco - analyse)

علاج الاعراض العصبية بواسطة عمليات جراحية في الاعصاب الدماغية (leucotomie)

الزرع الاصطناعي (insémination artificielle)

ثم أضيف الى هـذه القضايا تقرير سادس عن « حقوق الطب الاجتماعي وحدوده بالنسبة الى الشخصية الانسانية ». وقد وُضع هذا التقرير بعناية جمعيتي القديس لوقا الافرنسية والبلجيكية.

واحتُفل بافتتاح المؤتمر بصورة مهيبة في قصر (الكابيتول) بحضور نيافة الكردينال بيزّاردو رئيس مجمع كليات الدروس والمعاهد الاكليريكية، وشيخ مدينة رومية ووزيري الصحة والتربية الوطنية

وفي صباح اليوم التالي ، حضر المؤتمرون قداس الروح القدس في كنيسة القديس مرقس وقد احتفل به نيافة الكردينال بيزاردو ، ثم عقدوا جلستهم الاولى .

وهكذا كانت تعقد جلسات الدروس طوال مدة المؤتمر في صباح كل يوم، واحياناً بعد الظهر ايضاً .

والى القراء ، اولاً ، موجز ما قيل في اثناء هذه الاجتماعات :

القضية الاولى : خلق النفس

وضع التقرير عن هذه القضية الدكتور البر نيدرماير ، من ڤينة ، الذي وضع لدرسه باللغة الالمانية هذا العنوان : صيرورة النفس في الجنين ؟ »

لما كانت منظمة « السلام الروماني » هي التي أعدّت اعمال المؤتمر ، فقد عرضت امانة سرها الطبية هذا الموضوع على الاطباء الكاثوليك ، وارفقت اقتراحها ببحث وضعه الاب سرتيلانج بصدد هذه القضية جاء فيه ما يلي : « ليس للعلم ان يبحث عن النفس الروحية ولا عن خلقها ، لان ذلك من القضايا الميتفيزيقية التي تخرج عن نطاق الابحاث الطبيعية فلا يمكنها خوضها . كذلك، ليس للفلسفة ان تحاول حل المشاكل الوضعية الناشئة عن تكوين النفس وحياتها ، متذرعةً ، لذلك ، بظاهر الكائنات الخارجة عن الاوضاع الطبيعية والتي هي من ثمار اجتهادها » .

ومن ثم ، أورد المقرر نظرية القائلين بان النفس تتكون فوراً مع تكوين الجسم ، ونظرية القائلين بان النفس توجد في الجسم بعد اكتمال تكوينه . لكنه لم يبد رأيه في الموضوع واكتفى بالتأكيد ، حسب اعتقاده ، ان على الطبيب الكاثوليكي ان يعتبر في كل حال ان تكوين النفس يحصل حالما يتكون الجسم ، فلا يبقى من مجال للتردد في ما يجب عمله كلما طُلب منه احداث تطريح طبي أو ابداء الرأي حول تطريح مقصود ؛ فمن الناحية الطبية والقانونية والاخلاقية يتحتم على الطبيب ان يعتبر دوماً التطريح جناية .

القضية الثانية : تحسين النسل والوسائل الواجب اتخاذها قبل الزواج

تقدم تقريران حول هذه القضية : الاول بالفرنسية من الاستاذ البرتغالي خواس ماريا بورتو من جامعة كويمبرة ، والثاني بالاسبانية من الاستاذ انطونيو كاستيليو دي لوكاس من كلية الطب بمدريد .

معلوم ان هناك دروساً خاصة حول الوسائل وطريقة استعمالها لتحسين الجنس البشري ، وهناك وسائل ايجابية ترمي الى انتقاء الاشخاص الاكثر اهلية لايلاد البنين بحيث يأتي النسل كامل الاوصاف . وهناك وسائل سلبية غايتها منع المصابين بعاهات من ايلاد البنين ، ولو بواسطة التعقيم اذا اقتضى الامر .

وقد اجمع المقرران على القول انه لا يمكن التسليم الا بالوسائل الايجابية ، وهذه الوسائل تتناول المرء قبل عقد الزواج ولها طابع تربوي محض . فعلى الاطباء ان يهيئوا للزواج بواسطة النصح والعلاجات ، الشبان والبنات ، لايلاد بنين سالمي البنية والمزاج خالين من العاهات . فلا بدّ من التذرع بكل الوسائل لبلوغ هذه الغاية ، شرط ان لا تتعدى الوسائل المتخذة حدود القواعد الاخلاقية المسيحية ولا يكون هناك ايما انثلام لكرامة الشخصية الانسانية .

يجب اولاً افهام الشبان ان الزواج هو اسمى من ان يكون شركة في المنافع وانه ان كان اهم ما يعوَّل فيه عليه هي القيم الروحية ، فانه في الوقت عينه لا مناص من مراعاة سلامة الاجسام . فعلى الخطيبين ان يتوخوا في الزواج ، في الدرجة الاولى ، وفرة الخيرات الروحية المتبادلة وزيادتها ، محتفظين بسلامة الجسم وطهارته حتى ساعة زواجهما .

اما في ما يتعلق بالعاهات والامراض العضالة وكل اختلال في تكوين الاجسام ، فقد دل الاختبار على ان النظريات حول الوراثة ، تلك النظريات المقتبسة من مراقبة النباتات والحشرات ، فانها لا تنطبق دائماً على الانسان ، كما تصوَّر بعضهم . وهناك اشخاص يعتور تركيب اجسامهم خلل وتشويه ، ولم يكونوا يوماً عالةً على المجتمع ولا سبب انتقاص في ثروة المجموع ، اذا

كانوا أهلاً للقيام بما هو مشر للغير ، بل يمكنهم اداء اجل الخدمات بفضل ما يتصفون به من مزيات أدبية وثقافية .

لقد اضطرب بعضهم بعد اكتشاف العامل Rh الذي دلّ ، في رأيهم ، على ان بين ذوي القربى لا يمكن ان تتفق طبيعة الدم فلا يمكن تحقيق التوازن الضروري لضمان سلامة النسل ، فينشأ من ذلك اخطار جسيمة على هذا النسل نفسه . لكن الاختبار ايضاً دل على ان هذا الاستنتاج غير ثابت في كل الحوادث ، وهناك وسائل لاجتناب الاخطار الناجمة عن هذا التنابذ الحاصل بين ذوي القربى من جراء الدم .

وبالعكس ، عندما يكون احد الزوجين مصاباً بعاهة عقلية ، اذ ذاك في هذه الحالة خصوصاً ، عوّل بعضهم على التعقيم . لكن الكنيسة شجبت شجباً صريحاً هذه الوسيلة ، فلا يجوز لاي طبيب ان يلجأ اليها ، ولا تحت عامل الاكراه ، لا سيما وان التعقيم لا ينفي العاهات العضالة التي قد تظهر بصورة غير منتظرة في اولاد اشخاص لم يكونوا مصابين بها .

وفي هذه الحال ، يجب على الطبيب ان يبين الحقائق لمن يهمهم الامر وما هناك من اخطار ، وتنحصر حينئذ مهمته في الاقناع . وكل من كان حريصاً على تحسين النسل يتذرّع بالارشاد وتنوير الاذهان ، لا بالضغط والاكراه . ولا يجوز رفض الشهادة الطبية المقتضاة لعقد الزواج ، ولا ينبغي ان تؤدي هذه الشهادة الى منع الزواج . فقد دل الاختبار ، في بعض البلدان ، ان النتيجة الوحيدة لمنع الزواج هو شيوع التسري وكثرة الاولاد غير الشرعيين البؤساء من كلتا الناحيتين : الشرعية والصحة .

القضية الثالثة : الفحص الطبي بواسطة المخدرات من الوجهة الطبية والادبية والاجتماعية

عُهد في بحث هذا الموضوع الى الاستاذ بالميري من جامعة نابولي . فالفحص الطبي بواسطة المواد المخدرة narco - analyse هي وسيلة للاطلاع على حالة المريض النفسية فيتذرع الطبيب ببعض العناصر المنوّمة لجعل المريض في حالة

غيبوبة عن الوعي غير كاملة لكنها كافية لازالة حرية التصرف الادبية فيسهل سبر حالته الداخلية عن كثب.

وقد اقترح بعضهم هذه الطريقة لمعالجة مظاهر خاصة للامراض العصبية. ويلجأ الاطباء اليها كلما عُهد اليهم في التحقق من حالة بعض الاشخاص من الوجهة النفسانية، لمعرفة ما اذا كان في اعمالهم مخاتلة او مواربة، او للتحقق من طبيعة ومجرى بعض المظاهر العصبية، او للحصول على تصريحات بحقيقة الامور عندما يُشتبه بصدق المريض.

لقد اخطأ الذين تذرعوا بهذه الطريقة لاهداف بوليسية او قضائية. وكل يعرف ما اذاعته الصحف عن استعمال (البنتوتال) وما يماثله من مستحضرات مما دعي خطأً «مصل الحقيقة»، وذلك في بعض الدعاوي الشهيرة. فكل من بقي لديه شيء من احترام الشخصية الانسانية يشجب شجباً قاسياً هذه الطرائق.

وقد درس مؤتمر رومية المشاكل الناشئة من استعمال هذا الفحص الطبي في مختلف الظروف التي رأى بعضهم انه بامكانه اللجوء اليها. وقد تناول هذا الدرس كلًّا من الناحيتين الفنية والادبية. فكانت النتيجة ان هذا الفحص يجب حصره حصرًا تامًا بين ايدي الاطباء الاختصاصيين، وانه لا يجوز لهؤلاء اللجوء اليه الّا للفحوص الطبية محضًا أو لاجل تنفيذ علاجات صحية بحتة.

واجمع الاطباء الحاضرون على اعلان قاعدة اخلاقية لا محيص من التقيد بها وهي: ان الطبيب المتخصص بامراض النفس والذي يقوم بفحص طبي بواسطة المواد المخدرة، كلما طُلبت افادته كطبيب محلّف امام المحكمة يجب عليه ان يعتبر نفسه مقيدًا بسر المهنة نحو الشخص الذي انتُدب لفحصه على هذه الطريقة، فلا يمكنه، لاية علة، ان يبوح للقضاة بما سمعه او تفهمه في اثناء الفحص.

القضية الرابعة: علاج الاعراض العصبية بواسطة عمليات جراحية في الاعصاب الدماغية (Leucotomie)

ترتبط هذه القضية، من نواح كثيرة، بالقضية السابقة ولذلك جرى البحث عنها في اثناء ذات الجلسة. وطُرح السؤال ما اذا كان يجوز اخلاقيًا

استعمال هذه الطريقة نظراً لنتائجها . وقد وضع الاستاذ جوزف فريك من جامعة نيميغ التقرير بالافرنسية مجاوباً على هذا السؤال.

ان هذه العملية الجراحية (Leucotomie, lobotomie) وهي عبارة عن بتر بعض الالياف العصبية في الدماغ تسفر في بعض الاحيان عن نتائج خطيرة في معالجة الاختلال العقلي او الاوجاع المستعصية ، لكنها في الوقت عينه تبدو غير ملائمة لانها تبدل الشخصية تبدلاً جسيماً.

وقد تساءل بعضهم ما اذا كان التبدل في مواقف بعض المتهمين ، ذينك التبدل المدهش الذي شوهد في اثناء محاكمات سياسية اخيرة ، يعود الى مثل هذه العملية الجراحية . في الواقع ، ليس هناك ، حتى الآن ، ما يحمل على تأكيده ، على ان ذلك يمكن تحقيقه من الناحية الفنية ، لانه معروف عن هذه العملية انه يمكن اجراؤها دون ان يبقى هناك اي اثر لها وبدون ان يشعر الشخص أن العملية أجريت له.

لكنَّ الاستاذ فريك لم يبحث هذه الناحية من القضية ، واكتفى ، بوصفه متخصصاً بالامراض العصبية ، بان عرض مظاهر العملية وما تحققه من اعتبارات خاصة من الناحيتين الطبية والاخلاقية ، وخلص الى القول ان هذه العملية لا يجوز اجراؤها الا في الاصابات الخطرة والتي لا يمكن علاجها بطريقة ما اخرى وعندما يبدي العليل اضطراباً هاماً في تصرفاته.

اما معالجة الألم ، فيرى المقرر ان هذه العملية لا تجوز الّا لخفض الآلام الشديدة التي لا يطاق احتمالها ولا يمكن علاجها بطريقة ما وعندما يمسي النشاط العقلي مستحيلاً بصورة دائمة بحيث لا يُرجى من استعادته.

القضية الخامسة : الزرع الاصطناعي

قد يبدو ، لمن طالع المقالات التي نشرتها الصحف ، ان المؤتمر الروماني حصر ابحاثه بهذه القضية فقط . على انه في الواقع لم يخصص بهذا الموضوع الا جلسة واحدة . وكان للدكتور خيزوس باكالا ، من جامعة مانيلا ، تقرير فاق سواه خطورة ، اذ درس فيه جميع المشاكل الناشئة من الناحية الطبية والحقوقية

والاخلاقية في تطبيق هذه الطريقة المأخوذة عن علم زراعة النباتات وعن الطب البيطري.

وقد اجمع الاطباء الحاضرون كلهم ، بوجه التقريب ، على القول ان الزرع الاصطناعي لا يجوز استعماله على الاطلاق في المرأة . واكثر الذين خطبوا في المؤتمر بهذا الصدد اعلنوا احتجاجهم الصاخب على هذه الطريقة التي ، بكل أسف ، لا يندر استعمالها في بعض البلدان.

وبعد ان بين المقرر ان هذا العمل مخالف لقواعد الآداب ، خلص الى القول ان الاطباء الذين يلجأون اليه يقترفون خطأ فادحاً . على ان الظروف التي ترافق استعمال هذه الطريقة لا تخلو من اختلاف . فقد اجمع الكل على القول بانه لا يجوز على الاطلاق اللجوء الى شخص غريب لاعطاء الزرع ، كما انهم استنكروا ، في نهاية النقاش ، نقل الزرع من الزوج.

وانحصر البحث اخيراً في ما اذا كان ، بعد اجراء الجماع الزوجي المعتاد ، من الضروري تدخل الطبيب للحصول على الغاية المنشودة؟ غير ان احد الاطباء الفرنسيين المتخصصين بالتوليد لفت الانظار الى ان مثل هـذا الظرف نادر الحدوث الى حد انه لا يجدر الاخذ به بعين الاعتبار .

وغداة هذه المناقشة ، صدق الحبر الاعظم مقررات المؤتمر بهذا الصدد ، محدداً القاعدة العملية الواجب التقيد بها من قبل الاطباء الكاثوليك حيث قال:

« في ما يتعلق بجواز الزرع الاصطناعي في الزواج ، يكفينا التذكير بمبادئ الحق الطبيعي : لا يكفي التأكد من تحقيق الغاية المنشودة بهذه الوسيلة لتبرير التذرع بهذه الوسيلة ذاتها ، كما ان رغبة الوالدين ، وهي مشروعة بحد ذاتها ، في ايلاد البنين لا تكفي لاثبات مشروعية اللجوء الى الزرع الاصطناعي الذي من شأنه ان يحقق هذه الرغبة . »

« انه من الخطأ الاعتقاد ان امكان اللجوء الى هذه الوسيلة من شأنه ان يجعل الزواج صحيحاً بين شخصين غير جديرين بعقده بسبب مانع العجز.»

وقد يظن بعضهم ان موقف الاطباء الكاثوليك من هذه القضية يعود الى تأثرهم بمبادئهم الدينية .

كلا ، واليكم باي اقوال أعرب مؤخرًا مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية عن رأيه حول الزرع الاصطناعي :

« ان الزرع الاصطناعي ، الذي يتذرع به البعض لسد عجز الزوج يثير في العائلة ، من الناحية الاخلاقية والحقوقية والاجتماعية مشاكل من شأنها ان توجب بذل النصح بعدم اللجوء اليه . »

« على الجميع ان يحذروا كلَّ من يتوهم ان بامكانه اللجوء الى هذه الوسيلة ويدلّلوا على ما ينشأ من استعمالها من اخطار قريبة وبعيدة ، لا محالة ناشبة عاجلاً ام آجلاً . »

« لا يمكن دوماً ارتقاب هذه الاخطار في الوقت الذي يتّخذ فيه مثل هذا القرار . »

« في غالب الاحيان يداهم قوى التفكير والتقدير شيء من الدهشة بل والذهول من جراء غرابة المعالجة »

وموافقة الزوج من الناحية الاخلاقية مردودة .

« ان مجرد ادخال ولد في جسم العائلة عن طريق الخلسة والتلاعب واطلاق اسم والد شرعي عليه بحيث يخامره الاعتقاد بانه فعلاً ابن لهذا الوالد ، كل هذا من شأنه ان يزعزع أسس الزواج والاسرة والمجتمع . »

القضية السادسة : حقوق الطب الاجتماعي وحدوده بالنسبة الى الشخصية الانسانية

وضع التقرير بهذا الصدد الدكتور غرينه (Grenet) من ... رئيس جمعية القديسين لوقا وقوزما ودميانوس ، وقد جعل فيه حلقة الارتباط بين اعمال المؤتمر الرابع واعمال المؤتمر السابق الذي حشد في ليشبونه في العام ١٩٤٧ اكثرية الاطباء الحاضرين برومية في العام ١٩٤٩

كان موضوع مؤتمر ليشبونه : « الطب الفردي والطب الاجتماعي . » فجرى فيه البحث مطولاً عن فكرة تحويل الطب الى مشروع اجتماعي ، وما زال هذا الموضوع يثير الجدل العنيف في كثير من البلدان . ومعالجته امر من ادق

الامور لان من شأنها ان تشعل نيران المناقشة الحادة بين زملاء يرغبون رغبة صادقة في خدمة مبدإ واحد حسبما تقضي بذلك الذمة والوجدان .

وفي المقررات المتخذة في ليشبونه كان الاطباء الكاثوليك قد شددوا في اعلان ضرورة تشييد التنظيم الاجتماعي للطب على اساس الاحترام للحقوق الرئيسية المختصة بالشخصية الانسانية . ومن ثم كان قد تقرر بان يدور موضوع الدرس في رومية حول القضية التالية: «الشخصية الانسانية وعلاقتها بالطب . »

بدأ الدكتور غرنيه بنقد التنظيم الحالي للضمان الاجتماعي في فرنسة ، منددًا خصوصاً بالدولة لانها فرضت على العامل نظامَ الضمان من المرض ، جاعلة هذا النظام تحت سيطرتها المباشرة . ويرى الدكتور غرنيه ، الناطق بلسان كثيرين من الاطباء الفرنسيين والبلجيكيين ان هـذا النظام لا يحترم بعض الحقوق المختصة بالانسان الحر . فان لكل شخص الحق بان يستحصل على ضمان لدى المنظمة التي يراها أوفق لنفسه وان يقصد الطبيب الذي يقع عليه اختياره. والحال ان التشريع الفرنسي يحترم هـذا الحق في ما يتعلق بالاطباء الذين يعالجون المرضى في حالة المرض ، لكنه في ما يتعلق بطب الوقاية فانه يفرض طبيباً خاصاً تعينه الادارة ذات الصلاحية لتلاميذ المدارس وعمال المصانع واعضاء بعض الجماعات . والاطباء يحتجون على هذه التدابير الاخيرة .

ولما كان الدكتور غرنيه احد اطباء مستشفيات باريس سابقاً فقد تيسر له ان يتحقق في دائرة عمله ان مسلك الذين يتولون ادارة المستشفيات ومعاملتهم للمرضى لا يخلو دوماً من الشوائب . وهذا ما عرفه ايضاً عن مستشفيات اخرى كثيرة ، اذ يتناسى البعض غالباً ان المرضى ، في المستشفى وخارجاً ، يحق لهم الاحترام من قبل الجميع .

ثم درس المقرر التنظيم الحالي للوقاية من السل والامراض الزهرية في فرنسة ، فانكر على الادارة الحكومية الحق بفصل المريض عن اسرته قهرًا ، مسلماً بالوقت عينه بان على الطبيب ، عندما يخشى سريان العدوى ، ان يرشد ، ولو ببعض الحزم المريض لكي يرضى بالعزلة أو بدخول احد المستشفيات .

اما التنظيم الحالي للبغاء فلا يصادف قبولًا تاماً لدى جميع الاطباء ، لكنه

يتضمن تحسينات كثيرة بالنسبة الى التنظيم السابق .

وينتهي تقرير الدكتور غرنيه بنظرة اجمالية الى اعمال المؤتمر ، مبينا رأي البعثتين الفرنسية والبلجكية في القضايا التي جرى بحثها .

ففي ما يتعلق بتحسين النسل ، فقد صرح المقرر بان مخالفة القانون قد غدت في ايامنا واجباً لا مفر منه للطبيب ، كما هي الحال في بلدان يفرض فيها التعقيم فرضا على بعض الاشخاص أو عندما يكون للشهادة الطبية المعطاة قبل الزواج صفة فعالية من شأنها ان تمنع الزواج .

ان هذه الاقوال تعني الدعوة الى التمرد على القانون . وهي تفيد بأي جرأة اتخذت بعض المقررات في مؤتمر رومية . على ان الجلسات كانت هادئة وقد اجمع الاطباء الحاضرون على اتخاذ القرارات المعروضة من المقررين ، وهذه دلالة بالغة على تعلقهم بمبادئ اخلاقية واحدة وعلى رغبتهم في تحقيق انتصار المبدأ الاخلاقي الاساسي القائل بوجوب احترام الشخصية الانسانية .

نختم هذه العجالة عن اعمال المؤتمر بلمحة عن الجلسة الخاصة التي نظمها رجال « الحركة الدولية للثقافة الكثوليكية » ، المعروفة باسم « السلام الروماني » ، وانحصر البحث فيها عن بعض القضايا المتعلقة بالمبادئ الاخلاقية في ممارسة المهنة الطبية . وقد عرضت ثلاثة تقارير بهذا المعنى :

التقرير الاول قدمه الاستاذ بورتس ، رئيس المجلس الوطني لنقابة الاطباء ، عن « نظام المبادئ الاخلاقية في ممارسة المهنة الطبية ، وعن فعالية هذا النظام وحدوده . »

التقرير الثاني قدمه الدكتور اومبراين ، رئيس جمعية اصدقاء ديلانك عن « اهداف مركز الدراسات والعلم الاخلاقي في ممارسة المهنة الطبية . »

التقرير الثالث قدمه الاب لارير من الرهبانية اليسوعية ، مرشد ومدير جمعية ديلانك عن الموضوع التالي : كيف يجب تدريس وتعريف القضايا الناشئة عن المبادئ الاخلاقية في ممارسة المهنة الطبية .

وقد عالجت هذه التقارير قضايا هامة من الناحيتين الطبية والاجتماعية ، ولكن لا يمكن تفصيلها هنا . غير انه يجدر التنويه هنا بان مركز الدراسات

والعلم الاخلاقي في ممارسة المهنة الطبية يذيع ابحاثه ونتائج دراساته في مجلة لانك الخاصة . وستنقل هذه الابحاث قريباً الى لغات كثيرة بحيث يسهّل اذاعة هذه النشرات لا لدى الاطباء الكاثوليك فحسب ، بل ايضاً لدى سواهم ولدى الاوساط غير الطبية ، لانها تفيد جانباً خطيراً من سائر العلوم . وفي الواقع ، ان منظمة « السلام الروماني » تعنى بشرح تلك العلوم وبسط غوامضها .

وبلغ تنظيم المؤتمر حدَّ الكمال بفضل عناية اللجنة التي اخذت على عاتقها هذه المهمة . ورحب بنا زملاؤنا الطليان اجمل ترحيب والطفه .

عقدت الجلسات في احدى القاعات الكبرى من قصر البندقية . وفي القاعة الملكية الواقعة في ذات الطبقة أُعِدَّ المعرض للوثائق التاريخية والمعالم الفنية مدللة على العلاقة بين المسيحية والطب . فكان هناك رسوم وصور فنية ، ونماذج مصغرة وتماثيل مختلفة : فكنت ترى يسوع وهو يشفي المرضى ، والاطباء القديسين والابرار صانعي العجائب الذين نكرمهم كشفعاء لنا في مهنتنا الطبية ، والرهبان مضيفي المرضى والبؤساء ومضمدي جراحهم ، والرهبان الممرضين للصليبيين ولغير المسيحيين ، وسائر الرهبان والراهبات الذين يعنون بالمرضى والبرص ، وبكلمة واحدة كنت ترى امامك التاريخ المصور لاعمال الرحمة المسيحية طوال عشرين قرناً .

وبعد الجلسات ، كانت تنظم كل يوم حفلات استقبال رائعة . ففي الجامعة الغريغورية البابوية قدمت جوقة السيكستين حفلة موسيقية بادارة المونسنيور بيروزي ؛ وفي قصر فرسان مالطة اقام صاحب السمو الامير كيجي ألباني استقبالاً تكريماً للمؤتمر ؛ كذلك وفي مستشفى الروح القدس القديم العهد ؛ وفي مستوصف الصحة والابحاث المكروبية ، وهو قصر منيف يعمل فيه جمهور من العلماء مستخدمين احدث الادوات الفنية ؛ واخيراً في قصر الفاتيكان حيث زار المؤتمرون حدائق الفاتيكان بقيادة الطبيب الخاص لصاحب القداسة البابا بيوس الثاني عشر .

لما وجه الاستاذ لويس جداً الدعوة الى الاطباء الكاثوليك للاشتراك في

المؤتمر الرابع الدولي ، كان قد اعلن لهم انه بامكانهم اعتبار نفوسهم كطليعة لجيش الزوّار الذين ، في العام ١٩٥٠ ، سيتألبون من كل انحاء العالم الى عاصمة الكثلكة . وكان الحبر الاعظم قد وعد باستقبال المؤتمرين ، وكانت الرغبة في مشاهدة قداسته والاستماع اليه حافزاً للكثيرين للاجابة على الدعوة ومن ثم كان المؤتمر مناسبةً لهم للقيام بزيارة رومية .

وبعد الظهر من يوم المؤتمر الاخير ، استقبلنا الحبر الاعظم في قصره بكاستل غندولفو . وان ذكرى هذه المقابلة ستكون مسك الختام . لن احاول اختصار خطاب قداسته هنا ، فقد نشرت نصه مجلة « لانك » في جزئها الاخير . لكن أجيز لنفسي بان اعرض لكم الصورة الاخيرة التي ما زالت مرتسمة في مخيلتي فلن تزول منها مدى الدهر : صورة الاب الاقدس في وقفتين رمزيتين : الاولى وهو واقف يضم يديه رافعاً انظاره الى السماء ، والثانية لما فتح ذراعيه بصورة صليب لمنحنا البركة .

وبينما كنا جاثين خافضين الاجفان تحت وطأة هذه البركة ، كنا نسمع هذه الكلمات الاخيرة .

« بكل ما في فؤادنا من عطف ابوي نمنحكم ، انتم وجميع من تمثلون هنا ، وعائلاتكم وجميع أعزائكم ، بركتنا الرسولية . »

وان هذه البركة لا بدّ انها بلغت ، في ذلك المساء ، جامعة القديس يوسف التي كانت ممثلة ، بين جمهور الاطباء الخاشعين ، بشخص أحد اساتذتها .

وثائق تاريخية عن حلب

بقلم الاب فرديناند توتل اليسوعي

(تابع)

قضية المطران انكيغوس

في شهر اذار ١٨٥٨ صار خصام بين المطران انكيغوس الارمني وبين طائفته فاخرج بطريرك سيس امرًا من الباب العالي على يد بطريرك اسلامبول بنفي المطران انكيغوس فاضطر المطران المذكور للتخلص منهم ان يلتجي الى قنصل فرنسة وبقي بعض ايامٍ في بيت احد الكاثوليك في المدينة وبعده اظهر على ذاته انه يريد اعتناق الايمان الكاثوليكي واتى الى كنيسة اللاتين بحضور قنصل فرنسة ووعظ باللغة التركية مبينًا انه عرف البابا وسلم تدبيره للقنصل واعطى ورقةً فيها اعلن خضوعه الحكم المدني وسلمها يد القنصل وبقي مدة في دير الفرنسيسكانيين وفي الابتداء تظاهر كانه يريد ان يصير لاتينيًا وفي كل نهار احد وعيد كنا نرسل من عندنا كاهنًا ليقدس في كنيسة اللاتين حسب طلب البادرية والمطران ذاته لكي يحضر قداسًا ارمنيًا هو والشعب الذي تبعه وكان في البدء نحو مئتي نفس ولما كنا نجتهد ان نجذبه الى طائفتنا كان تارةً يقول انا لاتيني وتارة يظهر استعداده ورغبته الى المجيء على شرط ان يتقدم له الاكرام الزائد مع رتبة وتسلط ·

ولم يرد في البدء ان يقرأ صورة الايمان وينال الحلة من الارتقة وكان يقول يكفني ايضاحي الايمان الكاثوليكي في الوعظ ودعيناه مرارًا الى كنيستنا ودخلها مرتين قبل ان ينال الحلة من الارتقة وحضر القداس في الاحد في الصوم وحضر القداس الكبير والقى الوعظ مبينًا ومثبتًا بعض الحقائق الكاثوليكية امام تابعيه ومن بعد التحريضات والنصائح ارتضى اخيرًا ان يقرأ صورة ايمانه وينال الحلة من الارتقة ·

فالبادرية كانوا يريدون ان يحلوه هم من الارتقة وطايفتنا كانت تالمهم لكي يقبل الحل من مطراننا ولكن اجتهاداتنا ذهبت عبثًا وفي يوم عيد

البشارة الواقع في ٢٥ اذار قرأ علناً صورة ايمانه في كنيسة اللاتين وهذه الصورة نحن قدمناها له بالارمني وبعد قراءتها حله من الارتقة البادري جزو الدسحب ارادة القاصد الرسولي كقولهم ومن بعد قراءة صورة ايمانه اتباعاً ايضاً لرغبة الطائفة وسعيهم دعوناه الينا كثيراً. فاتى يوم سبت لعازر مساء ووقف في صلاة الفرض فابتدأها وفي ثاني يوم احد الشعانين تحمل هو الطقس المسمى فتح الابواب واستعمل الجبرويات باذن مطراننا وكذلك يوم خميس الاسرار هو غسل اقدام الاولاد ولبس ثياب الطقس في كرسي المطران الكبير وفي حضوره قُدّم له كل اكرام واعتبار وملاقاة وكانت الغاية ثباته في طقسنا وجذب تابعيه واكتساب غيرهم واخذ يعترف اعترافاً عاماً وكان معلم اعترافه يلاحظه على الاتقان والمثابرة وصار في كل يوم يقدم له طعام من بيت احد متقدمي الطائفة وكانوا يدعونه وينفقون كثيراً من المال اما الآن فقل تابعوه وراجع باقيهم الى الارتقة او بالاحرى لم يعودوا يظهروا انهم من حزبه على ان القليلين الذين تبعوه لا يزالون ثابتين في ايمانهم ولنا الامل بالخير من ذلك في المستقبل هذا وان ايلجي فرنسة في اسلامبول حامى عن المطران المذكور ووقف فرمان نفيه واخرج امراً في مجيئه الى الاستانة بكل كرامة المرافقة مع اعضائه وهكذا انذره بواسطة القنصل ثم بواسطة السيد انطونيوس حسون رئيس اساقفة القسطنطينية الذي ارسل له تحريراً فيه يحرضه على المجيء الى الاستانة ويشجعه الّا يخاف وهكذا السيد حسون ايضاً حرر الى مطراننا في هذا الشان لكي يحرض المطران انكيفوس على السفر واما السيد انكيفوس فحاول الذهاب ثم ان الارمن الاراطقة ارسلوا سألوه رسماً عما يريد ويطلب منهم وقالوا ان بطريرك اسلامبول يريد يعرف منك ما هي مطاليبك وما هي مقاصدك واما هو فأجابهم بجدة متشكياً بتمرمر مما فعلوه معه وقال انني لا اعرف بطريرك اسلامبول ولكن بطريركي هو السيد غريغوريوس بطريرك قيليقية واظهر لهم المنشور الذي اتاه من غبطته المتضمن فرحه لان السيد انكيفوس اعتنق الايمان الكاثوليكي ثم يشجعه على الثبات فيه وان يثبت تابعيه معتنقين معاً طقسنا الارمني ثم ان غبطته ارسل ايضاً منشوراً اخر باسم الكهنة والعوام شاكراً

افضالهم ومساعيهم في ارتداد الاراطقة وبحرضهم على ثباتهم في هذا السعي لمجد الله وخلاص النفوس وشرف الكرسي البطريركي كرسيهم وفي يوم عيد الفصح قدس المطران انكيفوس قداسه الاول من بعد اقتباله الحلة من الارتقة في كنيسة اللاتين وفي ٢٣ نيسان ١٨٥٨ بنفاق وجهل كاي رجع الى ارتقته وسلم ذاته ليد الاراتقة اخصامه واعطاهم صكاً فيه يعلن انه باختياره ارتد الى حضن كنيسته واتضح حينئذ تلاعبه وغشوشه في الايمان وكيف انه بعد اقراره بحقائق الايمان الكاثوليكي في الوعظ وتكلمه ضد الاراتقة وتحقيرهم امام السامعين وبعد تلاوة صورة ايمان البابا اوربانوس واخذه الحلة ممن هو مصرف قانونياً واقسامه على الاناجيل المقدسة بحفظ هذا الايمان وثباته فيه الى النفس الاخير من حياته وخضوعه للبابا الروماني خليفة بطرس وغب ان اعترافاً عاماً وبعد ان صار له كل اكرام مع مصاريف وافرة رجع ناكثاً بمواعيده واقسامه الرهيبة واضحى امام الجميع عديم الديانة والرشد والانسانية حقيراً ودنياً في اعين الكل فاقد الصيت والسمعة ورجع معه القليلين الذين كانوا تابعينه بغش.[١]

١٨٦٢

• نيسان : تعارض بعض الرعاع لتلامذة تراسنتا ولتلميذات الراهبات على طريق المدرسة فألجيء الرؤساء الى مراجعة القنصل شاتري وهذا الى مراجعة الوالي لمنع مثل ذلك التعدي.

١٨٦٤

١٠ آب : وضع الحجر الاساسي الاول في بناية كنيسة الشيباني وقد تبرع ابناء الطائفة اللاتينية بعشرة الاف قرش للعمار والسلطان عبد العزيز بخمسة وعشرين الف (من التعويضات ؟) وفرنسة بعشرة الأف قرش.[٢]

---

١) جاءت اخبار انكيفوس الارمني في سجل الاباء الفرنسيسكان في حلب قيل فيها ان انكيفوس اتهم سنة ١٨٤٨ بسرقة اشياء ثمينة من بطريركية سيس فدعي الى اسطنبول ليدافع عن نفسه ودخل في حماية السفارة الافرنسية متظاهراً بالكثلكة ثم رحل الى حلب واقام فيها ٥٦ يوماً عند الاباء الفرنسيسكان واعتنق الايمان الكاثوليكي رسمياً بحفلة حافلة في كنيستهم سنة ١٨٥٨.

٢) وكان للاباء الفرنسيسكان مدرسة منذ ثلاثين سنة تُعلم فيها العربية والايطالية. عن دفتر وقائع الفرنسيسكان المخطوط).

صار يجلب برد هائل ليلاً في فصل الخريف الواحدة مقدار بيضة دجاجة وقتل كل الطيور الذين كانوا على الاشجار وكسر اكثر زجاج الشبابيك وقتل بعض الحيوانات .

١٨٦٥

صار هواء اصفر مات فيه الوف من الناس[١] .

١٨٦٧

في ٩ ايار : سافر مطراننا السيد غريغوريوس بليط وبمعيته الورتبيت بولس بليط دخلا القسطنطينية وحضرا الجمع الطائفي عند غبطة بطريركنا السيد انطونيوس حسون ثم ذهبا الى رومة لحضور المجمع الفاتيكاني المسكوني[٢] .

١٨٧٢

من هذه السنة فما بعد كتابنا تعليماتنا أخذاً عن جريدة البشير وسوف نشير اليها بحرف ب يتلوه رقم عدد الجريدة

١) جاء في نهر الذهب لكامل الغزي ٣ ، ص ٢٩٢ « في سنة ١٢٨٢ (١٨٦٥م) في المحرم عاد الحجاج من الحجاز واخبروا انه مات هناك بالهواء الاصفر نحو مئة الف نسمة وكان ابتداؤه في تلك البلاد يوم عيد الاضحى ثم في هذه السنة وصل هذا المرض الى حلب وكان معظم سطوته في ربيع الاول وبلغت وفياته اليومية ثلاثمائة نسمة . . . وكان الناس يدورون في الازقة ليلاً ويستغيثون بالله ويخرج بعض القراء الى المآذن ويقرؤون سورة الدخان » - واستبسل الاباء الفرنسيسكان في خدمة المطعونين وجاءهم من نابوليون الثالث صك ذهبي شهادةً في ذلك وحفظ دفتر الدير ذكرى الطاعون وعلل اسبابه منها عدد... مع الضحايا التي ذبحت في الحج فانتنت وافسدت الهواء فصارت عشاً لجراثيم الوباء الذي فتك بالحجاج ومنهم الاعاجم وكانوا يحملون موتاهم معهم في جلود او في صناديق وهم يعودون الى بلادهم .

وحدثت اصابة الطاعون الاولى في ١٥ آب في حلب وما مضى الشهر على ذلك الا كانوا يعدون الموتى يومياً ٢٠٠ او ٢٥٠ واغلقت الاسواق وهرب القناصل من المدينة . وزال الوباء تماماً في ٢٥ تشرين الاول بعد ان قتل عشرين الفاً من السكان . وفي غضونها كان ستون عاملاً يشتغلون في بناية الدير فلم يُطعن منهم احد .

٢) المجمع الفاتيكاني المسكوني عقد بين ١٨٦٩ و١٨٧٠ وفيه اعلنت عقيدة العصمة البابوية .

وفي هذه السنة الموافقة لسنة ١٢٨٤ هجرية روى راغب الطباخ في كتاب اعلام النبلاء ٣ ، ص ٤٥٨ انه في ٢٣ محرم صدرت في حلب جريدة الفرات الرسمية بالعربية والتركية وذكر (ص ٤٦١) حريق سوق الصياغ والعقادين والبادستان .

٣ نيسان : الساعة ١ بعد نصف الليل حدثت زلزلة شديدة اضرّت بنحو ١٢ شخصاً وخرج اكثر الاهالي وخيّموا خارج المدينة (ب ٨٦).

١٨٧٥

٢٧ تموز الى ١٠ آب توفي بالهواء الاصفر ١٢٥ شخصاً
١٩ آب الى ٢٣ آب « « « ١٧١ «
٢٦ آب الى ٣١ آب توفي بالهواء الاصفر ٧٣ شخصاً
٢ ايلول الى ٧ ايلول « « « ٩٩ «
٩ ايلول الى ١٤ ايلول « « « ٣٦ «
(ب ٢٥٩)

١٨٧٧

٣ حزيران : القى الخوري انطون قندلفت في كنيسة السريان الكاتدرائية خطاباً في مناسبة بلوغ بيوس التاسع السنة الخمسين من ارتقائه الدرجة الاسقفية ونشرت جريدة البشير ذلك الخطاب (ب ٣٥٤)

٢٨ ك١ : ان اهالي حلب بانتظار قدوم بعض تجار آتين من جزائر سيام لشراء ٧٠ الف كيلة اسلامبولية من حنطة حلب و٣٠ الف كيلة من حنطة قبرس و٥٠ الف كيلة من حنطة الاستانة فاصدر الباب العالي امراً باجراء التسهيلات اللازمة لخروج تلك الاغلال من ثغر اسكندرونة ومن الرسومات المألوفة (ب ٣٨١)

١٨٧٨

٣٠ ايار : حضر الى الشهباء السيد لوديفيكوس رئيس اساقفة سيونيا والنائب الرسولي على حلب فجرى له استقبال حافل . قد قطع الكثيرون مسافة ثمان ساعات مشياً من حلب وخفّوا للقائه . وعزفت عند قدومه موسيقى تيراصانطة ومشت بحراسته العساكر العثمانية الشاهانية بعدد وافر .

٢٠ حزيران : السيد المطران بولس حاتم اقام بمساعدة الخوري باسيليوس شعراوي رياضة لأخوية القربان خاصة وللشعب عامة ويرغاكي نصرالله توتونجي أحد موظفي الاخوية القى خطاباً الفه الدياكونوس قسطنطين الخضري اثنى فيه على غيرة سيادته (ب ٤١٠).

٢٨ حزيران : روت البشير (عدد ٤٠٦) عن الجريدة العسكرية : ان عدد سكان ولاية حلب في سنة ١٢٩٥ هـ الجارية ٥٣٩،٣١١

١١ ايلول : عاد الى حلب البطريرك جرجس شلحت السرياني وقد خرج الناس للقائه منهم الى عفرين ومنهم الى توقات ومنهم الى السبيل حيث نزل البطريرك من التختروان وركب الجواد الذي ارسله له الوالي وسار وبرفقته العساكر الشاهانية ونزل عن جواده عند بوابة الياسمين ومضى الى الكنيسة حيث اقيمت حفلة عظيمة بمناسبة قدومه (عن جرجي حنا مظلوم) (ت ١٧، ٤)

١٨٧٩

٥ شباط : صار سحب الياناصيب على اشغال بنات راهبات قلب يسوع (القلبين الاقدسين) (راجع آثار الطائفة المارونية الخطية اضبارة يوسف مطر رقم ٤٥) واعجب الحاضرون بما راوه من نتائج صناعة التطريز والتخريم وما اشبهها على يد الراهبات اللواتي فتحن مدرستهن منذ السنتين تحت اشراف الاباء اليسوعيين ويا ليت الاباء يفتحون مدرسة للصبيان تحت اشرافهم لكون احداث شهبائنا في غاية الاحتياج الى التعلم .

وصل حلب القبطان كوميرون الانكليزي لفحص الطريق الحديدية التي ستمر في وادي الفرات وسوف يسافر الى ديار بكر وبغداد .

« وما زلنا نعلل الاماني والامال ونشتاق الى هذه الطريق الحديدية اشتياق الظمآن الى الماء الزلال لان بها نؤمل ان نعوض اضعاف ما خسرناه بفتح خليج السويس الذي قد اضر بتجارة حلب عظيم الضرر » .[1]

---

١) وقد تصدى القنصل البريطاني الى تلك الاقوال معالجاً امر التجارة في حلب وارجاع حركتها اليها فكتب ما يلي تعريبه :

« ١ كانون الاول ١٨٧٩ : ان في هذه المقاطعة القنصلية لا يوجد ، على ما ارى ، من واسطة سهلة للمواصلات التجارية بين اوروبة وفارس او آسية الوسطى الّا بالملاحة على نهر الفرات . وقد بيّن ذلك جلياً الجنرال تشني منذ خمس واربعين سنة ومدحت باشا منذ عشر سنوات لما كان والياً في بغداد . وبالرغم عما اتجته اختبارات هذين الرجلين من النتائج المشجعة لم يقم احد بعمل مساعد على تحقيق هذا الترقي الجزيل الافادة لتمهيد طرق التجارة بين الشرق والغرب . »

عاد من الاستانة السيد قورلس بهنان بني رئيس اساقفة الموصل وتوابعها وكان قد سافر لحسم النزاع القائم بينه وبين اليعقوبيين على كنائس الموصل فنجح بمسعاه. ودعي الى العشاء في بيت يوسف حمصي (ب ٤٤٢).

٧ ايار: رقى البطريرك جرجس شلحت الاب يوسف داود الى الدرجة الاسقفية ليكون في الشام خلفاً للمطران غريغوريوس يعقوب حلياني السعيد الذكر. وسيسافر المطران يوسف عن طريق الاسكندرونة حيث يركب البريد الافرنسي الى بيروت (ب ٤٥١).

٩ ايار: وافى مدينتنا غالب باشا الوالي الجديد وبمعيته مظهر باشا ونوريان افندي الارمني ومأمور انكليزي (ب ٤٥٢).

وروى راغب الطباخ في اعلام النبلاء ٣: ٤٦٤ ان في هذه السنة قدم والياً الى حلب جميل نامق باشا وباسمه لقب الحي «الجميلية» الواقع غربي حلب الجنوب.

١٨٨١

٣ حزيران: قدم حلب السيد لوديفيكوس بياڤي القاصد الرسولي فلاقاه الاهالي عن بعد نصف مرحلة من حلب وارسل اليه البطريرك جرجس شلحت بدكاً موشى لمركوبه (ب ٥٦٣).

١٨٨٢

١٢ شباط: توفي بحلب الخوري يوسف كلداني الماروني عن سبعين عاماً بعد مرض ثلاثة ايام كان على غاية من التواضع والزهد والمحبة المسيحية يثني عليه الكبير والصغير من مسيحي ومسلم لرأفته بالضعيف ورقته على المسكين وجبره للكسير ومعاونته المريض لم يزل الى آخر رمق يطوف بالمدينة صباح مساء باذلاً كل ما له حتى ثيابه في سبيل الفقراء. كان اذا ما بلغه ان عليلاً اشرف على الموت عجّل قدومه الى منزله ولازمه ليعده الى ملاقاة ربه ونستغني عن وصف فضائل هذا الكاهن برواية ١٠ قال فيه بعض علماء المسلمين محمد امين الموصلي:

« فرد همام كان ما بين الورى مأوى الفقير وللبتامى مسعف
مذ صار في الدنيا مطيعاً ربه وعلى العبادة في الليالي يعكف
يخشى القيامة راجياً ملكوته يتلو اناجيل المسيح ، معرف... »

١٤ ايار : توفي المطران يوسف مطر الماروني في حلب (ب ٦١٠).

٨ حزيران : خرج المهندسون وباشروا عمل طريق « شوسه » بين حلب واسكندرونه واملنا وطيد الا يحول فتور بالمصلحة فان نجاح الولاية وبما يليها توقف على انجاز هذه الطريق ولا ضرورة لتوضيح اوضح (ب ٦١٦).

١٥ ت ١ : قدم من ماردين البطريرك جرجس شلحت فهنأه القس مخائيل دلال (ب ٦٣٣).

٢١ ك ١ : هبط في القشلاق الهمايوني سقف الجهة العليا فهبط من جراء ذلك سقف الجهة السفلى وقتل سبعة من الضباط والانفار وثمانية رؤوس خيل (ب ٦٤١).

١٨٨٣

٢٤ ايار : روت البشير عن جريدة الفرات : « وجد الآن ثلاث قطع مدافع حديد منتظمات في قلعة حلب وهذه المدافع شبه مدافع (الكروب) تملأ من اسفلها ومكتوب عليها انها عمل مصطفى الحلبي في زمان السلطان قايتباي من الملوك الجراكسة [٨٧٣ - ٩٠٢ و١٤٦٨ — ١٤٩٥] وهذه المدافع ليست بسكب بل عمل يد كونها على طرز منتظم ».

المجلد الرابع

١٨٨٤

٢ ك٢ : قرئ الفرمان الشاهاني المعرب عن انعام بالمشيرية السامية الى جميل باشا الوالي وذلك بحضور الرؤساء الروحيين واعيان حلب.

١٥ ايار : روت البشير عن جريدة « الفرات » نتيجة احصاء سكان مدينة حلب فكان ٩٩,١٨٩ و١٢,٤٩٧ عائلة (ب ٧١٤)

١١ حزيران : حدثت زلزلة خفيفة في حلب (ب ٧١٨).

٣ ايلول : سافر المطران غريغوريوس بليط الى عينتاب لافتقاد الرعية في ٧ منه اقام فيها قداساً حضره المسيحيون على اختلاف الطوائف ثم رد الزيارات للناس يرافقه قواس قنصل فرنسة وبعض من الاباء الفرنسيسكان وسوف يزور رعية كلس .

٢ تشرين الثاني : سافر القس بدروس قويوميان الذي كان قد جاء من مرعش لجمع الاحسانات من الطائفة تعويضاً عن الضرر الذي سببه الحريق في تلك البلدة [١].

٣٠ تشرين الثاني : امس السبت جاء حلب المطران يوسف فرحيان اسقف ديار بكر قادماً من الاستانة بعد رسامته وذاهباً الى ابرشيته وزاره الكهنة والطائفة عموماً واقام عندنا الى ٥ كانون الاول .

٩ كانون الاول : توفي القس يوسف كلزي في عنتاب نعي الينا بالتلغراف.

- ١٨٨٥ -

ارسلنا الى الاب يوسف برنية [٢] اليسوعي تحريرًا فيه التعليمات المطلوبة منه عن جميع الاخويات المؤسسة في المشرق (راجع البشير عدد ٧٤٣) واليك ما كتبناه عن اخوياتنا في حلب .

ان في طائفتنا الحلبية يوجد ست اخويات مشتركة مع اخوية روما الاولى

---

١) كتب كامل الغزي في نهر الذهب ٣ ص ٤٠٦ : في ليلة الجمعة ٣ شوال ١٣٠١ (١٨٨٣) شبت النار من احد افران مرعش فالتهمت الفاً ومئتي دكان واربعين داراً وخمسة جوامع وحماماً وخانين والرباط العسكري ودائرة البلدية وقدرت قيمة الخسارات بمئة وخمسين الف ذهب عثماني وجمعت في حلب الاموال لاعانة المنكوبين من اهل مرعش بهذا الحريق.

٢) يوسف برنيه Barnier ولد في ٢ ك ٢ ١٨٤٧ دخل الرهبانية اليسوعية في ١٠ ايلول ١٨٦٥ مات في رسيليا في ١٠ ت ٢ ١٩٠٠ كان من المرسلين المتازين بالغيرة والتقوى اسس الرسالة في حمص وفي اعمالها وخاصة في وادي النصارى . ولما ارسل تحريره المنوه عنه في دفتر الاخوية كان مرشد اخوية العذراء القديمة للرجال في بيروت .

الاولى واولها واقدمها هي اخوية الحبل بالعذراء البريء من الدنس فهذه قديمة في طائفتنا ولعلها الاخوية التي كان يديرها الاب ايمي شازو[1].

وفي تاريخ هذه الاخوية المحفوظ عندنا يذكر عهد نقلها الى دير الاباء اليسوعيين فيقال ان الخيرات التي منحتها سيدتنا مريم العذراء الى اخوية طائفتنا الارمن هي كثيرة وعديدة في الزمن الذي كنا فيه متمسكين بها ولاجل تراخينا عنها فقدنا اولا كنائسنا فاخذها المراطقة ثم فقدنا كهنتنا ومطارنتنا حتى بطريركنا وكل صاحب مشورة في طائفتنا . وحرك الله قلوب بعض الاخوة فجددوا هذه الاخوية ونقلوها الى دير الاباء اليسوعيين في حلب في ١٧٥٢ في رئاسة الاب فرنسيس فردينان كوسيت اليسوعي وهذا اقام لهم مرشداً الاب جبرائيل اليسوعي .

كثيرون من الاخوة هجروا العالم ودخلوا دير المخلص وهو دير الكريم الكائن في قرية غوسطا في كسروان وقدشاده المطران ابراهيم ازرنيفيان اسقف حلب الذي رقى ذرى البطريركية وتثبت من البابا بناديكتوس الرابع عشر السعيد الذكر باسم بطرس الاول وبعضهم ذهب الى رهبانيات متنوعة .

وفي سنة ١٧٥٥ اشتركت هذه الاخوية مع اخوية رومة الاولى الاولية فزاد ازدهارها الى ان شبان الروم الملكيين في بيروت ارسلوا تحريراً بمصادقة اسقفهم يطلبون رسومها وترتيبها لكي ينشئوا في مدينتهم اخوية على مثالها سنة ١٧٦٨ . ثم في ١٨٠٣ قصد الى حلب بعض شبان ماردين موفدين من كهنتهم فتعلموا طرق هذه الاخوية لينشئوها في بلدتهم وكذلك اهالي بركنيك في ١٨١٦ بواسطة القس كاروبيم كوبلي النائب البطريركي وقتئذ .

ولم تزل هذه الاخوية تجتمع في دير الاباء اليسوعيين وتحت ارشادهم حتى وبعد الغاء الرهبانية لان الاخوة نالوا من البابا بيوس السادس في ١٧٧٦ بقاء اخويتهم مع غفراناتهم في معبد القنصل كونه خالياً من الاخطار المسببة من

1) الاب ايمه شازو Aimé Chézaud ولد في ليون ١٦٠٤ دخل الرهبانية اليسوعية ١٦٢٧ جاء حلب في ٧ تموز ١٦٣٧ واقام فيها ١٥ سنة مات في جولفا قرب اصفهان في بلاد العجم في ١٤ ايلول ١٦٦٤ .

الامم ولم يزل الاباء اليسوعيون باذن خصوصي من رومة وبرضا الرؤساء المكانيين يدبّرون هذه الاخوية الى العام ١٧٨٨ الذي سافر فيه الاب بخائيل اليسوعي الاخير فخلفه مرشداً لهذه الاخوية الاب فرنسيس اللعازري من جمعية الرسالات واستمرت هذه الاخوية في دير اللعازرية الى العام ١٨٤٩ اذ نقلت الى الدار الاسقفية ومنها الى محل آخر الى يومنا هذا .

١٨٨٥

٣ شباط : توفي السيد بولس حاتم[١] وفي اليوم التالي احتفل بدفنه في الكنيسة بحضور البطريرك السرياني والسيد غريغوريوس اسقفنا وكهنة الطوائف والقناصل واولاد المدارس والموسيقى فأبنه الخوري انطون قندلفت والورتبيد بولس بليط والقس نقلاوس كيلون والقس توما الكلداني .

٢٥ اذار : اجتمع الكهنة ورؤساء الشعب من طائفة الروم تحت رئاسة السيد غريغوريوس بليط الارمني لاجل انتخاب خلف المثلث الرحمات السيد بولس فنال الاب بطرس جحا احد عشر صوتاً اي اصوات الكهنة الامر الذي لم يسبق له مثيل ففرح الشعب وقرعت الاجراس .

٢٤ نيسان : سافر الاب بطرس جحا المنتخب اسقفاً لطائفة الروم .

٢٢ حزيران : حضر الينا السيد كيرلس جحا مطران الروم وصار احتفال عظيم بدخوله الكنيسة ويوم تاريخه ايضاً ورد تلغراف من غبطة البطريرك بولس الماروني بانتخاب القس بولس حكيم اسقفاً لموارنة حلب فاوعب السرور قلوب الجميع لحسم هذه المادة .

٤ تموز : سافر القس بولس حكيم الى بيروت فبكركي . انتقلنا من الارميدة[٢] الى دار بيت زيدان لان الارميدة انكرت الى دائرة الكرك ولما كان اولاد المدرسة قد اخذوا الحاونات فاعطانا سيادته لقاءها عشرة حاونات من الكنيسة وامر بان ينجر لنا ايضاً اثني عشر حاوناً .

١) كانت سيامته اسقفاً سنة ١٨٦٣ وفي ايام كهنوته كان من مقاومي اخوية العابدات (راجع سابقاً سنة ١٨٣٠) .

٢) غرفة مسقفة « بالقرميد » واقعة عند مدخل شارع التال بجنوب قريباً من قبر السهروردي .

٢٤ آب : عاد من بيروت السيد بولس حكيم مطران الموارنة وكانت سيامته في ٢٥ تموز وصار احتفال عظيم بدخوله .

٣٠ آب : سافر الى بيروت البطريرك جرجس شاهت لحضور المجمع الطائفي وسافر معه عدة شبان لدخول الرهبانية .

٣١ آب : ليلة تاريخه صارت زينة عظيمة احتفالا بجلوس المكنا عبدالحميد خان فصار في الجبيلة حراقة ونوبة موسيقى وصار استقبال للمطارين والقناصل وفي اليوم التالي رفع المطارين تلغرافاً الى الذات الشاهانية بالتهنئة وجاء الجواب بالشكر فدعا الوالي المطارين وقرأ عليهم التلغراف شاكراً .

١٨٨٦

١٠ كانون الثاني : انتخب متقدماً فرج الله خوام وكان المرشد القس بولس بليط ورفعنا من لائحة الاسماء ١٩ ممن ترهبوا او تزوجوا او انقطعوا عن الحضور فاصبح عدد المشتركين ١٢٥

٢٥ حزيران : صباح الجمعة دخل حلب السيد غريغوريوس يوسف بطريرك الروم الكاثوليك وبمعيته السيد ملاتيوس فكاك مطران بيروت وجبيل والايكونوموس مخائيل شريم والخوري يوسف حنا فلاقام عند السبيل السيد كيرلس جحا متروبوليت حلب مع كهنته واراخنة الشعب وغيرهم وكان الوالي جميل باشا قد ارسل ترجمانه يوسف جد ليقوم بواجب الاحترام نحو غبطته وسيادة المطران وارسل لها بدكاً اي رأسين من الخيل مسرجين بسرجين ثمينين مرصعين بالفضة مع عجلته المخصوصة ورئيس البوليس مع طائفة من العسكر الخيالة والشرطة فركب غبطته العجلة حتى دنا من المدينة فامتطى الجواد المطهم وهذا الموكب الحافل دخل باب المدينة . . . وصدحت موسيقى مدرسة الاباء الفرنسيسكان . . . (ب ٨٣٥)

١١ تموز : دعا جميل باشا الوالي الى مأدبة في قناقه غبطة البطريرك غريغوريوس يوسف والسادة المطارنة ملاتيوس فكاك وكيرلس جحا وغريغوريوس بليط الارمني وبولس حكيم الماروني ومطران الروم النير الكاثوليك ورئيس طائفة السريان والارمن النير الكاثوليك ورئيس الاباء الفرنسيسكان واليسوعيين وكانت مأدبة في منتهى الانتظام . (ب ٨٣٧) .

٩ آب : عاد من كلس مرشدنا الورتبيت بولس بليط وصار على يده ارتداد عشر عيال .

١٩ آب : صدر الامر الهمايوني باهداء الطغراء السلطانية [1] الى غبطة البطريرك غريغوريوس يوسف فاقام في كنيسة حلب يوم عيد التجلي صلاة الدعاء للسلطان . (ب ٨٣١) .

٣١ آب : زينت البلد لعيد الجلوس الشاهاني وزار الرؤساء الروحيون ومنهم البطريرك غريغوريوس والينا جميل باشا فقبلهم باحسن قبول .

١٠ ايلول : خرج البطريرك غريغوريوس يوسف من حلب فوصل الى بيروت في ١٦ آب عن طريق الاسكندرون على الباخرة الافرنسية الحاملة في الوقت ذاته من الاستانة الطغراء الممنوحة لغبطته من السلطان . (ب ٨٣٥) .

وكان قد خرج لوداعه جم غفير وذهب صحبة غبطته الاخ عبدالله كرباج من اخويتنا ليدخل الدير .

١٣ ايلول الساعة ٢ في الليل شرف غبطة البطريرك جرجس شلحت قادماً من الشرفة .

٧ تشرين الثاني : ابتدات العمارة في محل الاخوية وسوف يصير اجتماع الاخوة في الكنيسة الكاتدرائية .

١٣ كانون الاول : ورد تلغراف في نقل والينا جميل باشا الى ولاية الحجاز وسيخلفه عثمان باشا والي الحجاز .

١٨٨٧

١ كانون الثاني : وردت البشرى بان غبطة بطريركنا اسطفانوس عازاريان انتخب وفداً لكي يقدم الى امام الاحبار قداسة البابا لاون الثالث عشر هدية جلالة مولانا السلطان الاعظم عبد الحميد خان مع كتاب بخط يده وهذه الهدية هي خاتم الماس برليان وانه سيسافر قريباً الى رومة ليتمم هذه المهمة الغير مالوفة

١٣ كانون الثاني : وصل حلب عثمان نوري باشا والياً عوض جميل باشا . (ب ٨٥٦) .

٢٦ شباط : تقرر انشاء محلة جديدة غربي حلب في محاذاة طريق العجلات تسمى باسم السليمية تيمناً باسم سليم افندي بكر اغجال السلطان . (ب ٨٥٨) .

---

١) الطغراء هي صورة توقيع السلطان وكانت ترسم من عهد الاوغوز والسلجوقيين منذ القدم وترقم على النقود والاعلام والوثائق الرسمية والنياشين وغيرها . (راجع في هذه المادة دائرة المعارف الاسلامية لهوتسما) ولا يتضح من المتن ماهية الطغراء التي اهديت الى البطريرك ولعلها الفرمان ولم يرق ذلك باعين المسيحيين لانه وضع سابقة كانوا بغنى عنها ان يحتاج البطريرك الى فرمان ليقوم بوظيفته كانه يتقلدها من السلطة الملمانية .

٦ آذار : وردت اخبار الجرائد في مقابلة السيد عازاريان قداسة الحبر الاعظم مع الوفد الشاهاني .

قالت جريدة الاوسرفاتوره رومانو في ١٧ شباط ١٨٨٧ ان السيد عازاريان بطريرك الارمن الكاثوليك يمم رومة ليس ليقدم فروض الاحترام الى راس الكنيسة في فرصة يوبيله الكهنوتي فقط بل ليسلم ايضاً الى الاب الاقدس هدية السلطان المعظم عبد الحميد خان مع رسالة بخط يده الشريفة وقد تعين وقت المواجهة امس تاريخه فنحو الساعة ١١ افرنجية حضر غبطة البطريرك يصحبه السيد كوبليان والسيد روبيان رئيس المدرسة الارمنية ونائب الرئيس وكاتما اسراره ووكلاء البطاركة الشرقيين والرهبانيات الارمنية وتلاميذ المدرسة الارمنية وسائر تلاميذ مدرسة البروباغنده من طوائف مختلفة من تبعة الدولة العلية وعند دخولهم كان الحرس البابوي باجمعه مصطفاً بالنظام والترتيب اللائق وبعد الظهر خرج قداسته من مخدعه الخصوصي يصحبه حاشيته فدخل قاعة الاستقبال التي اعدت كما في الاحتفالات الغير المألوفة وجلس على العرش وحوله حسب العادة ثلاثة كراسي لنيافة الكردينال سيموني رئيس مجمع انتشار الايمان المقدس ونيافة الكردينال باروكي نائب قداسته العام ونيافة الكردينال جاكوبيني مستشار الديوان البابوي وكان تجاهه السيد كريتوني كاتم اسرار المجمع وبقية حاشية قداسته . وكان البطريرك لابساً البليون الذي يستعمل في الاحتفالات الكبيرة والنيشانين العثماني والمجيدي وبعد ان احنى ركبتيه حسب العادة تقدم نحو العرش وخلفه السيد روبيان حاملاً غرقاً من مخمل وردي مطرزاً بالقصب وعليه رسالة جلالة السلطان والسيد كوبليان حاملاً صينيةً من فضة عليها حق مختوم ضمنه الخاتم فوقف الجميع وتلا غبطة البطريرك الخطاب الاتي باللغة الايطالية :

ايها الاب الاقدس

قد نلت الشرف الوسيم ان اسلم لقداستكم رسالة مكتوبة بيد جلالة السلطان ملكي المعظم الذي اراد ان يقتفي آثار ابيه المعظم ذي الذكر المخلد ويعرب بادلة ساطعة واضحة عن صداقته الخالصة واعتباره الفائق لامام الاحبار

الذي عمّت فضائله السامية المسكونة باسرها فتكرم ان يهدي الى قداستكم هذه الهدية النفيسة ثم ان جلالته اكراماً لذاتكم الشريفة قد تنازل واحسن بالوسام العثماني والمجيدي العالي على نيافة الكرادلة والاساقفة المحيطين بقداستكم والمساعدين لها باتمام مهامها السامية ولما كان قد وكل الي ان اسلّم قداستكم هذه الهدية فاني اعتد ذاتي سعيداً اذ انتهز هذه الفرصة لكي اقدم شهادة جديدة عن الاعتناء الابوي والنعم الممتازة التي بها الذات الشاهانية تحامي عن اتباعها الذين فكرها الوحيد ورغبتها الحارة انما هي نجاحهم وراحتهم فاننا والحمد لله حاصلون على اتم الراحة في وفاء امور دياناتنا وما لكون حرية يجدنا عليها بكل حق كثير من مسيحي بلاد اخرى لذا يترتب علينا ان نرفع اكف الضراعة الى الاله المتعال ان يحفظ حياة سلطاننا المعظم ويوليه النجاح والتوفيق ويحقق امانيه ومقاصده الشريفة الكريمة ومن حيث ان جلالة السلطان قد وكل الي هذه المهمة الشريفة فهذه برهان ساطع على رضاها العالي عن امانتنا وتعلقنا بالسلطة السنية لذا استطيع ان اؤكد لقداستكم باني مع جميع كهنتي وشعبي قد بذلنا قصارى جهدنا في الطاعة والخضوع الى الذات الشاهانية والى احكامها الشريفة وذلك فرض علينا فاسمح لي ايها الاب الاقدس ان اتخذ هذه الفرصة الاحتفالية كي اودع عند قدميكم حاسات احترامي البنوية واكرامي الفائق مع حاسات اولادكم الكاثوليكيين اتباع جلالة السلطان المعظم الامينين وان اطلب بركتكم الرسولية.

حينئذٍ نهض قداسته واجاب :

اننا نقبل بكامل السرور من يدكم الرسالة والهدية التي جلالة السلطان المعظم قد وكل اليكم تسليمنا اياها شخصياً وقد اضحينا بغاية السرور ان يبرهن لنا ذلك عن خلوص مودته لنا ووسامات الشرف العالية التي احسن بها الى الكرادلة والاساقفة المساعدين لها هي كذلك دليل واضح على هذه الامنية اننا نسر ونفرح من ان هذه المهمة الغير العادية قد وكلت الى بطريرك كاثوليكي تحقيقاً لرضى جلالته عن امانة الشعب الكاثوليكي الخاضع لها فهذه الامانة هي فرض مقدس واننا متأكدون انهم لا يخونون بها ابداً

لا بل تزداد وتضاعف كلما ازداد الاحسان اليهم بما هو عزيز عليهم اي الحرية في استعمال الامور الدينيّة . فنحن ايضاً نعتبر هذه الحرية التي لكم الآن ونؤمل انكم ستحصلون على ازديادها فلا شيء يسرنا اكثر من ذلك لانه راجع الى الخير العام فنطلب اليك ايها السيد ان تنوب عنا بابلاغ هذه الحاسات الى جلالته وتؤكد لها حسن رغبتنا في حصولها على الاماني والنجاح وأكِّد كذلك الى الارمن الكاثوليك محبتنا الخاصة الخصوصية لهم ولباقي اولادنا الشرقيين المحبوبين منا ورغبتنا الحارة في ازدياد عددهم برجوع الجميع الى الوحدة فنطلب اذاً من الراعي الازلي ان يتمم رغبتنا هذه واننا نمنح لك ولجميع الكاثوليك الخاضعين لبطريركيتك كما الى هذه نخبة الشبان الارمن التي حولنا بركتنا الرسولية.

ففي نهاية الخطاب جلس قداسته وقبل من يد السيد عازاريان الرسالة والحق الحاوي الخاتم نفض ختامه فاذا هو خاتم جميل من قطعة واحدة برليان كبيرة الحجم . فرفع قداسته خاتمه ولبس هذا الخاتم واظهر تعجبه من نفاسته وكبره وقد اعطى قداسته الى الكرادلة والاساقفة الوسومات المحسن بها من جلالة السلطان وكان قداسته لابساً البطرشيل الذي اهداه له غبطة السيد عازاريان في فرصة يوبيله الكهنوتي وهو نفيس جداً وبعد نهاية ذلك خرج غبطته مع من كان يرفقه وهكذا قد تمت هذه المواجهة .

٢١ نيسان : انعمت الحضرة السلطانية بالطغراء على غبطة البطريرك السرياني جرجس شاهت فارسل غبطته من يستقبلها في الاسكندرونة . (ب ٨٦٦ ، وراجع سابقاً ١٩ آب ١٨٨٦) .

٢٩ ايار : يوم تاريخه ورد تلغراف من السيد عازاريان بطريركنا المغبوط مآله انه تشرف بالمثول لدى الذات الشاهانية وانه نال التفاتاً غير مألوف وقد تعطفت بان تهدي سلامها الى جميع المرخصين بناء على ذلك تلا سيادته في نهاية القداس دعاء للذات الشاهانية ايد الله ملكه.

٢٢ ايلول : صار توزيع الجوائز على طلبة مدرستنا الارمنية سبق ذلك خطب ومحاورات بالتركية والعربية وحضر الحفلة سيادة راعينا والاكليروس ووجهاء الطائفة واهالي التلامذة وقد سر الجميع بما رأوه من نجاح وتقدم المدرسة بالعلوم والتهذيب .

٣٠ حزيران : في اواسط الجاري قرئ في كنيسة الروم الكاثوليك الكاتدرائية المنشور البطريركي المنادي بوجوب الاشتراك في يوبيل قداسة الحبر الاعظم وفي هذه المناسبة القى المطران كبرلس جحا خطاباً بليغاً .

لقد اسس سيادته من نحو سبعة اشهر مدرسة كبيرة نصف داخلية لتدريس اللغات العربية والتركية والفرنسية والانكليزية فجمعت على حداثة نشأتها نحو ١٥٠ طالباً ولها ثمانية معلمين . وهي في دار فسيحة وقفها بطرس حمصي . (ب ٨٧٥) .

٦ تشرين الاول عُزل والينا الحاج دولتلو عثمان باشا وسيخلفه حسن باشا اشقودرلي وسر القوم لهذه الخبرية لان دولة المشار اليه قليل الاكتراث في امور الاحكام عدا انه مريض بمرض عضال يكاد ان لا يشفى منه .

٢٠ تشرين الاول : اقيم حسن باشا الاشقودرلي العضو في لجنة الاشغال العمومية والياً على الشهباء . (ب ٨٩١) .

٢٤ تشرين الاول : حضر الى حلب والي الولاية خلف عثمان باشا وخرج لاستقباله الاعيان ومتوجهو الطوائف واولاد المدارس بالانشاد والتراتيل .

٢٧ تشرين الاول : سافر عثمان باشا والي الولاية السابق الى بيروت لاجل التطبب وسافر ايضاً سيادة المطران تاوفيلوس انطونيوس قندلفت موفداً من قبل بطريرك السريان ليقدم الى امام الاحبار هدية هذه الطائفة بفرصة يوبيله الكهنوتي .

٦ تشرين الثاني : ارسلت اخويات الارمن الكاثوليك في حلب تحريراً الى قداسة البابا لاون الثالث عشر تهنئه بيوبيله الكهنوتي وكان عدد ابناء تلك الاخويات كما يلي :

اخوية الحبل بلا دنس	١٢٠
« الروح القدس	١١٠
« البشارة	١٣٠
« مار الياس	١٥٠
« الاحداث	٨٥
« قلب مريم	١٩١٥
المجموع :	٢٥١٠

٨ تشرين الثاني : اشعر القوم بحلب بزلزلة من الغرب للشرق دامت نصف دقيقة لكن لم ينجم عنها ضرر .

سام البطريرك جرجس شلحت الخورفسقفس لويس رحماني اسقفاً للرها . (ب ٨٩٤) .

١٥ كانون الاول : قدم السيد كيرلس جحا الى الحبر الاعظم باسم الروم الكاثوليك في حلب تاجاً بابوياً تحفة بديعة بشكله وجزيل قيمته وقد صنع في الشهباء . (ب ٨٩٩) .

١٨٨٨

٢٥ كانون الثاني : المتقدم اكوب صقال الكاتب اسكندر شامين عدد الاعضاء المشتركين ١٣٩ .

١٩ شباط : توفي القس اوغسطينوس عازار الماروني عن ٣٦عاماً وكان شاعراً له القصيدة التي نشرها البشير (ب ٩٠٦) ليوبيل لاون الثالث عشر . (ب ٩١١) .

٤ آذار يوم تاريخه ورد خبر من رومية بنياح السيد بولص حكيم بطران موارنة حلب .

١٨ نيسان : اتلفت كميات وافرة من بزر الجراد في قضاء منبج والجفتلكات السلطانية في ولاية حلب . (ب ٩١٨) .

٢٥ نيسان : سافر الى الاستانة المطران كيرلس جحا . (ب ٩١٩) .

٢ ايار : كلف الاهالي لاتلاف الجراد . (ب ٩٢٠) .

٣ حزيران : يوم تاريخه صباحاً بعد قداس سيادته تلا الورتبيت الاب بولص بليط منشور السيد استفان عازاريان بطريرك الارمن الكاثوليك بجلب اعلم به ارتداد الكوباليالين جميعاً الى حضن الكنيسة المقدسة وذلك بحضور الشعب ووجوه الطائفة وتلي الدعاء للسلطان[1]

١٣ حزيران : امطرت السماء مراراً فتغير الهواء وعاد الناس الى لباسهم الشتوي . وفي ٧ الجاري احتجبت الشمس بجيوش الجراد الذي مرّ فوق الشهباء ثم استقر منتشراً على الارض حتى غطى وجهها في البساتين والمروج وفي احياء المدينة لكنه لم يأتِ باذى (ب٩٢٥)

١٥ حزيران : عاد المطران كيرلس جحا من رومة ومعه نيشان القديس سلفسترس لبطرس حمصي ورزق‌الله وكيل (ب ٩٢٧) .

٢٧ تموز : توزيع الجوائز في مدرسة الروم الكاثوليك حضرها الوالي حسن باشا مع كبار مأموري الولاية والقى فيها برتو بك خطاباً بالتركية وكمال بك رئيس مجلس المعارف خطاباً بالافرنسية وكانت موسيقى البلدة تشنف الاذان باجمل الالحان (ب ٩٣١) .

١٥ آب : سام المطران كيرلس جحا الشماس فيلبس جرّو كاهناً .

---

١) راجع في هذه المادة ملحق جريدة البشير بعد ١١ آب ١٨٧٩ عدد ٦٦٨ ثم عدد ٤٧٣ والخلاصة انه في ١٨٧٠ انقسم الارمن الكاثوليك بان جمل بعضهم المجلس الملّي مستقلاً عن الكرسي ومن هؤلاء المطران كوبليان وحزبه وقد تذرعوا بالسلطة المدنية لتنفيذ رأيهم وانضم اليهم بعض المختاريين في البندقية. ثم انهم ارتدوا عن غيهم واعلنوا خضوعهم للسلطة الشرعية بشخص البطريرك حسون المثبّت من الكرسي الرسولي .

احسنت الدولة العلية بالوسام العثماني من الطبقة الرابعة على نعوم ثابت ترجمان قنصل البرتغال . (ب ٩٣٦) .

٢٩ تشرين الثاني : احتفل الاباء اليسوعيون في كنيستهم في ايام الاثنين والثلاثاء والاربعاء باعياد القديسين بطرس كلافر والفونس رودريكس ويوحنا بركمنس واشترك في الحفلات السيد المطران انطونيوس قندلفت السرياني والقس يوسف صفائي الكاهن الارمني والخوري بولس اودو الكلداني والقس ارسانيوس دياب الماروني وختمها المطران كيرلس جحا (ب ٩٤٨) .

٢٣ كانون الاول : المتقدم حبيب صائغ الكتاب سليم شدياق .

٣٠ كانون الاول : الاثنين احتفلت جميع الكنائس الكاثوليكية بختام اليوبيل (ب ٩٥٠)

١٨٨٩

٦ كانون الثاني : وفاة نويل مركوبولي عن ٣٧ عاماً .

ارتفعت اسعار الفحم ارتفاعاً فاحشاً بسبب محتكري الفحم لكن البلدية احبطت مساعيهم (ب ٩٥٣) .

١٠ شباط : الشماس حنا بليط وعظ عظة جميلة موضوعها الاتكال على الله .

٣ اذار : باسيل شماع ارتسم شماساً انجيلياً بيد السيد كيرلس جحا وسمي ملاتيوس .

٦ نيسان : تقرر الفحص عما اختلس من الاموال العسكرية في حلب فكان مجموعه ثلاثة ملايين غرشاً لا مليوناً وثمانمائة الف غرش كما شاع سابقاً وقد يتهم كثيرون من المأمورين بتلك الحادثة (ب ٩٦٤) .

٢٠ نيسان : يوم تاريخه سبت النور ورد تلغراف من حضرة بطريرك الموارنة في جبل لبنان الى القس جرجس منش بحلب من طائفة الموارنة بانتخابه مطراناً .

٢٩ منه : توجه من حلب القس جرجس منش الماروني الى الجبل لكي يرتسم مطراناً على حلب وبرفقته القس نيقلاوس كيلون .

٣٠ منه : ورد تلغراف من بطريرك الموارنة الى المذكور اعلاه بعدم طلوعه من حلب وبحيث توجه امس تاريخه الاب جرجس منش لذلك بقي في الاسكندرونة موقتاً .

٤ ايار : انعمت الدولة العلية بالوسام العثماني من الرتبة الرابعة على الدكتور لورنس (ب ٩٦٧) .

٢٢ حزيران : انعم الحبر الاعظم على جرجي ثابت بوسام القديس غريغوريوس (ب ٩٧١) .

٢٢ حزيران : مساء حضر القس جرجس منش والقس نيقلاوس كيلون الى حلب .

٦ تموز : اهدى البابا لاون الثالث عشر وساماً الى زكي بك المدرس عن طلب بطريرك السريان (ب ٩٧٣) .

١٥ ايلول : تلي منشور في الكنيسة حرمت فيه الماسونية وطبع المنشور ووزع على الاهالي

٦ تشرين الاول : رسامة الكاهنين حنا بليط وجرجس صقال .

١٩ تشرين الثاني : توفي عزتلو رزق‌الله وكيل عن ٥٠ عاماً وكان ديّناً تقياً وكان عضواً لمجلس ادارة حلب (ب ٩٨٦) .

١٠ كانون الاول : توفي الشيخ الفاضل جبرائيل خوكاز عن ٨٣ عاماً وله اتعاب كثيرة في الاخوية وتعليم الاحداث .

١٨ كانون الاول : ظهر الوباء الاصفر في الموصل فضرب الحجر الصحي على حدود حلب (ب ٩٩٣) .

١٨٩٠

٨ كانون الثاني : رفع الى الصدارة العظمى طلب امتياز لانشاء شركة وطنية لتسيير المجلات قانونياً بين اسكندرونة وحلب لنقل الركاب والبضائع (ب ٩٩٥) .

٢٧ شباط : تعين والياً لبلدتنا حلب صبحي بك متصرف بيروت . ويتوجه واليناالخالي حسن باشا الى استنبول .

٢ اذار : جاء تفسيح بابوي من الصوم والقطاعة لسبب انتشار الامراض .

٢٥ اذار : رقي البطريرك جرجس شلحت ابن اخيه جرجس الى الدرجة الكهنوتية وكان الكاهن الجديد في ٢٣ من عمره وقد تعلم في مدرسة الاباء الفرنسيسكان في حلب وفي مدرسة الاباء اللعازاريين في عين طورة وفي الاكليريكية السريانية في لبنان (ب ١٠٠٨) .

١ ايار : وصل الى حلب عارف باشا واليها الجديد خلف حسن باشا وعين لعضوية مجلس الادارة زكي المدرس احمد عادلي اسعد جابري قره جه كيورك حبيب سابا واسحق بنتو (ب ١٠١٣) .

١٧ ايار : توفي التلميذ شكري عبدالله الخوري فابنه في المقبرة بورغ. كي تاجر .

٢١ ايار : جاء حلب من الموصل البطريرك ايليا عبو الكلداني ترلضيفاً في بيت جرجي حمصي . وفي الكنيسة صلى وخطب شاكراً للمحسنين كرمهم في عمار الكنيسة للكلدان (ب ١٠١٧) .

٤ حزيران : فتح الله الحداد الحلبي امتاز بصناعة النسيج ونافس بها الصناعة الاجنبية بالمتانة وبهاودة الاسعار وعرضها في السوق في حلب ثم في بيروت فنال نجاحاً باهراً (ب ١٠١٥) .

٣ تموز : شبت النار في مخازن خشب لانطون مكربنه في محلة قهوة بشير باشا فامتد اللهيب الى املاك الخواجات غزاله ونعوم صلابا التاجر بالسمن والزيت فاسرع الفريق ثابت باشا وبمعيته فرقة من العساكر فاخذوا باخماد اللهيب فانطفئ بعد اربع عشرة ساعة (ب ١٠٢١) .

٣٠ تموز : ظهر الجراد فاتلف محاصيل البلاد الصيفية ووضعوا المحاجر الصحية في حران وبيراجيك والرقة ومسكنه لحجز واردات ديار بكر المصابة بالهواء الاصفر (ب–١٠٢٣)

٢٧ آب : فقد من كنيستنا كأس القربان المقدس وفيه بعض القربانات وفقد مفتاح بيت القربان .

٢١ ايلول : حرم سيادته في نهاية القداس الانسان الذي سرق كأس القربان .

٨ تشرين الاول : فشا الهواء الاصفر في حلب واصيب به –١١٣ مات منهم ٧٧ (ب ١٠٣٣) .

٤ تشرين الثاني : زال الهواء الاصفر من حلب (ب ١٠٣٧) .

١٦ تشرين الثاني : الشماس الانجيلي اوغسطينوس صائغ القي في اخويتنا عظته الاولى وتكلم عن محبة الله .

١٨٩١

٣١ كانون الثاني : هطلت الامطار في حلب بغزارة ووقع الثلج وغطى سطح الارض بقدر اربعة سنتيمترات (ب ١٠٤٨) .

٢٥ كانون الثاني : المتقدم يوسف حلاق الكاتب اسكندر شاهين عدد الاعضاء العاملين في الاخوية ١٣٨ .

في هذه السنة وقع الهواء الاصفر وهاجر عدة اخوة .

١ اذار : ورد منشور من السيد يوحنا الحاج البطريرك الماروني الى الطائفة المارونية في حلب يأمر به الكهنة ومشايخ الشعب ان يجتمعوا لانتخاب اسقف لهم .

٧ حزيران : سام السيد كيرلس جحا كاهناً الشماس ملاتيوس شماع على كنيسة الروم الكاثوليك الكاتدرائية في حلب واعاد له اسمه القديم (باسيليوس) .

٢٨ حزيران : ظهر الهواء الاصفر في قرى العمق وما يليها غربي حلب فضربت الحكومة الكرنتينا عليها .

٥ تموز : منذ يومين اي الجمعة ٢ تموز قرر الاطباء الماهرون في بلدتنا ان الهواء الاصفر فشى فيها فشمل الخوف قلوب الاهالي فوقفت حركة التجارة واخذت الناس بالتيقظ والتحفظ من اسباب الداء الملعون واخصها البرد والعدوى

والاكل الغليظ الهضم واعانت التلغرافخانة بانه لا عاد يأتي وابورات الى سكة الاسكندرونة لانه ترتب عليها كرنتينا والبريد تبدل ايام سفره وشرع البعض من الاهالي منهم من يرحل الى ديار اخرى ومنهم من ينفرد عن الاجتماعات ومنهم من يرحل الى البساتين قصد الانفراد .

١٩ تموز : بلغت الوفيات عند المسيحيين ١٦ او ١٥ يومياً امـا الاسلام فوفياتهم غير معروفة لكثرة مقابرهم .

٢٧ تموز : الوفيات من الهواء الاصفر يومياً ١٢٠ (ب ١٠٧٦) .

١ آب : لا تزال الوفيات عند المسيحيين يومياً ٢٠ او ١٢ بالهواء الاصفر .

٩ آب : أُصيب بداء الهواء الاصفر القس بطرس صباغ بعـد ان قدم الذبيحة الالهية في كنيستنا الارمنيّة المبنيّة على اسم القديس الياس الواقعة في محلة العنكبوت يوم الثلاثاء الواقع في ١١ منه غاسـا الساعة ١٠ بعد ان تزود بالاسرار الكنائسية (ما خلا القربان المقدس خوفاً من القيء) وفي الساعة الخامسة من النهار نفسه شيعت جنازته داخل صندوق موضوع عليه حلتـه الكهنوتية الى المقبرة العمومية في البرية وامامـه لفيف الكهنة عدى سيادة المطران وما ادخلوا الجنازة الى الكنيسة وفقاً لقانون الصحة العام واحتفل في الكاتدرائية بالجناز من اجله في ١٣ منه .

٦ ايلول : وفاة القس جرجس صقال بالهواء الاصفر فصارت جنازته مرتبة كجنازة القس بطرس صباغ وكان المرحوم مستبـلاً في خدمـة المصابين بالوباء وممن رثاه ليون عبدالله خوام .

١١ تشرين الاول : في مدرسة الروم صار توزيع المكافآت على اولاد التعليم المسيحي بعناية الاباء بولس بليط ومخائيل شحود وباسيليوس شماع .

٢٢ تشرين الثاني : ورد امر من الحكومة السنية باغلاق المدارس لسبب مرض وجمة الحلق الذي فشى في بلدتنا وبلغنـا ان الهواء الاصفر لا يزال متفشياً في دمشق ذلك مما كدر راحة الناس .

٧ كانون الاول : اخـذ اخوة التعليم المسيحي يعلمون في الليل الجهال

والاولاد كل جمعة اربع ليالي من الساعة ٢ الى ٤ في محلات الفوري والقبب وزقاق الطويل والهزازه والعاشور .

وفيه سافر السيد تاوفيلوس انطون قندلفت السرياني النائب البطريركي في بيروت والمرسوم على كرسي طرابلس .

٨ كانون الاول : الثلاثاء . ليلًا الساعة الواحدة ونصف عربية توفي البطريرك اغناطيوس جرجس شلحت السرياني في حلب بعد مرض قاساه من ١٠ الى ١٢ يوماً بداء حمرة ظهرت في عنقه وفي صباح يوم الاربعاء شيعت جنازته من دار البطريركية الى الكنيسة محمولاً على كرسي متشحة بالحلة الحبرية يتقدمها جميع كهنة الكاثوليك بحلب من فرنسيكان وروم وارمن وموارنة وسريان ويسوعيين وكلدان والسيد كيرلس جحا وكان المطران غريغوريوس بليط مريضاً فلم يأت وحضر الحفلة كل القناصل قنصل فرنسة وايطالية وروسية وبلجكة والعجم واليونان واكابر الافرنج وفريق باشا ومكتبجي بك والدفتردار بك وعلي باشا وباشة الجندرمة وباش بوليس وفرقة نظامية وزبيقة اولاد مدرسة الفرنسيكان وموزيقة اولاد مدرسة الروم الكاثوليك يضربون بالموسيقى آلات الحزن وجمع غفير ورثاه اولًا السيد كيرلس جحا وبعده القس يوحنا بليط الارمني وبعده القس ارسانيوس دياب الماروني ثم القس جرجس شلحت السرياني وقد بلغ من العمر نحو خمس وسبعين سنة . سيم كاهناً في ٢ شباط ١٨٤٣ واسقفاً في ١٨٦٢ وبطريركاً في ١ تشرين الاول ١٨٧٤ ترأس مجمع السريان الطائفي وانشأ رهبانية في دير الشرفة وفي ماردين وكان محباً للفقراء . وأعطي جملة نواشين وفرامين من دولتنا العلية ومن دول الاجانب دفن في الكنيسة في السكرستية التي بجانب هيكل الوردية في لحد جديد .

١٠ كانون الاول : الخميس مساء أعدت في الكنيسة السريانية هيئة مأتم البطريرك الفقيد احتفالًا بالجناز لثالث يوم وفاته وفي الساعة الرابعة عربية اشتعلت النار في الكنيسة واقبل جمع غفير من المسيحيين لاطفاء الحريق وكان قد اخذ يلتهم نصب الجناز الموضوع في وسط الكنيسة ويمتد الى الحلة البطريركية الثمينة والعكاز والصليب والكرسي والتاج المرصع بالجواهر مع

الباليوم الرسولي وتمكنوا من اطفاء النار وقدرت الخسارات بالمجوهرات وغيرها بما بلغ ثمنه نحو خمسمئة ليرة عثمانية وفي اليوم التالي اغلقت ابواب الكنيسة ولم تقرّب فيها الذبائح لشدة ما قاساه الكهنة في الليل من المشقات المظيمة وتأجلت حفلة الجناز الى اليوم التاسع للوفاة وفيه حضر الى حلب الخوري حنا معمارباشي المنتدب الى اسقفية الشام لكي يرقى الدرجة الاسقفية ولم يوفق الى ذلك بسبب وفاة البطريرك وورد تلغراف من السيد بهنان اسقف الموصل يعلن تفويضه عن رومة في نيابة الكرسي البطريركي وبه يقيم نائباً عنه في حلب الخوري يوسف اسطنبولية .

١٨٩٢

المتقدم رزق الله شادير الكاتب اسكندر شاهين عدد الاعضاء العاملين ١٥٦

٢١ كانون الثاني : وردت رسالة من السيد كودنسيو القاصد الرسولي في بيروت ينعي الينا الكردينال يوحنا سيموني رئيس مجمع انتشار الايمان ويطلب الصلوات من اجله وفي ٣ شباط احتفل بالجناز بعد القداس من اجله وابنه الورتبيد بولس بليط « ذلك الخطيب المصقع ».

١٧ اذار : احتفل الاباء اليسوعيون في كنيستهم بالجناز لاجل راحة نفس رئيسهم العام انطوان اندرلدي[1] وابنه الخورفسقفوس يوحنا معمارباشي تلميذ اكليريكية غزير سابقاً .

٢ نيسان : جرى الاحتفال العظيم بنقل القربان المقدس من كنيسة الموارنة بمحلة الصليبة الى الكنيسة الجديدة الواقعة في محلة ما وراء العمارة في حلب المبنية حديثاً على اسم القديس الياس الحيّ نحو الساعة ١٠ عربية مشى اولاد المدرسة رافعين راية الصليب وما بعدهم الكهنة والشمامسة وما وصلوا الى المحل المسمّى ما وراء العمارة الا وكنت ترى الشعب المسيحي مزدحماً مكشوف الرأس احتراماً للقربان المقدس وفي اليوم التالي الاحد احتفل بالقداس الالهي

---

١) إندرلدي Anderledy الثالث والعشرون من رؤساء الرهبانية اليسوعية العامين ولد في سويسرة ١٨١٩ دخل الرهبانية اليسوعية في ٥ ت ١ ١٨٣٨ اقيم رئيساً عاماً ١٨٨٦ وتوفي سنة ١٨٩٢ (عن معجم اليسوعيين (Ludw. Koch S. J.: Jesuiten Lexikon)

الاب جرجس منش رئيس الطائفة بحضور وجوه الطوائـف والقنصل الافرنسي وجمهور غفير وكان الفرح باسطاً اجنحته على رأس كل المسيحيين .

٨ نيسان : حضر من دير بزمار القس ككور عجمي المرسوم كاهناً على الكرسي البطريركي فقبله في حلب السيد غريغوريوس بليط على ان يخدم فيها موقتاً .

١ ايار : اجتمع المطران كيرلس جحا والمطران غريغوريوس بليط وعيّنا مرشداً لاخوة التعليم المسيحي الورتابيد بولس بليط ومعه المساعدين الاب مخائيل شحود والاب باسيليوس شماع .

٢٦ ايار : قدم الى حلب السيد قورلس جنام بني النائب الرسولي على طائفة السريان . قبل دخوله البلد اقام ساعتين في حديقة الفرخة لجرجي خياط واحتفل بدخوله الكنيسة وقدمت له التهاني بالعربية والفرنسية والتركية (ب ١٠٢٨) .

ويوم اثنين العنصرة سام اسقفاً على دمشق الخورفسقفوس معارباشي بمساعدة المطرانين كيرلس جحا وغريغوريوس بليط (ب ١٠٢٩) .

٧ كانون الاول : اطلعت مديرية المعارف على ان المطبعة التي فتحت باسم الطائفة المارونية في محلة الصليبة في حلب يطبع فيها كثير من الكتب والرسائل المتنوعة بدون رخصة رسمية وقد فتشت ادارة البوليس عن محل هذه المطبعة فاغلقتها والمعاملة جارية في الحالة الحاضرة على صاحبها . وهذه المطبعة كان قد اتى بها المطران يوسف مطر سنة ١٨٥٦ اشتهرت بخدمتها الحكومة السنية فالامل بالعفو عنها وطيد . (ب ١٠٥٠) .

٦ حزيران : عند السريان صارت سيامة الخوري يوحنا معارباشي اسقفاً على دمشق بوضع يد السادة بهنام بني اسقف الموصل والنائب البطريركي السرياني والسيد كيرلس جحا والسيد غريغوريوس بليط والقس جرجس منش رئيس الموارنة والخوري بولس رئيس الكلدان والاب فيليبوس من الناصرة رئيس الفرنسيسكان والاب بطرس ديفرنـه رئيس اليسوعيين بحضور قنصل فرنسة واعيان الطائفة السريانية وجمع غفير من كل الطوائف .

٣٠ حزيران : سافر الى دمشق السيد يوحنا معارباشي .

٣١ تموز : جاء حلب الخوري فرنسيس الشمالي والخوري بولس عواد وفداً من البطريرك الماروني يوحنا الحاج لانتخاب اسقف حلب ؛ بعد قراءة المنشور الصادر من غبطته اعلنوا لزوم ممارسة صلوات ورياضة روحيـة ابتداء من ٢٤

تموز ١٨٩٢ فمارسها الكهنة بزءاً فقط اما الشعب فكان يأتي اليها كل ليلة مساء من الساعة العاشرة حتى الغروب لمدة ثمانية ايام وكان الاقبال عظيماً على سماع الخوري فرنسيس الشمالي .

ولم تتوحد كلمة الموارنة في انتخاب استفهم فارسل اكثر الكهنة والشعب معروضاً الى غبطة البطريرك يسلمونه ارادتهم في تسمية من يراه اهلاً للاسقفية غير ان ما بقي من الكهنة والشعب اجروا الانتخاب في الكنيسة طبقاً للمنشور فاسفر عن ظهور ثلاثة اسماء نالت الاكثرية : الاب ارسانيوس دياب الاب كميل مارون الراهب الفرنسيسي الحلبي الماروني والاب بولس غالي المقيم في باريس ورفعت النتيجة الى البطريرك .

٣١ آب : افتتح تعليم للشبان في الشرعسوس في كنيسة القديس جاورجيوس .

اصدر السيد بهنام البني النائب البطريركي على السريان منشوراً دعاهم به الى انتخاب استفهم وسأل من كل طائفة كاهنين يحضران الانتخاب وفي تاريخه بعد الظهر اجتمع الكهنة المدعوون من روم وارمن وموارنة مع كهنة السريان ووجهاء الطائفة السريانية لتسمية ثلاثة اشخاص من اكليروس الطائفة جماء فتبددت الاصوات حتى اصبح عدد المنتخبين لهذه الوظيفة ٢٧ منهم ٢٤ كاهناً وثلاثة اساقفة .

اما اكثرية الاصوات فاستقرت على القس جرجس شلحت ثم على الخوري باسيل قندلفت ثم على المطران ثاوفيلوس انطونيوس قندلفت اسقف طرابلس .

٢٩ آب : توفي الاب فيلبوس الناصري رئيس دير الرهبان الفرنسيسكان في حلب عن اربعين عاماً عرف بغيرته اذ كان يخدم في السنتين الماضيتين المصابين بالهواء الاصفر ويوزع عليهم الاسرار .

٥ ايلول : سافر الى ابرشيته السيد بهنام بني اسقف الموصل والنائب البطريركي على السريان .

٧ ايلول : وصل الى حلب السيد كودنسيو القاصد الرسولي على سورية ومهمته اعظمها تنفيذ وصية المثلث الرحمات البطريرك اغناطيوس جرجس شلحت فنزل في دير الفرنسيسكان

٢٣ ايلول : سافر القاصد الرسولي عائدًا الى بيروت محل اقامته .

٢٠ تشرين الثاني : شرف هذه الحاضرة السيد يوسف فرحيان اسقف ديار بكر .

٢٧ تشرين الثاني : في الجمعة الماضية بامر الحكومة رفعت فعلة الاسلام نحو اربعمائة قبر لفتح الطريق بين بوابة الحل والعزيزية من امام مقبرة اللاتين وارض المشنقة ومن جملة القبور المرفوعة قبر ابن قاق الذي كان من جملة الاحد عشر شهيدًا الذين سفكوا دماءهم في سبيل الايمان الكاثوليكي سنة ١٨١٨ كما جاء ذلك في المجلد الاول من تاريخ هذه الاخوية .

١ كانون الاول : سافر الى القاهرة فرومة السيد فرحيان .

١١ كانون الاول : عاد السيد غريغوريوس الى تقدمة الذبيحة الالهية في القاعة بعد ان كان مريضًا من ٣ ايلول .

١٨ كانون الاول : صار الانتخاب : المتقدم فرج‌الله يوسف خوام الكاتب فتح الله رزق‌الله عرقتنجي .

وفيه اجرى الطبيب الطونيان عملية جراحية للسيد غريغوريوس بليط .

١٨٩٣

١ كانون الثاني : عدد الاعضاء العاملين ١٣٨

٨ منه : مساء الساعة ١١ عربية وصل الحاضرة سيادة المطران جرمانوس الشمالي اسقف الطائفة المارونية في حلب ولدى وصوله بوابة يعقوب بك خرج للقائه مع كهنة طائفته غيرهم من سائر الطوائف واولاد مدرسة الطائفة وعزفت الموسيقى فلبس سيادته الحلة الحبرية والكهنة حللهم وساروا بالترتيل الى الكنيسة بين جمع غفير وبعد السجود للقربان المقدس احتفل سيادته بالصلاة عن نفس سالفه وتلا خطبة تضمنت الدعاء والشكر .

المتقدم فرج‌الله خوام الكاتب شكرالله الياس حسون .

١٦ شباط : توفي نخائيل بطيخة المساعد الرابع مزودًا بالاسرار وفي الساعة ١٠ عربية جاء الى بيت الفقيد ابناء اخويتنا مع اخوة التعليم المسيحي واخوة اخوية الرهبنة الثالثة المقامة عند الاباء الفرنسيسكان واخوة اخوية اليسوعيين

وشيّعوا النعش محمولاً على يد الاخوة وهم مصفوفون يمنة ويسرة ولما بلغوا بوابة الياسمين وزعت الشموع على جميعهم وتقدمتهم راية الرهبانية الثالثة مرفوعة ودخلوا الكنيسة ووقفوا الى جانب النعش ثم خرجوا وبيدهم الشموع والمسابيح الوردية مصلّين نلثها وكان الفقيد من اهل التقى مشتركاً في عدة اخويات .

١٩ شباط : اوقف فرج الله مراياتي شمعدانين جوز عمل يديه للاخوية .

١٨٩٣

٣٠ تموز : جرى انتخاب مطران السريان في حلب ترأس الاجتماع المطران كيرلس جحا يصحبه خمسة كهنة روم وارمن وموارنة ورفعت النتيجة السرية الى النائب الرسولي ليبت فيها مع السادة الاساقفة (ب ١٠٨٦) .

١٩ آب : سافر الى بيروت السيد كودنسيو القاصد والنائب الرسولي .

٢٥ تشرين الاول : سام البطريرك جرجس شلحت الياس سالم كاهناً وهذا تعلم في دير الشرفة (ب ١٠٨٦) .

٣٠ كانون الاول : شبت النار في كنيسة السريان الكاثوليك واطفأ الحريق رجال الشرطة (ب ١٠٩٥)

١ اذار : عهد الى عبد الرحمن الكواكبي برئاسة بلدية حلب (ب ١٠٦٣) .

٢ اذار : حدثت هزة ارضية فخاف الناس ولم يحدث ضرر .

١٦ اذار : هطلت الامطار نحو ١٠ ايام متواصلة فزاد نهر قويق حتى علا على جسر الناعورة (ب ١٠٦٦) .

٥ نيسان : عهد الى مختار بك شريف برئاسة بلدية حلب (ب ١٠٦٧) .

٢٦ نيسان : احضر الدكتور فشيشو علاجاً لمداواة حبة حلب (ب ١٠٧٠) .

٨ حزيران : وصل الى حلب آتياً من عتاب السيد غودنسيو بنفيلي القاصد الرسولي على سورية والنائب الرسولي في حلب .

٢٧ تموز : فشا الهواء الاصفر والوفيات يومياً لا تقل عن ١٣٠ (ب ١٠٧٦) .

١٨٩٤

المتقدم رزق الله الياس شادير الكاتب بشير الياس حسون عدد الاعضاء ١٥٥ .

٢٦ كانون الثاني : جاء في البشير عدد ١١٠٩ توفي مخائيل اليان ودفن بمأتم حافل — جزم مجمع اساقفة السريان بوجوب اعادة للمرة الثالثة اعطاء الشهادة الحسنة في ثلاثة اشخاص من الاكليروس يختار واحد منهم ليكون مطراناً على الابرشية الحلبية وعهد الى السيد جرمانوس الشمالي الماروني برئاسة هذا العمل .

٣٠ ايار : وجهت الرتبة الرابعة الى فتوتلو ميخائيل افندي تونل احد معتبري حلب لحسن خدمته (ب ١١٢٧) .

٢١ حزيران : توفي نقولا مركوبولي ونشر البشير ترجمته عدد ١١٣٣

٢٢ حزيران : لما تشرف البطريرك اغناطيوس جنام بني السرياني بمقابلة السلطان في استنبول جرى احتفال في كنيسة السريان في حلب جمعة الخورفسقفوس يوسف اسلامبولية النائب البطريركي وحضور عزتلو باسيل افندي انطاكي نائباً عن الوالي عثمان نوري باشا والقى الخوري جرجس شاحت خطاباً انيقاً .

اسس السيد جرمانوس الشمالي الماروني اخوية للرجال زاد عددهم الى ما لم يسبق له اجتماع في اخوية الا في اخوية الاباء اليسوعيين وفي الاخوية التي كان قد انشأها المثلث الرحمات المطران بولس حاتم على الملكيين .

ومما يذكر فيشكر ان السيد جرمانوس الشمالي اذا دعا كاهناً لالقاء الوعظ جلس بين سامعيه قدوة صالحة لرعيته (ب ١١٣٢) .

٢٨ حزيران : احتفل بكنيستنا الكاتدرائية بقداس كبير وجناز لاجل راحه نفس مسيو كارنوتيس جمهورية فرنسة حضره القنصل الجنرال ورجال القنصلاتو .

٩ تموز : توفي الخوري جرجس عازاريه عن ٧٣ عاماً فخبر به الروم كاهناً واسع المعارف متقد الغيرة (ب ١١٢٥) .

٢٧ تموز : وصل حلب القس مخائيل قديد تلميذ رومية .

٥ تشرين الاول : توفي الخوري ميخائيل دلال السرياني -رقي الى وظيفة « الخوري »[١] القس روفائيل رباط والقس قسطنطين المصري والقس ديمتريوس نصرالله (ب ١١٤٧) .

٢٩ كانون الاول : ذكر البشير عدد ١١٥٩ وفاة القس جرجس منش النائب الاسقفي السابق على الموارنة ووفاة الام روزلي دي استفانلي رئيسة راهبات القديس يوسف الظهور في الرابعة والستين من عمرها كانت من اسرة رومانية نبيلة جاءت حلب سنة ١٨٥٦ فاسست فيها المدرسة الداخلية وتجردت سنة ١٨٦٥ و ١٨٧٥ لخدمة المصابين بالهواء الاصفر وجذبت بمثالها الصالح عشرين فتاة الى الحياة الرهبانية .

١٨٩٥

المتقدم فرج الله يوسف خوّام الكاتب يورغاكي عبدالله جرو عـــدد الاعضاء ١٢٣ .

---

١) ان في ابرشية حلب الملكية الكاثوليكية اذا ما رسم كاهن لم يدعَ خورياً ولكن قساً حتى اذا رأى الاسقف ان يرفعه الى درجة عليا فسمّاه « خورياً » وقلّده « الترس » وعهد اليه « برعية » او بعدد معين من ابناء الطائفة يتفقدهم بخدماته الروحيّة . والخوارنة لهم مقام في الخوروس فوق القسوس وهؤلاء فوق الرهبان .

٢٠ كانون الثاني : وصل الى حلب المطران ديونيسيوس افرام الرحماني السرياني آتياً من اورفا .

٢٣ كانون الثاني : انهدم في حلب خان العرصة الواقع خارج باب انطاكية اثر الامطار الغزيرة . انعمت الحضرة السلطانية على المطران كيرلس جحا بالوسام المجيدي الثاني .

٧ آب : انعم حضرة شاه العجم بوسام الشمس والاسد من الصنف الرابع على حضرة عزتلو فتحالله افندي غزاله من اعيان حلب (ب ١١٨٩) .

١٠ آب : القى المطران جرمانوس الشمالي عظات رياضة على الكهنة (ب ١١٣٩) .

١٤ آب : روت جريدة البشير ان عدد الاصابات بالهواء الاصفر في حلب بلغ في اسبوع واحد ٨٩ والوفيات ٣٥

١٥ آب : اخذت جريدة البشير بنشر ترجمة الاب المكرم ابرهيم بن جرجس البشراوي الماروني اليسوعي الذي ولد في حلب سنة ١٥٦٣ ومات شهيداً في الحبشة سنة ١٥٩٥

٢٨ آب : استقال قرابت عجميان من عضوية مجلس ادارة حلب فعين بدله انطون ضاهر

١١ ايلول بلغت المواليد في حلب وملحقاتها اثناء شهري ايار وحزيران ٢٠٣٩ والوفيات ٦٧٧ فتكون زيادة المواليد ١٣٦٢

تشرين الثاني : اهدى الياس انطانيوس شامه المقيم في الاسكندرية صورة العذراء الحبل بلا دنس الى اخويتنا والصورة مصورة بيده .

١٠ كانون الاول : وفاة المطران جرمانوس الشمالي اسقف موارنة حلب في جونية فجأةً عند نزوله من بكركي .

١٨٩٦

المتقدم مخائيل الياس دبانه الكاتب حنا فتحالله كردي الاعضاء عددهم ١٣٩

١ نيسان : حضر الى حلب مطران الموارنة الجديد السيد يوسف دياب .

٧ نيسان : جناز الاب يوسف روز اليسوعي المتوفى في ١١ اذار في بيروت وكان له الفضل في بناء كنيسة الاباء اليسوعيين في ترب الغربا (ب ١٢٢٦) .

١٤ نيسان : دخل المطران يوسف دياب الماروني حلب بعد سيامته (ب ١٢٢٥) .

١٨ كانون الاول : تعطفت الحضرة الشاهانية بوسام الشفقة على السيدة كلبلة خوري عقيلة السيد جرجي خياط لاعمالها في سبيل الفقراء (ب ١٢٦٢) .

في ٩ ت٢ ١٩٦٠ عثرنا في « التدريبة » في حلب على اوراق ودفاتر اقتنينا منها للمكتبة الشرقية في بيروت سجلاً ضخماً بقطع ٨ ليس له عنوان وفيه حسابات تجارية جرت بين السنة ١٨٨٥ و ١٨٩٦ ومحتوياته تدل على انه دفتر المحل التجاري المعروف لنصري وبطرس

حمصي . ولم يكن آنذاك غرفة تجارية يقيد فيها اسماء التجار ويُرجع اليها في معرفة حركة السوق . وان في الدفتر المذكور عشرات الاسماء من وطنيين وافرنج من مسيحيين ومسلمين ويهود اكتفينا بالاشارة اليهم لمن تحدثه النفس بكتابة تاريخ التجارة في حلب في اواخر القرن التاسع عشر ومنهم : الحاخام ابراهيم انطاكي ، دانيال طوبجي ، ميخائيل سمان ، يوسف عبديني ، نعمة الله أسود ، غزالة ، يعقوب واسحاق عدس ، حاخام حبيب دويك ، عبدالقادر الصلاحية ، مخائيل خضاي ، نصرالله تونتجي ، ررزق الله وعبدالله تاجر ، رزق الله بردخجي ، الياس انطون سابا ، نعوم تونل ، فرج الله نجم ، جرجي رباط الحردجي ، رافائيل وليون دي بيجوتو الخ . الخ .

١٨٩٧

المتقدم ميشيل صائغ الكاتب كريم قوشقجي الاعضاء ٨٣

٢١ حزيران : سافر الى جهة نهر الساجور راغب بك ابن الوالي وشارته المهندس وصالح كاتب النافعة لدرس فتح قناة بين الساجور ونهر القويق وعادوا وقدموا تقريرًا بامكان حصول هذا الامر (ب ١٢٨٧) .

٢٨ حزيران : اتمت البلدية انشاء منتزه جميل يبعد عن البلدة ساعة وموقعه على طريق مركبات اسكندرونه[1] واحتفلت بافتتاحه بحضور ملجأ الولاية وكبار الموظفين والاعيان (ب ١٢٨٨) .

٥ تموز : تألفت لجنة برئاسة ملجأ الولاية للمذاكرة والمباشرة في فتح قناة بين الساجور والقويق (ب ١٢٨٩) .

٢٦ تموز : تألفت لجنة غايتها جمع هدايا لأيتام وايامى وجرحى العساكر الشاهانية وجرت حفلة شائقة في المكتب الاعدادي وورقة الدخول كانت قيمتها ليرة عثمانية (ب ١٢٩٢)

٢ آب : اقيمت حفلة الجناز لاجل راحة البطريرك غريغوريوس يوسف الملكي الكاثوليكي حضرها انطون خياط ممثل الوالي . وابن الفقيد المطران افرام الرحماني والخوري قسطنطين الحضري بالفاظ دخلت الآذان بدون استئذان (ب ١٢٩٣) .

٣٠ آب : رخص بموجب ارادة سنية الى سيادة المطران افرام رحماني بالسفر الى حمامات كارلسباد في اوروبة (ب ١٢٩٧) .

٢٧ ايلول : المطران يوسف دياب الماروني يتوجه من فرنسة الى الاستانة الى حلب (ب ١٣٠١) .

---

(١) يدعى « بالسبيل » وكان اصله جورة واسعة تتجمع فيها المياه ثم عُمّر عليها بناية لتقيها من الاقذار وكانت كالقسطل موردًا للمسافرين واصبحت في يومنا واحة غنّاء واليها امتدت بنايات « حلب الجديدة » .

٢٥ ت ١ : صدرت الارادة السنية بسوق افراد العساكر الذين سحبت اسماؤهم من رديف الفرافرة وقارلق ونفيرهم الى بلاد تسالية (ب ١٣٠٥) .

٣٠ تشرين الاول : مثل شبان الجمعية الخيرية للاباء اليسوعيين رواية « الفتى الكريم» بقلم القس توما ايوب السرياني وهذه اسماء الممثلين : جميل رباط اسكندر كلداني جحجة اجقباش قسطنطين تاجر جرجي شاهين الياس تاجر باسيل فرا بشير خوام وذبع رباط اسكندر مراش الياس شاشاتي (ب ١٣٠٨) .

٢٦ كانون الاول : توفي السيد غريغوريوس بليط ابنه الخوري قسطنطين خضري والقس الياس شاحت والقس بولس عصفور — ولد الفقيد في ٢٨ ك١ ١٨١٥ وتعلم في حلب سامه كاهناً المطران باسيليوس عراظ في ٣٠ تموز ١٨٤٣ وعهد اليه بارشاد اخوية الاحداث واخوية الروح القدس للرجال . في ٢ شباط ١٨٦١ سيم اسقفاً على حلب اشترى دارين فسيحتين جعل احداهما كنيسة . في ١٨٧١ انشأ اخوية قلب مريم . (ب ١٣١٦) .

١٨٩٨

١٧ كانون الثاني : استقال عبدالله سالم من عضوية محكمة التجارة (ب ١٣١٧) .

٤ نيسان : قبضت الحكومة على ثمانية اشخاص من قتلة المرحوم فتح الله غزاله والقتهم في السجن (ب ١٣٢٨) .

٣ ايار : ورد خبر وفاة البطريرك عازاريان .

٢٣ ايار : زولنكر قنصل المانية دخل سلك[1] التقاعد وفوضت امور القنصلية الى ابنه اميل (ب ١٣٣٤) .

٦ حزيران : سافر علي باشا الى الصحراء لتأديب العرب والاشراف على عد الابل . (ب ١٣٣٦) .

١٠ حزيران : واجه المطران كيرلس جحا الحبر الاعظم في رومة . (ب ١٣٣٩) .

١٥ حزيران : جاء السيد اويديس تركيان اسقف مرعش القاصد البطريركي ليدبر شؤون الطائفة ويشرف على انتخاب اسقف ابرشية حلب .

٣ تموز : تم الانتخاب فنال اكثرية الاصوات كل من القس حنا بليط ١٥٣ صوتاً الاسقف اويديس تركيان ١٢٥ والقس اوغسطين صائغ ١١٠

---

١) زولنكر من كبار التجار الاجانب في حلب كانت التجارة مع اوروبا غالباً على يدهم وكان عمالهم من الحلبيين ثم تعلم هؤلاء اللغات الاجنبية وصاروا يخابرون الفبارك الاوروبية مباشرة . ثم لبثوا ان استقلوا عن معلميهم وفتحوا الدوائر التجارية لحسابهم . ومثلوا فيها الفبارك وما عتمت ان تنحت لهم المحلات الاوروبية عن ناحية واسعة من الاشغال

٤ تموز : نعين عبد القادر الجلبي مأموراً على نهر قويق ليمنع التعدي على مائه من قبل اهل القرى الكائنة على ضفافه (ب ١٣٦٠) .

١٨ تموز : تُلي في كاندرائية الروم الكاثوليك منشور البطريرك بطرس الجريجيري معلناً الغفران الكامل الذي استباحه من الحبر الاعظم ليوم عيد مار بطرس والقى الخوري قسطنطين خضري خطاباً في هذه المناسبة .

– مثلت راهبات القلبين الاقدسين بمناسبة عيد الاب بطرس ديفرنه[١] رئيس اليسوعيين رواية استشهاد القديسة اغنيسة .

– أُنتخب الاب يوحنا بليط اسقفاً على الارمن الكاثوليك (ب ١٣٦٢) .

٢٤ تموز : سافر من حلب السيد تركيان .

١٣ آب : وفاة الاب جوليان هنري[٢] اليسوعي في بيروت . كان رئيساً لدير حلب ومرشداً لاخوياتها وكانت له فيها خدمات مبرورة ايام الهواء الاصفر (ب ١٣٦٦) .

٢٢ آب : احتفلت جمعية التعليم المسيحي بمناولة الاولاد الاولى وكان الفضل في ذلك للاب اغناطيوس دلمان رئيس اليسوعيين وللشابين نجيب عسال ويوسف نصانه وللسيدات مدام البر بوخه ومدام كبتر ومدام كوخ .

اقام المطران ديونيسيوس افرام الرحماني صلاة الجناز من اجل راحة نفس المطران ثاوفيلوس انطون قندلفت . (ب ١٣٤٧) .

٣١ تشرين الاول : سار من حلب طابوران عسكر قاصدين يافا عن طريق الاسكندرونة لاستقبال امبراطور المانية وقرينته في زيارتها الاراضي المقدسة . (ب ١٣٥٧) .

١٨٩٩

المتقدم فرج الله خوام الكاتب يوركي خوكاز

٢٥ شباط : جاء مكتوب رسمي الى القس حنا بليط الرئيس من السيد اواديس تركيان يعلن تعيينه رئيس اساقفة على ابرشية حلب وسيحضر عن قريب فرُفع النطاء الاسود عن كرسي الاسقف وقرعت الاجراس وذُكر اسمه بالصلوات والقداس .

٢ اذار : الساعة الحادية عشر عربية وصل حلب المطران اويديس تركيان ومعه القس جبرائيل كبار وصار له استقبال حافل .

١) بطرس ديفرنه Duvernay ولد في ٢٧ ايلول ١٨٣٩ دخل الرهبانية اليسوعية في ٢٩ اذار ١٨٥٦ ومات في بيروت سنة ١٩٠٠ .

٢) جوليان هنري ولد في ٩ كانون الثاني ١٨٤٣ دخل الرهبانية اليسوعية في ١١ ايلول ١٨٦٣ .

٢٦ حزيران : شبت النار في البيادر قرب محلة قارلق فاسرعت العساكر السلطانية والجندرمة والبوليس والاهالي لاطفائها ولم يحترق الا تسعة بيادر .

— احتفلت جمعية مار منصور بعيدها في كنيسة الاباء اليسوعيين وقام بذبيحة القداس الاب لورنسو رئيس الفرنسيسكان

٢٧ حزيران : جاء تلغرافياً اعلان انتخاب السيد بوغوص عمانوئيلان بطريركاً وسمّي بوغوص بطرس الحادي عشر (ب ١٣٩١) .

١١ ايلول : تعين باسيل حجار امين صندوق البلدية[1] . (ب ١٤٠١) .

[ايلول : قدوم الاخوة المريانيست الى حلب][2] .

كانون الاول : نجز عمل خريطة حلب على يد شارتيه رئيس مهندسي الولاية ومعاونة راغب بك ابن الوالي . (ب ١٤١٣) .

---

١) باسيل حجار اشتهر بصوته الجميل كانوا يدعونه في الحفلات الكبرى الى الكنيسة واذا ما سمع الناس بوجوده كانوا يتهافتون ويزدحمون على سماعه . وقد اخذ عنه المرتلون وعلموا الحانه غيرهم في لبنان .

٢) جاء في القاموس التاريخي الجغرافي الكنائسي عن المطران كيرلس جحا . ان على ايامه لم تحترق الابرشية . ولعل في ذلك الحكم شيئاً من الغلو . فان للمطران كيرلس الفضل بانشاء مدرسة القديس نيقلاوس سنة ١٨٨٧ ثم باحضار الاخوة الماريانيت للتعليم فيها ولو كان بقي في حلب لكان من المرجح انه لم يتركهم يترحون عنها . جاؤها سنة ١٨٩٩ وغادروها نحو السنة ١٩٠٤ وفي تلك المدة القصيرة هذوا احداثاً كان من ثم لهم دور لا يستهان به في حياة الشهباء الثقافية . اول من جاء من هؤلاء الاخوة كان الاخوة ميرك وشارو وغابلدا — وكان المطران كيرلس قد طلب اثني عشرة من الماريانيت فجاء الثلاثة على سبيل الاستطلاع ولم توفق الادارة المركزية الى ابقائهم الى ان كان الفضل للمطران اوغسطينوس صايغ باحضار الاخوة الماريست الى حلب (١٥ آب ١٩٠٥) فدامامهم المماثلة التي آل امرها الى رسوخ قدم تلك الجمعية المباركة في حلب وانصرافها الى تهذيب الناشئة فيها الى يومنا . والماريست والماريانيت من اصل واحد . وكلاهم نشأوا اولاً في حضن الاخويات المريميات في فرنسة وكانوا من عامة المؤمنين ثم انصرفوا الى تعليم الناشئة في الرعايا وما عتموا ان كونوا جمعيات تحت ارشاد رجال عظام اخصهم الانباء كولان L'Abbé Colin . راجع في هذه المادة مقال « المؤسسات المريمية » في قاموس المعارف الدينية المجلد ٤ عمود ٨٠ وما بعده Dictionnaire Pratique des Connaissances Religieuses.

١٩٠٠

انفرطت الاخوية بسبب انتقالها من المدرسة الابتدائية الكائنة في محلة التدربية ولان الاب المرشد طمن بالسن وما بقي له مقدرة عـلى الحضور الى الاخوية .

١٣ شباط : احتفلت جمعية مار منصور في حلب بعيدها في كنيسة الاباء اليسوعيين بحضور الاب جياجنتو رئيس الفرنسيسكان اقام القداس الالهي الاب بروسبار الفرنسيسكاني وعظ القس بطرس عزيز الكلداني جمعت الصينية في مدة العام ١٧٢١٣ غرشاً .(ب١٦٢٣) .

٢٥ حزيران : نجز انشاء برج الساعة في ساحة باب الفرج .(ب ١٦٤٣) .

٢٣ تموز : نعي الى حلب القس اغناطيوس رباط الرومي الكاثوليكي توفي في قرية الشيخلية في دير الاباء الترابستيين والاب بطرس دوثرنه اليسوعي في بيروت (ب١٦٤٦) .

٣٠ تموز : يوم الاحد ١٥ منه وزعت الجوائز على تلامذة مدرسة الروم الكاثوليك التلميذ قسطاكي سابا قرئ خطاباً بالتركية والقس اثناسيوس كبابه القى خطاباً بالعربية

– جاء انيس باشا خلفاً لرأفت⁽¹⁾ باشا والي حلب

– انعم بالوسام المثاني الرابع على ميخائيل مخماجي (ب١٦٤٧)

١ ايلول : وجهت الرتبة الثالثة مع لقب بك الى الياس عبديني(ب١٦٥٢)

١٥ ت ١ : الف مجلس ادارة حلب لجنة من اهل المعرفة للنظر في المواد المختلف عليها بين رؤساء الاقمشة والمنسوجات وبين صناعهم للتوفيق بين الطرفين⁽²⁾ (ب١٦٥٨)

٢٩ ت ١ : سافر البطريرك ازجماني عن طريق الدير الى بغداد(ب١٦٦٠)

١٠ ك ١ : تألفت لجنة للبحث في احوال السجن وتصليحها (ب ١٦٦٦)

٢٤ ك ١ : فتح قسم زراعي للتدريس في المكتب الاعدادي (ب ١٦٦٨)

١٩٠١

١٦ ك ٢ : اشتد مرض الحصبة وفتك في الاطفـال وعطلت مكاتب الصغار من عشر سنوات فما دون واوجبوا بالمناية بالنظافة (ب ١٦٧١)

٤ اذار : اقيمت في كنيسة اليسوعيين تساعية لشركة السجود للقربان المقدس تناوب فيها الوعاظ (١٦٨٨)

---

١) رأفت باشا من خيرة الولاة العثمانيين في بدء القرن العشرين وله الفضل في فتح الطرق وانشاء المشاريع العمرانية في حلب . وكان من القائلين بواجب الاصلاح الداخلي في المملكة العثمانية على ايام عبد الحميد فلم تطل مدته في حلب .

٢) الاضرابات : اخذت المسئلة الاجتماعية بدءها في ذلك العهد فاحدثت دهشة عظيمة في البلد ولم يكن يسبق « للمعلمين » ان يروا العمال يقفون كتلة واحدة في وجههم ليطالبوا بحقوقهم .

١٨ اذار : فتكت حمى التيفوس في السجناء وتوفي عدة منهم (ب ١٤٨١)

١٥ تموز : مثلت طالبات مدرسة راهبات القلبين الاقدسين رواية ليا بنت يفتاح (١٤٩٧)

٩ ايلول : جف نهر قويق وجف ايضاً كثير من الآبار في بعض احياء المدينة وهو امر لم يسبق له مثيل (ب ١٥٠٥)

٢٣ ايلول : توفي الاب هنري دلمان[١] رئيس اليسوعيين في حلب ابنه القس مخائيل اخرس في الكنيسة وصديق قندلفت في المقبرة[٢] (ب ١٥٠٧)

٢١ تشرين الثاني : عاد من جهات الموصل وماردين البطريرك الرحماني – أجسين بوسام بيوس التاسع الى فتح الله خياط (ب ٢٥١١)

١٩٠٢

٥ ايار : حدثت فتنة في الحبس فتقاتل السجناء وتراموا بالحجارة التي اقتلعوها من الارض فاسرعت الجنود وفرقت المتشاجرين فعادوا الى السكينة (ب ١٥٣٩)

١٧ ايار : قدم من بغداد البطريرك عمانوئيل الكلداني (ب ١٥٤١)

– جرى في صربا جونية انتخاب المطران كيرلس جحا بطريركاً على الروم الكاثوليك[٣] .

---

١) هنري دلمان Dillemann ولد في ٢٨ نيسان ١٨٥٥ دخل الرهبانية اليسوعية في ٢٣ ايلول ١٨٧١ مات في حلب سنة ١٩٠١ .

٢) صديق قندلفت – ابن اخ المطرانين ثاوفيلوس انطون وباسيل السريانيين – تعلم في حلب ثم في مدرسة عينتورة ثم سافر الى باريس وتعاطى مهنة المحاماة وهو فيها الى يومنا من السوريين المشار اليهم بالبنان .

٣) جرى في دير المخلص في صربا انتخاب مطران حلب كيرلس جحا بطريركاً على الطائفة الملكية الكاثوليكية . في صباح ذلك النهار مرّ المطران كيرلس على الممشى المؤدي في البستان من البوابة الى بناية الدير فرأى الفعلة يرصفون ذلك الممشى بحصى جاؤوا بها من شاطئ البحر فاخذ الحصى البيضاء ووضعها في الكلس المفروش قبل ان ييبس فرسم بها اسمه كيرلس . ثم جرى انتخابه بطريركاً بعد ساعة فعاد وكمل ما كتبه على الطريق قبل ان يجمد الكلس وكتب « الثامن » والداخل الى الدير يرى في يومنا هذين الكلمتين مرصوفتين في الممشى كيرلس الثامن بالخط الكوفي . ومن اخبار المطران كيرلس جحا انه لما زار عبد الحميد في استنبول ارتدى الثياب الحبرية ودخل بتلك الهيئة على البادشاه كما لو كان يصعد درجات الهيكل للاحتفال بالقداس الكبير . فدهش عبد الحميد وقال ما هذا . فاجاب المطران كيرلس هذه ثيابي اذا ما دخلت بيت الله للصلاة وهذه ثيابي اذا ما وقفت امام من سلطه الله علينا ليرعانا بالعدل والفطنة . فرضي عبد الحميد بالجواب وانعم على المطران بالنيشان له ولرفيقه الخوري بطرس سابا الذي سوف يخلفه يوماً على كرسي ابرشية

٢٦ ايار: رقي المطران يوسف دياب الشماس جبرائيل سبع الى درجة الكهنوت (ب ١٥٦٢)

٩ حزيران: احتفلت شركة التكفير عن الانفس المطهرية بعيد سيدة ‹ونليجون› بفضل القس مخايل اخرس باربعة ايام صلوات وعظ فيها بالتناوب القس مخايل اخرس والاورتيت بولس بليط والقس باسيليوس شماع والاب هيلاريون الفرنسيسكاني والمطران يوسف دياب (ب ١٥٦٤)

٢٠ تشرين الاول: وصل الى حلب البطريرك عمانوئيل توما الكلداني وحضر قراءة الفرمان المؤذن بتوجيه ولايه حلب الى مجيد بك (ب ١٥٦٤)

٣ تشرين الثاني: مثلت جمعية التعليم المسيحي رواية يوسف الحسن منظومة بنحوالف شعر (ب ١٥٦٦)

١٩٠٣

١٦ شباط: احتفلت جمعية السجود الليلي في التذكار السنوي السادس لتأسيسها في كنيسة الاباء اليسوعيين وعظ الاب طوران الرئيس[1]

– توفي بطرس حمصي ترجمان القنصلية ورئيس لجنة الرحمة الروم الكاثوليك ابنه في المقبرة قسطاكي حمصي ومخايل صقال ونقولاكي كبابه (ب ١٥٨٦)

٢٣ اذار: في الاسبوع الاول من الصوم تروض في كنيسة اليسوعيين نحو ١٥٠ شابًا وكان الواعظ الاب منصور بستاني اليسوعي[2] (ب ١٥٨٦)

٢٧ نيسان: اثنت جريدة الفرات على الطوائف المسيحية لمسارعتهما الى تنظيم دفاتر

حلب باسم مكاريوس.

بعد ان ارتقى المطران كيرلس جحا السدة البطريركية ظلت الابرشية بغير اسقف مدة ثمانية عشر شهرًا في غضونها لم تتوحد اصوات الشعب في انتخاب خلفه. وان في الاوراق التي عثرنا عليها في سوق التدريبة في حلب وابتعناها للمكتبة الشرقية صورة رسائل مؤرخة من حلب في ٣ ايلول و٢٣ منه ١٩٠٣ وفي ٢٨ تموز ١٩٠٣ وموقعة باسم نقولاكي وتصري وبطرس حمصي وموجهة الى البطريرك في دمشق ورسالة مؤرخة في ١٨ آب ١٩٠٣ وموقعة باسم شبلي وموجهة الى البطريرك في الاسكندرية وكلها تتصدى الى بلبال الطائفة في عدم توحيد كلمتها على انتخاب المطران الجديد وفيها الكلام عن «الاحزاب» «والشعب الواطي» والانشقاق. كأن سفينة البيعة اصبحت دفتها بيد العالمانيين مما عرقل اعمال الرؤساء الى ان وفقوا الى اقامة المطران ديمتريوس القاضي متروبوليتًا على حلب فسيم اسقفًا في ٢٩ ت ٢ ١٩٠٣ ومثل هذه الازمات كانت تحدث كلما فرغ كرسي من الكراسي الاسقفية في بلادنا. اما الآن فبموجب الحق القانوني الجديد اصبح امر تعيين الاساقفة منوطًا امره بروما وزالت علة الخلاف مع خطر الانشقاق.

١) اسكندر طوران Torrend ولد في ٢٢ ت ١ ١٨٦٩ دخل الرهبانية اليسوعية في ٧ ايلول ١٨٧٧ مات في غزير في ١٠ شباط ١٩٦١.

٢) ولد في دير القمر في ١٢ آب ١٨٦٣ دخل الرهبانية اليسوعية في ٣ ت ٢ ١٨٧٩ مات في حلب في ٣٠ ك ٢ ١٩١٦.

البدلات العسكرية وتقديمها قبل غيرها من الطوائف مما يدل على اخلاصها للحكومة السنية (ب ١٥٩٦)

٣ آب : سافر الى قضاء بيلان البطريرك الرحماني السرياني – تعين جمجة اجيق باش امين صندوق البنك العثماني (ب ١٦٠٥)

١٧ آب : اقيمت المحاجر على الطرق المؤدية الى حلب وقاية من الهواء الاصفر (ب ١٦٠٧)

٣١ آب : تمت جميع لوازم المعرض الصناعي فجاء على ما يرام (ب ١٦٠٩)

٢٦ تشرين الاول : ازداد فتك الهواء الاصفر وبلغ عدد الاصابات من ١٢ الى ١٩ ت ١ ٨٦ و الوفيات ٧١ (ب ١٦١٦)

١٩٠٤

١٤ اذار : المطران ديمتريوس القاضي والمطران افرام نقاشه وكثيرون من الكهنة اجتمعوا للرياضة وكان واعظها الاب طوران اليسوعي (ب ١٦٤٠)

٢٥ تموز: احتفل الكلدان بانيوبيل الفضي لبطريركهم عمانوئيل توما – قدم من فريبورغ لزيارة اهله الاب اغناطيوس ماريا اخرس الفرنسيسي – يسمى المطران يوسف دباب الماروني بتبليط الكاتدرائية (ب ١٦٥٩)

١٥ آب : وصل حلب ثلاثة من الاخوة المريميين ليديروا شؤون المدرسة وذلك عن طلب سيادة المطران غريغوريوس صايغ

٢٦ ايلول : انتقل الى رحمة ربه المبرور رزق الله توتل وله من العمر ٦٥ سنة وكان سابقاً عضوًا في محكمة الاستئناف (ب ١٦٧٨)

١ كانون الاول : : رقى المطران ديمتريوس القاضي الشماسين بولس نجم وجرجس سالم[1] الى درجة الكهنوت واوجب سيادة المطران الكهنة القائمين بخدمة الابرشية ان يقيموا في دار الاسقفية (ب ١٦٧٨)

١٩٠٥

٦ شباط : اعاد الاب طوران اخوية الشبان التي كان قد اسسها الاب حبيب اليسوعي[2] وانتخب رئيساً لها لاون شوكتلي (ب ١٦٨٧)

١٣ حزيران : في حفلات سيدة مونليجون وعظ الاب انطون رباط اليسوعي والاب انطون مني الكلداني والاب ميخائيل بصال الكلداني والخوري باسيل شماع والخوري اسقفي بطرس عزيز (ب ١٧٠٥)

---

١) راجع ترجمته في رسالة قلب يسوع مجلد ٣٠ ص ٤٧.

٢) يوحنا حبيب ولد في ٢ شباط ١٨٥٠ دخل الرهبانية اليسوعية في ٢٧ ايلول ١٨٧٣ مات في المنيا (مصر) في ١ ايلول ١٩١١.

١٩ حزيران : منذ اخذ الاب تاودوروس صايغ بيده ادارة مدرسة الشرعسوس اربى عدد طلبتها على ٢٥٠ واخذوا يتعلمون مبادىء العربية والافرنسية (ب ١٧٠٦)

١٠ تموز : تقرر مد الخط الحديدي من حماة الى حلب (ب ١٧٠٩)

١٧ تموز : سافر من حلب الخوري حنا سيني المرسل اللبناني بعد ان قام فيها بالاعمال الرسولية – لراهبات القلبين الاقدسين خمسة معاهد مجانية تحوي ما ينيف على خمسمئة بنت استعد منهن ١٣٠ للمناولة الاولى – عهد المطران اوغوسطين الصائغ الى الاخوة المريميين بادارة مدرسة الارمن الكاثوليك (ب ١٧٠١)

٢٦ تموز : قدم الى حلب بكباشي الاي الرماحة لدولة اسبانية لشراء خيول لسراي اسبانية (ب ١٧١١)

٧ آب : تعين في المجلس الاداري باسيل انطاكي وفي محكمة الحقوق نيقولاكي بليط وفي محكمة الاستئناف باسيل حجار (ب ١٧١٣).

٣ تشرين الاول : قدم الاب لويس شيخو[1] حلب للبحث عن الكتب القديمة (ب ١٧٤١)

١٦ تشرين الاول : القى الاب كولانجت اليسوعي محاضرة في اللاسلكي واشمة رنتجن والاب لويس شيخو محاضرة في مشاهير شعراء الحلبيين ونقل الاب كولانجت في مدة اقامته في حلب الانغام العربية القديمة عن مشاهير هذا الفن من مسلمين ويهود ونصارى فاصاب بعض الغرض . مثل تلامذة الفرنسيسكان رواية توما موروس وهم نعوم غزالة واسكندر اخرس وكميل جنبير وجرجس كلداني وغيرهم – امر الوالي باقفال بيوت النار (ب ١٧٢٣).

١٩٠٦

٤ كانون الاول : كان البريد لا يسافر الا مرة واحدة في الاسبوع الى ولايات دياربكر والموصل وبغداد والبصرة ولحاجتها فصار يسافر مرتين . (ب ١٧٣٠).

٢٣ كانون الاول : القى البطريرك الرحماني العظات في احداث المجتى وترأس حفلة مار منصور – واحتفل المطران ديتريوس القاضي بعيد القديس نقلاوس في مدرسته وفي هذه المناسبة اقام رئيس المدرسة الاب اثناسيوس كبابه حفلة ادبية . (ب ١٧٣٣).

١٨ نيسان : اقام الاب استانيسلاس شيخو[2] حفلة الجناز من اجل راحة انفس اعضاء جمعية مار منصور . (ب ١٧٥١).

سافر من حلب الى جسر الشغر القاصد جيانيني .

٥ آب : اجتمعت الاخوية كعادتها السابقة المرشد القس جبرائيل اسيون المتقدم باسيليوس شماس ولم يتجاوز عدد الحاضرين الخمسة او الستة .

---

١) راجع المشرق ٣ ص ٦٧٣ و ٨ ص ٦١٧ وما بعدها وص ٦٢٩ وما بعدها.

٢) شقيق الاب لويس العلامة . ولد في ماردين ١١ كانون الثاني ١٨٣٦ دخل الرهبانية اليسوعية في ١٠ ت ١ ١٨٥٨ مات في بيروت في ٢ ت٢ ١٩١٨.

٨ تشرين الاول : يوم الخميس (٤ ت ١) من الاسبوع الماضي احتفل بافتتاح الخط الحديدي بين حلب والجنوب وقد قطع القطار المسافة بين بيروت وحلب بمدة ١٥ ساعة ونحرت الضحايا العديدة (ب ١٧٧٦) .

١٩٠٧

٧ كانون الثاني : ليلة عيد الميلاد الماضي الساعة ٤ عربية اقيمت فروض الطقس في كنيسة الروم الكاثوليك واحتفل المطران ديمتريوس القاضي بالقداس الكبير واعطى البركة والغفران الكامل (ب ١٧٨٧)

٢١ كانون الثاني : شخص ابناء الاخوية رواية « مالك يوم » وحبس ريعها على الفقراء — عين محمد مرعي باشا الملاح رئيساً لبلدية حلب (ب ١٧٨٩) .

٢٣ ايلول : تألفت شركة للسفر المنظم بين حلب وبغداد عن طريق دير الزور بعجلات تقطع المسافة بثمانية ايام (ب ١٨٣٤) .

٢١ تشرين الاول : جرت مسابقه الخيل للمرة الاولى في حلب (١٨٢٨) .

١٩٠٨

١٤ ايار : جرى في كاندرائية السريان احتفال لم يسبق له مثيل في عيد سيدة بومباي وعظ فيه بالايام الثلاثة الاستعدادية الاباء يوسف ايوب ونيقولاوس اديب وباسيل ايوب وفي يوم العيد المطران تقاشه . ومما اخذ بمجامع القلوب نظر احتشاد المسيحيين الوفاً في الكنيسة كأنهم من طائفة واحدة . (ب ١٨٥٩) .

١٥ حزيران : زار الشهباء المطران حنا مراد الماروني اسقف بعلبك . (ب ١٨٦٢) .

٢٢ حزيران : اهدى البابا بيوس العاشر وسام القديس غريغوريوس الكبير الى ناظم باشا والي حلب . (ب ١٨٦٣) .

٢٧ حزيران : عاد الجراد وزحف بكثرة من جهات بغداد والزور والقفار الى حلب فاتلف جانباً عظيماً من المزروعات . (ب ١٨٦٤) .

٢٠ تموز : اذن المرجع الايجابي باجراء سباق الخيل في حلب كالسنة الماضية — سلمت مدرسة الارمن ومديروها الاخوة المريميون شهادة نهاية الدروس واثبتتها القنصلية الافرنسية لزهير ورياض نخلجي وسامي صعب — مثلت اخوية الشبان رواية تحت اشراف رئيسها الاب لاون بوفا اليسوعي (ب ١٨٦٧)

١٠ آب : رغماً من العفو الشاهاني لم يطلق حتى ٥ آب سراح الارمن الذين في سجون حلب واستاء عموم الاهالي من ذلك الابطاء (ب ١٨٧٠)

١٧ آب : الافراج عن الارمن المسجونين — يوم الجمعة ٧ آب وقف بعض الضباط الاحرار على باب السجن ولما خرج السجناء وعددهم ثلاثة وعشرون رجلاً وامرأة واحدة حياهم الضباط برفع السيوف وتقدم اليوزباشي مدحت بك فعانقهم جميعاً ثم ركبوا العربات تتبعها عربات اهلهم واقاربهم وجمع غفير من المتفرجين ولما انتهوا الى باب الفرج لاقتهم

الموسيقى الوطنية ورافقتهم حتى الكنيسة وقبل ان يلجوها ذبحت الذبائح فشوا فوقها ثم دخلوا فشكروا الله على ما من به عليهم من الحرية ويوم الاحد ٩ آب أعدت الطائفة الارمنية حفلة مدنية انيقة لممثلي جمعية الاتحاد الترقي العثماني

– يوم السبت الواقع في ٨ آب ابعدت جمعية الاتحاد والتقدم العثماني عبد الرزاق آغا ابي المدى ويحيى بك الشمما لما عرفا به من الاستبداد وسوء الاعمال وكان في مسيرهما من المدينة الى محطة السكة الحديدية يرافقهم جمهور غفير واماما جندي حامل لوحاً مكتوباً عليه هذا جزاء المستبدين خونة الدولة والامة (ب ١٨٧١)

٣١ آب : قلقت الخواطر من امكان حدوث شغب في هذه الايام لكثرة الاعيان الذين عزلوا من وظائفهم مثل زكي باشا المدرس ومراد افندي جابري ولكن سكن قلقنا استعداد الضباط والعسكر لملاقاة الطوارئ فقد قسم جميع الضباط ان يقطعوا رأس كل معارض للقانون الاساسي (ب ١٨٧٣)

٥ تشرين الاول : نهار الاثنين ٢١ ايلول فتحت ابواب الجامع الكبير للمسلمين والنصارى والاسرائيليين ليسمعوا خطاباً القاه عليهم مبعوث من قبل جمعية الاتحاد والترقي العثمانية الى ما بين النهرين فحرضهم على الاخاء والمحبة والتكاتف والاخلاص للقانون الاساسي وقدر عدد سامعي الخطاب المذكور بعشرة الاف وهذه اول مرة فتح الجامع الكبير لعموم الاهالي وهو حادث هام عندنا اذ انه كان محظوراً على النصراني ان يدخل الجامع الكبير ولم يكن يسمح له بذلك الا بعد الجهد الجهيد خلافاً لما هو جار في مدن اخرى كالاستانة ودمشق . (ب ١٨٧٨).

٢٦ نيسان : استولى الخوف على البعض لسماعهم بالاضطرابات الاخيرة فهاجرت عدة عيال وتوجهت الى زحلة في لبنان . (ب١٩٠٨).

١٠ ايار : توالت الوقوعات الفاجعة في ضواحي حلب كانطاكية وكسب ودرت يول واكبس وباياس وقرق خان فرحل كثير من اهالي الشهباء ذوي اليسار وكثيرون التجأوا الى دور القناصل والخانات وقد دار على السنة بعضهم ان الوالي حسب الاوامر الوافدة عليه كان ضلعاً على المسيحيين ولولا تدارك جمعية الاتحاد والترقي للامر لكان اصابنا من الويلات ما اصاب غيرنا (الارمن) على اني لا انكر ان في المدينة اعياناً من المسلمين عرفوا بالنزاهة واصالة الرأي وقد بذلوا كل وسعهم في تسكين الخواطر بالتحذير من سوء العاقبة — ما لبث ان عاد من زحلة من كانوا قد هاجروا اليها فاثنوا على كرم اهل زحلة .

١٠ ايار : يوم الاربعاء الماضي احتفلت الحكومة احتفالاً باهراً بتلاوة التلغراف الوارد منبئاً بارتقاء جلالة السلطان محمد خان الخامس الى العرش الملكي وقد دعت جمعية الاتحاد والترقي الى هذا الاحتفال تلامذة جميع المدارس على اختلاف النحل والاديان وكان المسيحيون يهنئون بعضهم بعضاً كانهم نجوا من الموت واخذوا يعيشون عمراً جديداً . (ب ١٩١٠).

٢٩ ايار : وقف دولاب الاشغال واشتد العسر واخذ كثيرون يمدون بالمئات يهاجرون الى الديار الاميركية – سافر المطران ديمتريوس القاضي وبصحبته الخوري باسيليوس شاع الى عين تراز – اصدر كنيدر اخوان جريدة عنوانها التقدم تظهر موقتاً مرتين في الاسبوع

وطلب ليون شوكتلي امتياز جريدة عنوانها الشعب وجورجي خياط امتياز مجلة الورقاء — زار المطران تقاشه نادي جمعية الاتحاد والترقي وشكرها على حمايتها المسيحيين — نشرت الولاية اعلاناً في منع حمل السلاح (ب ١٩١٣).

١٦ حزيران : سافر مخفوراً مع القطار الحديدي قائمقام كركوك وله اليد الطولى في مذابح درت يول وانطاكية وما جاورهما وقد اشبعه الاهالي من مسيحيين ومسلمين ورجال ونساء سباً وشتماً وضرباً في المحطة. (ب ١٩١٥).

٢١ حزيران : السيد روكفريه قنصل دولة فرنسة العام عاد من رحلته التفتيشية في قيليقية ومعه نحو ثمانين بنت يتيمة ذهب اهلهن ضحية المذابح .(ب ١٩١٦).

١٩ تموز : مدرسة السريان وزعت الجوائز على التلامذة بحضور ممثلي جمعية الاتحاد والترقي. (ب ١٩٢٠).

٢ آب :احتفل بالعيد الوطني واخذت العراضات تغد على الدراي لاعبة بالسيف والترس وحملت العراضة المسيحية صورة نيازي وانور وشوكت في عربات مزينة — ارتفعت اسعار الحنطة واصبح ثمن الشنبل ١٦٥ غرشاً . (ب ١٩٢٢).

٢٣ آب : اجتمع في ساحة سوق الجمعة نحو ٧ او ٨ الاف نفس واحتجوا على رفع العلم اليوناني على جزيرة كريت — لا يزال الاهالي يهاجرون زرافات الى اميركا ولا سيما الاسرائيليون بسبب الغلاء الفاحش — تألفت شركة لجلب ماء الفرات الى حلب .

بعث بعض الاهالي تلغرافاً الى وزارة الداخلية وطلبوا فيه عزل والي حلب وتعيين والٍ دستوري عوضه. (ب ١٩٢٥).

٩ تشرين الاول : عولت حكومة حلب على منح امتياز تنوير المدينة بالكهرباء وتسيير الترامواي فيها (ب ١٩٣٢)

٢٧ تشرين الاول : انتخب باسيل جرجي شماس متقدماً

١٣ تشرين الثاني : تعين ابن شيخ الاسلام والياً على حلب وقرر معاقبة السكارى بالفلاق واتوه بسكران فقال له اتعرفني من انا فاجاب الوالي لا فقال انا ابن الباشا فحينئذٍ قال الوالي اذاً تضرب عشرين سوطاً زيادة وهكذا كان — يرغب الوالي ان يكون بين نواب حلب نائب مسيحي (ب ١٩٣٧)

١٩١٠

١٣ شباط : دشنت راهبات مار يوسف معبد مدرستهن وهي على اسم القديسة جان دارك (ب ١٩٥١)

٧ ايار : انتهى النزاع القديم على ارض المشنقة بين طائفة الارمن الغريغوريين وجامع الحكومة على ان يأخذ كل من الفريقين نصف الارض المذكورة (ب ١٩٢٢)

١١ حزيران : انتخب الخوري بطرس عزيز الكلداني اسقفاً على ابرشية سالمس في بلاد العجم (ب ١٩٦٧)

٣ ايلول وصل الى حلب من عينتاب فريق من الجنود المسيحيين وقد البسوا الثياب العسكرية وعن قريب يرسلون الى حوران (ب ١٩٨٠)

٤ تشرين الاول : قبل مجلس اخذ العسكر بتصحيح الاعمار طبقاً لسجلات المعاد والختان وكان قبلاً يعارض في ذلك (ب ١٩٨٣)

السبت ١٢ تشرين الثاني : وفاة الورتبيد بولس بليط (راجع المشرق ١٧ ص ٨١)

٢٨ كانون الاول : المتقدم عبدالله رزق‌الله جعا عدد الاعضاء ٦٥

١٩١١

٣ شباط : اشتد البرد وبلغت درجته العشر تحت الصفر وهبطت الثلوج وانقطعت الطرق وماتت المواشي وارتفعت اسعار اللحم والوقود وجمد بعض المسافرين على طريق عينتاب وكلس واسكندرونة ووصلت دواب محملة زيتاً فسارت تواً الى خان الزيت ولم يكن معها اصحابها فطلبهم الناس فوجدوهم مطروحين على الطريق خارج المدينة فعالجوهم وعادوا بهم (ب ٢٠٠٦)

٢٦ شباط : هبطت درجة الحرارة الى ١٨ تحت الصفر وحدث ضيق لم يبق له مثيل في هذا الجيل من شدة البرد وانقطاع الطرق بالثلوج فقام رجال الدين يدورون في الازقة ويجمعون الوقود والثياب للفقراء (٢٠١٢)

١ اذار : نشكر لله تعالى نهاية البرد القاسي . تناثر الثلج مدة خمسين يوماً وتراكم فسد الازقة وابواب الدور وبلغت درجة البرد ٢٥ تحت الصفر سنتيغراد واغلقت الاسواق وكثرت الوفيات وارتفعت اسعار الحاجيات ارتفاعاً باهظاً وبلغ رطل الفحم اثني عشر غرشاً واهتم الوالي للامر فجمعت الحسنات من سائر الطوائف المسيحية والاسلامية والاسرائيلية وارسلت الاسعافات من سائر المدن ووقف القطار الحديدي اما الاخوية فحال البرد دون اجتماعاتها والسير في الازقة كان كالمشي على الصابون اما الدراهم التي جمعت للفقراء في البلد فبلغ مجموعها نحو الفي ليرة عثمانية ذهبية فوزعت فحماً ودقيقاً على المساكين .

٢٨ ايار : عيد تثبيت الاخوية اخذت صورة الاخوة وبينهم سيادته والاب المرشد جبرائيل والقس بولس اسيون اخوه وفي نهاية الحفلة اطلق بالونان في الفضاء. وكان الفطور بعد القداس بونج وصناديق ولفظ خطاباً فرج الله بيلونه المشير السادس وميشل شاشاتي المشير الثاني

٦ حزيران : احتفلت اخوية الحبل بلا دنس الراجمة الى دير الاباء اليسوعيين بسنة الخمسين منذ تأسيسها . (ب ٢٠٤١).

٣٠ آب : وفاة الخوري يوسف ستنان في ميروبا (لبنان) ترك كل ماله لمدرسة الشرفة التي تربى فيها .

٥ تشرين الاول : وفاة القس توما ايوب السرياني ولد في حلب في اوائل اذار ١٨٦٥ درس في الشرفة وفي اكليريكية الاباء اليسوعيين في بيروت حيث درس العربية ودرس الافرنسية والانكليزية واللاتينية واليونانية والبيان والخطابة والمنطق والفلسفة ثم عاد الى مدرسة الشرفة في لبنان فقرأ فيها اللاهوت النظري والادبي وتخرج في الطقوس البيعية وجاء حلب فرقاه البطريرك جرجس شلحت الى درجة الكهنوت في ٢ شباط ١٨٨٥ . قضى ٢٧ عاماً في مدارس حلب وقد تنافست في الحصول عليه. فتح بيته للادباء. ووضع مكتبته في خدمتهم وفي ١٩٠٩ احتفلوا بيوبيله الكهنوتي الفضي . من مؤلفاته كتاب مواعظ عنوانه شبكة بطرس لم يطبع وله ديوان شعر ورسائل وفكاهات وعرّب رواية فابيولا وكوفاديس وعرّب نحو ستين رواية تمثيلية وفي المكتبة الشرقية في بيروت كتاب التعليم المسيحي نقحه قلمه ولم يُطبع .

١٩١٢

المتقدم رزق الله جحا كاتب الوقائع الياس باسيل طنبرجي عدد الاعضاء ٩٤

٢ كانون الثاني : تكلم الاب المرشد عن مضار القمار .

حاشية

ما يخص بطريركية الارمن الكاثوليك وعقد السينودوس الطائفي

استعفاء غبطة البطريرك صباغيان

لما اعلن الدستور العثماني والقانون الاساسي في المملكة العثمانية وكثر لغط الجمهور خاصة في الاستانة بوجوب الاستفادة من اعلان الحرية وترقية الطائفة في كل شؤونها وتطبيق ادارة الطائفة على طرز ادارة السلطنة الجديدة اقتفاء بالطوائف الغير الكاثوليكية اضطر المجلس الطائفي في الاستانة غبطة البطريرك صباغيان الى منحه لقب مجلس النواب المبعوثين الطائفي اقتداء بمجلس المبعوثان الا ان اعضاء هذا المجلس تمادوا في الشطط عن سبيل الاستقامة وتجاوزوا حدود الخضوع للسلطة الكنسية ولما رأى غبطته هذه الحالة وانه طاعن في السن استقال من وظيفته سنة ١٩٠٩

انتخاب غبطة البطريرك ترزيان

فخلفه على السدة البطريركية غبطة السيد ترزيان اسقف اطنه الذي شهد فيها المواقع الدموية التي جرت بعد اعلان الدستور بسنة ونصف واظهر اذ ذاك من البسالة والمحبة الطائفية ما استمال اليه حب الجميع واخذ كل افراد الطائفة في الاستانة خصوصاً يلهجون بوجوب انتخابه بطريركاً وتم هذا الانتخاب سنة ١٩١٠ وجاء من اطنة الى الاستانة فاستقبل بحفاوة واكرام عظيمين وظن اعضاء المجلس الطائفي ان من رقى الى السدة البطريركية بالحاحهم وسعيهم سيضحي آلة بين ايديهم اطوع لهم من انامِلهم وظنوا ان البطريرك سيكون منفذاً لقراراتهم خاضعاً لاحكامهم بلا مراجعة ولا معارضة ولكن ما لبثت الايام ان اظهرت عدم امكان هذه الحال وصعوبة تحقيق هذه الامنية فقام الخلاف على قدم وساق بين غبطته واعضاء المجلس واضطر البطريرك ،

على ايعاز الكرسي الرسولي نفسه ، الى ان ينفض هذا المجلس ويحله معلناً ان ›وجوديته تضاد الشرع الكنسي وانه لا يستعرف البتة لائحة القوانين الداخلية التي اعدها المجلس لتكون بعد الفحص والتدقيق دستور العمل في الطائفة والقانون الاساسي الذي ترجع اليه ادارة الطائفة وترتيب شؤونها لان هذه اللائحة كانت ترمي الى سلب السلطة الاكليروس وتسليمها ليد العوام يقضون ويمضون على منوال الارمن والروم المنشقين .

رحيل البطريرك الى رومة

وعلى اثر ذلك سافر غبطته من الاستانة قاصداً رومة بعد انتخابه بطريركاً بسبعة اشهر وذلك قصد نيل الباليوم من يد الاب الاقدس واتخاذ التدابير اللازمة في امور الطائفة فمن بعد ما نال غبطة البطريرك تزيان الباليوم المكرس من يد قداسته اول ما اعتبر ضرورياً في رومة انما كان عقد مجمع طائفي في رومة عينها لوضع المبادي الاساسية التي يجب رعايتها في جميع الاحوال فاغتنم الفرصة اذ ذاك غبطته لحضور المجمع القرباني في مدريد ثم عرج الى باريس وعاد من هناك الى رومة حيث التأم السينودوس . وفي اثناء ذلك اصدر منشوراً يحل به المجلس المدعو مجلس النواب الطائفي وبيّن فيه خطة الكنيسة الكاثوليكية وامتيازها في خطتها عن سائر الكنائس واصدر ايضاً كراساً فيه مقالة ضافية الذيول يفند بها لائحة القوانين التي وضعها النواب ويظهر بطلان اساسها والغاية المنافية التي ترمي اليها وما تحتويه من المبادي والقوانين التي لا يمكن ان تنطبق على المبدا الكاثوليكي . ثم ارسل رسائل مستعجلة لجميع الاساقفة ولبعض الكهنة المترشحين للاسقفية ليحضروا حالاً الى رومة لعقد السينودوس .

انعقاد السينودوس في رومة

هذه اول مرة انعقد فيها مجمع شرقي في مدينة رومة تحت رئاسة بطريرك شرقي بصفة وكيل قداسة البابا الا ان عدد الاساقفة كان ناقصاً لسبب فروغ عشرة كراسي بموت رعاتها او باستعفائهم . وانعقاد السينودوس كان واجباً في الحال تلافي استفحال الوبال . ولما رأى غبطته المشاكل الوظيمة التي يتوقع

حدوثها اذا جرى انتخاب الاساقفة للابرشيات المترملة حسب العادة الجارية اي بأخذ شهادات الشعب الحسنة وعرضها على سينودوس الاساقفة رأى غبطته ان يسأل الاب الاقدس ان يعيّن رأساً مطارين للكراسي الفارغة فعيّن قداسته كهنة جديرين بهذه الوظيفة وهم الذين ارسلت اليهم رسائل الدعوة الى رومة فعيّن : ١ً — السيد يوسف روكدسيان نائباً بطريركياً في الاستانة .

٢ً — السيد اغناطيوس مالويان رئيس اساقفة لماردين خلفاً للسيد هوسيك كوليان المستعفي .

٣ً — السيد يوسف ملكيصادقيان خلفاً للسيد كرابيد كجوريان المستعفي اسقفاً لارضروم .

٤ً — السيد يعقوب طوبدريان اسقفاً لمرعش .

٥ً — السيد هاروتيون ككليكيان اسقفاً لاطنه خلفاً لغبطته .

٦ً — السيد كريكور بهابانيان اسقفاً لانكورية .

٧ً — السيد انطون بهاسانيان اسقفاً لقيصرية خلفاً للسيد متيوس سيسليان المستعفي .

٨ً — السيد يوحنا نظليان اسقفاً لطرابزون .

٩ً — السيد اوهان قوزيان اسقفاً لمصر خلفاً للسيد قويونيان المستعفي .

١٠ — السيد اواديس اربياريان اسقفاً لمرعش

وما عدى السيد اربياريان الذي كان اسقفاً مرسوماً جرت قبل كل شيء في رومية حفلة رسامة الاساقفة التسعة الجديدين التي تقدمها استعداد للرسامة وللسينودوس تروض فيه جميع الاساقفة مدة اسبوع . فابتدأ المجمع في ١٥ تشرين الاول سنة ١٩١١ وانتهى في ٨ كانون الاول سنة ١٩١١ يوم عيد الحبل بالعذراء البري من الدنس .

وهذه اسماء آباء المجمع :

١ — غبطة البطريرك بولس بطرس ترزيان

٢ — السيد يوسف تيودورفيتز اسقف لمبرك من الطقس الارمني .

٣ — السيد هوسيك كوليان .

٤ — السيد اغسطينوس صائغ رئيس اساقفة حلب .
٥ — السيد لئون كجهجيان رئيس اساقفة سيواس وطوقات .
٦ — السيد كريكور كوربكيان رئيس عام لمختاري فينة .
٧ — السيد بطرس قويونيان الاسقف الراسم في رومة للطقس الارمني .
٨ — السيد اندراوس جلبيان اسقف دياربكر .
٩ — السيد اسطفان اسرائيليان اسقف خربوط .

ثم الاساقفة الجدد للكراسي المار ذكرهم .

وقد ساعدهم في هذا المجمع سبعة من فطاحل اللاهوتيين وعلماء الحق القانون برومة وقد صار المجمع غاية في الاتقان وحدّدت فيه كل المسائل المتعلقة بالكنيسة ايماناً وعملاً . فتقرر توحيد الطقس في كل مكان واستعمال اللغة الارمنية لا غير وتوزيع الاسرار في الكنيسة لا في البيوت وعمل لجنات لادارة الاوقاف وترتيبات اخرى مفيدة يمكن الاطلاع عليها بمراجعة اعمال السينودوس البديعة اما المجمع فلم يتطرق الى مسألة الجمعية ولم يفض المشكل ولا حسم الخلاف القائم بين شعب الاستانة وغبطته من جراء حل المجلس الطائفي الذي بالرغم عن فسخه ما زال يجتمع في البطركخانة نفسها وقد قدم تقريراً الى الباب العالي طالباً عدم استمرار البطريرك الذي على زعمه بخس الطائفة حقوقها بعدم مراعاة امتيازات الشعب وخرق حرمة القوانين العثمانية اذ ذهب الى مملكة اجنبية ليعقد فيها مجمعاً طائفياً ويُقيم اساقفةً لم تؤدِ بحقهم الشهادة الحسنة . ومما ساعد الشعب مثل هذه الازعام والاوهام البحتة نشوب الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الايطالية في طرابلس الغرب وقد اعلنت هذه الحرب بعد ابتداء السينودوس بقليل وبسببها لم يستطع بقية الاساقفة ان يحضروا السينودوس لانهم تأخروا عن الذهاب الى رومية فمنعتهم الدولة من الرحيل بعد اعلان الحرب وهم السيد ميكائيل خجادوريان اسقف ملطية الذي بقي بالاستانة ومعه السيد متيوس سيليان اسقف قيصرية المستعفي والسيد هازوتيون جانجيان اسقف بروسه والسيد كرابيد كجوريان اسقف ارضروم اما البطريرك السابق غبطة السيد صباغيان فقد بقي في حلوان في مصر بمحله .

ولما انتهى المجمع عاد الاساقفة الى محلاتهم والبعض منهم عادوا مع غبطته الى الاستانة حيث اشتد هيجان الشعب واتصلت وقاحتهم الى محاولة اخراج غبطته من البطركخانة لان الحكومة لم تسمح لهم بالدخول اليها والجنود تحافظ على البطركخانة لترد عنها هجمات الرعاع وقد قدم مجلس المذكور تقريراً ثانياً للحكومة طالباً عدم استعراف البطريرك . جعل الله النتيجة خيراً .

السيد اوغسطينوس صائغ رئيس اساقفة ارمن حلب

اما سيادة راعينا المفضال السيد اوغسطينوس صائغ فلما عاد الى ابرشيته تلقته ابناء الطائفة بالبهجة والسرور وكان رجوعه لحلب في ٤ كانون الثاني ١٩١٢ الواقع قبل عيد الغطاس فبعد ثلاثة ايام جمع الكهنة المصرَّفين بحلب وهم الورتبيت يوحنا بليط والقس ميخائيل قديد والقس جرجس كرتكيان والقس يعقوب نسميان والقس جبرائيل اسيون (مرشد هذه الاخوية) والقس بولس اسيون (شقيق الاب المرشد) والقس يوسف يغيا . ويوجد في حلب لطائفة الارمن الكاثوليك اثنان ايضاً من الكهنة يعتنيان بالمدرسة المجانية ويعلمان فيها وهما القس كاروبيم كمدة والقس ميخائيل عريس . ولما اجتمعت الكهنة عند سيادة راعينا المفضال فاتحهم بابداء الشكر لما بذلوه من الخدم في زمن غيابه عن الابرشية واثنى بالخصوص على وكيله ونائبه الورتبيت يوحنا بليط وابتدأ الكلام عن بعض اشياء ترتبت في السينودس واولاً فيما يخص المعاد والاكاليل قال يجب ان يتوزع هذان السران في الكنيسة وفي وقت النهار ابتداء من اليوم الاول من الصوم الكبير وقال تقرر ايضاً في السينودس انه يجب اتباع الكتاب الطقسي (تشدوتص) بكل دقة في توزيع الاسرار وفي الصلوات الطقسية كالزياح والجناز وصلاة الدفن وما شاكلها وما عاد يجوز ادخال اللغة العربية او لغة اخرى في هذه الامور ومن ثم عيّن سيادته لجنة لادارة الاوقاف وانتخب الاعضاء التابعين الورتبيت يوحنا بليط والاب جرجس كرتكيان (كاتب المحاسبات) والاب بولس اسيون والاب ميخائيل عريس والاب يوسف يغيا (وكيل الخرج) وعندما يتم تثبيت اعمال المجمع من السدة البطرسية ستوى

اموراً كثيرة عائدة لنجاح الطائفة وترقيتها في الروحيات والزمنيات • حقق الله الآمال وايد ببركته كل الاعمال

في ٢٥ كانون الثاني ١٩١٢

نقلها الفقير الى ربه تعالى الاخ الياس باسيل طنبرجي من اخوية الحبل بالعذراء البريء من الدنس

٤ ايار : ابتدأ الهواء الاصفر بحلب واستمر ثلاثة اشهر وفي شهر حزيران فتك فتكاً ذريعاً باهالي المدينة حتى اناف عدد الاموات يومياً على الخمسين وهرب الكثيرون الى جهات مختلفة وظهر الوباء في نواحي حلب وفي الشام وفي بيروت .

٧ آب : اجتمعنا حسب العادة وقد تلاشى الهواء الاصفر ولله الحمد.

١٧ آب : سافر سيادة راعينا الى بزمار بصفة زائر بطريركي لفحص امور الدير وترتيبها من دروس واوقاف واشخاص وحسابات وذلك على اثر لائحة تشكي تقدمت من البزماريين بخصوص عدم انتظام واقع بالدير .

وفي هذا الشهر تغيّرت الوزارة وتألفت وزارة جديدة تحت رئاسة احمد مختار باشا وفسخ مجلس المبعوثان وكان ذلك ضربة قاضية على جمعية الاتحاد والترقي وعزل والي حلب غالب (؟) بك وغير ولاة من الاتحاديين .

١ ايلول : بكّر الاخوة من الساعة ٧ ليلاً لكنيسة الارمن حيث حضرة المرشد اقام القداس الالهي والاب توما رباط قب اقام القداس الالهي على طقس الحمير . وفي نهاية القداسين طلع الاخوة مع حضرة المرشد والاب توما المذكور بالعربيات لبستان الخالق وشرف الاب بولس اسيون بالنهار فكان بستاناً شائقاً وانتهى في الساعة الرابعة ليلاً وكان عدد الموجودين ٢٧

٩ ايلول : بارح حلب قاصداً الى ديار بكر السيد اندرياس جلبيان بعد ان بقي منفياً عن ابرشيته مدة سنة او من وقت السينودوس •

٢٠ منه : اتى خبر قتل وانيس افندي تزازيان من اعيان طائفة الارمن الكاثوليك بديار بكر وقد قتله احد المسلمين .

٢١ منه : اتى مكتوب من القس كركور احمرانيان من بزمار فيه يقول

ان قد تعيّن القس كركور وانجازيان عوض عن القس كركور عجميان الحلبي رئيساً لبزمار ولكنه ما اراد ان يقبل الرئاسة لسبب عدم انتظام الحال الحاضر وعدم وجود الموظفين الضروريين ولاجل الديون المتراكمة على الدير فوعده السيد اغسطينوس صائغ الموكل حالاً على الدير وكالة مطلقة من قبل غبطة السيد البطريرك بأن يكمّل له هذه الشروط التي لاجلها لا يريد قبول الرئاسة .

٢٤ منه : اتى خبر استعفاء بطريرك الارمن الغير الكاثوليك ارشادوني واستعفاء مجلس الملة وغلق الكنائس والمدارس الارمنية احتجاجاً على تعدّيات الاكراد على الارمن في وان وديار بكر وغيرها .

٢٥ منه : في اواخر هذا الشهر اتى الى حلب الاب جبرائيل اده[1] رئيساً للآباء اليسوعيين بدلاً من الاب بوفا[2] الذي تعيّن للشام وفي هذا الشهر تم تدهين كنيسة الارمن الكاثوليك اي محل الهياكل فقط وذلك على اثر تبرع من المرحوم اسكندر طباخ ومساعدة غيره من المحسنين ايضاً .

١ تشرين الاول : وفاة السيد يوسف دياب مطران موارنة حلب أبّنه في اندار الاسقفية وفي الكاتدرائية السيد افرام نقاشه مطران السريان والايكونوموس ميخائيل شحود بالنيابة عن سيادة المطران ديمتريوس قاضي المتغيب في لبنان لزيارة الراهبات والورتبيد يوحنا بليط بالنيابة عن السيد اغسطينوس صائغ المتغيب لزيارة دير بزمار وبالختام صعد المنبر الخورفسقوفوس جرجس شلحت وأبّنه بسجع ونثر متخذاً الآية سقط اسد وبطل في اسرائيل .

٣ تشرين الاول : سافر القس يعقوب نسيميان الى بيروت حيث عيّن مع القس يوسف كحو عوضاً عن القس باسيل قليوبيجيان والقس سكياس جوريان .

٤ منه : وصل وفيق بك والي حلب الجديد وفي هذه الايام الاهالي امست باختباط عظيم لسبب جمع الرديف احتياطاً لمقاتلة الدول البلقانية علّها تشهر الحرب قريباً على تركيا .

---

١) جبرائيل اده ولد في ١٩ ت ٢ ١٨٤٨ دخل الرهبانية اليسوعية في ٩ ت ١ ١٨٦٦ راجع ترجمته في رسالة قلب يسوع ٢٢ ص ٣٤ .

٢) الاب Léon Buffat ولد في ٩ ايار ١٨٦٩ في فرنسة دخل الرهبانية اليسوعية في ١٩ ايلول ١٨٨٩ توفي في بكفيا في ١٧ شباط ١٩٤٨ .

٥ منه : مرَّ بحلب السيد يوحنا درور الكرمليتاني قاصدًا ما بين النهرين متوجهاً الى الموصل .

٧ منه : تمت المعاهدة بين البلغار واليونان والجبل الاسود والصرب واتحدوا جميعاً لاشهار الحرب على الدولة العثمانية وقد اشهروها مؤخرًا وعندنا في هذا الزمان وقفت الاشغال وكل يوم يسافر عدد وافر من عسكر الرديف وبعضهم يتطوعون .

١٩١٢

١٣ تشرين الاول : مساء زار حلب نجيب باشا ملحمه فاستقبله الوالي في المحطة (ب ٢١٨١) .

توفي فردريك بوخه قنصل بلجيكا ووكيل قنصلية اميركا وروسيا والنمسا سابقاً ابنه في الكنيسة الاب بولس دورليان الفرنسيسي .

١٥ تشرين الاول : اتى الى حلب القس بولس عريس عائدًا من بزمار .

١٧ تشرين الاول : وقع الصلح بين ايطاليا والدولة العثمانية .

٢١ تشرين الاول : نال البكالوريا من نظارة المعارف الافرنسية كبريل بليط هنري هندية ادولف بوخه في مدرسة الفرنسيسكان (ب ٢١٨٣) .

٤ تشرين الثاني : عاد من بزمار السيد اوغسطينوس صائغ .

٨ تشرين الثاني : اصبحت المهاجرة الى البلاد الاميركية آفة حلب . في كل اسبوع يسافر ثلاثون او اربعون شخصاً ومنهم عيال برمتها (ب ٢١٨٦) .

٩ تشرين الثاني : احتفل بعيد الاب المرشد . قرأ خطاباً بالارمنية ادوار حلاق وبالافرنسية ميشيل شاشاتي وبالعربية كامل بيلونه وجرجي بسطوري .

١٢ تشرين الثاني : الاب المرشد قرأ منشور الحبر الاعظم بيوس العاشر بجواز المناولة على الطقسين الحبر والفطير .

٧ كانون الاول : عيد الاخوية احتفل به في الكنيسة طبقاً للمراسيم المألوفة ثم قدم الفطور للجميع (حليب وكاكاو وبسكويت) والقى خطاباً ميشيل انطون شاشاتي وكامل بيلونه .

١٩١٣

المتقدم منير اجقباش الكاتب عبدالله جحا الاعضاء المحررة اسماؤهم ٨٨ .

٣٠ كانون الثاني : اقام المطران يوسف اسطفان النائب البطريركي الماروني في حلب قداساً حافلاً منح فيه سر التثبيت لمئتين واربعة اشخاص . (ب ٢٢٠٨)

اعلن في الكنائس افتتاح اليوبيل القسطنطيني وتقرر ان يزور كل انسان كنيسة طائفته ثلاث مرات ومرة واحدة كلاً من كنائس الطوائف الاخرى .

جرى انتخاب اعضاء المجلس العمومي لمدينة حلب وقد استاء الذين حضروا من المسيحيين ومن اخواننا المسلمين المتنورين لان اكثر المنتخبين لم يخصصوا ولا صوتاً واحداً للمسيحيين من الاصوات الخمسة التي يحق لكل ان ينتخبها . (٢٢٥٦)

٢٦ كانون الثاني : الاحد في مساء هذا النهار اجتمع وجهاء الموارنة في الدار الاسقفية لانتخاب خلف المثلث الرحمات المطران يوسف دياب فنال اكثرية الاصوات الاب نيقولاوس اسود الفرنسيسي ومن بعده السيد يوسف صقر المطران الملازم الكرسي البطريركي ومن بعده القس مخائيل اخرس وعرضت النتيجة على غبطة البطريرك ليفصل في الامر .

٢٥ كانون الثاني : صدرت برقية من الكرسي البطريركي الماروني في اقامة القس ميخائيل اخرس مطراناً على حلب .

٨ شباط : سيامة السيد مخائيل اخرس في لبنان بحضور تسعة اساقفة.

١٣ شباط : استقبال السيد مخائيل اخرس بحفلة عظيمة.

٢٨ شباط : القى الاب بول شينو دورليان الفرنسي عظات الرياضة باللغة الافرنسية في كنيسة السريان . (ب ٢٢٢٥)

١٦ ايار : مر بحلب الاب اوغسطينوس من رهبانية الترابيست وهو متوجه لزيارة ديرهم في جبال كورداغ اكبس حيث اقام مدة رجل الله الشهير الاب دي فوكو (راجع ترجمته في المشرق ٩٩١:٣٠)

– وعظ الاب جبرائيل اده رئيس اليسوعيين رياضة الكهنة عن دعوة المطران ديمتريوس القاضي .

٢٤ ايار : قدم عبدالله جحا للاب المرشد بطرشيلاً مصنوعاً من القماش الوطني القطني المعروف بالسلطانية مزهراً بالحرير منقوشاً حين حياكته بقصب فضي اكسبه رونقاً زائداً .

٢٦ ايار : اقيمت حفلة اليوبيل المئوي في جمعية مار منصور تذكارًا لولادة « فردريك اوزانام » مؤسسها والقى خطابًا جوزف توتل وقصيدة بنراكي خياط . (ب٣٢٥٨)

٨ حزيران سافر عبدالله جحا الى اميركا .

١٨ آب : احترقت خزانة في سكرستيا كنيسة الموارنة فالتهمت النار بعض الكتب الطقسية المخطوطة . (ب ٣٢٩٣)

٥ ايلول : نشب الحريق في سوق خان الحرير امام باب خان ميتر وعبثًا حاولت البلدية اطفاءه الى ان ارسل الوالي تذكرة بامضائه الى ادارة السكة الحديد وهذه ارسلت مضختها ورجالها فتمكنوا من اطفاء النار بعد ان احدثت اضرارًا جسيمة وقدرت الخسارة بما ينيف عن الاربعة الاف ليرة .

١ تشرين الاول : جنازة نعمةالله جرجي حمصي المتوفى في ٢٩ ايلول ابنه بالعربية السيد اغسطينوس صائغ في الكنيسة والسيد تيودور كورنيل في المقبرة متكلماً بالافرنسية ومن بعده فيلكس فارس بالعربية .

٣ تشرين الاول : اشتملت النار في محلة بستان كل آب في اوتيل مصر ولم تقوَ مضخة البلدة على اطفائها فاقتضى استدعاء مضخة سكة حديد بغداد كما جرى في الحريق السابق واطفئت النار .

٦ تشرين الاول : غادر حلب سيادة المطران اوغسطينوس قاصدًا الى الاسكندرونة وتوابعها لزيارة الرعية .

اضرب عمال النسيج عن العمل بحجة قلة الاجرة عن تعبهم . (ب ٣٣١٢)

١٧ تشرين الاول : الف بعض الافرنسيين في حلب شركة لجر مياه الفرات الى المدينة وقدموا خطط مشروعهم الى الولاية . (ب ٣٢١٧)

٢٨ تشرين الاول : عاد الينا السيد اوغسطينوس . جدير بالذكر انه زار في الاسكندرونة باخرة حربية نمساوية ولما وطئ ظهرها اطلق منها خمسة عشر مدفعاً واستقبله الاميرال بغاية الحفاوة .

٢١ كانون الاول : اخذت راهبات الارمن بهدم مدرستهن الكائنة تجاه بيت اندريا لتوسيعها ومنذ خمسة عشر يوماً اخذت البلدية بهدم المخازن من سويقة الحجارين الى حمام بيلونه توسيعاً للطريق وذلك عن امر الوالي وهذا سافر الى بيروت يوم الجمعة ٢٣ منه وعاد الى حلب الاحد ٢٥

٢٨ كانون الاول : اعدم شنقاً عند «الساعة» في باب الفرج احد المشايخ اسمه محمد سراج لقتله شاباً مسلماً لكونه لم يستسلم لاهواء الشيخ الشيطانية.

١٩١٤

المتقدم : ميشيل شاشاتي ومن بعده عبدالله بشور.

٢ كانون الثاني : عاد من رحلته الى اوروبا السيد ميخائيل اخرس.

٣ كانون الثاني : من عيد الميلاد الى اليوم تهاطلت الامطار بصورة غزيرة متواصلة ففرح لها الجميع.

٥ كانون الثاني : وفاة المطران باسيل قندلفت في الشرفة في ١ كانون الثاني - ولد في حلب ١٨٥١ تعلم في اكليريكية غزير اليسوعية ثم كاهناً ثم في ١٨٩٣ اسقفاً على يافا شرفاً . (ب ٢٣٦٩)

١٣ شباط : جاءت برقية من اطنه مفادها ان الطيار فتحي افندي بارحها الساعة الثالثة بعد الظهر على الطيارة «المعاونة الملية» قاصداً حلب فاذاعت الولاية النبأ على ألسنة المنادين وعينت ساحة السبيل بظاهر المدينة لنزول الطيارة فاسرع الناس متسابقين اليها جماً غفيراً ومن جملتهم الوالي وكثيرون من موظفي الحكومة ونحو الساعة الخامسة بعد الظهر ظهرت الطيارة محلقة في الجو فارتفعت اصوات الهتاف من ذلك الجمهور سروراً لمرءاهم انساناً سابحاً في الفضاء مزاحماً الطيور في مملكة الهواء . وفي اليوم التالي ارتفع الطيار مرتين ودار حول المدينة وطار معه في المرة الاولى حكيم المحطة وفي الثانية مشير العسكرية وفي صباح الاحد ١٥ منه نحو الساعة التاسعة صباحاً طار الطيار حول المدينة رمى علماً على الجامع الكبير وآخر على دائرة الحكومة وآخر على الثكنة العسكرية ثم ذهب قاصداً حمص.

٢٣ شباط : وصلت الطيارة برئس جلال بك وعليها الطائر نوري بك نحو الساعة الرابعة صباحاً وفي اليوم التالي بارحتنا قاصدة بيروت وفي الاربعاء وردت برقية من حماة مفادها ان الطيارة لم تصل اليها وكان السبب سقوط الامطار وتعطيل الآلة وبلغنا ايضاً ان الطيارة «المعاونة الملية» سقطت بفتحي افندي ورفيقه في طريقها الى القدس فقتلا .

٣ نيسان : وصل حلب القاصد الرسولي فريديانو جيانيني سوف يمنح الاولاد سر التثبيت ثم يتوجه الى القيات لتكريس كنيستها (ب ٢٣٨٣)

١٣ نيسان : اتانا من شفيق وانلي في اميركا تحرير مفاده ان الاخ المذكور لما اخذ برنامج جمعية تثقيف الفقير فرح واستفزته الغيرة فدعا الى الاشتراك بها ٢٥ من معارفه .

٢٩ نيسان : سافر الى كليس القس مخائيل قديد .

٣٠ منه : سافر الى بزمار السيد اوغسطينوس صائغ مندوباً من البطريرك ليترأس فيه الانتخابات .

١١ ايار : وفاة القس يوسف شكير .

١٥ حزيران : ظهر داء الكلب في كلاب الازقة في حلب وقد اهتمت البلدية بقتل الكلاب وارسلت المقدسة الاشخاص المعضوضين الى مستشفى الكلب في بيروت (ب ٢٦١١)

٣ آب : علقت على جدران الشوارع اعلانات الحكومة بلون الدم اللون الاحمر مكتوباً عليها بالتركية سفر برلك اي التجنيد العام فاخذوا يحشدون الجنود فوقفت الاشغال واقفلت دور الصناعة وفي نهاية تشرين الاول اعلنت تركية الحرب على دول الحلفاء .

٨ آب : توفي في مصر الاب جبرائيل اده رئيس الاباء اليسوعيين في حلب وكان يلقي عظات الرياضة في مدرسة العائلة المقدسة في القاهرة .

٢١ آب : في الساعة الواحدة من نصف الليل توفي الحبر الاعظم بيوس العاشر .

٢ ايلول : انتخاب بندكتوس الخامس عشر .

٢٩ : تشرين الثاني : عين السيد اوغسطينوس صائغ قائمقاماً بطريركياً في الاستانة .

وفيه اقيمت حفلة شائقة في الكنيسة السريانية حضرهـا مشير الموصل وبعض موظفي الحكومة واقيمت بعد الظهر منه في المدرسة الارمنية الكبرى حفلة اخرى لاعانة الهلال الاحمر تناوب فيها الخطباء منصور اسود بالتركية وكارلس بليط وفلكس فارس والياس هندية بالعربية وفي النهاية رفع السيد

اوغسطينوس الدعاء للسلطان محمد رشاد وكانت الموسيقى العسكرية وموسيقى دار المعلمين تساعد على نجاح الحفلة.

١٩١٥

بعد عيد الفصح بدأت وفود الارمن المهاجرين تدخل حلب الجأهم الاتراك الى ان يتركوا بيوتهم وكل مقتناهم ويرحلوا من اوطانهم بلا مال ولا زاد والعساكر الشاهانية ترافقهم فتسلبهم ما معهم وترميهم بالرصاص فدخل منهم حلب نحو ٤٠ الفاً.

١٩١٦

ابتدأ الغلاء الفاحش

١٩١٧

بلغ سعر رطل الطحين ٧٥ غرشاً وكان قبل الحرب ثلاثة غروش.

١٩١٨

٢٣ تشرين الاول في الليل سافر من حلب الجنرال ليمان فون سندرس قائد الجيوش التركية والالمانية وبصحبته كثير من الضباط وسافرت اكثر من عشرة قطارات مشحونة بالعساكر والذخائر. وضُربت بالقنابل الجسورة المؤدية الى البلدة.

٢٤ منه : صباح الخميس خرجت جماعات ونهبت محطة بغداد وكان المأمير قد هجروها واووا الى بيوتهم.

٢٥ تشرين الاول : الجمعة حضر الى كومندان المركز عرب بجحم وطلبوا الافراج عن رفاقهم المسجونين منذ الصباح فرفض تلبيتهم فقاتلوه وقتل نحو عشرة من العرب وثلاثة من الاتراك وجرح نحو عشرين من الفريقين وعلم الامير مجحم ان الاتراك يريدون ضرب البلد قبل تسليمها فارسل واخبر بالامر القوات الانكليزية العربية المحيطة بالبلد. وعلم مصطفى باشا بان لم يكن بعد بوسعه ان يقاوم العدو فامر جنوده بالانسحاب فسار واياهم الى المسلمية.

٣ تشرين الثاني : السبت دخل حلب الانكليز والعرب بقيادة الجنرال

مالك اندريو والامير ناصر وتلوهم السيارات المدرعة الانكليزية ثم الجنود الانكليزية والعربية وفي اليوم ذاته تعين مرعي باشا الملاح رئيساً للحكومة الاهلية .

٢٧ تشرين الاول : الاحد توافد الاعيان على اوتيل بارون للسلام على القائد الانكليزي وعلى الامير ناصر.

وحفظاً للامن تقرر اقفال المدينة عند الغروب ومنع التجول في الازقة ليلاً وترتبت دائرة المحافظة ودائرة الشرطة.

١٩١٩

مقتل الارمن في العقبه

ليعلم القارئ انه لاسباب سياسية ومن جملتها هذه الحادثة المشؤومة قد اهمل كتابة هذا السجل مدة الحرب ١٤–١٨ ولكن هناك وثائق عثرنا عليها مفيدة لتاريخ الحوادث فاثبتنا منها ما يلي :

على اثر تصريح وزير فرنسة المسيو پيشون في مجلس النواب الفرنساوي ان لفرنسا حقوقاً في سورية تشكلت في الشام وحمص وحماة وحلب لجن للاحتجاج على هذا التصريح في مؤتمر الصلح وفي ٢١ شباط ١٩١٩ نشرت لجنة حلب ما يلي :

بيان عام الى السوريين عموماً والحلبيين خصوصاً

بما ان الخطاب الذي القاه مؤخراً مسيو پيشون وزير خارجية فرنسة في مجلس النواب الفرنساوي والذي ابان فيه ان للامة الفرنسوية حقوقاً في سورية ولبنان وفلسطين نشأت عن التقاليد التاريخية والاتفاقات والمعاهدات مدعياً ان هذه الحقوق قائمة ايضاً على امال ورغائب السكان الذين هم زبائن فرنسة منذ زمان طويل الى آخر ما ورد في الخطاب من المغامز السياسية المغايرة للحقيقة والمنافية لصالح سورية والامة العربية فبناء على التظاهرات الوطنية من عموم الوجهاء والاشراف والعلماء والتجار واصناف الصنائع في حلب قد تشكلت لجنة الاحتجاج لاقامة مظاهرة كبرى يوم الجمعة الساعة الثامنة عربية بعد

الظهر امام باب القلعة في ساحة سوق الجمعة تتظاهر فيهـا الحسيات الوطنية الراغبة بالاستقلال والاحتجاج على ما ورد بخطـاب المسيو بيشون وتأييداً لرغبتنا المقدسة وهي الاستقلال .

فندعو ابناء العرب الغيورين على استقلالهم ووطنهم للاشتراك بالمظاهرة في الوقت المعين قياماً بواجب الوطنية والسلام .

حلب في ٢٦ جمادى الاولى سنة ١٣٢٧ هـ ٢٦ شباط ١٩١٩

لجنة الاحتجاج بحلب

اما المظاهرة للاحتجاج فقد صارت يوم الخميس عوض يوم الجمعة في المحل المعيّن في البيان وفي صباح اليوم التالي اي الجمعة نحو الساعة الثانية بعد نصف الليل قام بعض الاشرار من البوليس وغيرهم من الرعاع مدفوعين من حكومة ذلك الوقت على سكان العقبة الذين اكثرهم من الارمن فقتلوا منهم ١٥٠ وجرحوا ٢٠٠ باسر تدبر وبافظع قتل . وكانت الغاية يومذاك ليس قتل الارمن فقط ولكن المسيحيين اجمعين ايضاً . فليعلم القارىء قوة تلك الحركة حتى ان السلطة البريطانية لم تتدخل في كف الحركة الا بعد انتشارها بسبع ساعات وبعد احتجاج الرؤساء الروحيين . ان الاحوال والاختباطات السياسية لا تسمح لكتابة حقيقة الحادثة التي نطلب ان يمكننا الخط من كتابتها بعد زوال هذه الازمة لكننا ننقل ما كتبته جريدة حلب الرسمية الحكومة .

ان هذه الجريدة اصدرت في ٤ اذار تحت نمرو ٢٥ عدداً ابدلته بالنمرو ذاتها في ٧ اذار واستردته لقاء مجيدي كل عدد واكثر وبما ان كاتب هـذه الاسطر قد حفظ هذين العددين فاستحسن نشرهما حتى يقف القارىء على خفيات الحادثة .

المقالة الافتتاحية لجريدة حلب نمرو ٣٥ تاريخ ٤ اذار :

لا شيء في حلب

ظن البعض ان حادثة يوم الجمعـة التي جرت في حلب هي من المسائل الكبيرة التي يخشى منها غير ان المسئلة هي غاية في البساطة ولا يمكن اعتبارها الا من الامور التافهة التي لا تؤثر في حسيات العنصرين (العربي والارمني)

وتفصيل الحادثة كما اثبتتها التحقيقات الرسمية ان اثنين من الجهلة عربي وارمني تشاتما فتخاصما فتلاطما حتى ادى بهما الجهل الى استعمال السلاح ومن ثم ظن بعض الجهلة ان وراء الاكمة ما وراءها فامتدت ايديهم الى بعضهم ولكن ما كان يتصل الخبر بالحكومة العربية حتى خف عطوفة الحاكم العسكري العام لمحل الحادثة واعطى الاوامر المشددة لرجال الدرك والشرطة الذين انتشروا في سائر الانحاء واطراف البلدة وقبضوا على من اشتُبه فيه ولم تطل الحادثة بضع دقائق ولم يحدث من بعدها ما يخل بالامن ولا يسيء السمعة.

وقد اهتمت الحكومة المحلية اشد الاهتمام كي لا يتكرر هذا الحادث وكان اكثر الكل اهتماماً عطوفة الحاكم العسكري العام الذي يواصل الليل والنهار بالطواف في سائر انحاء المدينة. ومن ذلك الوقت لم يحدث في المدينة اقل شيء بل ان الامن ضارب اطنابه في عموم البلدة وملحقاتها والاشغال جارية كالعادة والسكينة شاملة.

ولقد اظهر عطوفة الحاكم العام اهتماماً زائدًا في مؤاساة الجرحى من اخواننا الارمن في المستشفى الوطني وفي المستشفى المثلث للصليب الاحمر واظهر للعموم استياءه مما حدث وان الامة العربية اشرف من ان تلطخ اسمها بارتكاب فظاعة او منكر بل ان المسئلة محصورة في اثنين او ثلاثة من الجهلة الذين لا يميزون بين الضار والنافع وقد قبض كما ذكرنا انفاً عليهم وسيجازون بما يستحقون.

فالعرب والارمن اخوان لا تؤثر في عواطفهم حوادث طفيفة كهذه خصوصاً وانها كما اظهرت التحقيقات الرسمية من المسائل التافهة التي لا تذكر الا بالهزء.

على ان عطوفة الحاكم العسكري العام قد اذاع ساعة وقوع الحادثة منشورًا كان داعياً لارتياح الافكار.

وعليه فاننا نطلب من عموم الاهالي الا يجعلوا لاحاديثهم الخاصة والعامة علاقة بهذه الحادثة الطفيفة التي لن تتكرر ابدًا لما بين الامتين من التحابب والتآخي.

بلاغ عام الى عموم اهالي حلب

لا يخفى ان العرب والارمن هم شقيقان متفقان وقد نال الامتان من العسف والجور ما نالها حتى يسر الله لهما الخلاص مما كانا فيه من الاسر والاستبداد بناء عليه يجب ان يزول كل ما علق باذهان البعض من النفرة .

وان الحوادث التي جرت بين الامتين المتحابتين العربية والارمنية لم تكن الا بفساد من الاتراك الذين يلعبون من وراء الستار لايقاع البغضاء بين الامتين الشقيقتين وهؤلاء الذين تسببوا بوقوع ذلك سيجازون باشد الجزاء ليكونوا عبرة لمن اعتبر .

على ان اخواننا الارمن لا ينسون مساعدة العرب لهم وضمهم الى صدورهم كاخوان حقيقيين لذلك قد اتخذنا التدابير الفعالة الشديدة لاجل التحقيق من كل من له يد في هذا الحادث وسيجازى بالاعدام.

فنطلب من عموم الاهالي ان يلازموا السكينة والطمأنينة ولم يعد ثمة لزوم الى الاضطراب اذ ان الحكومة العربية قد اتخذت الاحتياطات اللازمة لحفظ الامن بين العموم على السواء فعلى اصحاب المحلات والمخازن ان يباشروا باشغالهم وفتح محلاتهم كالعادة ومن يظهر منه اقل حركة تدل على الامتناع من اوامر الحكومة العربية يكون جزاؤه الاعدام رمياً بالرصاص »

٢٨ جمادى الاولى ١٣٣٧ ١ آذار ١٩١٩

امير اللواء : شكري الايوبي

المقالة في العدد ٢٥ لتاريخ ٧ اذار :

حادث مؤسف

جرى حادث مستوجب اشد الاسف في حلب يوم الجمعة الفائت فان بعض الاشرار بل نفواة البشرية من الطبقة الساقطة في هذه المدينة قاموا على جماعة الارمن العائشين بيننا وما هم الا بقية المظالم التركية المشينة وقتلوا منهم خمسين وجرحوا مئة في ساعة واحدة مما اوجب الظن والتقدير بان هناك يداً خبيثة مكارة حركت هؤلاء الاوباش الضواري على ذلك الفتك المدهش لا بالرجال

فقط بل بالنساء والاولاد ايضاً حقاً ان في بعض البشر طباعاً يستنكف من التمثل بها الحيوان الاعجم ان هذه الحادثة لجريمة ثبتت على مدينة حلب وهي وصمة لا تزول ولا تمحى الا بتسارع العقلاء لكشف المجرمين ومساعدة الحكومة على محاكمتهم وشنقهم.

يجب ان تعلمنا هذه الحادثة التي تشمئز منها النفوس كم يجب الحذر من تهييج عواطف الجهلاء بما نكتب ونخطب في المواضيع العربية ان اشتغال العامة على ما فيها من الجهل والحماقة بامور هي من شؤون الحكومة فقط هو ما اوصل مدينة حلب الى هذه النتيجة المشؤومة . ان المطبوعات العربية وما يتبعها من المحادثات الخصوصية هي التي ادت اخيراً الى ترويع كل قلب وتصغير كل نفس في هذه المدينة .

اجل ان اللوم في هذه الحادثة لا يجب ولا يمكن ان يوجه الى جهة واحدة كلا ولكن لا شيء يخفف هول الجريمة الكبرى او يوجد لها عذراً سوى تسارع كل عربي حقيقي مستقيم الرأي وعارف قيمة الحياة البشرية الى السعي الحثيث لتبيّن المجرمين الحقيقيين ومساعدة الحكومة على انزال العقوبة بهم ان اجدادنا العرب كانوا يؤمّنون عدوهم اذا لجا لحماهم فلا احد منا يقبل اقل معذرة لمن قتل اناساً لاجئين الى حمانا وهم في كل حال ضيوفنا يجب ان نظهر للارمن بالفعل لا بالكلام اشمئزازنا العام من الاعتداء الغريب الذي وقع عليهم وهم في احضاننا وعزمنا الثابت على ان نجعل كل من يختار الاقامة بيننا اميناً على نفسه وماله حتى من اعدائنا فكم بالحري منا . ان الذين مثلوا على مسرح حلب هذه المأساة الفظيعة تتبرأ منهم الانسانية برمتها ويرذلهم كل دين معروف عند البشر .

حاشية للكاتب : انه من قراءة هذه الحادثة في هذين العددين يتضح كيف ان الحكومة التي لها يد بالحادثة كذبتها اولاً بل نقلتها للشعب كانها من المسائل التي لا اهمية لها ولكن لما كانت الحادثة قد ظهرت للجميع وان عدد الذين قتلوا من نساء واطفال ما عدى الرجال بلغ المئة والخمسين لم يكن بوسعها ان تبقى صامتة فنشرت خبر الحادثة في العدد الثاني بصيغة ان مسبب هذه

الحادثة هي كتابات الجرائد التي هيجت الشعب على ارتكاب هذه الفظاعة .

على اثر ذلك الحادث قرر اقفال المدينة من الغروب ومنع التجول في الازقة في الليل واستلم العسكر الانكليز جميع مراكز السلطة واخذوا يوقفون من تجول بعد الغروب بنصف ساعة ودامت هذه الحالة ثلاثة اسابيع واوقفت السلطة الانكليزية كبار المسلمين مثل حاج مراد الجابري واولاد يكن وحاج نور جبري الخ· كناية عن اربعين شخصاً ثم اطلق سراحهم بعد امساك المجرمين واعدامهم .

اجتماع ٥ اذار في بهو الولاية

اجتمع في قاعة الولاية يوم الاربعاء في ٥ اذار عدد كبير من اعيان البلدة ووجهائها باسر من عطوفة حاكم حلب العسكري العام حضره حضرة القائد الانكليزي الكبير (هودسون) وعدد من الضباط الاركان الحربية والمستر براين ضابط الارتباط الانكليزي وسعادة جودت بك حاكم القضاء العسكري ثم قام حضرة القائد هودسون فتلا على الحاضرين الخطاب الآتي :

اشكر لكم ايها الاعيان وزعماء الجامعة العربية المحلية حضوركم الى هنا هذا الصباح تلبية لدعوتي .

احب ان اكلمكم باخلاص ومودة نهائية في شأن المنازعة التي حدثت في هذه المدينة واتوقع منكم ان تستعملوا نفوذكم في سبيل الامور التالية :

١ — ان تفهموا كل طبقات الشعب من اكبرهم الى اصغرهم وكل الاشخاص المقيمين في القرى المجاورة انكم اذا كنتم انتم وهم تطلبون الاستقلال فانتم وهم بالمظاهرات الاحتجاجية ستكونون سائرين اليه من الطريق المخالفة . ان الامة العربية في هذا الوقت اكثر من كل وقت يجب ان تظهر لحكومات الدول المتمثلة في مؤتمر الصلح انها امة مطيعة القانون مسالمة وقادرة على ادارة بلادها وتحسينها .

٢ — الامير فيصل كما تعلمون وضع مؤخراً امام موتمر الصلح مشروعاً لاستقلال الامة العربية . فيجب ان يفهم الشعب بكل صراحة ان الاعتداء

على الارمن واقامة المظاهرات او الاحتجاجات من اي نوع كان يقلب مهات الامير فيصل ويعرقل مساعيه بدلًا من معاونته .

٣ً – انه من اخلص رغائب الدول المتحالفة ان يعاونوا العرب في كل طريقة ممكنة ويتخذوهم اصدقاء لهم ويروهم مع بلادهم ناجحين ومتقدمين . فعليه انا ادعوكم يا كبراء رجال حلب لعمل ما في وسعكم في سبيل التأثير على شعبكم كي يمتنع عن كل عمل اعتداء ولانتظار نتائج موتمر الصلح واتباله مشروع الامير فيصل الاستقلالي .

٤ً – واخيرًا يجب ان ينذر شعبكم بان كل الذين يعكرون الامن العام بخرق النظام ومخالفة اوامر حكامكم هم انفسهم يكونون خائنين للمبدا العربي .

ثم قام عطوفة الحاكم العسكري العام والقى على الحاضرين جملًا حكيمة مبينًا العار الذي يلحق بالامة كلها من جراء اعمال اشرارها وما يجب على الامة من الاخلاد الى الراحة والسكون لتبرهن على انها جديرة بالاستقلال وما يجب على الخاصة من ارشاد الجهلة وتحذيرهم من الخروج عن دائرة الاعتدال لان الامة العربية اشرف من ان تلطخ اسمها الكريم بارتكاب جرم تأباه الانسانية والمدنية ثم اخذ على الحضور من وجهاء واعيان ميثاقًا واقسم عليهم الايمان المغلظة لعدم تكرار وقوع حوادث كهذه فتعهدوا بلسان واحد على القيام بهذه الخدمة التي هي من اقدس الواجبات .

ثم نهض المرة الثانية حضرة القائد وقال لعطوفة الحاكم انه يستحسن كلامه في استهجان العمل المعيب الذي جرى في ٢٨ شباط ويشكر لاعيان البلدة تلبيتهم واطاعتهم اوامر الحكومة العربية الرشيدة فاجابه عطوفة الحاكم بالشكر والامتنان .

وعلى اثر ذلك ارفض المجتمعون وكلهم ألسنة تشكر للحكومة العربية سهرها على الراحة العامة ولحضرة القائد هودسون محبته الخالصة للعرب .

هذه الاسطر المنقولة عن الجريدة الرسمية (حلب) تفيد جدًا القارئ

وعلى اثر حادثة ٢٨ شباط ومنع التجول في الازقة بعد الغروب ومنع جميع الاجتماعات اقفلت الاخوية من اول اذار الى نصف نيسان .

١٦ نيسان : السيد ديمتريوس القاضي مطران ابرشية حلب سيم بطريركاً خلفاً للبطريرك حجا وسيحضر الى حلب بصحبة السيد المطران مكاريوس سابا .

— سافر بالطيارة الى الشام عن دعوة الامير فيصل القائد نوري باشا السعيد رئيس اركان الجيش العربي .

٢٣ نيسان : سافر الى الشام لملاقاة الامير فيصل الذي رجع مؤخراً من مؤتمر الصلح السادة احمد المدرس بشير الكيخيا فؤاد الجابري الشيخ رضا افندي الزجاجي يوسف اسود وجورج عبديني[١]

٣٠ نيسان : اجتمع الاخوة عند منير اجقباش المتقدم وتعين كامل ورده كاتباً للسجل على ان يساعده سائر الاخوة في ذلك .

١١ حزيران : وصل الى حلب في هذا الاسبوع غبطة البطريرك ديمتريوس القاضي بصحبه سيادة المطران مكاريوس سابا وجرى انتخاب مطران ابرشية الروم الكاثوليك اولاً وثانياً وثالثاً وفي الدور الثالث حاز الاكثرية السيد مكاريوس سابا في ١٩ حزيران ١٩١٩

— وفاة القائد الانكليزي لجيش الاحتلال السر هنري ماك اندرو . مات مساء الاربعاء ١٦ تموز في محاولته اطفاء البانزين الذي كان قد التهب في غرفة نومه فاصابته حروق عالجها بضعة ايام بدون فائدة وقد مشى في جنازته قسم كبير من جيش الاحتلال وقسم من الدرك والشرطة وحضرة دولة الحاكم وجميع الموظفين والاهالي وكانت جثته موضوعة على مدفع .

٢٠ تموز : عملاً بالمادة الثانية والعشرين من معاهدة الصلح القائلة بوجوب

---

١) جورج عبديني انتقل من ثم الى بغداد واقام فيها وكان المغفور له الملك فيصل يقربه اليه ويستشيره ويقضي معه ساعات الراحة فيلعب واياه بالشطرنج . وكان الملك يحب في « اخيه جورج » الادب الحاي ولطف المعاشرة - اصطحبه في رحلة فركبا سيارة جديدة واخذ الملك بقيادتها . وبعد مدة من السير سأل رفيقه : يا جورج كيف تراني في السياقة فاجاب يا صاحب الجلالة انت وملك نؤمنك على ارواحنا اما انت وسائق فلا . فابتسم الملك وتحول عن قيادة السيارة الى السائق . (رواية عن الاب كوفي Coffi اليسوعي في بغداد)

دولة مساعدة للبلاد التي انسلخت عن تركية ارسل مؤتمر الصلح لجنة من الاميركان لاستطلاع راي الشعب في اختيار الدولة التي يريد ان ينتدبها فبناء على ذلك حضرت هذه اللجنة الى حلب بعد ان طافت جميع مدن سورية ولبنان فنزلت في اوتيل بارون فتقدم اليها اولاً هيئة الحكومة ثم وفد العلماء ثم وفد البلدية ثم وفد ارباب الصحافة ثم وفد الصناعات والنقابات ثم وفود من القرى وكانت مطاليب الجميع على نوعين القسم الاعظم من هذه الوفود اي جميع الذين من الطائفة الاسلامية طلبوا الاستقلال التام بمساعدة انكلترة او اميركة وان يكون الامير فيصل ملكاً على سورية والقسم الثاني الذي يشمل جميع الطوائف المسيحية فانه طلب الاستقلال بمساعدة الدولة الافرنسية لا غير وان يكون الامير فيصل اميراً على سورية .

هذه خلاصة اعمال اللجنة الاميركية .

١٢ تشرين الثاني : انسحاب الجيش البريطاني . بناء على قرار مؤتمر الصلح بانسحاب جميع القوات الانكليزية من سورية وتسليم البلاد ليد السلطة العربية لحين ان يقرر انتداب دولة اوربية وتمضي تركية معاهدة الصلح فقد انسحبت جميع القوات الانكليزية من حلب في يومي الثلاثاء والاربعاء بعد ان سلموا المدينة للسلطة العربية اي لوالي حلب (جعفر باشا العسكري) .

١٥ تشرين الثاني : انسحبت الجيوش الانكليزية تماماً من حلب وهي على اهبة الانسحاب من حمص وحماه ورياق وسائر الجهات . (ب ٢٤٩٦)

٢٩ تشرين الثاني : حدثت تظاهرات يوم الخميس الماضي ٢٦ تشرين الثاني على اثر استدعاء ياسين باشا من قبل القائد العام الانكليزي ويوم الجمعة مساء اقفلت الحوانيت ووزعت نشرات مهيجة . (٢٥٠٦)

١٩٢١

١٧ آب : انتخب متقدماً الياس غنطوس

١٩٢٢

٢٣ كانون الثاني : وفاة الحبر الاعظم البابا بنديكتوس الخامس عشر اقيمت الجنائز الاحتفالية في كل الكنائس من اجل راحة نفسه .

٦ شباط : تنصيب الحبر الاعظم البابا بيوس الحادي عشر .

– فاض نهر القويق في اوائل هذا الشهر فعلا عشرة امتار عن حده المعتاد ومد شواطيه الى نحو خمسين مترًا من كل جهة وخرب حيطاناً شيدت في البستان المدعو بستان العويجه ودمر محلات كثيرة قريبة الى النهر وطافت الجسورة وغرق رجل حاول اجتياز النهر على دابته واخذت المياه تتناقص بعد يومين .

انتهى

حول الف ليلة وليلة

بقلم فؤاد افرام البستاني

في منحدر زقاق البلاط الى بوّابة يعقوب ، بين مدرسة الاحد الاميركية وتمثال اليازجي ، من عن يسار النازل حذرًا على تلك الطريق المرصوفة بالحصى ، الشاهدة، بما اثّرت فيها اقدام الاجيال المتعاقبة ، على انها اقدم ما بقي من طرقات بيروت القرن التاسع عشر ، يقوم حانوت متواضع ، في احدى زواياه حلّاق ، وفي زاوية اخرى سنكري ، وفي مقدّمه بسطة تزدحم عليها القلّايات والاباريق والمسارج والاقباع وسائر مصنوعات التنك تلمع برّاقة في وقع ما يتسلّل من اشعّة الشمس ، حتى اذا لمّت اشعتها تحوّل الحانوت الى مقهى يرتاده العشرات من عمّال التنجيد ، ومستخدمي الصناعات الوضيعة ، وحمّالي المنطقة . فيحتبون الى الجدران القريبة ، او يقتعدون الحصير البالي ، يتبادلون التعاليق على احداث النهار بين رشفة ورشفة ، حتى تأزف ساعة الحكواتي. فيعلو الطاولة الصغيرة ، على كرسي لا سند له ، شيخ رقيق الجسم ، حليق الذقن ، بارز تقاطيع الوجه ، مكشوف الرأس عن صلعة برّاقة، يحمل شاربين أثريّين ، ونظّارتين تركبان ، على قلق ، طَرَف الارنبة . فيتنحنح طويلًا ويتوّح ، ويبسُط على قنبازه المرقّع كتابًا دسم الاوراق ينغّم منه بعض السياقات ، ممثّلًا تفاصيلها المهمّة بيديه وعينيه وانفه وشفتيه وسائر جوارحه حتى يضطرب الكرسي من تحته ، فتضطرب الطاولة ، فتضجّ ارجاء الحانوت بالتصدية وهتاف الاستحسان . ولا تنتهي الليلة من الالـف الّا وفي حضن الحكواتي قُرَيشات معدودات حصّلها بكدّه وعرق جبينه . وينصرف السامعون على امل استئناف الليلة الآتية ، هازئين ، ولا هزء صاحب العنقود ، بروّاد السينما وسائر الملاهي العصرية .

فاذا كانت بيروت لا تزال رائجة فيها سوقُ الف ليلة وليلة ، فكيف بسائر المدن الشرقية ? كيف بالقرى النائية ، والدساكر المنفردة ، لا تتسلّى

عامتها ألّا بمثل هذه القصص الشعبية ، على توالي القرون ؛ فلا تكاد ترضى عنها بديلاً ، لو وُجد هذا البديل . قد يكون من اسرار هـذا الرواج التقليدُ المتمكّن في السامعين ، وقد تكون دقّة الوصف في الكتاب ، وقد يكون اهتمامه بتصوير الطبقات الوضيعة خاصةً ، ومَن ينجح فيها من شُطّار اللصوص ونوابغ المحتالين ، ومَن يختلط بها من الامراء المُتدروِشين ، وقد يكون تأثّر بعض حكاياته بالخوارق كأتي الجنّ والعفاريت والسَحَرة والعرّافين . وقد يكون كلّ هذا معاً . الّا ان الواضح الظاهر انما هو هذا الرواج المتتابع لألف ليلة وليلة ؛ رواجٌ لا يدانيه سوى شُهرة الكتاب لدى ادباء اوربة ، وأهمّيته في نظر المستشرقين ، حتى لا يشذّ عن هذا التقدير الشامل الّا ادباء العربية ، وهم الأجدرُ بدرسه ، والأولى بالتعمّق في تفصيل موضوعاته وفنونه وأفكاره . الّا أنهم حُجبوا ، على الأرجح ، بما في اساليبه من ضعف ، وما في تعابيره من ركاكة ، فصدفوا عمّا وراء ذلك ، وما زلنا نؤخذ بجمال المظهر ، وبهرَج العَرْض حتى ليفضّلُ الواحدُ منّا مقامات الحريري واساجيع الزمخشري . وما كنّا يوماً من دُعاة إهمال الشكل او الإعراض عن حسن الأداء . وغنيٌّ عن البيان ان الأثر الفنّي لا يتكامل الّا اذا قرن جمـال الجوهر بجمال العرض فتكافآ وتناسبا . على ان المبنى الضئيل لا يمنع جمال المعنى ، لو وُجد ، كما إن زخارف الزيّ لا تغني عن معنى غير موجود .

نفهم هذا ، فلا نستغرب من اندره جيد — وهو من المعجبين بألف ليلة وليلة — ان يَستغرب ازدراء الادباء المصريين هذا الكتاب العالمي . وهو انما يقرأه في ترجمة ماردروس الرائعة ، وهم يتوقّفون لدى ما في اخراجه من فقر بالمفردات وضعفٍ في التعبير . أوَ لم يقم منهم مؤخرًا مَن أزرى على واضعيه في مجلة «المقتطف» ، بما لم يكن منتظرًا من أديبٍ له سهمٌ فالجٌ في الفنّ القصصي .

واما المستشرقون فهمّهم درس الكتاب تاريخيًّا ، واجتماعيًّا ، وادبيًّا ، وقد وقفوا عليه الابحاث العديدة ، والمناقشات المستطيلة حتى حفلت المكتبة الاستشراقية بما لا يقلّ عن مائتي مؤلّف تتوالى في « الف ليلة وليلة » ترجمةً ، وتعليقاً ، ودرساً منذ اكثر من قرنين ؛ وكان آخرها ما يهمّنا وصفه الآن .

وهو كتاب الاستاذ نيكيتا إليسيف Nikita Elisséeff ظهر باللغة الفرنسية في منشورات « المعهد الفرنسي في دمشق » سنة ١٩٤٩[1] ؛ وغايته تصنيف موضوعات الف ليلة وليلة وفِكَرها وفنونها وسائر العناصر القصصية فيها . فاقبل على الكتاب يُنفق الاشهر بل السنوات في درس إطاره وتحليل اجزائه ، وترتيب سياقاته ، وتحديد لياليه ، وتتبّع عناصره ، من لغة الى لغة ، ومن بيئة الى الى بيئة ، ومن عصر الى عصر ، من الجرثومة الهندية العريقة ، الى الصبغة الفارسية ، الى النقل العربي ، قبل القرن العاشر ، الى ما دخل في الكتاب بعد ذلك من حكايات واساطير وخرافات من مصادر متنوّعة اسلامية ومسيحية ويهودية ، عربية واجنبية ، دُوّنت في العراق ، والشام ، ومصر ، حتى اواخر عهد المماليك .

وكان لابدّ من الاطّلاع على آثار السابقين في هذا الموضوع . ومشكلة اصل « الف ليلة وليلة » على اقلام المستشرقين منذ اوائل القرن الماضي ، منذ ان وصف سيلفستر دي ساسي اولى طبعاته في كلكوتا ، الظاهرة سنة ١٨١٤ ، فارتأى ان الكتاب عدّة مؤلفين ، وشكّ في قول المسعودي بنقله عن الفارسية . فردّ عليه دي هامّر . وتوالت المناقشات ، حتى كاد يستقرّ الرأي على ان الكتاب مجموعة قصص متباينة المنشأ زماناً ومكاناً ، متعدّدة المؤلفين ، متنوّعة الغايات . فدُفع الاستاذ إليسيف الى مراجعة ما لا يقلّ عن ١٣٠ بحثاً في الموضوع ، فضلاً عن طبعات الكتاب وترجماته ؛ وعَرَضَ نتائجَ ابحاثه في هذا المؤلف القيّم الذي نراه يحتلّ مركزاً خاصاً لا في « تاريخ الف ليلة وليلة » فحسب ، بل في تاريخ الدروس القصصية الشعبية اجمالاً .

يبدو الكتاب على ثلاثة اقسام : الدروس ، التصنيف ، الجداول والفهارس .

اما قسم الدروس فيتناول ، بعد المقدّمة ، ستة فصول خصّ المؤلف اولها بالبحث في اصل الف ليلة وليلة ، عارضاً خلاصة المناقشات في ذلك على نحو ما ألمعنا اليه سابقاً ، مضيفاً اشارات مفيدة الى ما قد يصلح معالمَ لتأريخ بعض

1) Nikita Elisséeff, *Thèmes et motifs des Mille et une nuits. Essai de Classification.* [Institut français de Damas.] In. 8°, 242 pp., avec une carte des longueurs relatives des contes. Beyrouth, 1949

الحكايات في الكتاب، كالتلميحات الى الاحداث التاريخية او الى بعض امراء مصر؛ والشواهد الشعرية المقحمة إقحاماً في كثير من الحكايات، وهي في اكثرها لشعراء لم يتأخر زمنهم عن القرن الرابع عشر.

وتناول الفصل الثاني إطار الكتاب: حكاية الملك المتعوّد قتل كل امرأة يتزوجها، وامرأته شهرزاد، وكيف تخلّصت من القتل بفضل حذقها، واختراعها اسلوب الحكايات، وقطعها مجرى الحديث عند الموقف الحرج. ولا شك في ان العرب نقلوا هذا الإطار عن الفرس، وان يكن من طبيعة القصص الهندي في المابهاراته والپانتشاتنترا تداخل الحكايات بعضها في بعض، والانتقال من الواحدة الى الاخرى دون الخروج عن الإطار الاصلي، على نحو ما نرى في كليلة ودمنة، وهي حلقة من سلسلة الپانتشاتنترا:

— لا تفعلْ هذا وإلّا اصابك ما اصاب فلاناً

— وكيف كان ذلك؟

او ما تقول شهرزاد في آخر الحكاية:

— ما سمعتَ الآن ليس بشيءٍ بالنسبة لما ستسمع

— وكيف ذلك؟

وهكذا ينتقل الحديث من حكاية الى حكاية، على تلك الملاحمة الواهية.

وينتقل المؤلف في الفصل الثالث الى درس الحكايات نفسها في مختلف انواعها: الاصلية منها، تلك التي كانت دون شك، في «هزار افسانه» الذي يذكره المسعودي، والدخيلة المؤلفة في بغداد، ثم في مصر. ولا يتسع الوقت للاشارة الى كل منها وإن إلماماً.

ثم يعرضُ لمخطوطات الكتاب وطبعاته في كلكوتا، وبولاق، وبيروت، والقاهرة، وبرسلو. ويتبسَّط في وصف ترجماته، وفي طليعتها ترجمة غالان Galland الفرنسية الظاهرة في باريس من السنة ١٧٠٤ الى السنة ١٧١٣ في اثني عشر مجلداً، والتي استعان في الحصول على مادة مجلداتها الاربعة الاخيرة برجل ماروني من حلب اسمه حنا، عرفه في باريس سنة ١٧٠٩، وكان قد انتهى من طبع المجلد الثامن، ولم يبقَ لديه من النصوص ما يترجمه. فاقام

حناً يكتب له الحكايات بالعربية ، وهو ينقلها حتى اتمّ المجموعة ، وفيها من حكايات حناً مـا لا يُعرف في طبعات الكتاب البولاقية والهندية امثال : علاء الدين والفانوس العجيب ، علي بابا ، سيدي نعمان ، وغيرها . ويعرّج على سائر الترجمات عن الاصل فيذكر اربع عشرة منها الى اللغات الفرنسية والانكليزية والالمانية والدانمركية والروسية . ومن المفيد ان نضيف الى ذلك ذكر الترجمة الايطالية الشائقة التي قام بها مؤخرًا الاستاذ غبريالي .

وينتهي الى القسم الثاني من الكتاب وهو التصنيف ، تصنيف الموضوعات والفِكَر وفنون السرد وسائر العناصر القصصية ، يرتّبها على الحروف الابجدية بوعي تام ، وانتباه دائم ، فيخدم الكتاب الخدمة الجُلّى ، وكأنه يفهرسه بكامله ، ويضع هيكله مجرّدًا امام الباحثين . حتى اذا تمّ له العمل ، وهو اهمّ اقسام الكتاب ، انتقل الى ما وسمناه بالقسم الثالث دالّين به على الجداول والفهارس .

فبدأها بجدول المقابلات . اورد فيه عناوين الحكايات جميعها ، وهي تبلغ ١٦٨ عدا ما تداخلها من اخبار ثانوية ، وقابل بين مواقعها في اربع عشرة طبعة وترجمة . وارفق كل ذلك بملحق نشر فيه نصوص المسعودي وابن النديم والمقريزي في كتاب «الف ليلة وليلة» ، ثمّ بمخطّط واسع مثّل فيه نسبة الطول بين ليالي الكتاب وفقاً لطبعة كلكوتا الثانية .

وبعد ان نشر ثبتاً باسماء المراجع والمآخذ البالغة ١٣٠ باللغات العربية ، والفرنسية ، والانكليزية ، والايطالية ، والالمانية ، والروسية ؛ وفهرسين باسماء الاعلام والاماكن ؛ خصَّ بأبطال الف ليلة وليلة وسائر اشخاصها جدولًا مفيدًا جدًّا رتّبه على الابجدية وتتبّع مآثر كلّ منهم في مختلف الحكايات .

هذا عرض سريع لكتاب الاستاذ إليسييف النفيس . وهو في نظرنا اوجز من ان يستوعب خصائصه ، واخصر من ان يحيط بفوائده جميعاً . ولعلّه يدفع بعض ادبائنا الى الاطلاع عليه ، والافادة منه ، والاقتداء به ، فتقلّ في ابحاثنا ودروسنا الاساليب العاطفية ، ونستبدل بها شيئاً من دقة الموضوعية ، وترَصُّن العلم !

الجمال بدمشق

وشهوده في رِحَل الغربيين

بقلم حبيب زيّات

من اللُقط والفرائد التي يعثر عليها المطالع في الكتب البلدانية والمؤلفات الادبية تعداد جانب من خصائص المدن وما اشتهر فيها اثناء حضارتها من الطرائف والصنائع وما انفرد به اهلوها من الاخلاق والطبائع وقل جدًّا ان ترد فيها لُمَع الى ما امتاز به بلد دون آخر من جمال في الخَلق وملاحة في التكوين وجُلُّ ما وقفنا عليه من هذا القبيل وصف البكري بعض سكان افريقية بحسن الصورة كأهل غمارة قال: «لهم شعور يسدلونها كشعور النساء ويتخذونها ضفائر ويطيّبونها ويتعمّمون بها»[1] ووصف في مدينة أَوْدَغَسْت «جواري حسان الوجوه بيض الالوان مُتثنّيات القدود لا تنكسر لهن نهود لطاف الخصور ضخام الارداف واسعات الاكتاف»[2] ونعت اهل البصرة بافريقية بالجمال الفائق والحسن الرائق وانه ليس بارض المغرب اجمل منهن[3] وحكى ابن حوقل مثل ذلك فقال «لهم محاسن في خلقهم قد عمّت نساءهم ورجالهم والغالب عليهم حسن القدود والشطاط واعتدال الخلق وجمال الاطراف»[4]

وألمع القزويني الى حسن اهل فارس وفرغانة وأبهر واصفهان[5] والجبال وجيلان وخراسان وزنجان وساوة[6] ونصّ من مدن الشام على ان اهل دمشق احسن الناس خَلقاً وخُلقاً»[7] وورد في كتابه آثار البلاد المطبوع وصف اهل

١) المُغرِب في ذكر افريقية والمغرب طبعة الجزائر ١٠٢
٢) المغرب في ذكر افريقية والمغرب طبعة الجزائر ١٥٨
٣) 〃 〃 〃 〃 〃 〃 ١١
٤) المسالك والممالك طبعة ليدن ٥٥
٥) عجائب المخلوقات طبعة وستنفلد ١٥٥ و١٥٦ و١٩١ و١٩٦
٦) آثار البلاد طبعة وستنفلد ٢٢٨ ، ٢٢٦ – ٢٢٧ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩
٧) 〃 〃 〃 〃 ١٢٦

حمص « بالجال المفرط » ولكن من راجع الاصل الذي نقل عنه وهو كتاب المسالك والممالك لابن حوقل يتضح له ان كلمة « الجال » مصحفة عن «الخبال» الواردة بمعنى الحماقة في كلام كل من اشار الى خصائص حمص ولما مرّ ابن بطوطة المغربي بشيراز قال : « ليس في الشرق بلدة تداني دمشق في حسن اسواقها وبساتينها وانهارها وحسن صور ساكنيها الا شيراز »[١]

وفي سنة ٢٤٤/٨٥٨ قدم المتوكل العباسي دمشق وعنّ له ان يطوف كنائس الزهاد والموضع المعروف بالفراديس قال ابن حمدون وكان معه : « لم يزل يستقري تلك الكنائس والديارات ويشاهد ما فيها من عجائب الصور ويرى من احداث الرهبان وبنات القسيسين وجوهاً كأنها اقمار على غصون تنثنى في تلك الاروقة والصحون وكلما مرّ بنا شيء منهم يقول لي : ويحك ترى ما نحن فيه ؟ ما شاهدت مثل هذا قط...»[٢] والى هذه الاقمار على الغصون اشار لا شك ابو الفتح محمد بن علي المعروف بابي اللقاء بقوله من ابيات في دير صليبا :

كم رأينا بدرًا به فوق غصن ماس قد علا بشكل كثيبا[٣]

ولا يخفى على احد ما لشهادتي ابن حمدون والمتوكل من القدر والجلالة وهما شهادتا ناظر عياني وخليفة عباسي اعتادا ان يشاهدا في بغداد ام الدنيا وتتنذ وفي قصور الخلافة افتن الحسان وابدع الغلمان وقد اجمعت الشهود غيرهما في الشرق والغرب على نسبة الجال لاهل دمشق وما برحت هذه الصفة ذائعة عنهم مُسلَّماً بها لهم حتى آخر القرن الاخير كما سننقله من الاقوال ولذلك كان يرغب في التزوج بالدمشقيات كل من كان يؤثر الصباحة والدماثة والكياسة من الغرباء. ومن الشهود الذين بلغوا الغاية في الاطراء ابن خروف الاندلسي القائل :

تمتَّعْ من دمشق ومن هواها فان هواءها للنفس قوت
اذا هي لم تَفُتْكَ ولم تَفُتْها فلا تحفل بجنّات تفوت

١) رحلته مطبعة النيل ١ :٢١
٢) الدر الملتقط خزانة بريتش موزيوم Add. 14908 f° 126-127
٣) معجم البلدان ٣ :٦٧٤

لها من كل فاكهة ضروب تنسيها على الناس البخوت
ووشيٌ من طراز الحسن يُطوى ويُنشر والقلوب له تموت
ورضوان وولدان وحور بجميع محاسن الاخلاق أُوتوا
ومن صور الجمال لهم صفات ومن بدع الكمال لهم نعوت

واكثر ما تجيء اوصاف الجمال الغالب على ابناء دمشق في اشعار الشعراء الذين قطنوا الفيحاء او قضوا في ربوعها ورياضها وحدائقها ومتنزهاتها اوقاتاً خالطوا فيها سكانها وجالسوهم على ضفاف الانهار تحت ظلال الاشجار وشهدوا مواسمهم واعيادهم وايام سبوتهم وعاينوا حلقاتهم ومواكبهم في الاسواق وأعجبوا بحليّهم وحُللهم الزاهية من المنسوجات البلدية الموشاة كالشيخ رشيد الدين النابلسي القائل :

حيَّا الحيا جُلِّناتِ الشآيب رياض جلّق ذات الحسن والطيب
نمي التي خُلق الحسن الغريب لها وصاغها الله في احلى الاساليب
وسَلْ فؤادك عن حورٍ ياطنها حور العيون فريدات رعايب
ومن بدائع ولدان تخالهم مثل التماثيل تبدو في المحاريب
ليست دمشق ولا رستاقها بلدًا دمشق أُخت جنان الخلد في الطيب

وبعد ان جعلها اخت الجنة زعم انها

ارض بها وبوُلدها يغني الفتى عن جنة الفردوس والولدان

وأربى عليه نشو الدولة بن تقادة في المبالغة والإغراق فقال :

لا تُسر عقلك يوماً احدًا ليست الجنة الا جلّقا

ومن نعتها ايضاً بالجنة لاجتماع كل ما تشتهيه النفوس فيها الامير سيف الدين علي المُشِدّ في ابياته الآتية :

تأمل دمشق اذا جئتها بعين الرضى لا بعين الغضب
ترى جنةً زُخرفت للورى تروق العيون وتشفي الكرب
بها كل ما تشتهيه النفو سُ ويسبي العقول ويقضي الارب
وحور اللحاظ بها حورها وولدانها المُرد مثل اللُّعب

واكثر بعضهم من ذكر الشموس والبدور والكواكب في آفاقها ومحلاتها فقال ابو سهل عبد بن مُدرك التنوخي :

كأن دمشق افلاك تدور تلوح بها الشموس او البدور

واي محلة قابلت فيها رأيت كواكبًا فيها تسير

ومثله لشهاب الدين فتيان الشاغوري من قصيدة :

فكم بها من شادن تحسده لحسنه البدور في اتساقها
ومن بدور في الخدور لم تزل كواملًا لم تدنُ من محاقها

ولابن ابي أُصيبعة من قصيدة :

دمشق هي النصوى لمن كان قصده يرى كل حسن في البلاد وينتقي
بها الحور والولدان تبدو طوالعًا شموسًا واقمارًا يا حسن رونق

ولعلاء الدين بن رزّيك بن ابيات :

بلدة ما لحسنها قط في الد نيا نظير واين منها النظير
وبآفاقها تنير شموس من وجوه سوافر وبدور

وعلى ذكر الشموس والبدور لا يزال كثيرون يتذكرون البيتين المشهورين المنقوشين في باطن قبة باب البريد قبل ان تهدمها يد الحرق والغباوة وهما :

عرّج ركابك دمشق فانها بلد تذلّ له الاسود وتخضع
ما بين جابيها وباب بريدها شمس تغيب والف بدر يطلع

واكثر ما كانت تطلع هذه البدور والشموس من ابواب دمشق متخطرة في الاسواق ذاهبة جائية كباب البريد وباب جيرون وهما متقابلان قال عرقلة الدمشقي :

قف بجيرون او بباب البريد وتأمل اعطاف بان القدود
تلقَ سمرًا كالسمر في اللون واللين وشبه الشمور في التجعيد
ومن البيض كالمهندة البيض وشبه الخدود في التوريد
وعيونًا كأنهن سهام في قسيّ من الحواجب سود

وللامير بهاء الدين علي بن محمد بن رستم المعروف بابن الساعاتي من جملة ابيات :

وبروحي باب البريد لقد أر سل حسنًا الى القلوب بريدا
ان قلبي المذري اضحى ألوفًا ذا عذار به نفورًا شريدا
وجه البدر في المكانة والحسن كلا النيّرين اضحى بعيدا

وللحاسن الشوّا الحلبي :

قف باعلى جيرون بين الرواقين فقد صار للظباء مرًا

ناقِ سمرًا سلّوا النواظر بيضًا بين بيض هزّوا المعاطف سمرا
فهلال يدنو فيبعث نورًا وغزال يرنو فينفث سحرا
وكثيب يميس منه قضيب مُطلع في حنادس الفرع بدرا

وله ايضاً في هذه القصيدة يذكر باب الفراديس وباب الشاغور وباب البريد :

وتوقف فانظر بباب الفراديـس ظباء من أسد خفّان اخرى
كان عهدي بها نُصان فما با لي اراها تسطو على الصيد قهرا
ثم اياك والعبور على الشا غور واحذر ان ترسل اللحظ شزرا
فبه الظبية التي انبتني نظرًا كان بالفؤاد مُضِرّا
فباب البريد ساعفني الدهـر بقرب فلا عدمت الدهرا
منتني مياه بالوصل حلوًا بعد ما جرّعتني الهجر مرّا

ولتاج الدين الصرخدي يتغزل ببدور جيرون :

سَلِم سلمتَ على سكان جيرون يا راح من مستهام القلب محزون
حيث البدور على مُلد الغصون بدت تختال في غَيد الاعطاف واللين

ونظيره للشيخ نجيب الدين يعقوب بن عبدالله الكندي من قصيدة :

اذ أجتني ثمرات الوصل يانعة او اجتلي اوجه اللذات جذلانا
طلق العنان الى اللذات مبتكرًا .واصلًا بفنا جيرون جيرانا
من كل اغيد احوى الطرف مكتحلا بالسحر يضحي لعقل المرء فتّانا
وكل خود كخوط البان ان خطرت تضحي العيون لها جندًا .واعوانا
هيفاء لفّاء معسول مقبلها حوت به لؤلؤا رطبًا ومرجانا
كالبدر ان سفرت عن وجهها سلبت عقل المحب فيضحي الصب ولهانا

ولمحيي الدين يوسف المعروف بابن زيلاق الموصلي يصف غزلان الميدان الاخضر :

وترى من الغزلان في ميدانها فِرَقًا اسود النيل منها تفرق
من كل وسنان الجفون محبّهُ سهران من كمد عليه مُؤَرَّق
واغن ذو هيف يجز له الصبا غصنًا بأصناف الملاحة مورق

ومثله لشمس الدين بن سباع الصائغ يذكر محاسن الصور في الميدان ووادي الشقراء والشرفين الاعلى والقبلي والقصر الابلق :

والقصر والشرفان والشقراء والميـدان عشقٌ للذي لا يعشق

فلكم حوت تلك المنازل صورة فيها الجمال مجمع ومفرق
أخضب وموزّر وممسم ومزنر ومبرقع ومنرطق
كم من غزال بالنفوس متوج وقضيب بان بالعيون ممنطق

ولشهاب الدين التلعفري في مرا وغزلان قاسيون جبل الصالحية :

ولا تعدّى الربى من قاسيون حيًا يبيد فوق الصياصي منه غدرانا
جوّ اذا ما جرت خيل اللحاظ به الفيت فيه لطرف الطرف ميدانا
ومسرح اي عين باشرته رأت في ساحتيه بها عينًا وغزلانا
من كل اهيف مثل الرمح معتدل سنانه ناظر ما زال وسنانا
وكل مُونسة منها ومائسة عزّت فلا شيء الا عندها هانا
كالسمهريّ اذا هزّت معاطفها قدًّا وكالصارم المصقول اجفانا
تفترّ عن اشنب عذب مُقبّله يريك منظومه درًّا ومرجانا

ولمهذّب الدين ابي نصر محمد بن برهان الحلبي يخاطب دمشق ويتشوق الى حسان ربوتها :

كم لي بربوتك المبين زلالها ودباك من يوم اغرّ محجّل
مع كل كحلاء الجفون غريرة واغنّ مصقول العوارض اكحل
ما بلبل الصدغين من تيه الصبا الا انثنيتُ مُبَلبَلًا بمُبلبل
ارخى الظلام على الصباح صباحة وثنى القضيب على الكثيب الاهيل
فبوجهه المشوق احسن روضة وبثغره المعسول احسن منهل
فكأنه الغصن النضير لمجتنٍ وكأنه البدر المنير لمجتلي

وللشيخ امين الدين علي السلياني في بدور الجواسق والقصور :

انظر دمشق مسارح الغزلان ومغارس القضبان في الكثبان
وجواسق مثل القصور يجوّها ما شئت من حور ومن ولدان
من كل مُخطَفة القوام اذا انثنت حسدت معاطفها غصون البان
بكر تلوح كدرّة صدفيّة قد قلّدت من انجم بجمان
عجبًا للؤلؤ ثغرها وصغاره ابدًا تباع باوفر الاثمان
ومنطق يسبي العقول اذا بدا فكأنه قد فرّ من رضوان
شخصت له الابصار اعجابًا به فكأنها خُلقت بلا اجفان

ونظيره لمحاسن الشوّا وهم يسمّون احيانًا بعض الجواسق الصغيرة المطلّة على الانهار « غُرَفًا »

بين ثورا ويزيد غُرف ودّ طرفي لو وقاها بالجفون

بُنيت بين قطوف قد دنت فوق انهار جوارٍ وعيون
وبدَت في ذراها غلمة خلقوا من بشر الدر الثمين
كل سهل الخلق ممشوق الحشا بابليّ الطرف وضّاح الجبين
اشبه البدر سناء وسنىً وحكى الذابل في لون ولين

وقد لا تخلو مثل هذه الاوصاف الشعرية من الاطناب والغلوّ وهما من لوازم النظم العربي ولكن لدينا من شهادات السفّارة الاوروبيين وهم غرباء لا ضلع لهم ولا هوى ما يصحّح نسبة الجمال في الاعم الاغلب لمواليد دمشق وقد اقتبسنا من رحلاتهم نبذاً رأينا فيها الكفاية والغناء. وبعض الطرفة والنكتة وهي متأخرة عن عهد الشعراء المشار اليهم آنفاً وتصلح من ثم ان يُحتج بها لاثبات اتصال مزية الصباحة ودوام الحسن والملاحة في مدينة الفراديس حتى بعد ان انتزع منها تيمورلنك سنة ١٤٠٠ اجمل نسائها وفتيانها واحذق صناعها[١] وقد سردنا اقوال الزوّار الغربيين بحسب تواريخها منذ القرن السابع عشر :

— سنة ١٦٣٠ — ١٦٣٢ :

« الرجال بدمشق هم اقرب الى الطول والنساء غاية في الجمال »[٢]

— سنة ١٦٦٠ :

« اهل دمشق في الاجمال حسان بيض الالوان مع ملاحة في التكوين ويغلب عليهم الذكاء ودقة الفهم والحذق والخداع ولكنهم على غاية من الادب مع من يحسن معاشرتهم »[٣]

— سنة ١٦٧٠ :

« يعتقد المسلمون واليهود ان جنة الارض هي دمشق لبهجتها وخصب ارضها ورونق كل ما ينبت فيها ويرون ان كل ما يجيء فيها هو اكمل وافضل مما في غيرها من سائر البلاد حتى سكانها انفسهم لان الرجال منهم اعدل قامة واتم خلقاً من سواهم عادة وفي النساء جمال رائع والخيل فيها خالية من كل عيب »[٤]

— سنة ١٧٣٧ :

« لاهل دمشق طبيعة في الذكاء ولهم في مقتبل العمر حسن عجيب ولكنه لا يلبث ان

---

١) عقد الجمان لبدر الدين محمود العيني . باريس ١٥٦٦ ص ٤٣
2) Fermanel : *Voyage d'Italie et du Levant.* Rouen 1664 p. 313
3) *Mémoires du Chevalier d'Arvieux.* Paris 1735 t II, p. 463
4) Stochove : *Voyage d'Italie et du Levant.* Rouen 1670, p. 312-321

بزول متى بلغوا الكهولة لسوء تأثير الحرّ فيهم وتعاطيهم بعض المنكرات وكثرة استحمامهم وقبح لحامٍ »(١

— سنة ١٧٨٧ :

« يُبالَغ في وصف صباحة نساء دمشق وطرابلس لبياض بشرتهنّ وحسن خلقهنّ ولكن لا سبيل الى تحقق هذه الشهرة لان النقاب الذي يستترن به عادة لا يمكّن احداً من النظر اليهنّ »(٢

— سنة ١٧٩٧ :

« للنساء والاولاد بدمشق طلعة غرّاء لوضاءة اللون وحسن الملامح وتكاد تكون ملابس النساء كالتي تُشاهد في القسطنطينية »(٣

— سنة ١٨٠٣ — ١٨٠٧ :

« كثيرات من نساء دمشق يسترن رأسهنّ ووجههنّ بالنقاب كنساء المغرب ولكنهنّ يضمّنّ هذا القناع ويرفعْنهُ متى شئن ولذلك تيسّر لي ان اتحقق عياناً ان نساء دمشق بالاجمال جميلات وان بينهنّ ذوات حسن فائق والغالب عليهنّ بياض البشرة ونعومتها وزهاء اللون واليوم مزاجهنّ الدموي هو خير مما كان قبلًا فلا يُشاهد بينهنّ صُفر الابدان كما في اندلس وجزيرة العرب ولا شديدات السمرة المُشربة بالسواد كنَوَر افريقية وليس في اولادهنّ من هو قذر اعمش العين كاولاد الاسكندرية وسائر بلاد الاسلام ولا يُرى بين الرجال من هو قضيف ناحل او اصحم اقتم كالمغاربة والعرب بل من النساء والاولاد من يشبه حور الجنة وولدانها والرجال شديدو البنية وضيئو الطلعة متناسبو الاعضاء وبالاجمال اقوياء ناصعو البياض »(٤

وهذه الشهادة هي لرحّالة اسبانيولي دان بالاسلام وتسمى باسم علي بك العباسي وقد ذكرنا بذيله اسمه قبل اسلامه وعنوان رحلته الى افريقية وآسية.

— سنة ١٨٠٩ :

« جمال نساء دمشق وفتياتها الارمنيات لا تقع العين على مثله بل يفوق كل تصوّر فهو الجمال المُتمنّى الذي يعجز القلم عن تمثيله والنساء في هذه المدينة يحفظن طويلًا نضارتهنّ

1) *Voyage de Richard Pocoke*. Paris, 1772, t. III,. p. 369

2) Volney : *Voyage en Syrie et en Egypte*. Paris, 1787 t. I, p. 329

3) W. G. Browne. *Nouveau voyage dans la haute et basse Egypte, la Syrie, le Darfour*, traduit par J. Castéra. Paris, 1800, p. 234

4) Badia y Leyblich Domingo : *Les voyages d'Ali Bey el-Abbassi en Afrique et en Asie*. Paris, 1814 t. III p. 2-43

وربّ أم تُرى نظيرة لابنتها في الحسن مع انها لم تتجاوز خمس عشرة سنة وهنّ يتزوجن بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر.»(١

وسيرد مثل هذا الوصف في كلام لامرتين الآتي ويكاد يكون بلفظهِ وقد استمدّه لا شك من شهادة روسّو المتقدمة لانه متأخر عنه وقلّده في حكمه وفي غلطه ايضاً لانه توهم ان ما شاهده مرة في البيت الواحد كان عاماً في سائر البيوت. واذا كانت بعض الأُسر الارمنية المعدودة بدمشق قد لا تخلو من بنات بارعات في الجمال فلم يكنّ في كل حال الا قلائل جدًا بالنسبة الى فتيات الروم الملكيين ومما يدل على غلطه انه زعمَ ان الارمن يبلغون ثلاثين الفاً وهو عدد محال يوشك ان يتجاوز مجموع كل النصارى في المدينة من كل النِّحَل والمِلَل ولعل الغرباء وقتئذٍ لم يكونوا يزيدون على الف نفس بين ارمن وسريان وقد زار لامرتين اكثر البيوت المسيحية صحبة بودان خليفة القنصل الفرنسي وقتئذٍ وسمعنا قديماً ممن ادرك بودان وعرفه انه لم يتعدَّ في الاعم الاغلب دور اماثل الروم الملكيين كما تقرَّر ذلك في حضرة المسيو سائوا قنصل فرنسة وان صفة الارمنيات في كلام لامرتين مغلوطة يجب ان تصحَّح بلفظة « الروميات » طبقاً للحقيقة . وهذا نصّ شهادة لامرتين وهي تكاد تكون شعرًا لا يخلو من الاطناب في الوصف والاطراء .

— سنة ١٨٣٣ :

« مهما كنت انصور مبلغ جمال السوريات ومهما تذكرت صباحة نساء رومة واثينة فان منظر النساء والفتيات الارمنيات (يريد الروميات) بدمشق يفوق كل توهم وتذكر وقد شاهدنا في كل مكان تقريباً وجوهاً لم يتخيّل قط المصوّر الاروبي شبيهاً لها وعيوناً يتجلّى فيها نور النفس في لون لازوردي تنبعث منه اشعة كأنها الخمائل الغضّة لم ارَ في حياتي اشد توقدًا منها في عيني امرأة قط وتريها بلامح غاية في الرقة والصفاء تعجز احذق الايدي والطفها عن محاكاتها وتشفّ عنها بَشَرة ناعمة بهية تتضاءل عندها ازهى الوان الورد وتقصر عن ادراك نضارتها ورونقها وترين كل فم ثنايا عِذاب يحلوُ فيها التبسم والنطق ويتردد من خلالها صوت رقيق شجٍ يرنّ صداه رنين الفضة بحيث تكامل الحسن فيها وتعادلت النِّسب والمزايا فاذا تحدّثنَ نطقن بكل وقار ولطف بغير ارتباك كأنهنّ أَلِفنَ إعجاب الابصار

(١ Edme Rousseau : *Voyage en Syrie et Palestine.* Limoges 1864 p. 30

جن ولذلك قلما يفارقهن الجمال في مثل هذه البيئة التي تصون المحاسن وفي مثل حياتهن البيتية حيث تسود الراحة والسلامة بمعزل عن الاهواء والشهوات التي تفسد النفوس والاجساد وكنت في كل منزل زرته أكاد ارى الأم جميلة في مثل جمال بناتها لان الفتيات يتزوجن بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر ويلوح للناظر كأنهنّ بلغن الخامسة عشرة او السادسة عشرة.

ولهن زيّ عجيب جامع بين اللباقة والرصانة مما لا يُشاهد مثله في سائر الشرق فيبقى الرأس حاسرًا تكلله الضفائر الطوال دائرة به مزدانة بالازهار ثم تتدلى من جهتي العنق ساقطة فوق العاتق المكشوف وقد رُصع الشعر بقطع من النقود الذهبية واسلاك من اللؤلؤ تعلو قلّته طاسة من الذهب المنقوش ويلوح الصدر من تحت معطف قصير من الوشي المثقل بالفضة او الذهب في كمّين طويلين منفرجين فوق سراويل واسع ابيض مثنى يكسو الساق حتى القدم وفي الرجل العارية خف من الجلد الاصفر وفوق كل ذلك ثوب من الحرير الفاخر يغشى الجسم من الاكتاف مفتوحًا فوق الثديين ومقدّم السراويل معقودًا في الخصر بزنار يتساقط طرفاه الى الارض بحيث كنت لا استطيع ان اصرف نظري لحظة عن مثل هؤلاء النساء الفاتنات ويلذ لي إطالة الزيارة لهن والتحدّث اليهن وقد اجتمع فيهن الحسن واللطف وكان الحديث يدور في الغالب على مصطلحات اوربة وازيائها وعادات النساء الغربيات ولم يبدُ لي قط انهن كنّ يغبطن نساءنا او يحسدنهنّ على شيء ومن جالس مثل هؤلاء الحسان وأُعجب بظرفهنّ ومنطقهنّ وادبهنّ الغريزي وما اتّصفن به من المجاملة وسلامة القلب والنفس التي تُحفظ دائمًا في المعيشة الاهلية يتبين له انهن غنيات عن كل حسد لنسائنا المدنيات اللواتي يعرفن كل شيء خلا ما يقيم سعادة أسرتهن ويتلفن في سنوات قلائل نفوسهن وجمالهن واعمارهن بين ضجيج محافلنا واضطراباتها(١).

— سنة ١٨٣٣ :

« نساء دمشق قصار ولكنهن فائقات الحسن ولهنّ شعور فاحمة لامعة والوان مشرقة وعيون فتّانة تبهر الناظر فلا يستطيع اتّقاء سحرها دون ان يصيبه منها سهم لا يخطئ ومع انها سود في الغالب فهي تكون كثيرًا زرقًا مشبعة اللون ولكنها ليست كما في نواحينا الشمالية حيث تدل العيون السود والشعور الفاحمة في النساء السُمر على مزاج سقيم فاتر بل هي هنا مضطرمة بحر الشمس فتكاد تلتهب منطقًا وشوقًا . . .

ورأينا في احد البيوت ثمانيًا من هؤلاء الحسان اجتمعن في انتظارنا وكان الراهب قد انبأهنّ قبلًا فلما ولجنا الدار وجدناهن يدفقن الماء لغسل البلاط ويترششن به فلما شاهدننا توقفنَ وافلتنَ الى الحريم ضاحكات وذهب الاب مانويل فبقيت وحدي ذاهبًا جائيًا حول ثلاثة دواوين وعلى احدها فتاة حسناء تناهز السادسة عشرة من العمر وهي مستلقية على مخادّ القيلولة ملتحفة بشال كشمير وعلى صدرها الابيض كالثلج رضيع يغتذي بلبانها وهي مستغرقة في النوم هنيئًا كالاطفال دون اقل هم بحيث كان من الظلم ايقاظها ورجوعها الى عالم الوجود . . .

(١ Voyage en Orient par A. de Lamartine t. II Paris 1875 p. 5-6

« وشاهدنا في دار اخرى قبل انها ابدع دار في محلة المسيحيين فتاتين لرب البيت غاية في الجمال المفرط ولها شعر اسود فاحم متدلٍّ على الخصر يغطي عاتقها الايض كالورس وهو يتألق تألق زهر الخزامى او السوسن ولها عينان زرقاوان نجلاوان فاترتان واشد زرقة من الفيروزج واضوأ من جوهر جمشيد تريدان في رونق لونها الصافي كالأثير ولو قيس الجلّنار لى حمرة خدودهنّ لكان اقل إشراقا »(١.

واغرب ما في هذا الوصف المُثقل إعجاباً المتّقد غراماً انه لقس انكليزي

— سنة ١٨٤٩ :

« نساء دمشق لهنّ بَشَرات بيض وعيون ملاح وهنّ في غاية من اللطف رافقت الطبيب في عدة زيارات لبعض المسيحيات فكنّ يستقبلننا ببشاشة طبيعية وترحيب لا نظير له اليوم الا في الاندلس وهو خير من التكلف والانقباض الشائعين عندنا وكنّ يبتدرن تقديم القهوة لنا والنليون بعد إشمالها»(٢.

— سنة ١٨٨٣ :

« لاهل دمشق امتياز على سواهم بحسن الملامح وملاحة التكوين وإشراق الدم وبياض اللون والحسن شائع في اكثر الدمشقيات ، ومن الغريب انهنّ يلتحفن بازار ابيض يطوّقن به وجوههنّ وتبقى لهن مشية رشيقة وقامة هيفاء الى سنّ العشرين ولكن ينلب عليهنّ بعد ذلك السمن فيزددن أثرة وحبّاً عند المسلمين لانهم يعدّون امتلاء البدن من اظهر آيات الجمال(٣ وهو غاية مشتهاهم»(٤.

ونقف عند هذا الحد من الاقتباس والاستدلال ونختم هذه الشواهد بوصف مجلة البيان اهل دمشق في عهدها قالت :

— سنة ١٨٩٧ :

« ترى سيماء النجابة واثار الترف والنعيم بادية على سحناتهم وديباجاتهم كأن نضارة بلادهم تبارت مع غضارة عيشهم فنبتا بها الاستعداد الطبيعي لقبول انبساط النفس على اتم

(١ A Summer Ramble in Syria... by the Rev. vere Monro. London 1835 p. 76-81

(٢ Comte Ch. de Pardieu : Excursion en Orient. Paris 1851 p. 349

(٣ ذكر القلقشندي في صبح الاعشى ما يختص به النساء فقال : « وربما يتفرد به النساء من الاوصاف الجسمية السمن فهو امر مطلوب في المرأة ما لم يفرط ويخرج عن الحد المطلوب ففي الصحيحين من حديث ام زرع : « بنت ابي زرع وما بنت ابي زرع ؟ ملء كسائها وغيظ جارتها » اشارة الى امتلائها بالشحم (٢ : ١٢)

(٤ Baron Ludovice de Vaux : la Palestine. Paris 1883 p. 402

صورة ولذلك كان الدمشقيون حسان الخَلق لوضح البياض المُشرب بحمرة رؤوسهم الى الشكل المستدير وعيونهم نُجل سود طويلة الهدب وافواههم صغيرة وشفاههم رقيقة واسنانهم صلبة قوية ناصعة البياض وقدودهم رَبعة الى السمن مترهّلة العضل غالباً ومزاجهم دموي بلغمي واخلاقهم على جانب من اللطف والدماثة والكياسة واللين والموادعة ويغلب عليهم حب اللذات والتأنق بالمطعم والملبس » (ص ٤٦٢ — ٤٦٣).

ومن تأمل هذا الوصف الاخير الشاهد للدمشقيين « باللطف والدماثة والكياسة واللين » لا يسعه الا ان يتذكر بضده دعوى المطران جرمانس فرحات الحلبي حين زار دمشق وعاد منها مغيظاً حَنِقاً لاسباب ليس هنا محل ايرادها فبدا له ان يهجوها كمن هجا الورد فقال من قصيدة لهُ :

وكأنني حلب برقة طبعها   وكأن طبعك في الغلاظة جلق

اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق لسنة ١٩٥٠

١ الاستاذ محمد كرد علي (رئيس) دمشق
٢ الدكتور اسعد الحكيم 〃
٣ الامير جعفر الحسني 〃
٤ الدكتور جميل صليبا 〃
٥ 〃 حسني سبح 〃
٦ الاستاذ خليل مردم بك
(امين السر العام) 〃
٧ الاستاذ سليم الجندي 〃
٨ 〃 شفيق جبري 〃
٩ 〃 عارف النكدي 〃
١٠ الشيخ عبد القادر المغربي
(نائب الرئيس) 〃
١١ الاستاذ عز الدين التنوخي 〃
١٢ 〃 فارس الخوري 〃
١٣ السيد محسن الامين 〃
١٤ الاستاذ محمد البزم 〃
١٥ الشيخ محمد بهجة البيطار 〃
١٦ الدكتور مرشد خاطر 〃
١٧ الامير مصطفى الشهابي 〃
١٨ الدكتور منير العجلاني 〃
١٩ الاستاذ هنري لاوست 〃
٢٠ الشيخ راغب الطباخ حلب
٢١ 〃 عبد الحميد الجابري 〃
٢٢ 〃 〃 〃 الكيالي 〃
٢٣ الدكتور عبد الرحمن الكيالي 〃
٢٤ الاستاذ عمر ابو ريشه 〃
٢٥ الشيخ محمد زين العابدين 〃
٢٦ البطريرك مار اغناطيوس افرام حمص
٢٧ الاستاذ محمد سليمان الاحمد
(بدوي الجبل) اللاذقية
٢٨ الشيخ سعيد العرفي دير الزور
٢٩ 〃 ابرهيم المنذر بيروت
٣٠ الاستاذ انيس المقدسي 〃
٣١ 〃 بشاره الخوري 〃
٣٢ الدكتور صبحي المحمصاني 〃
٣٣ الدكتور عمر فروخ 〃
٣٤ الشيخ فؤاد الخطيب 〃
٣٥ الفيكونت فيليب دي طرازي 〃
٣٦ الدكتور نقولا فياض 〃
٣٧ الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف زحلة
٣٨ الشيخ احمد رضا 〃 جبل عاملة
٣٩ 〃 سليمان ظاهر 〃
٤٠ الاب ا. س. مرمرجي الدومنكي القدس
٤١ محمد الشريقي باشا عمان
٤٢ الشيخ رضا الشبيبي بغداد
٤٣ طه باشا الهاشمي 〃
٤٤ الاستاذ عباس العزاوي 〃
٤٥ الشيخ كاظم الدجيلي 〃
٤٦ 〃 محمد بهجة الاثري 〃
٤٧ الدكتور مصطفى جواد 〃
٤٨ الاستاذ احمد حامد الصراف 〃
٤٩ 〃 كوركيس عواد 〃
٥٠ الدكتور داود الجلبي الموصل
٥١ احمد امين بك القاهرة

٥٢	الاستاذ احمد حسن الزيات	القاهرة
٥٣	الدكتور احمد زكي بك	〃
٥٤	احمد لطفي السيد باشا	〃
٥٥	الاستاذ خليل ثابت	〃
٥٦	〃 خير الدين الزركلي	〃
٥٧	الدكتور طه حسين بك	〃
٥٨	الاستاذ عباس محمود العقاد	〃
٥٩	الدكتور عبد الوهاب عزام	〃
٦٠	الشيخ محمد الخضر حسين	〃
٦١	الاستاذ محمد لطفي جمعة	〃
٦٢	الامير يوسف كمال	〃
٦٣	الاستاذ عبد الحميد العبادي	الاسكندرية
٦٤	حسن حسني عبد الوهاب باشا	تونس
٦٥	الاستاذ مارسه	〃
٦٦	〃 عبد الحي الكتاني	فاس
٦٧	〃 محمد الحجوي	مراكش
٦٨	〃 عبد اقبال	طهران
٦٩	〃 عبد العزيز الميمني الراجكوتي	عليكر
٧٠	الاستاذ كي	بوليڤيا
٧١	〃 ماسه	باريس
٧٢	الاستاذ دوسو	باريس
٧٣	〃 كولان	〃
٧٤	〃 ماسينيون	〃
٧٥	〃 هيس	سويسرا – زوريخ
٧٦	〃 كرينكو	كمبردج
٧٧	〃 ا. ج. اربري	〃
٧٨	〃 هـ. ا. ر. جيب	اكسفرد
٧٩	〃 الفرد غليوم	لندن
٨٠	〃 اميليو غارسيا غومز	مدريد
٨١	〃 فرنسيسكو جبريالي	روما
٨٢	〃 بروكلمن	المانيا
٨٣	〃 هارتمان (ريشار)	برلين
٨٤	〃 هـ. ريتر	فرنكفورت
٨٥	〃 ستر ستين	السويد – اوبسالا
٨٦	〃 استروب	الدانيمارك
٨٧	〃 موجيك	ڤينا
٨٨	〃 ماهلر	بودابست
٨٩	〃 كراتشكوفسكي	لينغراد
٩٠	〃 كرنيكو	فنلاندة
٩١	〃 فيليب حتي	اميركا – برنستون
٩٢	〃 سعيد ابو جمرة	البرازيل

نقلاً عن مجلة المجمع في جزئها الاول لسنة ١٩٥٠

المشرق

مجلة كاثوليكية شرقية

تبحث في الادب والعلم والفن

تصدر اربعة اجزاء في السنة ، فتؤلف مجلدًا ذا ٦٥٠ صفحة

مزدانًا بالصور والخرائط والفهارس

بادارة آباء جامعة القديس يوسف

بدل الاشتراك عن السنة الواحدة :		
في لبنان	. . . .	٨٠٠ غرش لبناني
في الخارج	. . . .	١٠٠٠ غرش لبناني

من ابحاث المشرق المقبلة

سننشر في « المشرق » المقبل لسنة ١٩٥٠ كتاب العلامة الدويهي النفيس الموسوم بـ« تاريخ الازمنة » الذي حققه وعارض اهم مخطوطاته بعضها ببعض وعلّق عليه الاب فردينان توتل اليسوعي · وهي مساهمة جليلة في خدمة تاريخ الشرق الاوسط استحق الشكر عليها لا سيا وقد جاءت موافقة لاحتفال جامعة القديس يوسف بيوبيلها بمناسبة العام الخامس والسبعين لتأسيسها ·